

جَهَادُ النِّفْسِ

تأليف
الأستاذ مظاهري



دار الشؤون الإسلامية

دار الأئمة البصائر

جَهَادُ النَّفْسِ

تأليف
الأستاذ مظاهري

ترجمة
نجاة الهدى

دار الشؤون الإسلامية

دار المحجة البيضاء

حقوق الطبع محفوظة:

الطبعة الأولى

١٤١٣ هـ - ١٩٩٣ م



دار المدينة البيضاء، للطباعة والنشر والتوزيع - بيروت - لبنان ص.ب: ١٤/٥٤٧٩



مكتبة نرجس PDF

www.narjes-library.blogspot.com

التربية والتعليم

بسم الله الرحمن الرحيم
﴿ قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي ، وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي ، وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي ، يَفْقَهُوا قَوْلِي ﴾^(١) .

إن عملكم ودوركم في المجتمع أيها المعلمون الأعزاء يرضي الله ، إذ يعتبر القرآن الكريم عملكم عمل الله ودوركم بإذن الله أيضاً ، حيث تشير أول سورة نزلت على النبي الكريم (ص) إلى هذه الحقيقة :

﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ، إقرأ باسم ربك الذي خلق ، خلق الإنسان من علق ، إقرأ وربك الأكرم ، الذي علّم بالقلم ، علّم الإنسان ما لم يعلم ﴾^(٢) .

في هذه السورة المباركة ، يورد القرآن إحدى صفات الله ، وهذه الصفة هي التعليم ، أي نفس العمل الذي تقومون به ﴿ علّم بالقلم ، علّم الإنسان ما لم يعلم ﴾ .

إنّ هذا العمل بأمر الله ومن أولى الصفات التي وردت في القرآن باعتبارها ميزة للنبي الأكرم (ص) ، ومن هنا يظهر أن صفة التعليم هي أفضل صفات الله .

(١) سورة طه ، الآيات : ٢٤ - ٢٨ .

(٢) سورة العلق ، الآيات : ١ - ٥ .

إن عملكم ودوركم في المجتمع ، عمل الأنبياء ووظيفتهم حيث نقرأ في آيات كثيرة من بينها سورة الجمعة :

﴿ هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾ (١) .

لماذا بُعث النبي ؟ لقد بُعث النبي بمعجزة ، أي أنه جاء بالقرآن .

لماذا بُعث ؟ ولماذا جاء بالقرآن ؟ هل كانت البعثة النبوية ونزول القرآن من أجل التعليم والتربية ، أم من أجل التربية والتعليم ؟ .

هذه الآية التي تكررت في القرآن الكريم تقول : عملكم هو عمل النبي (ص) ودوركم في المجتمع يشبه وظيفة الأنبياء (ع) .

﴿ وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا ﴾ (٢) فحسب التفسير المنقول عن الإمام الصادق (ع) أن هذه الآية تعني أنه لو استطاع شخص ما أن يهدي شاباً وأن يُخرجه من الضلال إلى الصراط المستقيم ، ثم يصنع منه إنساناً ، فكأنما أحيا الدنيا كلها . ولو شاهدتم طفلاً صغيراً يحتضر ، ونقلتموه بواسطة المركبة التي بحوزتكم إلى المستشفى ثم تحسنت صحته ، ستشعرون بارتياح بالغ في ضميركم والناس سيكرمونكم ، ويشجعونكم كما أنكم ستحزرون مكانة عظيمة عند الباري عز وجل ، لأنكم تمكنتم من إنقاذ طفلٍ من الموت .

فالقرآن يبين أنه لو استطعت أن تحيي طفلاً من الناحية المعنوية ، وأن تهدي شخصاً ما إلى الصراط المستقيم ، وباختصار لو استطعت أن تصنع إنساناً ، فإن ثواب ذلك ليس إحياء شخص واحد فحسب ، بل كأنك أحيت الناس جميعاً . مثلاً ، إذا كان عدد سكان الأرض أربعة مليارات ، وكان بإمكانكم أن تُربوا إنساناً واحداً فكأنكم أحيتم ثلاث مليارات من السكان المحتضرين . أي أجر في الإسلام يمكن أن يكون أفضل من هذا ؟ إن القرآن هو الذي حدّد لكم هذا الأجر .

(١) سورة الجمعة ، الآية : ٢ .

(٢) سورة المائدة ، الآية : ٣٢ .

في حرب خيبر ، كان الموقف حساساً جداً ، وذلك أن المسلمين هُزموا في اليوم الأول ، كما هُزموا في اليومين الثاني والثالث ، واستشرت حالة الهزيمة بين المسلمين وهبطت المعنويات بينما استقرت معنويات الأعداء ، وأصبح الإسلام في خطر . وعندما حان المساء أخبرهم النبي (ص) أنه سيعطي الراية غداً لشخص يحبه الله ورسوله ويحب الله ورسوله - ومن هنا أرجو أن تقرأوا التاريخ كي تستوعبوا دروسه وخصوصياته - وفي صباح اليوم التالي شعر أمير المؤمنين (ع) بألم في عينيه ، فاستدعاه النبي (ص) وداوى عينيه بمعجزة حيث مسح عيني علي (ع) بماء فمه ، فبرأت عيناه وسلمه الراية ، وكان الموقف حساساً جداً . أمير المؤمنين على أهة الاستعداد للدخول في ساحة الحرب حينذاك ، حيث يريد النبي (ص) - وهو الرجل الأول في الإسلام - أن يقول جملة للرجل الثاني في الإسلام - علي (ع) - ينبغي أن تكون في مستوى الموقف . فعندما يريد رئيس ديني أن يقول جملة لشخص - سوف يصبح قائداً فيما بعد - هذه الجملة ينبغي أن تكون بحجم الموقف وأمير المؤمنين (ع) راكب ، والنبي الأكرم (ص) راجل ، والراية بيد علي (ع) ، والجيش يستعد للدخول في ساحة الوغى ، والجملة التي قالها النبي الأكرم (ص) آنذاك خير شاهد لما أريد قوله وهي :

« لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خير لك مما طلعت عليه الشمس »^(١) .

يا علي ، إن ما تنوي القيام به مهم جداً ، لأنك تريد أن تحيي الإسلام ، ولكن ينبغي أن أخبرك أن هناك ما هو أهم ، وهو أن تهدي شخصاً ما وأن تصنع إنساناً ، إن استطعت أن تربي إنساناً مسلماً وتقدمه إلى المجتمع ، فإن ثواب ذلك ليس أكثر من هذه الحرب فحسب ، بل « خير لك مما طلعت عليه الشمس » أي إن أجر ذلك أكبر من الدنيا وما فيها .

هذا من ناحية الثواب ، فإن عملكم يحظى بهذا القدر من الثواب . أما من ناحية القيمة ، أنتم الذين تستطيعون أن تبطلوا مفعول قانون الوراثة ، والبيثة ، بل أن تبطلوا قانون التغذية والتربية الأسرية .

(١) شرح نهج البلاغة ابن أبي الحديد ، ج ٤ ص ١٣ - ١٤ .

كما تعلمون ، فإن قانون الوراثة هام جداً ، بمعنى أن الصفات الظاهرية ، والصفات المعنوية للوالدين تنتقل عبر الجينات إلى الأولاد . فالأب المتكبر يكون ولده وبناته متكبرين ، وغالباً ما يكونون هكذا ، أولاد الإنسان الأناني يكونون مثله في الغالب . هذا هو قانون الوراثة ، الذي يُقرّه الإسلام أيضاً .

تعلمون أن علماء النفس والأطباء النفسانيين تحدثوا كثيراً عن هذا القانون ، كما أنّ التجارب أثبتت صحة قانون الوراثة ، وإذا لم يلتزم الآباء والأمهات بالإجراءات الوقائية ، فإن مضاعفاته كبيرة وخطيرة جداً ، والعكس أيضاً صحيح ، بمعنى أنه إذا كان للآب صفات جيدة فستنتقل عادة إلى الأولاد . وإذا كانت الأم تحمل صفات جيدة فستنتقل عادة إلى الأولاد .

كما في العبارة : « الشقي من شقي في بطن أمه »^(١) .

البعض يتصور أن هذه العبارة تعني الجبر ، حيث يفسرها بشكل بعيد عن الواقع . طبعاً هذه العبارة لا تعني ذلك ولكنها إشارة إلى قانون الوراثة بالذات . إنها تعني بأن عليك أن تعلم أنت أيها الأب وأنت أيها الأم ، بأنكما توقرا الأرضية اللازمة لسعادة طفلكما أو شقائه وهذا هو قانون الوراثة .

إن قانون التربية الأسرية له تأثير كبير أيضاً . فلو نشأ طفل في عائلته ، فمن المستبعد ألا يكون لحن صوته وطريقه كلامه شبيهين بهما عند الأب والأم كما في العادة ، وقانون التربية الأسرية كقانون الوراثة ، قانون عجيب يهيء الأرضية لسعادة الأولاد أو شقائهم .

أما حول قانون البيئة ، فعندما يكون أحد في بيئة ما فكأنه يسبح في مياه جارية بقوة . إذا أراد أن يتحرك بخلاف حركة التيار ، فسواجبه صعوبات جمّة ، وإذا كان سباحاً قد يتمكن من العوم ، ولكن بصعوبة بالغة ، وعادة يجرفه التيار أينما ذهب . لذلك فالبيئة تؤثر في التربية وبالأخص لها تأثير كبير على الأطفال .

القانون الآخر هو قانون التغذية . إنكم تعلمون أن علماء النفس تحدثوا

(١) سفينة البحار ، ج ١ شفي .

بإسهاب حول الغذاء ، وهم يعتقدون بأن نوعية الغذاء لها تأثير كبير على جمال الأطفال .

عندما تكون الأم حاملة فإنَّ الإسلام يأمرها بعدم تناول الأطعمة المشبهة ، وفي المقابل عليها أن تكثر من تناول الفواكه الطازجة ، كالفراجل والتفاح . . الخ ، لأنها تؤثر على جمال الطفل ، وتطبق نفس القاعدة على حليبها . . لو تناولت الأم أطعمة طازجة ولذيذة ، فإن ذلك له تأثير على جمال الطفل . الأطعمة الحرام أيضاً تؤثر سلباً ، ولكن علماء النفس لا يعرفون ذلك ، علينا أن نأخذ هذه الأمور من الإسلام . الأطعمة الحرام لها تأثير كبير في شقاء الطفل ، والأغذية المشبهة بها تؤثر في شقاء الطفل - أيضاً . - كما أن الطعام الطاهر والحلال يؤثر منذ انعقاد النطفة حتى سن الرشد .

هذه وجهة نظر الشارع الإسلامي ، طبيعي كلكم تعلمون أن هذه القوانين الأربعة (التي يكفي واحد منها لتوفير أرضية سعادة الأولاد أو شقائهم ، فكيف إذا اجتمعت كلها ؟ فسيكون لها حتماً تأثير بالغ على التربية) .

ولكن ما يعنيننا الآن هو أنه هناك أشياء عديدة يمكنها أن تبطل مفعول هذه القوانين الأربعة ، أقصد أنكم أنتم المعلمون لا سواكم ، تستطيعون إبطال مفعول جميع هذه القوانين ، وهذه قيمة عملكم .

قدّم عمر بن عبد العزيز أحد الخلفاء الأمويين ، خدمات كثيرة لمحبي أهل بيت الرسول (ص) خلال فترة خلافته القصيرة ، إذ أفلح في تجسيد العدالة الاجتماعية في الإسلام . حتى أن المؤرخين يذكرون بأنه في فترة خلافته القصيرة الأمد لم يكن هناك فقير واحد في المجتمع الإسلامي . بحيث كانوا يكتبون له بأن ليس عندنا فقراء ، فماذا نفعل ببيت المال ؟ فكان يصدر أوامره بشراء العبيد وإطلاق سراحهم .

لقد جسّد بحق العدالة الاجتماعية والمدرسة الاقتصادية في الإسلام . ومن الناحية التاريخية يجب أن نقول إنه كان رجلاً طيباً ، رغم اغتصابه الخلافة ، لكنه خدم محبي الرسول وأهل بيته (ع) بالأعمال التي أنجزها . قبل زمن خلافة عمر بن عبد العزيز كانت الأمور قد أخذت منحىً خطيراً أصبح فيه

لعن أمير المؤمنين علي بن طالب (ع) بعد الصلاة يُعدّ عندهم من الواجبات ،
ويذكر المؤرخون بأن شخصاً مسافراً كان قد نسي لعن علي (ع) بعد الصلاة ،
فعاد إلى نفس المكان ولعن علياً (ع) وبني مسجداً في نفس المكان تكفيراً
لذنبه .

وبهذا الوضع الذي كان عليه المجتمع الإسلامي ألغى عمر بن عبد العزيز
هذا اللعن ، إذ كان يقول : إن أصبحت طيباً ، فإن المعلم هو الذي أوصلني
إلى ما أنا فيه ، إشارة إلى دور المعلم وما أحدثه من تأثير في كيانه . فإشارة
واحدة وشرارة واحدة ، على دماغ طفل من الممكن أن تشعله كشرارة في مخزن
البارود .

يقول عمر بن عبد العزيز : جاءني شرارة من العلم إلى دماغي .

إن عدالته الاجتماعية كانت نتيجة لذلك ، وحبّه لأمر المؤمنين علي (ع)
كان من أجل ذلك . وما عدا غصبه للخلافة فإن كافة أعماله كانت حسنة ، وهنا
لا أريد التطرق إلى معالجة قضية الخلافة في الوقت الحاضر .

شرارة من جانب معلم ، تصنع عمر بن عبد العزيز ، كان والد عمر - أي
عبد العزيز - خطيب الخلفاء ، وهذا يعني أنّ عليه أن يصعد المنبر ويلعن
علياً (ع) . يقول عمر بن عبد العزيز : مع أن والدي كان خطيباً لامعاً إلا أنه
كلّما كان يصل إلى اسم علي كانت تتنابه لُكنةُ اللسان . سأله مرة عن سبب هذه
اللكنة فقال : لو علم الناس بفضائل علي (ع) لما اجتمعوا حولنا . علي (ع)
ينوع الفضيلة .

بناءً على قانون الوراثة ، رجل كهذا ينبغي ألا يُقدّم عمر بن عبد العزيز
إلى المجتمع ، عمر من ناحية قانون الوراثة كان سيئاً جداً ، من ناحية الطعام
كان يأكل من مال أب كان يؤمن راتبه من « سب » أمير المؤمنين (ع) . ومن
الناحية العائلية ، كان والده عبد العزيز خطيب الخلفاء ، نشأ هذا الولد في عائلة
أب كهذا . أما البيّة فإنه تربى في بيّة مستهترّة .

شرارة من معلم استطاعت أن تبطل مفعول كافة القوانين الأربعة . ونظير
هذا كثير في التاريخ .

ابن يزيد بن معاوية قانون وراثته مثل يزيد من ناحية الغذاء ، أب سكير ومرتبى كلاب ، وفي نفس المكان كان يمارسُ المويقات . من ناحية البيئة العائلية فإن وضع معاوية ويزيد وزبانيته أمر واضح ومعلوم . فقد ترعرع بين خلفاء بني أمية ، ولكن معلماً متديناً وعاقلاً في غضون أيام معدودات استطاع أن يربيه ، بحيث أنه عندما مات يزيد ، صعد ابنه المنبر وقال : لعن الله معاوية ولعن الله أبي يزيد . أنا لسْتُ خليفة النبي ، لقد اجتمعتم حولي بدون سبب ، إن كنتم تريدون خليفة النبي حقاً ، فإنه الإمام السجاد (ع) في المدينة . بعد ذلك عندما تتبعوا الجذور ، ليروا كيف أصبح معاوية بن يزيد هكذا؟! فوصلوا إلى دور المعلم وتأثيره . فدُفِنَ المعلمُ حياً كي يلقوا الرعب في نفوس الآخرين .

وهم أيضاً أدركوا أن المعلم يستطيع أن يصنع من ابن يزيد بن معاوية إنساناً محباً لأهل بيت الرسول (ص) بكل معنى الكلمة . ونظير هذه الأحداث كثيرة في التاريخ .

إلى هنا استنتجنا بأن قيمة عملكم أنتم المعلمون هي أنكم تستطيعون إبطال مفعول قوانين علم النفس الثابتة . عملكم لوجه الله ، وهو عمل الأنبياء ، وأجركم أيضاً عالٍ جداً . ليس لدينا أجر أعلى من أجركم ، فقيمة عملكم عالية جداً . إنكم تستطيعون أن تبطلوا مفعول القوانين التكوينية . فعليكم أن تنتبهوا لأنفسكم .

لأمير المؤمنين (ع) قول يقول فيه : « كفى بالمرء جهلاً أن لا يعرف قدره »^(١) علينا أن نعرف قدر أنفسنا . يجب أن نتبه ، بأن كافة المصائب التي تصيب الإنسان سببها أنه لا يعرف قدر نفسه . ومن الناحية الأساسية فإن كافة مصائب عالم اليوم ، سببها أن العالم لم يعرف حقيقة الإنسان لحد الآن ، على هذا لم يمنحه المكانة والقيمة اللائقة .

إنكم ترون عالم اليوم بعلمه ومدنيته لا يعترف بقيمة الإنسان لأنه يجهل قدره .

(١) ميزان الحكمة ، الجهل / ٢٨٦٤ .

إذن عليكم أن تعرفوا قدر أنفسكم ، يجب أن تعرفوا مكانتكم ، لأنكم لو علمتم أن لديكم ذرة فلن تضيعوها ولن تدعوها دون أن تستفيدوا منها ، إذا كان لدى شخص ما مصباح ، ولكنه لا يعرف تأثيره ، فأما أنه سيبيعه بثمنٍ بخسٍ أو لا يحافظ عليه كما ينبغي . لكنه لو علم أن لديه حجراً ثميناً فإنه سيعلم قدره لا محالة .

عملكم أنتم المعلمون كذرة ثمينة ، لا يمكن تحديد سعرها . إذن اعرفوا قدركم واستفيدوا من عملكم إلى أقصى حد . اعلّموا أن الفُرص تمرّ مرّ السحاب . فإن سنحت لكم فرصة فاغتنموها .

على الإنسان أن يغتنم الفرصة أو النعمة المتوفرة لديه ، يقول القرآن :

﴿ ثُمَّ تَسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ ﴾ ^(١) .

أحد الأسئلة التي توجّه إلى أهل جهنّم ، هي : لماذا لم تعرفوا قدر النعم التي كانت لديكم ، لماذا لم تغتتموا الفرص ، ولماذا لم تستفيدوا منها ؟! أنتم المعلمون يمكنكم أن تربيوا مسلماً ، تستطيعون أن تصنعوا إنساناً ، وبإمكانكم أن تبنيوا أفراداً يخدمون المجتمع . تستطيعون أن تسعدوا مجتمعكم . وباختصار يمكنكم أن تقدموا للمجتمع أناساً مفيدين للآخرين ولأنفسهم ، ولكن كلما كان العمل راقياً ، كانت المسؤولية أكبر .

﴿ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا ﴾ ^(٢) حسب التفسير المنقول عن الإمام الصادق (ع) فإن هذه الآية تعني : إذا حَرَفْتُمْ بواسطة عملكم وقولكم أحداً عن الطريق القويم ، أي بدلاً من أن تربيوا الأطفال تربية إسلامية ، ينحرف الأطفال عقائدياً بواسطة أقوالكم وأعمالكم في المدرسة ، فيسيئون الظن بعلماء الدين والإسلام ، هل تعرفون مدى الذنب الذي تقرّفونه بعملكم هذا ؟ .

فلو قتل أحدكم شخصاً ما بغير ذنب ، كأنما قتل الناس جميعاً . فما هي

(١) سورة النكاث ، الآية : ٨ .

(٢) سورة المائدة ، الآية : ٣٢ .

جريمته ؟ يصفه القرآن بأنه قاتل ، والقاتل مصيره جهنم خالداً فيها .

﴿ وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِناً مُتَعَمِّداً فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِداً فِيهَا ﴾ (١) .

فلو أجهضت سيدة ما ، وقتلت جنينها وهو في الشهر الرابع ، فهي قاتلة ، فإن ماتت دون توبة ، فستذهب إلى جهنم ، وتبقى فيها إلى الأبد .

إنها لم تقتل سوى جنيناً في بطنها ، ولكن الإسلام يعتبر ذنبها كبيراً جداً .
فنتيجة الآية التي قرأناها لكم تقول : إذا حَرَفَتْ طفلاً مسلماً عن الطريق ، فإن ذلك ليس قتل نفس فحسب ، بل كأنك قتلت ثلاثة مليارات من نفوس الكرة الأرضية . ﴿ مَنْ قَتَلَ نَفْساً بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعاً ﴾ (٢) .

حذارى من تربية الطفل على حب الجاه ، أو حب الذات ، أتمم المعلمون يمكنكم بواسطة أقوالكم وتصرفاتكم أن تربوا إنساناً يضاف إلى المجتمع أو بشراً جاهلاً لا يعرف شيئاً .

يقول الإمام الصادق (ع) ناصحاً أصحابه : « كونوا دعاة الناس بأعمالكم ، ولا تكونوا دعاةً بآلتكم » (٣) .

اللسان له تأثير كبير جداً سواء على الأعمال أو التصرفات . عليكم أن تنتبهوا إلى تصرفاتكم في المدرسة لئلا ترسخ صفة الرذيلة - لا سمح الله - في الأطفال الذين يخرجون من تحت أيديكم .

لو تداعت اعتقادات الطفل نتيجة أقوالكم ، وتربى على ارتكاب الذنوب فالقرآن يقول : كأنكم قتلتم العالمين جميعاً ، لذلك يجب أن أقول : أتمم المعلمون تستطيعون أن تقدّموا أشخاصاً صالحين أو سيئين إلى المجتمع ، أتمم تستطيعون أن تبطلوا مفعول قانون الوراثة . ما تقدم كان يتمحور في قيمة وأجر المُعلِّم .

(١) سورة النساء ، الآية : ٩٣ .

(٢) سورة المائدة ، الآية : ٣٢ .

(٣) قرب الإسناد ص ٥٢ / الكافي ج ٢ ص ٧٨ .

أما من ناحية المسؤولية ، عليكم الانتباه لأحاديثكم مع الأطفال في الصف . الموضوع الذي يجب أن أنوّه به ، هو أن تعلموا أن هناك واجبٌ كبير يقع على عاتقكم ، وعليكم تأدية هذا الواجب بصورة جيدة .

أدنى الأشخاص هو الذي لا يؤدي الواجب الملقى على عاتقه بصورة جيدة . لن أنسى عندما كنت في خدمة أستاذنا الجليل الإمام الخميني (رحمة الله عليه) جاءت مجموعة من العاملين في شركة النفط ، وقالوا : جئنا لنرى ماذا تريد الثورة منا ، ولم نأت لنقول ماذا نريد من الثورة . من الواضح أن قائد الثورة العظيم سرّ بهذا الكلام الرقيق ، فأجاب سماحته : الثورة تريد منكم أمرين :

١ - تهذيب النفس ، على الإنسان أن يهذب نفسه وبالأخص المعلم أو المدير أو الشخص الذي يتعامل مع الشباب واليا فعين ، عليه أن يهذب نفسه أولاً ، ليتمكن من تهذيب الآخرين . لا يُعقل أن يستطيع شخص لم يهذب نفسه تهذيب غيره : ﴿ قُلْ كُلْ يَعْمَلْ عَلَى شَاكِلَتِهِ ﴾^(١) . وعلى هذا الأساس جاء تأكيد قائد الثورة بضرورة تهذيب النفس .

٢ - عليكم أن تقوموا بالواجب الملقى على عاتقكم بصورة كاملة . وكل شخص يقوم بواجب ما ، أنا المعمم الروحاني لدي واجب . أنتم المعلم والمدير لديكما واجب ، الكاسب في السوق لديه واجب ، والذي في الجيش والشرطة لديه واجب ، ينبغي أن يقوم كل شخص بتأدية واجبه دون التدخل في واجبات الآخرين . من هنا إذا كان سؤال تلك المجموعة دقيقاً ، فإن جواب سماحته يمتاز برفقة خاصة .

إذن الواجب الملقى على عاتقكم أيها المعلمون الأعزاء هو واجب التعليم والتربية ، أو كما يقول القرآن الكريم التزكية والتعليم ﴿ يَسْزَكِيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمْ ﴾^(٢) ، فغالباً ما تقولون بأن التعليم والتربية ، ولكن القرآن يجعل التربية قبل التعليم لأن الإسلام يعتبر التربية الإسلامية وتهذيب النفس قبل التعليم والتعلم .

(١) سورة الإسراء ، الآية : ٨٤ .

(٢) سورة الجمعة ، الآية : ٢ .

إذن هناك واجب مُلقى على عاتقكم ، وعليكم أن تنهضوا بهذا الواجب بصورة كاملة . وإذا أراد الإنسان أن يقوم بالواجب بشكل تام عليه أن يبنى نفسه ليكون تأثيره بناءً .

هذا البحث ، يحتاج إلى تفصيل والمجال لا يتسع لذلك . وفي الختام ، علينا أن لا نقول شيئاً أمام التلاميذ إلا بعد معرفة وتمعن .

وإذا تكلمنا دون علم ووزن للكلام فإن الخسارة ستكون فادحة ، وهنا يكمن الفرق بين العاقل والأحمق . إذن العاقل هو الذي يفكر أولاً ثم يتكلم ، والأحمق هو الذي يتكلم ثم يفكر .

إن موقعكم أيها المعلمون - بناءً على ما أشرنا - هو حساس للغاية . لأن الطلاب يسألون عن أمور مختلفة يطلبونها من المعلم . خاصة في الأوضاع الراهنة ، من الممكن أن تطرح أبحاث دينية وأيديولوجية أيضاً في الصف . ما أرجوه منكم هو إن كنتم تعلمون عن الموضوع المسؤول عنه أجيبوا ، وإن كنتم لا تعلمون عنه قولوا بكل صراحة : « لا أعلم » لأن علمنا - مهما كان كبيراً - فإنه وكما يقول انشتاين : « نسبة علمنا إلى جهلنا ، كنسبة القطرة إلى البحر » ، لا يمكن أن يكون الإنسان خبيراً في كافة الأعمال . لذلك في القضايا العقائدية من الممكن أن تجيبوا الطالب إجابة لا تكون صحيحة . فیرسخ الجواب الخاطيء في ذهنه . إنكم تعلمون أن دماغ الطفل مثل آلة التصوير ما يوضع أمامه ، يلتقط الطفل صوراً منه ، احذروا ألا تقولوا - دونما علم - كلاماً في القضايا الاقتصادية والاجتماعية وقضايا الإسلام الأخرى ، بحيث تبنون أساساً خاطئاً في عقل ودماغ الطفل . قد يصبح الأساس الفكري للطلاب خاطئاً بسبب جوابكم الخاطيء ، وقد تصدر عنه تصرفات غير لائقة .

لو حصل ذلك من يتحمل مسؤوليته ؟ لا شك أن المذنب هو من قام بتلك التصرفات أولاً ، ثم من لقنه المعلومات الخاطئة التي ترسخت في ذهنه وتصرف طبقها .

« من سنَّ سنةً حسنةً عمل بها من بعده كان له أجره ومثل أجورهم من غير أن ينقص من أجورهم شيئاً ، ومن سنَّ سنةً سيئةً فعمل بها بعده كان عليه وزره

ومثل أوزارهم من غير أن ينقص من أوزارهم شيئاً» (١) .

إذا بنى شخصُ مسجداً ، فالذين يُصلُّون في ذلك المسجد يحصلون على الثواب الإلهي ؛ وبنفس المقدار سيكتب الثواب لباني المسجد أيضاً . وإذا بنى شخصٌ مكاناً للفحشاء والمنكر ، فيكتب له ولمرتاديه نفس المقدار من الذنوب .

إذا أبدتُم رأيكم في قضايا إسلامية ، مثلاً تقولون دونما علم وبدون وعي موضوعاً حول الاقتصاد الإسلامي ، وترسِّخون في ذهن الطفل صيغة اقتصادية لا تتفق وتعاليم الإسلام ، ثم يتلف ذلك الطفل أموال شخص ما نتيجة تعليماتكم الخاطئة ، في هذه الحالة سيكتب الذنب في قائمة أعمالكم أيضاً .

لو أبدت معلمة في الصف رأياً حول الحجاب الإسلامي بدون أن تعي ذلك ، ورسخت تعاليم خاطئة في ذهن الطفل ، فإن ذنب الأعمال الخاطئة الناجمة عن هذه التعاليم الخاطئة يقع على عاتق باني تلك الأفكار أيضاً .

مرة أخرى أرجوكم ألا تقولوا ما لا تعلمون ، وإن كنتم لا تدرّون ، قولوا - بشجاعة تامة - لا ندري ، فنحن الطلبة نقول : « لا أدري نصف العلم » هذه هي الحقيقة .

لو قال الإنسان لا أدري سيكون مرتاحاً ، ولن يتحمل مسؤولية ذم « أنا أدري » غالباً ما تكون خطأ ، وتنتج عنها المظالم . إن كنتم تعلمون فقولوا وإن كنتم لا تعلمون قولوا لا نعلم .

وعندما تكون لديكم شبهة قولوا أيضاً : لا نعلم . وهنا من الأماكن التي يجب أن يحتاط المرء فيها .

الإسلام لديه قضايا اقتصادية واجتماعية ومعارف ، قضايا أيديولوجية ، بالمعنى الخاص والعام . الإجابة على كل هذه الأسئلة تحتاج إلى خبرة ووعي ، والذي يُريد أن يُبدي رأياً ، يجب أن يستوعب الموضوع لا أن يردّد موضوعاً كالبيضاء ، ففي ذلك مظلمة .

(١) ميزان الحكمة ١٩٣٩ .

أرجو أن تتمعنوا في هذه الجملة الأخيرة ، كما أرجو أن تكون هذه
الجلسة مفيدة لي ولكم .
« والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته »

الذنب وتهذيب الغرائز

﴿رب اشرح لي صدري ، ويسر لي أمري ، واحلل عقدة من لساني ،
يفقهوا قولي﴾^(١) .

كنت أنوي التحدث معكم عن موضوع معين ، لكن وبسبب ذكرى
عاشوراء أرجأت هذا الموضوع ، إذ ينبغي أن نعيش هذه الأيام بكل وجودنا
وشعورنا ، ولذلك فإن بحثنا سيكون عن مؤدّي نصيحة من الإمام الحسين (ع) ،
لولا وضحت هذه النصيحة لأصدقائكم وفكرتم فيها . نحن لدينا روايات قليلة
عن الإمام الحسين (ع) وسبب قلّة هذه الروايات هو أجواء الكبت والقمع
والاستبداد التي تميّزت بها مرحلة هذا الإمام الشهيد . لذلك لم يكن هناك أحد
يروى عنه . ولكن بما أن الإمام الحسين (ع) يمتاز بشفافية خاصة بين الأئمة
الأطهار - عليهم السّلام - فإن كلامه أيضاً له شفافية خاصة . طبعاً ليس هناك
فرق من ناحية الفضيلة بين المعصومين الأربعة عشر - عليهم السّلام - ولكن
الحسين (ع) يمتلك شفافية خاصة .

فمن المعروف أن النبي الأكرم (ص) قال : « إن للحسين (ع) حرارة في
قلوب الناس لن تبرد أبداً »^(٢) بمعنى أن الحسين (ع) أوقد ناراً في قلوب الناس
لن تنطفئ أبداً . هذه النار هي نار العشق والعرفان ، هذه الشفافية والحلاوة

(١) سورة طه ، الآيات : ٢٥ - ٢٨ .

(٢) ناسخ التواريخ .

يملكها الحسين (ع) ؛ وروايته أيضاً فيها هذه الشفافية .

من بين الروايات المنقولة عن الإمام الحسين (ع) روايةٌ ستحدث عنها هنا :

جاء أعرابيُّ إلى الإمام الحسين (ع) وقال : « يا ابن رسول الله ، عظمي بكلمتين »^(٢) كآني به أعرابياً عالماً ، أراد جملةً بليغةً يقتدي بها في حياته ؛ لذلك قال : عظمي بكلمتين - فأجابه الإمام الحسين (ع) :

« مَنْ حاولَ أمراً بمعصيةِ اللَّهِ كانَ أفوتَ لما يرجو وأسرعَ لما يحذر »^(١) .

ولمعرفة هذه الرواية ينبغي وضع مقدمة ليتضح المفهوم أكثر . الإنسان لديه غرائز ، ومن وجهة نظر الإسلام يجب تليتها وتهذيب هذه الغرائز ، فإذا أراد شخص أن يقضي على رغباته ، فإن ذلك ممنوع في الإسلام . القرآن الكريم يُبين هذا المنع بالإضافة إلى أن هذا الأمر ممنوع حسب روايات أهل البيت وسيرة النبي (ص) والأئمة الأطهار (ع) أيضاً .

القرآن الكريم يقول :

﴿ وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا ﴾^(٣) .

بمعنى : أن الباري عزَّ وجلَّ أغرق عليك نعماً كثيرة من بينها العمر والسلامة ، والعقل والشباب ، فاستفد منها جميعاً لأخرك ، ولكن عليك أن لا تنسى الدنيا . أي لا تنسى الرغبات والغرائز المودعة فيك ﴿ ولا تنس نصيبك من الدنيا ﴾^(٣) .

القرآن الكريم يحتج على الرهبانية حيث يقول :

﴿ قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق . . . ﴾^(٤) .

(١) تحف المعقول حكم الإمام الحسين (ع) .

(٢) سورة القصص ، الآية : ٧٧ .

(٣) سورة القصص ، الآية : ٧٧ .

(٤) سورة الأعراف ، الآية : ٣٢ .

بمعنى : أيها النبي ، قل للذين يفضلون الرهبانية : من الذي حرم زينة الدنيا التي خلقها الله لعباده ؟ الرزق الجيد والطيب خلق لكم . المحروم الفيض الكاشاني عليه الرحمة - وهو أحد علماء الشيعة الكبار وصاحب « التفسير الصافي » .

ينقل رواية عن النبي الأكرم (ص) حول هذا الموضوع يقول فيها : أخبروا النبي الأكرم (ص) بأن ثلاثة من الصحابة اختاروا الرهبانية خوفاً من آية العذاب النازلة ، أحدهم تعهد بأن لا يمس امرأة ، والآخر تعهد بأن لا يأكل طعاماً لذيقاً ، والثالث تعهد بأن لا يختلط بالناس . لقد ترك هؤلاء الحياة وذهبوا إلى الصحراء وانهمكوا في العبادة وضيّف المحروم فيض الكاشاني : وامتعض النبي (ص) جداً عن سماعه هذا النبأ . وهرع مسرعاً نحو المسجد على غير عادة . كان ممتعضاً لدرجة لم يتبه فيها إلى طرفِ عباءته الملقى على الأرض . وفي غير موعد صرخ المؤذن : « الصلاة جامعة » واجتمع الناس كلهم . ارتقى النبي (ص) المنبر ووقفاً على السُّلم الأول وقال : أيها الناس إني نبيكم أأكل من الطعام اللذيذ ، ألمس المرأة ولديّ علاقات مع الناس في المجتمع « فمن رغب عن ستي فليس مني » فمن لم يكن هكذا فليس بمسلم . نظير هذه الآيات والروايات كثيرة في الإسلام ، لذلك « لا رهبانية في الإسلام » .

إذن : خالق هذا العالم منح الإنسان غرائز ورغبات ينبغي تليتها . ولكن السؤال هنا ، كيف يجب تلبية هذه الرغبات . الإنسان يستطيع أن يلبّي رغباته عبر طريقين :

١ - الحلال .

٢ - الذنب .

يستطيع الإنسان أن يكدح ويؤدي واجبه بصورة جيدة ، ثم يحصل على المال ويرضي غريزة حبه للمال عن طريق الحلال - كما أنه يستطيع أن يواطىء على دروسه ، وينال مكانةً اجتماعيةً ، وبذلك يرضي غريزة حبه للمال . وإذا كان ينوي ضمان مستقبل أبنائه عليه أن يكدح في الطريق المعقول والمشروع ، ليضمن مستقبل أبنائه وبذلك يرضي ويهذب غريزة حب البنين . وهذا الطريق الأوّل أما السبيل الآخر لتهديب وإرضاء الغرائز ، فهو سبيل الحرام (الذنب)

أحياناً يوفر الشخص المال عن طريق التزوير والاحتيال ، يحصل على منصب اجتماعي بواسطة النصب والاحتيال ، ويوفر ضمان مستقبل أولاده عن طريق التطفيف والاحتكار . أو إذا أحالوا واجباً إليه لا يؤديه بصورة جيدة ، وقد حذر القرآن الكريم هؤلاء المطففين . هذا الشخص أرضى غريزة حب المال وحب الجاه وحب الأبناء ولكنه انتهج الطريق الحرام (الذنوب) .

إن غرائز ورغبات كلا الفريقين قد كُبتت ، ولكن هنالك فرق كبير . فلو كُبتت الغرائز عن الطريق الشرعي والمعقول فهي مباركة حقاً ، إن الإنسان يمكنه أن يصل أينما يشاء . إن السبيل الحقيقي لتكامل الإنسان هو أن يُرضي ويَهْدِبْ غرائزه عن طريق الحلال . هذا هو الطريق من وجهة نظر القرآن والروايات ، وقد أثبتت التجربة أن لا سبيل للتكامل سوى هذه الطريق . ولكن لو حدث ذلك عن طريق الحرام (الذنب) فلن يبلغ الهدف المنشود القرآن يقول : لن يبلغ الهدف المنشود ، والروايات تقول لن يبلغ الهدف المنشود والتاريخ أيضاً يقول لن يبلغ الهدف المنشود . سأنقل لكم قضية من كربلاء ، لكي ترون كيف لا يمكن بلوغ الهدف المنشود عن طريق الحرام (الذنب) :

كان من المقرر أن يأتي عمر بن سعد إلى إيران ويصبح والياً على إيران في ذلك العهد . فحدثت قضية كربلاء . جاء ابن زياد إلى الكوفة في وقت تزامن مع موعد قدوم عمر بن سعد إلى إيران .

الشورى التي شكلها ابن زياد قالوا له : عمر بن سعد يستطيع أن يخمد النار التي أضرمتها الحسين (ع) لذلك استدعى عمر بن سعد ، وقال له : مهمتك أن تذهب إلى كربلاء . قال : لدي عهد من يزيد بأن أذهب إلى الري لأحكم هناك .

ابن زياد قال : أنا لذي صلاحيات تامة من قبل يزيد ، عليك أولاً الذهاب إلى كربلاء للقضاء على الحسين (ع) وبعدها تذهب إلى ولاية الري . فشعر ابن سعد بالخوف والقلق لأن قتل الإمام الحسين (ع) لم يكن عملاً هيناً - كان عمر بن سعد رجلاً ماكراً - ولكن حين تطفئ إحدى الغرائز على الإنسان أو يهيمن الشيطان على الإنسان - سأتحديث معكم حول هذا الموضوع في

المستقبل إن شاء الله - إنه كان حائراً عند مفترق طريقين ، العقل يقول : كلا ، الغريزة والجانب البهيمي تقول : نعم . في تلك الجلسة ، طلب مهلة لكي يفكر وفي ليلة من الليالي استمر يفكر حتى الصباح .

المؤرخون يذكرون نقلاً عن ابنه أنه كان يسير في صحن الدار ويناجي نفسه : هل أذهب إلى كربلاء وأقتل الحسين (ع) ؟ لو فعلت ذلك فسأنال الرئاسة والمال وستقبل عليّ الدنيا ، ولكن آخرين ستنفئني حيث جهنم وعذاب الله وخزي المنقلب إذا لم أذهب إلى كربلاء ، لديّ الآخرة وكرامات الجنة ورضا الله ورسوله ، وبالمقابل لن أحصل على الدنيا . إن حالة التلكأ من الحالات السيئة للإنسان وتجربته شيئاً فشيئاً نحو الكفر وعمر بن سعد انتابته هذه الحالة حيث مهّدت الأرضية لخسرانه وتعاسته التي اختارها لنفسه . قبل أذان الفجر تغلّبت نفسه على روحه ، وطفئ الجانب البهيمي على الجانب الملكوتي . ومن أجل أن تطفئ ضربات الوجدان الجانب المعنوي جاء بعددٍ باهتٍ كروحي .

يقولون هناك قيامة ، سندهب إلى كربلاء ونقتل الحسين (ع) ونتمّ الأمر . ثم نعود إلى الري ونتولى الرياسة فيها . وبعد ذلك نتوب .

قرر أن يذهب إلى كربلاء ، لماذا اتخذوا هذا القرار الخطير ؟ لأن غرائز حب المال وحب الجاه وضمآن مستقبل الأولاد ملأته وهو نفسه كان يبحث عن إرضاء يزيد . كافة هذه الغرائز عن طريق الحرام . وفي الصباح ذهب إلى ابن زياد وقال : جئت لأخبرك بأني سأذهب إلى كربلاء .

ذهب عمر بن سعد إلى كربلاء ، وأتم الأمر بشكلٍ مفعج . الكثير من الأعمال التي ارتكبتها عمر بن سعد في كربلاء ، لم يؤمر بها . رافة الإمام الحسين (ع) لم تستطع أن تغيّره . حتى في اليوم التاسع التقى به . لكن جذابية الإمام الحسين (ع) لم تؤثر فيه لو هُزمت روحنا الإنسانية ، سنصبح تُعساء . ستصل التماسة إلى مدى لا تستطيع جذابية الحسين (ع) نوه مراراً ، وقال : سأعطيك بيتاً .

وباختصار أي شيء كان يطلبه ، كان الحسين (ع) يقول : سوف أوفّر لك ،

إلى أن قال صراحةً : أريد حكم الري ، فقال الإمام الحسين (ع) : أرجو أن لا تأكل من قمح الري وأن يقطعوا رأسك في فراشك . فأجاب ابن سعد مستهزئاً : هذا هو ما يكفيننا .

باختصار لم يقبل بنصائح الإمام وأتمم الأمر كما أراد ابن زياد وبعد مقتل الإمام (ع) جاء إلى الكوفة . ومكث فيها أياماً بسبب وجود السبايا من آل بيت الرسول (ص) وما نجم عن قضيتهم من هيجان شعبي إلى حين إرسالهم إلى الشام وعندما خفتت الضوضاء ، جاء عند ابن زياد - وهنا تجد رواية الإمام الحسين (ع) مصداقها البارز - « من حاول أمراً بمعصية الله فهو أفوت لما يرجو وأسرع لما يحذر » .

كل من يريد أن يحصل على شيء عن طريق الحرام (الذنب) سيواجه الإحباط واليأس ، وتراه مسرعاً باتجاه عكس ما كان يروم . قال لابن زياد : إني مستعد للذهاب إلى الري . فقال ابن زياد : سمعت أن لديك جلسات مع الإمام الحسين (ع) في كربلاء . ما مناسبة عقد هذه الجلسات الخصوصية مع عدونا ؟ أن ابن زياد بالذات لا يعرف ماذا يقول . إنها نبوءة الإمام الحسين (ع) تريد أن تتحقق .

إن الباري عز وجل يسلط الأعداء على بعضهم البعض . قال عمر بن سعد : كانت لدي جلسات أولم تكن ، أنت أردت أن أقتل الإمام الحسين (ع) وأنا قتله ، وأسرت عائلته وسلمتها لك وقد أرسلتهم إلى الشام ، فماذا تريد مني بعد كل هذا ؟ .

قال ابن زياد : كان يجب عليك أن لا تعقد جلسات خصوصية مع عدونا . وفي أثناء الحوار ، قال لعمر بن سعد : أعطني عهد حكم الري . أعطى ابن سعد عهد يزيد إلى ابن زياد فأخذه ومزقه ورماه جانباً .

قال عمر بن سعد : يا ابن زياد ، لقد حطمتني . قال : اخرجوه . فمسكوه والقوا به خارجاً . كان دائماً يقول : ﴿ خسر الدنيا والآخرة ، ذلك هو

الخسرانُ المبينُ ﴿١﴾ بمعنى : « أصبحت تعيساً في الدنيا ، وخسرت الآخرة يا له من خسرانٍ مبينٍ » .

وتدريجياً أصبح مجنوناً . عندما يأتي إلى البيت كانت زوجته وأولاده يؤنبونه ، قالوا له : لقد حطمتنا ، وكنت السبب في بؤسنا . بسبب عملك الشنيع ، لا نستطيع الخروج من البيت . عندما كان يسير في الزقاق كان الأطفال يرشقونه بالحجارة . كان هناك حمامٌ بالقرب من داره ، وفي هذا الحمام بابان يدخل من إحدهما إلى الحمام . فكان يواجه بالاستهزاء من قبل الموجودين ، وكانوا يضربونه ، بحيث يهرب من الباب الآخر وبناء على الأوامر تمت مصادرة فراشه . الشيء الوحيد الذي بقي يُردهُ دائماً :

﴿ خسر الدنيا والآخرة ذلك هو الخسرانُ المبينُ ﴾ (١) .

ثم جاء دور المختار ، كانت زوجة عمر بن سعد أخت المختار . لذلك عندما ثار المختار ، تمكنت هذه الزوجة أن تحصل من أخيها كتاباً بعدم التعرض لابن سعد لكن المختار يعلم أن عمر بن سعد ارتكب جريمة ، ويجب أن ينال جزاءه لذلك كتب في كتاب عدم التعرض « عمر بن سعد في أمان » « ما لم يحدث حدثاً » المعنى الظاهر للعبارة أن عمر بن سعد ، طالما يتأمر فهو في أمان .

ثار المختار ليتقم لدم الحسين (ع) من المشاركين في مأساة كربلاء ، ليشفي بهذا العمل غليل الزهراء - عليها السلام - والشيعية . كان يفكر دائماً في كيفية إنزال العقاب بعمر بن سعد . أحياناً كان عمر بن سعد يشارك في مجلس المختار . في أحد الأيام أمر المختار بذبح اثنين من أولاده أمام عينيه . قال عمر بن سعد : إن رؤية هذا المشهد تؤلمني جداً . قال المختار : عندما قطعوا رأسي عليّ الأكبر أمام الإمام الحسين (ع) ، ألم يكن ذلك مؤلماً ؟ .

ذهب المختار إلى داره وطلب اثنين من ضباطه الأذكياء وقال : اذهبوا وأتوا بعمر بن سعد . وكونوا على حذر لأنه رجل مخادع ، إذا قال هاتوا ملابسي

(١) سورة الحج ، الآية : ١١ .

(٢) سورة الحج ، الآية : ١١ .

أريد أن ألبسها ، فإنه يُضمر الخداع وعليكم أن تقضوا عليه هناك . باختصار أعلمهم أنه يريد رأس عمر ابن سعد .

هنا ستتحقق لعنة الإمام الحسين (ع) جاء الضابطان كان عمر بن سعد راقداً في قراشه . قالوا له : إن المختار يريلك . فنهض وقال : المختار أعطاني كتاباً بعدم التعرض . قالوا : أربنا ذلك الكتاب ، أخذوا الكتاب ووجدوا فيه مكتوباً : عمر بن سعد في أمان . « ما لم يحدث حدثاً » قالوا : حسناً ، هاتان الجملتان لهما معنيان ، الأول طالما أنه لم يتأمر فهو في أمان والمعنى الآخر ، طالما أنه لم يُخل بطنه فهو في أمان ، لأن « ما لم يحدث حدثاً » . من مادة الحدث ، قال عمر بن سعد : المختار لم يكن يقصد المعنى الثاني : ﴿ ومكروا ومكرَ اللهُ والله خير الماكرين ﴾ (١) .

إن آية الله الأراكي الذي كان يصلي في مدرسة الفيضية ، أحياناً كان يقول هذه الجملة البارزة : ﴿ الله يُمهّل ولا يُهمل ﴾ الباري عز وجلّ لديه صبرٌ وحلمٌ كثير ، ولكن يا أعزائي حذارى أن تتخدعوا من حلم الله ، الله حلِيم ، ولكن حينما يأتي دور العذاب ، فإنه شديد العقاب .

قال عمر بن سعد للضابطين : المختار لم يكن يقصد المعنى الثاني ، قال الضابطان : نحن هكذا نفهم . قال : هاتوا ملابس . ما إن قال هاتوا ملابس ، قطعوا رأسه وجاءوا به إلى المختار . أحد أولاد عمر بن سعد كان هناك فبكى لرؤية رأس أبيه . قال المختار : إحقوه بأبيه . يقول الإمام الحسين (ع) :

« من حاول أمراً بمعصية الله فهو أفوت لما يرجو وأسرع لما يحلر » لأن من يصح عمر بن سعد ، ويريد أن يرضي غرائزه عن طريق الحرام (الذنب) لن يحصل على ما يبتغيه ، يا ليت أنه لن يحصل على ما يبتغيه فحسب ، بل يحصل على عكس ما ينشوره ، يحصل على الذل والجنون ، والقتل في

(١) سورة آل عمران ، الآية : ٥٤ .

الفراس . ولأنَّ ضمان مستقبل الأولاد عن طريق الحرام (الذنب) يؤدي إلى الذلَّ والهوان . إن القرآن يقول :

﴿ وليخش الذين لو تركوا من خلفهم ذريةً ضماماً خافوا عليهم فليتقوا الله وليقولوا قولاً سديداً ﴾^(١) .

أي : إذا أردت أن تضمن مستقبل أولادك ، وإذا كنت تخشى على مستقبلهم فاتقِ وفَرِّ علاقتك بالله . عندما تتحدثُ انتبه ماذا تقول . ليس في كلامك لدغة واستغابة وقذف بالناس ، كن على يقين بأن قذفك الناس بالتهم سيغدو حيةً قِطاءً لضمان مستقبل أولادك ، ولكن كن على ثقة بأن استغابتك ولدغات كلامك ، وأكاذيبك وشهادات الزور ستصبح ناراً لضمان مستقبل أولادك . كما أن عكس هذه القضية نراه في قضية حضرة الخضر وحضرة موسى عليهما السلام . قضية عجيبة جداً . وكما قال أستاذنا الكبير ، قائد الثورة الإسلامية العظيم (قدس سره) الذي كان يقول لي : في هذه الآيات القلائل يكمن علمٌ بحجم الدنيا . لقد حلَّت - هذه الآيات - مسألة القضاء والقدر بصورة نهائية كما أنها حلَّت مسألة الجبر والتفويض التي تعتبر من المسائل الفلسفية المهمة والمستعصية ، ففي هذه الآيات نقاط حساسة سيُدور حولها بحثنا في هذا المجال .

فعندما وصل موسى (ع) والخضر (ع) إلى تلك القرية ، لم يأذن لهما أهل القرية بالدخول ، حتى أنهما أعطوا نقوداً ، وطلبوا غذاءً ولكنهم لم يقدموا لهم غذاءً ، فخرجوا من القرية متعبين جائعين وصلوا إلى جدار مائل . قال الخضر (ع) لموسى (ع) : علينا أن نهدم هذا الجدار ونعيد بناءه : فامتعض موسى (ع) وقال : أنهم لم يقدموا لنا غذاءً وطردونا ، فهل يعقل أن نقدم عملاً حسناً لصالحهم فقوَّضنا الجدار وأعادنا بناءه كما قاما بأعمال أخرى في طريقهم لا حاجة لنا بذكرها الآن . عندما قرَّرا الافتراق ، قام الخضر (ع) بتوضيح فلسفة أعماله إلى أن وصل الدور إلى قضية الجدار ، فقال : ﴿ وأما الجدار ، فكانَ

(١) سورة النساء ، الآية : ٩ .

لغلامين يتيمين ﴿١﴾ بمعنى أن ذلك الجدار كان ملكاً لطفلين يتيمين ، وكان تحته كنز ، ﴿وكان أبوهما صالحاً﴾ ﴿٢﴾ بمعنى أن والد هذين الطفلين ، كان رجلاً موحداً ، وكان كلامه ينزل على الآخرين كالماء الزلال ، وليس كلدغة من حية قطاء . لم يكن مضرّاً للآخرين ولا أنانياً . لذلك كان لدي أمر من جانب الباري عز وجل بتقويض ذلك الجدار وإعادة بناءه ، لكي لا ينهدم الجدار قبل أن يكبر الأطفال ولكي لا يحصل الآخرين على الكنز الذي تحته .

ماذا تقول لنا هذه الآية ؟ هذه الآية تقول لنا : إذا أردت أن ترضي غرائزك إرضها بالطريق المشروع ، وإذا أردت أن تكون عاقبتك وأولادك على خير ، كن صالحاً ، كن خيراً وخدموا ، إخدم الله وخلق الله بقدر الإمكان . وكن على يقين إذا أردت الدنيا ، سيعطونك إياها وإذا أردت الآخرة ستنالها أيضاً .

﴿من عمل صالحاً من ذكرٍ أو أنثى وهو مؤمن فلنجينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون﴾ ﴿٣﴾ .

بمعنى إذا أصبحت إنساناً خيراً ، وإذا مننت علاقتك بالله ، وإذا لم يكن في حياتك ذنب بالأخص في حق الناس ، فلك في الدنيا حياة طيبة وسعيدة ، وفي الآخرة أيضاً تنتظر الجنة الخالدة . الأجر الذي تناله في الآخرة يفوق ما قمت به من أعمال وليس هنالك أية نسبة بين عملك وذلك الأجر في القرآن الكريم الكثير من الآيات نظير هذه الآية وروايات كثيرة نظير الرواية التي قرأتها . ولدينا أمثلة عديدة في التاريخ ذكرت لكم عدداً منها ورواية الإمام الحسين (ع) تستند إلى القرآن وكذلك على الروايات والتاريخ .

إذن يا أعزائي ، إذا أردتم سعادة الدنيا ، لتكن لكم علاقة بالله ، وأن تخلوا حياتكم من الذنوب . كونوا على ثقة أنكم لن تنجوا شيئاً عن طريق الحرام . من الممكن أن يحصل المرء لأيام معدودات على المال والجاه عن طريق الحرام ، ولكن هذا المال والجاه قد يصبح مصدرًا لتعاسته وبؤسه .

(١) و(٢) سورة الكهف ، الآية : ٨٢ .

(٣) سورة النحل ، الآية : ٩٧ .

أنا وأنتم سمعنا وشاهدنا البعض مرفهين ولكن نفس هذا الشخص الذي يبدو أن وضع حياته مستقر ، عندما تنظر إليه بعمق ، ترى أن حياته هي الموت التدريجي ، وإذا كان الموت يُشترى ، فهو مستعد لأن يهب كل ما يملك ليشتري الموت .

هذا الشخص يتحسّر بشكلٍ لم يتحسّر مثله أي فقير أو مسكين طوال عمره . لماذا؟ القرآن يقول :

﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً ﴾ (١) كل من يُعرض عن الله وكل من ليس له علاقة قوية بالله . فإن أول مصائبه أن يحيا حياة تعيسة في الدنيا .

إذن أنتم يا أعزائي يا من تعشقون الإمام الحسين (ع) كلما فكرتم أو تحدثتم أو عملتم تذكروا رواية معشوقكم : « من حاول أمراً بمعصية الله فهو أفوت لما يرجو وأسرع لما يحذر » .

أنصحكم نصيحة : (وسأتحدث في المستقبل حول ذلك بصورة تفصيلية إن شاء الله) .

أعزائي ، لقد أكدت في أوقاتٍ سابقة : إن عملكم وحرقتكم راقية جداً ، هو عمل الله والنبي .

كما أن عبء مسؤوليتكم كبير جداً . الأولاد الذين تشرفون على تعليمهم ، أمانة في أيديكم وأرذل الناس هو الذي يخون الأمانة .

وهناك رواية عن الإمام السجاد (ع) ما مضمونها : لو وضعوا عندي الخنجر الذي قُطع به رأس والدي أمانةً فلن أخون وسأردهُ إلى صاحبه .

عبد الرحمن بن سبابة يقول : عندما توفي والدي ، كنا في ضنكٍ من العيش فأقرضني أحدُ أصدقاء والدي قدرًا من المال . فاشتغلت في التجارة ، وعن طريق الكسب الحلال استطعت أن أوفي قرضي .

(١) سورة طه ، الآية : ١٢٤ .

وتدريجياً أذخرت كميةً من المال . ساعدتني على أداء فريضة الحج .
وفي المدينة ذهبت لزيارة الإمام الصادق (ع) فقال الإمام (ع) : كيف حال
أبوك ؟ قلت : ﴿ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴾ لقد توفي أبي . قال : ماذا تصنع
وكيف جئت إلى هنا ؟ فشرحت له القضية بأني اقترضت مالاً واشتغلت في
التجارة .

ما إن سمع الإمام الصادق (ع) بالقضية ، قال : « ماذا فعلت بمال
الناس ؟ » ، قلت : يا بن رسول الله ، لقد أوفيت قرض وأمانة الناس وبعدها
جئت إلى خدمتكم » .

فَسَّرَ : الإمام الصادق (ع) كثيراً ، وقال لي : « عليك بصدق الحديث
وأداء الأمانة »^(١) بمعنى عليك بمراعاة أمرين : كن صادقاً ومستقيماً في
عملك . إذا كان المرء ذا مصداقية فيصبح عزيزاً في المجتمع .

٢ - المواظبة على أداء أمانات الناس :

الأولاد الذين تشرفون على تعليمهم هم أمانة في أعناقكم . عليكم تاديةً
واجب حفظ الأمانة إذا لم تُؤدوا واجبكم بصورة تامة لا سامح الله ، وتذهبون إلى
الصف ، بدون مطالعة وتخدعون الأولاد ، وتلفون وقتكم عبثاً ، فهذا تطفيفٌ
وخيانة في الأمانة والمال الذي تحصلون عليه من هذا الطريق سيصبح نقمة ،
ويجبر عليكم الويلات . وكما نوهت فيما مر ذكره من حديث الإمام
الحسين (ع) : « ستجري مسرعاً نحو الفقر والفاقة بدون أن تشعر » .

يقول القرآن الكريم : ﴿ وَيَلِّ لِلْمُطَفِّفِينَ ، الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ
يَسْتَفْتُونَ ، وَإِذَا كَالَهُمْ أَوْ زَنَوْهُمْ يُخْسِرُونَ ، أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ
كَيَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾^(٢) الظن بيوم القيامة يبعث على إعادة النظر في التعامل ، فكيف
إذا تيقن المرء من ذلك .

تقول الآية : ﴿ وَيَلِّ لِلْمُطَفِّفِينَ » . إِنَّ الْكَاسِبَ الْمُطَفِّفَ وَالْمُجْحَفَ

(١) وسائل الشيعة المجلد ١٣ ، ص ٣١٩ ، الحديث (٦) .

(٢) سورة المطففين ، الآيات : ١ - ٥ .

والمحتكر في خطِّ واحد . موظف الدائرة الذي يتهاون في عمله مطفئ .

وأنتم المعلمون أيضاً إذا لم تؤدوا واجبكم والأمانة الملقاة على عاتقكم في نهاية العام الدراسي ، فإنكم مطفئون . أنت أخذت مالا ، ولكنك بتباطئك في العمل والعطل اللاشريعة ، لم تؤد الأمانة الملقاة على عاتقك بصورة تامة . وكما يقول القرآن الكريم :

﴿ الذين إذا اكتالوا على الناس يستوفون وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون ﴾^(١) .

استوفيت وخسرت الكيل ، إذن أنت مصداق هذه الآية شئت أم أبيت فويلُ لك أيضاً .

إذن موجز البحث عبارة عن نصيحة مُؤدَّاها أن تواظب دائماً في قولك وعملك ، وقيل أن تفكر ، وقيل أن تقول ، وقيل أن تعمل تذكّر قول الإمام الحسين (ع) :

« من حاول أمراً بمعصية الله فهو أقوت لما يرجو وأسرع ما يحذر » .

(١) سورة المطففين ، الأيتان : ٢ و ٣ .

جهاد النفس

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ربّ اشرح لي صدري ويسّر لي أمري واحلّل عقدة من لساني ، يفقهوا قولي ﴾ .

الإنسان لديه امتياز من بين كافة المخلوقات وهذا الامتياز هو أنه ذو بُعدين بُعد مادي ، والأخر حيواني يسمونه في الفلسفة : الجسم كما يُسمى جسم الإنسان في علم النفس باسم الرغبات أو الغرائز ويُسمى في الأخلاق والعرفان الإسلامي باسم الاتجاه الحيواني ، أو البعد الحيواني للإنسان ولذا فهو من هذه الناحية حيوان بكل معنى الكلمة ولا يختلف عن الحيوانات أبداً . وله بُعد معنوي أيضاً ، وهذا الجانب جانب ملكوتي ويُسمى في الفلسفة « الروح » لذلك يقولون : إن الإنسان مُركب من الروح والجسم . العقل والروح والوجدان الأخلاقي ، والقلب والصدر جميعها ذات معنى واحد وتتجه نحو البعد المعنوي للإنسان ، وإن ارتقاء وتكامل الإنسان ، يجري عن طريق هذا التركيب ، وبما أنّ الملائكة يمتلكون البعد المعنوي فقط ، لذلك لم يُشاهد ، ولن يُشاهد تكامل في الملائكة .

مع أن حضرة جبرائيل ملك مقرب ، وله سعة وجودية على العالم وكما قال النبي الأكرم (ص) لو تمكن المرء من استيعاب حقيقة جبرائيل ، فإن له هيمنة على عالم الوجود أيضاً ، إن سعته الوحدوية كبيرة إذ أنه ملك الله المقرب . كما هو الحال بالنسبة لحضرة عزرائيل . ولكن ليس هنالك تكامل في جبرائيل ، ليس هنالك أدنى فرق بين جبرائيل الحالي وجبرائيل قبل مليار عام

مع أنه منهمك في عبادة الله ، وكما قال القرآن الكريم فإن جبرائيل لا يخالف ولا يعصي ربه وشأنه شأن سائر الملائكة ، لا يسير نحو التكامل ، كما أن الحيوانات ليس لها تكامل ، مثلاً دابة الأرض والنمل هذه حشرات تعيش بصورة جماعية ، ولديها حضارة خاصة ، وبالأخص دابة الأرض والنحل والنمل حيث كتب علماء الإسلام كتاباً حولها مثل « الديميري » مؤلف كتاب حياة الحيوان وآخرين مثل مترلينغ النمل ودابة الأرض والنحل .

النظام والطرق الحضارية المتبعة في حياة هذه الحشرات تفوق ما يتبعه الكثير من البشر ، ولكن على رغم الحضارة التي يمتلكها النحل مثلاً ، إلا أنه لا يسير نحو التكامل . قبل مليار عام كانت دابة الأرض تبني بيتاً راقياً جداً بحيث حازت على إعجاب وتقدير المهندسين في دقة تصميمها ، ولكنها الآن تبني نفس ذلك البيت .

لم يحدث أي تطور (تكامل) في بناء البيت أو في النظام لدى النمل لكي تصل إلى حضارة أرقى .

التكامل موجود في عالم الخُلقة باسم الإنسان فقط ، لأنه يمتلك بعدين : بعد ملكوتي (ناسوتي) ويسمى الروح ، وبعد حيواني يُسمى الجسم . التركيب أيضاً تركيب عجيب ، بمعنى أن طريقة التركيب مجهولة لحد الآن ، ولا يمكننا بطبيعة الحال أن ندرك كنهها ، لا يستطيع أي فيلسوف أن يوضح طريقة التركيب بين الروح والجسم . إنهم يكتفون بالقول : إن طريقة تركيبه طريقة تعلقية ولكن ماذا تعني التركيبية التعلقية ؟ ماذا تعني حقاً ؟ وما هي طريقتها ؟ تركيب بين ضدين ! . رواية عن النبي الأكرم (ص) في سفره إلى المعراج يقول فيها : رأيت ملكاً في ليلة المعراج ، كان نصفه من النار والنصف الآخر من الثلج ، الثلج لم يكن يسري إلى النار ، وكذلك النار إلى الثلج . إذا أردنا أن نفهم هذه الرواية ، فنحن خير مثال لها .

جميع رغباتنا الروحية لا يتلاءم معها جسمنا ، وعلى العكس جميع رغباتنا الجسمية تسبب المتاعب والألم لروحنا . أنتم لا يمكنكم أن تجدوا لذة روحية ترضي الجسم ، كما تُرضي بُعدكم الحيواني ، مثلاً صفة طلب العلم وصفة

البحث عن العلم ، وصفة طلب الحقيقة وصفة التسامح ، وصفة الإيثار والتضحية جميع هذه الصفات ترتبط بالبعد الملكوتي والروحي للإنسان . عندما تُحل مسألة ما تستلذ الروح كثيراً ، ولكن نفس هذه اللذة الروحية يعقبها ألمٌ في الجسم بمعنى أن طلب الحقيقة يسبب المتاعب عند البحث عن العلم ، وطلب العلم تفرض أمور على النفس وعلى البعد الحيواني .

جميع هذه الأمور تسبب الألم والمتاعب لجسمكم ، أما الأكل والشرب وإطفاء الشهوة والاستراحة فهي مستلزمات مفيدة للجسم ، لكن وكما يقول مثنوي كلما اعتنيتم بهذا الجسم ، تقتل الروح ، ويسري الكسل والمتاعب للروح ، ما هذا التركيب بين هذين الضدّين ؟ التركيب الذي يتكامل الإنسان بواسطته ، ولكن أحياناً يركب الجانب الملكوتي والمعنوي الذي أسميناه الروح ، يركب الجانب المادي ، الجانب الناسوتي والحيواني ، ويتحرك إلى الأمام في حركة تكاملية بمعنى أن هذا الجسم يصبح كالحصان بالنسبة للروح ، الروح تهذبهُ وتروّضهُ وتمتطيه ، إلى أين يذهب ؟ يصل إلى مكان لا يعلمهُ إلا الله . نظير البراق الذي امتطاه النبي الأكرم (ص) وصعد إلى الأعلى ، أما كيف كان هذا البراق ، وكيف صعد إلى الأعلى ، لا نعلم ، إن ما نعلمهُ هو أن النبي الأكرم (ص) ذهب مع هذا الجسم إلى الحد الذي اقترب فيه إلى الله حيث يقول القرآن :

﴿ ثم دنا فتدلى ، فكان قاب قوسين أو أدنى ﴾ (١) .

آخر مراتب القرب تكمن في هذه الآية الشريفة . الإنسان أيضاً هكذا أحياناً يمتطي البراق ، بمعنى أنه يسمو فوق هذا الجانب المادي ، وهذه الرغبات والغرائز ، ويسير سيراً صعودياً يتصل في مرتبته الأولى والثانية بعالم الملكوت ، كما يقول القرآن الكريم :

﴿ إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون ، نحن أولياؤكم في الحياة الدنيا

(١) سورة النجم ، الأيتان : ٨ و ٩ .

وفي الآخرة ﴿١﴾ . بمعنى أن الذين يقولون ربنا الله ، أولئك المؤمنون العاملون بإيمانهم ، إنهم حقيقة مؤمنون أقبلوا على الله تعالى واستقاموا على الطريقة الإلهية وصمدوا بوجه الشهوات .

يصل إلى مرتبة يأتي الملائكة ويتكلمون معه . ويرى الملائكة . وهم يقولون له : نحن أصدقاؤك ، نُجذك في الدنيا وفي الآخرة ، إنه يتعامل مع الملائكة ، وشيئا فشيئا يصل كما يؤكد القرآن وروايات أهل البيت ، ومن حيث التجربة إلى التصرف في عالم الملكوت ، ويتصرف في عالم التكوين . إن استيعاب هذا الأمر صعب ، وشاهدنا بأن البعض قد حقق ذلك بالفعل .

« جابر الجعفي » أحد الأشخاص ، الذين استطاعوا أن يسيطروا على رغباتهم ويمتطون البعد المادي نحو التكامل الملكوتي . الراوي يقول : قلت لجابر في الكوفة : لقد اشتقت إلى الإمام الصادق (ع) . قال : هل تريد الذهاب إليه ؟ فتعجبت ، وقلت : نعم ، ولكن كيف يمكن الذهاب إلى الإمام الصادق (ع) ؟ .

فذهبت خارج الكوفة . ثم قال : أعطني يدك وأغمض عينيك . أعطيتُ يدي ثم فتحت عيني ، فإذا بي في أزقة المدينة ، فتعجبت . قال جابر : هذا بيت الإمام الصادق (ع) اذهب إلى هناك حتى آتي . عندما مررت في الأزقة سألت نفسي قد يكون هذا ضرباً من السحر ، أين أنا من الكوفة ؟ الأفضل أن أضع مسامراً في الحائط ، وفي العام القادم عندما آتي إلى مكة والمدينة سأرى هل المسامير موجودة أم لا ؟ يقول : بينما كنت على هذه الحال وإذ بجابر الجعفي قادم فأعطاني مسامراً وصحراً وقال : اضرب المسامير في الحائط .

يقول : ذهبت عند الإمام الصادق (ع) ولكنني كنت خائفاً جداً ، فرأيت جابراً قادماً وانفرد بالإمام (ع) أحياناً كان الإمام الصادق (ع) يناجيه وأحياناً كان هو يتحدث إلى الإمام - خلوة العاشق بالمعشوق - جلست عند الإمام (ع) مدة وبعد ذلك خرجنا سوية ، فرآني جابر ، وقد أصبت بالذهول فقال : هل تريد أن

(١) سورة فصلت ، الأيتان : ٣٠ و ٣١ .

تذهب إلى الكوفة؟ قلت: نعم. قال: اغمض عينيك وأمسك بيدي، ثم فتحت عيني وإذ أبي في الكوفة.

لا تستغربوا، إن هذه الأمور لها جذور قرآنية. ناهيك عن العرفاء والتجربة وتاريخنا، فإذا لم تكن هذه الأمور، ذات جذور قرآنية ما كنت قد تحدثت عنها لكم، نقرأ في تفسير القرآن الكريم حول «أصف بن برخيا» أحد تلاميذ حضرة سليمان: عندما جاءوا بالخبر، كان هو يعلم بالخبر بأن بلقيس تحكم في اليمن، وإن الناس هناك يعبدون الأصنام. قال حضرة سليمان: من الذي يستطيع أن يأتيني بعرش بلقيس؟ القرآن يقول: ﴿قال عفریت من الجن أنا آتیک به قبل أن تقوم من مقامك...﴾^(١) ثم يقول: ﴿قال الذي عندہ علم من الكتاب أنا آتیک به قبل أن یرتد إلیک طرفک﴾^(٢) قال: إذن لي بأن آتیک بعرش بلقيس في لمح البصر، اغمض عينيك ثم افتحها، سيكون العرش جاهزاً ﴿قيل أن یرتد إلیک طرفک﴾^(٣) فأذن له. فجاء أصف بن برخيا بالعرش في لمح البصر، القرآن يقول إنه جاء به. ما هذا العلم يا ترى؟

كيف يمكن للإنسان أن يُدرك هكذا؟ إذا أراد أن يُدرك، هذا هو السبيل، عليه أن يسير في الملكوت، وأن يسيطر على النفس ويهذب البدن الحيواني، أن يلجم هذا الحصان الجامح ويمتطيه، حينذاك يصبح جابر الجعفي، وأصف بن برخيا.

هذا الموضوع طرحته بصورة عرضية، ولم أقصد أن أتناوله بهذا الشكل الأمر الذي أود أن أسترعي انتباهكم نحوه، وأعلم أنكم تعانون من نقص شديد في هذا المجال، هو أن تتعاملوا مع القرآن، القرآن فيه أشياء كثيرة، كلما تريدونه في حياتكم موجود في القرآن وللأسف فنحن لا نتعامل مع القرآن، إذا أردتم نور البصيرة والعلم، وأن تسخروا عالم الملكوت وسلامة الدنيا والآخرة، عليكم بالتعامل مع القرآن.

(١) سورة النمل، الآية: ٣٩.

(٢) سورة النمل، الآية: ٤٠.

الإمام السجاد (ع) يقول : إذا ماتت الدنيا وبقيت مع القرآن ، فلن أخشى شيئاً ، بمعنى لن أخشى أحداً ما دمت مع القرآن . هذه الآية الشريفة تصف القرآن بما يلي :

﴿ قال الذي عنده علم من الكتاب ﴾ أولئك الذين درسوا الأدب وهم موجودون الآن في مجلسنا يعلمون بأن كلمة « علم » قد جاءت بصورة نكرة ، وتدلّ على القلّة وتتنوّعها وتنوّع التنكير ، ويدل على القلّة ، حيث يصبح معناها هكذا : ذلك الذي (أي آصف بن برخيا) كان لديه علم قليل من القرآن استطاع أن يقوم بهذا العمل . يقول الإمام الصادق (ع) :

« علم آصف بن برخيا » بالنسبة إلى القرآن وبالنسبة لنا كان كقطرة في البحر . وحسب رواية الإمام الصادق (ع) وحسب القرآن وبالذات ، كانت لديه قطرة من علم القرآن وتمكن أن يأتي بعرش بلقيس من اليمن إلى الشام بلمح البصر . هذا علم . لذلك قلت : لا تظنوا بأن جابر الجعفي من خرافات التاريخ ، كلا ، إن له جذور قرآنية ، إذا امتطى الإنسان البراق كما امتطاه النبي (ص) ، وذهب حيث كان جبرائيل الذي قال :

« لو دنوتُ أنملةً لاحتترقت » بمعنى اذهب أنت ، فلا مكان لي هناك ، ولو اقتربت قيد أنملة لاحتترقت ، وكما امتطى النبي (ص) البراق ، وذهب إلى ذلك المكان الذي لا نعرف أين هو ، الإنسان أيضاً هكذا هو سياقُه التكاملي ، ليس فقط يستطيع أن يسخر الفضاء وعالم المادة بل بإمكانه أن يسخر عالم الملكوت ، ليس فقط عالم الملكوت بل يمكنه أن يصل إلى مكان يجد فيه ربه ، كما يجد الإنسان الظامئ العطش . أنتم عندما تشعرون بالعطش كيف تشعرون به ، مرة قد يصل الأمر إلى أن يسمونه بعالم الفناء ، يقولون عالم القرب ، عالم اللقاء ، لقد تحدث في واحد وعشرين موضعاً حول عالم اللقاء وأساساً هذه هي الغاية من خلق الإنسان .

لو استطاع الإنسان أن يسيطر على هذا البعد المادي والبيهي ، وأن يتغلب البعد المعنوي على البعد المادي يستطيع أن يصل إلى أي مكان يشاء . من العيب أن يقول إنسان ما ، لا أستطيع ، إذا لم يستطع فإنه لا يريد الحركة باتجاه التكامل ، إذا أراد الإنسان كل شيء فذلك ممكن ، ويستطيع الإنسان أن يحققه

وهذا هو معنى الآية الشريفة :

﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾ (١).

إلا أن هذا الإنسان الذي قَبِلَ الأمانة ، يمارس الظلم والجهل بحق نفسه . القرآن يقول : ﴿ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾ مستعملاً صيغة المبالغة ، وهذه الحقيقة إذ أن الإنسان يمارس الظلم والجهل بحق نفسه بصورة مستمرة . الإنسان يجهل نفسه وهذا هو مصدر كافة متاعينا الراهنة . الغرب والشرق ، الحضارة والعلم لم يعرفوا الإنسان ، ولأنهم لم يعرفوه نرى كافة النظريات التي قدمها فلاسفة الغرب ولا سيما علماء الأخلاق تفتقر إلى معرفة الإنسان . كتاب « أسلوب البحث عن الأصدقاء » يتحدث حول الأخلاق ، أخلاق الغربيين ماذا يفعل الكاتب في كافة أجزاء الكتاب الذي طبعت ملايين النسخ منه وهو كتاب جيد إنه يقول : إذا كنت خلوقاً ستجذب المزيد من الزبائن . يضرب عدداً من الأمثلة للبائسين . . . إذا كنت بشوشاً ودمت الخلق ستكون محبوباً . يضرب بعض الأمثلة للمعلمين ، وبعض الأمثلة لمديري المعامل . وحتى نهاية الكتاب يفترض الكاتب الإنسان كحيوان آحادي الأبعاد ، الكل يحسبون الإنسان آحادي الأبعاد ، يتصورون أنه لا يفهم إلا أن مصدر كافة المتاعب يكمن في عدم معرفتهم وجود ودور الإنسان . مهندس ألماني أراد أن يزن قيمة الإنسان وبعد المحاسبة توصل إلى قيمة هي عشرون ماركاً (٨٠) تومانياً لماذا؟ يضيف المهندس الألماني : الإنسان يملك ٤ كيلو من الكلس وكان قد قدر ذلك من الناحية الفيزيائية والكيميائية ، وكذلك (٥) كيلو حديد ، ٣ كيلو سكر و . . . إذن سعر الإنسان الواحد (٨٠) تومان حين قرأت هذه الجملة سخرت من هذا المنطق الهزيل .

أمير المؤمنين (ع) يؤكد في أحد الروايات نفس هذا الموضوع .

« من كان همه بطنه فقيمه ما يخرج منها » .

(١) سورة الأحزاب ، الآية : ٧٢ .

إذا أراد الإنسان أن يصبَّ جلَّ اهتمامه على بطنه ، فليس له أية قيمة إطلاقاً ، قيمته ما يخرج من بطنه . حقاً إن الإنسان لجهول ، بمعنى أنه لم يعرف نفسه ، عالم اليوم لا يعرف الإنسان ، نحن لم نعرف أنفسنا لذلك نتسج كدودة القز حول أنفسنا حتى نكاد نخنق ، ليل نهار من أجل البطن ، من أجل حب الدنيا ، والرئاسة ، لا نمضي فقط بل نذنب أيضاً من أجل ذلك .

يُعتبر هذا الشخص كدودةٍ تتخبط في المزيلة كما تؤكد ذلك الروايات . هذه هي قيمة الإنسان الذي يفكر في بطنه ويهتم الجانب المادي ، الإنسان الذي لا يعلم إلى أي مدى يمكنه أن يصل ، الذي لا يعلم أنه قد يصل إلى مرحلةٍ يقول له جبرائيل : أنا خادمك ، الإنسان الذي يستطيع أن يصل إلى القرب الإلهي ، يهوي إلى القعر بسبب حب الدنيا والذنوب . نقرأ في الروايات : إن البعض في يوم القيامة لديهم منازل وغرف من اللؤلؤ ، لا أعلم ماذا تعني ؟ ثم يقول : « فأنظر إليهن سبعين مرة وأكلهم ، من الحي الذي لا يموت إلى الحي الذي لا يموت » .

إني أتكلم ومن ضمن كلامي أقول : دع أهل الجنة مع أطعمة الجنة وحوار العين ، ولكن ليكن طعامكم كلامي ولذتكم التحدث معي . هذه الأمور تحتاج إلى ذوق أرقى لذة للعاشق هي أن يختلي بالمعشوق ، هذه ذروة اللذة . لا يمكنه أن يتذوق لذة أخرى . الأكل والشرب لا قيمة لهما بالنسبة له والأرقى من ذلك حديث العاشق مع المعشوق ، والأرقى من ذلك أن يتحدث المعشوق إلى العاشق ، هذه اللذة التي يحظى بها العاشق من المعشوق لذة معنوية ، بمعنى أنه مستعد أن يتخلى عن اللذة المادية ، وما هو حيواني ، وكذلك كل ما في الدنيا ، من أجل أن يقول، لمعشوقه : أحبك .

هذا ما يقوله القرآن : ﴿ يا أيها النفسُ المطمئنةُ ارجعي ﴾^(١) . يا من تمكنت من أن تسيطر على نفسك وجانبك الحيواني ، يا من وجدت جانبك الناسوتي وضالتك ونفسك المطمئنة ، تعال ، تعال ، إلى أين ؟ ﴿ ارجعي إلى ربك ﴾^(٢) تعال ، تعال ، تعال نحوي . لا يقول : نحو الجنة ، لأن الجنة

(١) سورة الفجر ، الأيتان : ٢٧ و ٢٨ . (٢) سورة الفجر آية : ٢٨ .

لا تساوي شيئاً للإنسان ، الإنسان خُلِقَ للذهاب إلى الجنة ، خُلِقَ ليتخلى عن الدنيا والجنة من أجل معشوقه : ﴿ إرجعي إلى ربك راضية مرضية ﴾ (١) .
المعشوق الحقيقي يقول : أيها العبد ، أنا راضٍ عنك ، أحبك ، أنا راضٍ
عنك .

هذا الإنسان من وجهة نظر القرآن الكريم إنسان راقٍ جداً .

ولكن لو حدث العكس ، بمعنى أنه انجرف نحو السقوط وتم تركيب بعده
المعنوي حيث تغلب البعد الناسوتي ، حينها يهيمن البعد الحيواني ويمتطي
الروح ، مثل معاوية الذي امتطى عقله . العقل يعمل لحسابه ، والروح تعمل
لحسابه ، إنه يتحرك أيضاً ولكن أية حركة ؟ حركة نزولية ، لا يمكن للإنسان أن
لا يتحرك ولا يتكامل ، ولكن أي تكامل ؟ هنالك حرب دائمة تدور رحاها بين
الروح والجسم ، ذلك هو الجهاد الأكبر . الإنسان في حركة مستمرة ، تارة
حركة صعودية يصل فيها إلى الله : ﴿ إرجعي إلى ربك ﴾ وأخرى حركة
نزولية ، القرآن يقول إن الإنسان في الحالة الأخيرة يصبح أرذل من أي
ميكروب :

﴿ إن شرّ الدوابِّ عندَ اللَّهِ الصَّمُّ البِكْمُ الذين لا يعقلون ﴾ (٢) .

أرذل من أي ميكروب . ما مدى الضرر الذي يلحقه ميكروب السرطان
بالمجتمع والفرد ؟ يصبح أدنى من ميكروب الجدام : القرآن يقول : إن
الإنسان الذي ليس له عقل أو فكر وقد مات الجانب المعنوي فيه وقُضي عليه ،
فإن مضاره لنفسه وللمجتمع أكثر من ميكروب السرطان .

أيهما يلحق ضرراً أكبر بالعراق ميكروب الكوليرا أم صدام ؟ إذا هيمنت
إحدى الغرائز على الإنسان ، فهذا هو الإنسان لا شيء يسدّ نهمة ، وإذا تورّط
في الجريمة يصل إلى ما وصل إليه الحجاج بن يوسف الثقفي عندما حان وقت
الغداء يأتي بأحد شيعة علي (ع) ويقطع رأسه ثم يتركه ينازع الموت ويرفس

(١) سورة الفجر ، آية : ٢٨ .

(٢) سورة الأنفال ، الآية : ٢٢ .

برجليه . كان يتلذذ برؤية هذا المنظر البشع ، كان يؤكد ما مضمونه : إني أستلذ حين أقتل أحد شيعة علي . شخصُ كهذا لديه حركة ، ولكن إلى أين ؟ القرآن يقول : إلى جهنم .

هناك رواية عن النبي الأكرم (ص) مفادها : أن النبي (ص) كان جالساً مع جبرائيل فسمعا صوتاً مدوياً ، هذا الصوت يسمعه جبرائيل والنبي . فسأل النبي (ص) : ما هذا الصوت ؟ قال : هذا صوت صخرة ألقيت منذ سبعين سنة في أحد آبار جهنم ووصلت توّاً إلى قعر البئر .

لقد فسّر لنا أستاذنا الكبير قائد الثورة العظيم (قدس سره) في بحثه الأخلاقي هذه الرواية ، إذ قال : معنى ذلك أن الذي يأتي إلى هذه الدنيا ، وبدلاً من أن ينتهج حركة صعودية ، ينتهج طريق جهنم ويتقدم ، وبدلاً من أن يقوّي يوماً بعد يوم علاقته مع الله يقوم بتوثيق علاقته مع الشيطان ، وبدل أن يقوّي الروح ، تنقوّي رغباته وغرائزه ، فاعلموا أن آياً من هذه الرغبات التي تقدمتم بها تستشري يوماً بعد يوم ، وشخصاً كهذا قد انتهج طريق جهنم ، وهو ميت الآن وبعد مرور سبعين سنة وصل إلى قعر جهنم .

هنالك حديث شائع يقول : إن أحداً وقع من الأعلى إلى الأسفل ، فأرؤه في المنام ، وسأله كيف حالك يا سيد ؟ قال : يكفي أن أقول إن كل ما يقوله الروحانيون حول مجيء النكير والمنكر ، في ليلة القبر الأولى كذب في كذب ، فأننا عندما سقطت من الأعلى ، وقعت في وسط جهنم مباشرة ، لقد كان صادقاً في كلامه ، لأنه لا منكر ولا نكير لهؤلاء ، ويذهبون إلى وسط جهنم مباشرة . الرواية تعني نفس الشيء ، لقد فسّرها قائد الثورة العظيم تفسيراً حسناً .

حركته النزولية إلى وسط جهنم ﴿إليه الرجعى﴾ ذلك يسير باتجاه الله ، وهذا يتجه نحو جهنم ، ذلك يصل إلى الجنة والآخر إلى جهنم ، أما الفرق فهو أن : الذي يصل إلى جهنم ستكون حركته حركة ختامية وكَمَالُهُ سيكون الاحتراق ، ولكن ذلك الذي كانت حركته السير في ذات الباري عزّ وجلّ فإن لذته لذة العاشق من المعشوق ، لذة العبد من المولى ، ولا يصل إلى نهاية لذلك أدعوكم إلى معرفة النفس .

أمير المؤمنين يقول : « كفى بالمرء جهلاً أن لا يعرف قدره »^(١) ونحن لا نعرف أنفسنا .

الراوي يقول : كنت في خدمة أمير المؤمنين (ع) عندما كان يحفر قناة وسط النخيل . فخرج من القناة ظهراً ، وصلى صلاة الظهر والعصر ، ثم قال : هل هنالك طعام للأكل ؟ قلت : لدينا قرع مطبوخ . قال : هاتيه . يقول : جئت بقدرٍ من القرع المطبوخ لعلي (ع) فغسل يديه الكريمة من ماء كان يخرج من بين الرمل وبدأ بالأكل ، كان يناجي نفسه وأحياناً يقول : لعنة الله على من دخل جهنم بسبب البطن . حقاً لتكن لعنة الله على شخص كهذا ، وكذلك لعنة الله على كل من يستغيب الناس حسداً وطلباً للجاه ويمارس القذف والنميمة ، ويصبح جهنمياً ، ولعنة الله على من يذهب إلى جهنم بسبب البطن . ثم يقول : تناول طعام الغداء ثم ذهب إلى القناة وقام بالحفر بالمعول فأصاب بمعولٍ صخرة ففار الماء بحيث غمر الماء العكر محاسن أمير المؤمنين (ع) ولم يستطع الاستمرار في العمل . فخرج من القناة أما الأطفال والأقارب فجاءوا لرؤية علي (ع) ليشهدوا الماء الوفير ويبدو أنهم فرحوا بذلك كثيراً .

وفي الوقت الذي لم يكن علي (ع) قد خرج بعد من القناة ، كانت إحدى قدميه علي حافة القناة ، والقدم الأخرى على الحافة الأخرى ، قال : أعطوني قلماً ودواة . لقد كان عمله طيلة السنوات الخامسة والعشرين إنه أوقف أربعاً وعشرين نبأً وقناةً ومزرعة للفقراء والضعفاء والمساكين . يقول في تلك القناة ، كتب كتاب الوقف ، ثم قال : يا أولادي ، ويا أقربائي ، لا تطعموا في هذه القناة ، إنها ملك للفقراء والمساكين . ماذا تقول لنا هذه الجملة ؟ عليّ إنسان ، لم تكن لذته مرتبطة بوجود القرع المطبوخ أو فقدانه فهي لذة حيوانية .

لذة مولانا أمير المؤمنين (ع) هي أن يتمكن من حفر قناة ويعثر على ماء ليزرع النخيل للفقراء والمعوذين . إن هذه هي لذة علي (ع) ، وهذه هي الإنسانية . الإنسان هو الذي تكون لذته معنوية أن يستلذ بالعثور على العلم وطلب العلم ، والبحث عن الحقيقة والإيثار والتضحية ، أن يسعد لسعادة رفيقه

(١) نهج البلاغة ، طبع مصر ، المجلد (١) ، ص ٥٦ .

ويحزن لحزنه ، هذا الشخص يُسمى إنساناً . قد يكون لدينا ما يربو على خمسين رواية عن الإمام (ع) يقول فيها : أجب ما تحب لنفسك وما لا ترغب فيه لا تُرغبه للآخرين وإلا فلست بمسلم .

أيها السادة الكرام ، وأيتها الأخوات الفاضلات لو اقتديتم من الآن بهذه الرواية ، فستصلح جميع الأمور . هل تحبّون أن يستغيثكم أحد ؟ كلا . إذن لا تستغيثوا مسلماً . أنتم الذين لا ترغبون أن ينظر أحد نظرة شهوانية إلى أعضائكم ، فلا تنظروا بها لأعراض الآخرين . أنتم الذين لا تريدون أن يقدفكم أحد ويريق ماء وجهكم ، فإذا كنتم حقاً مسلمين فلا تَقفّذوا أحداً . أنتم تريدون أن ينجدكم أحد عند الحاجة ؟ نعم . إذن يجب أن تفكروا بالمعوزين . أتريد أن يحترمك الناس ، وأن لا يهاجمونك ؟ إذن عليك دائماً أن تحترم شخصية الآخرين . هذا هو المسلم . تعالوا نقنّدي بهذه الرواية منذ الآن وخلاصة البحث هي : أنا إنسان ، لدي جانب ملكوتي ، أصل به إلى أي مكان أريده ، أستطيع أن أصل إلى مرحلة أرفض الدنيا وزخارفها حين أواجه الذنوب ، إذن من الأحرى أن يعمر بُعدي الملكوتي . هنالك حرب بلا هوادة بين البعد الملكوتي والمادي ، كل واحد يريد أن يصرع الآخر . تعالوا نترك الذنوب في حياتنا . لتكن هذه الرواية قدوتكم في الحياة ، لكي تكونوا منتصرين دائماً في هذه المنازلة التي سماها النبي الأكرم (ص) : « الجهاد الأكبر » . إن لم نكن هكذا ، فالذنوب أحسن غذاء وقوة للبعد المادي .

الذنب يمكنه أن يزيل إنسانية الإنسان ، إذن الذنب يجعل الإنسان أزدل من أي حيوان ، يغطي العقل ويحجب القلب والوجدان الأخلاقي ، وأخيراً فإن الذنب يولد الفظاظة للإنسان ويقتل الوجدان الأخلاقي ويوصل إلى مدى يقول القرآن عنه : ﴿ أولئك كالأنعام بل هم أضل ﴾^(١) أولئك ليسوا بشراً ، إنهم حيوانات بل أدنى من الحيوان . البحث لم يكتمل بعد ، أرجو أن :

١ - تتمعنوا في هذا الكلام ، إذا كان لديكم انتقاد أو أي شيء آخر فستحدث حوله لاحقاً إن شاء الله لذلك راجعوا أنفسكم في كل ما تحدثنا عنه .

(١) سورة الأعراف ، الآية : ١٧٩ .

٢ - إذا تقرر أن تشاركوا في الجلسات عليكم بنظم أموركم لأنكم أنتم العاملون في مجال التربية والتعليم يجب أن تجسدوا النظام أمام الآخرين .

الإنسان الملكوتي

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم . ربّ اشرح لي صدري ويسّر لي أمري واحلل عقدة من لساني ، يفقهوا قولي ﴾ .

إتماماً للحديث السابق الذي قلت فيه أن الإنسان مركّب من الروح والجسم . وبعبارة أخرى الإنسان له بعدان : بعد ملكوتي ومعنوي يسمّى الروح وجانب ناسوتي ، وبهيمي يسمّى الجسم والذي يسمّونه أيضاً الرغبات والغرائز ، كما أننا نسمي ذلك البعد المعنوي علاوة على اسم الروح نسميه العقل . وقد سمي أيضاً في القرآن الكريم القلب والصدر ، وجميع هذه التسميات تشير إلى ذلك البعد المعنوي للإنسان .

الأمر الذي يجب أن أنوّه له وننتبه إليه هو الحرب التي تدور بلا هوادة في داخلنا ، هذه الحرب سماها النبي الأكرم (ص) : « الجهاد الأكبر » .

لدينا روايات كثيرة ، تقول بأن هذه الجبهة أصعب الجبهات ، وهذه الحرب أهم الحروب ، والشجاع من استطاع أن يحفظ توازنه فيها .

الروايات حول هذا الأمر مختلفة ، على سبيل المثال رواية تقول : إن شاباً كان قد عاد تَوّاً من جبهة الحرب . لم يكن قد ذهب إلى بيته وكان غبار الجبهة على وجهه . فمرّ من جانب النبي (ص) وهو يمشق سيفه المُدمّى . قال النبي (ص) : يا شاب بارك الله فيك وفي جهادك في سبيل الله ، ولكن « عليك بالجهاد الأكبر » فقال : يا رسول الله وأي جهاد أكبر من هذا الجهاد ؟ (إنه عائد

من جبهة الحرب) ، قال : الجهاد الأكبر ، جهاد النفس الأمانة . جهاد الروح مع الجسد ، جهاد البعد المعنوي ضد البعد البهيمي ، ولدنيا رواية أيضاً أن شباباً كانوا يتبارون في القوة وكانت هناك صخرة كبيرة أرادوا رفعها ، فوصل النبي الأكرم (ص) وشجعهم ، قائلاً : بارك الله فيكم ، إنها مباراة ورياضة ، ولكن « أشجع الناس من غلب هواه »^(١) ليس الشجاع من تمكن من رفع صخرة حتى نقول إنه أشجع من الآخرين . أجل ، نسميه شجاعاً ، ولكن الأشجع من الجميع ، من تغلب على هواه وشهوته وبُعدِه البهيمي .

المهم هناك قضايا كثيرة في الإسلام مشابهة للقضيتين اللتين ذكرتهما وشعار الإسلام هو : « أشجع الناس من غلب هواه »^(٢) إذا تغلب البعد المعنوي لدى شخص ما على بعده المادي في ساحة الحرب ، هذا أشجع الناس وهذا ما يصعب تحقيقه .

التذكير المفيد لكم ، يا أعزائي هو أن هذه الحرب دائمية ، أحياناً يكون الجسم هو الغالب والبعد المعنوي مغلوب فيها ذنبٌ يطغى على البعد المعنوي ويشلّ تحركه ، لأن البعد المعنوي يصبح مقهوراً بسبب الذنب . أحياناً يحصل العكس ، يدوس المرء على الذنب ونفسه الأمانة ، فيجتنب الذنب ويتغلب البعد المعنوي ، ويصرع البعد المادي ويتغلب عليه . الأمر الجدير بالعناية أنه إذا خرج بعدنا المعنوي من ساحة الحرب ، فنحن مرفوعي الرأس ، كشابٍ تقدم من جبهة الحرب وأحرز نصراً ، ولكن لو حدث العكس ، بمعنى أن يخرج البعد المادي منتصراً فإن الإنسان يطرق برأسه خجلاً كمن قد شارك في حربٍ وخرج منهزماً منها . لكن هنا يختلف الأمر ، بمعنى أنه عندما يأتي الذنب وتتغلب نحن على النفس الأمانة ونصرع البعد الحيواني أرضاً ، فإننا صرعنا أنفسنا ، لأننا نتكوّن من جسمٍ وروح . من هنا علينا أن ندرك أن حقيقة الإنسان تكمن في بعده المعنوي وليس المادي إنسانية الإنسان تتحقق بروحه ووجدانه الأخلاقي وعقله . الإنسان الذي ليس له عقل أو فكر ، الإنسان الذي ليس لديه وجدان أخلاقي ، وأطقاً ومضات وجدانه ، ليس إنساناً أساساً ، ومن وجهة

(١) و(٢) سفينة البحار ، المجلد الأول ، ص ٦٨٩ .

القرآن أيضاً لا يعتبر إنساناً . القرآن يقول :

﴿ إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصَّمُّ الْبَكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ (١) .

بمعنى أن عاقبة بعض الناس تؤول إلى جهنم ، كأنهم اتخذوا طريق جهنم ويتقدمون باتجاهه . لماذا ؟ إن هؤلاء لديهم قلب بمعنى لديهم البعد المعنوي ولكنه مقهور ، أبادوه ، ولم يعودوا يفهمون ، لديهم عين المعنوية والبصيرة ، ولكنهم فقأوا عين البصيرة بواسطة الذنوب ، بمعنى أن البعد المعنوي هُزم في الجهاد الأكبر ، لم يعد لديه إذن يسمع بها أو عين البصيرة يعقل بها . يقول : ﴿ أولئك كالأنعام ﴾ لم يعد إنساناً ﴿ أولئك كالأنعام بل هم أضل ﴾ لذلك من الواجب أن تكون هذه النقطة حاضرة في أفكاركم ومن هنا تتضح أحد أدلة الوجود والتجرد ، إلى الآن وصلنا إلى هذه النقطة بأن الإنسان يتكون من البعد المعنوي والملكوتي ، والبعد البيهيمي والناسوتي ، بمعنى أن لديه جانب حيواني يسمى بالرغبات والغرائز ، وجانب معنوي يسمى العقل والروح وهذان الجانبان في نزاع مستمر ، وإذا تغلب جانبنا المعنوي والروحي ، فنحن مرفوعي الرأس ، مع أننا لم نصرع أحداً ، بل صرعنا أنفسنا ، ولكننا مرفوعي الرأس ، وإذا حصل العكس ، بمعنى إذا صرع الجانب المادي الجانب المعنوي ، فنحن سنكون مطاطيء الرأس ، خجلين مع أن أحداً لم يهزمننا بل نحن الذين هزمننا ذلك الجانب . إذن إنسانيتنا في بعدنا الملكوتي .

الإنسان هو المسؤول عن تكوين وجدانٍ أخلاقي ، وتسامح وحبٍ للآخرين وتفاني من أجلهم . إذا سمع استغاثة مظلوم ، يحزن ويبكي ، ويأرق ، وكما تقول الروايات : الإنسان هو من يفرح إذا أعان مسكيناً ، وأن يكون بنيان حياته قائماً على حب الآخرين وليس حب الذات ورحم الله الشاعر سعدي حين يقول :

جسم الإنسان شريف بروحه الإنسانية

ليس هذا الثوب الجميل علامة الإنسانية

(١) سورة الأنفال ، الآية : ٢٢ .

إذا كان الإنسان إنساناً بعينه ولسانه وأذنه وأنفه

فما الفرق بين الرسم على الحائط وبين الإنسانية

ليت سعدي أخذ ذلك المعنى من القرآن وقال : ما الفرق بين الإنسان والبهائم ؟ .

هكذا يقول القرآن ، إذا لم يكن للإنسان بُعداً ملكوتي ، إذا لم يكن للإنسان أخلاق إنسانية ، وإذا لم يهتم بواجباته ، ولم يأبه لارتكاب المعاصي ، فما الفرق بينه وبين البهيمة ؟ القوام مقداراً من الكلال أمام حمارين ، من المعلوم أن الحمار الأقوى سوف يتغلب ، ويأكل الكلال ، هذا يسمونه قاعدة هيمنة القوي على الضعيف . إذا أصبح الإنسان هكذا : (دنيانا اليوم هكذا ، بمعنى أن قاعدة هيمنة القوي على الضعيف سائدة حالياً) . فما الفرق بين الحمار والإنسان ؟ .

عندما تقومون بعمل يرتضيه الله ويرتضيه العقل ، تشعرون بالفخر والاعتزاز ، وعندما تقومون بعمل لا يرتضيه الله والعقل ، تشعرون بأنكم مطاطيء الرأس ، من هنا ندرك أن إنسانية الإنسان بعقله وروحه وجانبه الملكوتي إذا كنا بشراً ، علينا دائماً بتقوية جانبنا الملكوتي .
إذا أردنا أن نكون بشراً ماذا يجب أن نفعل ؟ .

هذا هو عنوان الإثارة التي سنبحثها . ما إذا يجب أن نفعل ، لكي نحقق النصر في المعركة بين الحق والباطل ، في المعركة بين الجانب الناسوتي والجانب المعنوي في هذا الجهاد الذي قلنا : إن النبي (ص) أسماه الجهاد الأكبر ؟ القوة يجب أن تأتي دائماً من الخارج ، إذا لم تأت القوة من الخارج فنحن مهزومون والسبب واضح ، لأن الجانب المادي يكون عاصفاً دائماً كما أن جيشه لا يعد ولا يحصى كغريزة حب المال ، وغريزة حب الحياة ، وغريزة حب الأولاد ، غرائز الصفات الدنيئة ، كالحقد والحسد ، وكذلك قانون الوراثة ، وقانون البيئة ، وقانون التغذية . كل هذه في جانب ، والجانب المعنوي فقط في الطرف الآخر ، وإذا أردت أن أضرب مثلاً ، فإن الحرب في داخلنا تشبه الحرب الراهنة في الخارج .

إنكم ضعفاء جداً من حيث العدة والعدد ، فكيف تنتصرون ؟ هذا هو بحثنا ماذا يجب أن نفعل ؟ لنفترض أن الجانب المادي والجانب البهيمي فينا قوي جداً من الناحية التسليحية وأن الجانب الملكوتي فينا ضعيف جداً ، ماذا يجب أن نفعل لتقويته ؟ طبعاً قوة الخارج ضرورية ، فما هي هذه القوة ؟ .

١ - الاهتمام بالواجبات :

أن يهتم الإنسان بالواجبات ، القرآن الكريم يقول :

﴿ واستعينوا بالصبر والصلاة وأنها لكبيرة إلا على الخاشعين ﴾^(١) .

بمعنى أن تستعينوا بالله في معركة الحق ضد الباطل ، معركة الروح ضد الجسم ، هو يجب أن يُعينكم ، بأي شيء ؟ الصلاة ﴿ واستعينوا بالصبر والصلاة ﴾ إذا اهتم الشخص بواجباته ، عندما يحين موعد أداء الواجب يحدث صراع في داخله إلى أن يقوم بأداء ذلك الواجب ، هذا الصراع والقدرة الناجمة عنه تساعد المرء على تأدية واجباته .

القوة الخارجية تساعد ذلك البعد المعنوي ، ويمكن بواسطتها أن تتغلب القوة على الجسم ، بمعنى عندما تحدث زوينة تستطيع القوة الخارجية أن تقف في وجهها ، وأن تسيطر عليها وتروضها ، لذلك فقد أثبتت التجارب كما أكدت الآيات القرآنية ، وروايات أهل البيت ، إننا إذا أردنا أن نصبح بشراً ، وإذا أردنا أن نتنصر في هذه المعركة التي قال عنها الرسول (ص) : « إنها أعظم المعارك » ، علينا الاهتمام بالواجبات وبالصلاة خاصة ، أنا لا أعلم ما هذه الصلاة ؟ . كم هي قوة جبارة ، وكم هي مفيدة للإنسان بحيث تم التأكيد عليها إلى هذا الحد لذلك ينبغي عليكم أن تؤكدوا على قيمة الصلاة لشبابكم .

فخر الرازي مُفسر ، وعالم سني ، عنده كتاب في التفسير ، وهو تفسير جيد ينقل جملة على هامش سورة : ﴿ والعصر ، إن الإنسان لفي خسر ﴾^(٢) . رواية تبيّن الخلاف الموجود بين المفسرين حول معنى والعصر (حول تفسير

(١) سورة البقرة ، الآية : ٤٥ .

(٢) سورة العصر ، الأيتان : ١ و ٢ .

والعصر) كل واحد تحدث بشيء ، الاحتمالات كثيرة ، وليس ذلك ما أريد أن أبحثه الآن .

أستاذي الجليل ، قائد الثورة العظيم قال : والعصر تعني قسماً بحضرة بقية الله (عج) وكان يقول : العصر بمعنى العصاره ، وبما أن إمام الزمان عصاره الخلق ، لذلك فقد أقسم الباري عز وجل به .

حسناً ، هذه فتوى رقيقة لمن يملك رقةً بالغة ، ولكن هنالك معانٍ أخرى من ضمنها ، قيل : إن المقصود بالعصر هو صلاة العصر : « والعصر » تعني قسماً بصلاة العصر ، فخر الرازي يجتذ المعنى الأخير ، ولكي يثبت ادعاءه يروي رواية والرواية كما يلي : يقول جاءت امرأة ، وهي تولول وتصيح عند النبي (ص) فقالت : يا رسول الله ، ليخرج أصحابك ، لدي عمل معك وحدك . خرج الصحابة ، وجلست تلك المرأة عند النبي (ص) ، قالت : يا رسول الله ، ارتكبت معصية ، معصيتي كبيرة جداً ، قال النبي (ص) : رحمة الله أوسع منها ، مهما كانت المعصية كبيرة يجب أن لا يقطن المرء . مهما كانت المعصية كبيرة ، وأمدّها طويل ، فلو تاب المرء وجرى صراع في داخله فستغفر ذنوبه . ليس في الإسلام طريق مسدودة .

قال النبي (ص) : ما هو ذنبك ؟ قلت : يا رسول الله ، كنت امرأة متزوجة فزנית وحملت ، وجاء الطفل إلى الدنيا فخنقته ، في زير الخلل ، ثم بعث الخلل النجس للناس ، معصية كبيرة جداً جداً ! من الواضح أن النبي (ص) تألم كثيراً لدى سماعه أقوال هذه المرأة ، وأصدر حكمه في هذا الأمر ، الذي أقصده هو أنه قال : يا سيدة ، أتريدين أن أقول لك : لماذا وقعت في هذه البئر ؟ بمعنى لماذا يقع المرء أحياناً في البئر بحيث لا يمكنه الخروج منها ، ولو تظافرت جهود العالمين جميعاً لإنقاذه لا يمكنهم ذلك . قال : أتريدين أن أقول لك لماذا وقعت في البئر ؟ أعتقد أنك لا تصلين ، ولذلك قطعت علاقتك مع الله ، ولأنك فقدت يد الرعاية الإلهية ، لذلك وقعت في بئر التهلكة ! « إنني ظننت أنك تركت صلاة العصر » (١) .

(١) تفسير فخر الرازي ، المجلد ٣٢ ، ص ٨٥ .

ماذا تقول لنا هذه الرواية ؟ هذه الرواية فيها جانب إيجابي وآخر سلبي . الجانب السلبي يقول لنا : إذا لم تهتم امرأة أولم تهتم رجل بالصلاة ، يقع في البئر ، ويصبح بائساً وقد يراق ماء وجهه الذي حصل عليه طيلة خمسين عاماً ، وماء وجه أسرته قد يراق نهائياً ، هذا الجانب السلبي ، الإنسان الذي لا يصلي ، الإنسان الذي لا يهتم بالصلاة - تقول لنا الرواية - سيواجه متاعب جمة . هذا في الدنيا ، ناهيك عن الآخرة . تلك الدار التي ليس فيها مفراً للمذنبين .

أما الجانب الإيجابي وهذا هو بحثنا ، هذه الرواية تقول لنا : إذا اهتم المرء بالصلاة ، فإن الصلاة ستبعث قوة خارجية بعقله وروحه ، وستنصر البعد المعنوي ، ويمكنه أن يسقط البعد المادي أرضاً والقرآن يشير إلى هذه الحقيقة : ﴿ استعينوا بالصبر والصلاة ﴾ استعينوا ، بأي شيء ؟ بمعنى أن في داخلك حرب ، تحتاج إلى عساكر ، عليك أن ترسل العسكر والسلاح ، السلاح الخارجي هو الاهتمام بالواجبات خاصة بالصلاة .

لا أعلم هل تمعنتم في هذه السورة القصيرة ، ذات المعنى الكبير والبلغ ؟ سورة الماعون قصيرة جداً ولكنها بلغة وكبيرة المعنى :

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ، أرأيت الذي يكذب بالدين ، فذلك الذي يدعُ اليتيم ، ولا يحض على طعام المسكين ﴾ (١) .

بمعنى ، يا أيها النبي هل تريد أن أريك مسلماً ليس بمسلم ، بمعنى هل تريد أن أريك من يتظاهر بالإسلام ؟ ثم يُرينا أربعة أوجه مختلفة :

١ - ذلك الشعب الذي يوجد بينه طفل يتيم ، ولا يأبه ذلك إذا كان في قبيلة أو مدينة أو شعب ، طفل يتيم ، ينبغي أن يصبح جميع الآباء أباً له ، وجميع الأمهات أمّاً له ، لكي لا تظهر عليه عقدة اليتيم . لا سامح الله أن تكبر عقدة في شخص ما ، لقد درست معظم هذه المدارس الشاذة ، وأدركت أنها تكون من مدرسة الصهيونية عادةً وأن أفرادها معقدين ، مدرسة فرويد ، ونيتشه

(١) سورة الماعون ، الآيات : ١ - ٣ .

وماركس ، ودوركهام وغيرهما ، لقد قمت بدراسات موسعة حولها ورأيت أنها تنبع من الصهيونية ، هذا من الناحية الجماعية ، ومن الناحية الفردية ، فإن ماركس إنسان معقّد بكل معنى الكلمة ، من هنا ينبغي على المسلمين أن يدعوا الأطفال اليتامى ، ويدركوا حقيقة دورهم في المجتمع ، كما ينبغي على الآباء والأمهات أن يقوموا بالمسؤوليات الملقاة على عواتقهم تجاه هؤلاء الأيتام .

٢ - ﴿ ولا يحض على طعام المسكين ﴾ بمعنى يا أيها النبي إن الذين يتظاهرون بالإسلام هم الذين لا يعتنون بالفقراء في حين أنهم يستطيعون العناية بالفقراء والمساكين ، هل هؤلاء مسلمون ؟ .

٣ - ثم يقول حول الفرقة الثالثة : ﴿ فويل للمصلين ، الذين هم عن صلاتهم ساهون ﴾^(١) بمعنى يا أيها النبي هل تريد أن أريك شخصاً يتظاهر بالإسلام ، ويل لهذا المتظاهر بالإسلام ، والذي يسهُو عن الصلاة ، إنه يُصلي ولكنه يتماهل ، بمعنى أنه لا يقيم الصلاة في وقتها .

سئل الإمام الصادق (ع) ما معنى السهو في الصلاة ؟ قال : معناها أن يُقدّم المرء عملَ دنياهُ على عملِ آخرته . يتغدى أو يتعشى أولاً ثم يقيم الصلاة ، الصلاة ثقيلة بالنسبة له ، حيث يقول القرآن : ﴿ وإنما لكبيرة إلا على الخاشعين ﴾^(٢) بمعنى أننا أحياناً نكون مستعدين للوقوف ساعة أو ساعتين نتحدث مع بعضنا البعض ولا نشعر بالتعب ، بل نشعر بالبهجة ولكننا عندما يحين وقت الصلاة نشعر بالتعب والإرهاق ولا نطبق الصلاة ، الصلاة التي لو أقمناها بصورة لائقة فإنها لا تتجاوز الربع ساعة نريد إتمامها في خلال خمسة دقائق لذلك نرى البعض يجلس من أول المساء إلى ساعة متأخرة ولا يشعر بشيء ، ولكن عندما يصل إلى الصلاة ، يتقاعس ! هذا واضح ، لأن في الصلاة جانبٌ معنوي ، وذلك البعد البهيمي يتربص بنا لكي ينسنا الصلاة ، إذ عندما يحين وقت الصلاة نتمنى أن تغدو الربع ساعة خمس دقائق ، لماذا نحن هكذا ؟ .

(١) سورة الماعون ، الأيتان : ٤ و ٥ .

(٢) سورة البقرة ، الآية : ٤٥ .

القرآن يقول : لست بمسلم ، لست بمسلم وويل لك ! .

٤ - ويقول للنبي (ص) مرة أخرى : ويل للمتظاهر بالإسلام ، والإنسان المنافق ذو وجهين : ﴿ الَّذِينَ هُمْ يَرَاوُنَ وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ ﴾^(١) الفئة الخامسة من المتظاهرين بالإسلام (ويل للمتظاهر بالإسلام) ذلك الشخص الذي يستطيع أن يقضي حاجة الناس ، لكنه لا يقضيها ، إنه يستطيع قضاء حاجة أحد الناس بقلمه أو بقدمه ، ولكنه يتغاضى عن ذلك ، جاره يريد منه حاجة يستطيع إعطاءها له ولكنه لا يفعل .

الإسلام يقول : هذا ليس مسلم ، كلا ، ليس مسلم . وويل لهذا الشخص . إنها سورة بليغة حقاً ، مع أنها تبعث على الألم ولكنها قدوة وهي مفيدة لبحثنا أيضاً .

لدينا آيات كثيرة حول هذا الموضوع ، ولكننا نكتفي بهذا القدر . رواية أخرى أقصها عليكم وأختم بها بحثي :

جاء رجل عند الإمام الصادق (ع) واستخاره في أمر ، فكانت الاستخارة سيئة . فلم يأخذ بالاستخارة ، وذهب للتجارة وقضى أوقاتاً طيبة وبالإضافة إلى ذلك حصل على أرباح كبيرة ، فتعجب كثيراً ، لقد استخرت عند الإمام ، وكانت الاستخارة سيئة ، وقضيت أوقات طيبة في السفر ، وحصلت على ربح وفير ، فما معنى هذا ؟ .

جاء عند الإمام الصادق (ع) وقال : يا ابن رسول الله ، هل تتذكر عندما جئت عندكم قبل فترة ، واستخرت ، وكانت سيئة ، كانت تلك الاستخارة للسفر ، وذهبت للتجارة ، وكانت سفرة مربحة قضيت خلالها أوقات طيبة .

فابتسم الإمام الصادق (ع) وقال : هل تذكر في ذلك البيت كنت متعباً . فأقمت صلاة المغرب والعشاء ، وتعشيت ونمت . ثم نهضت من النوم في وقت كانت الشمس قد أشرقت وأصبحت صلاتك قضاء ؟ (طبعاً لم يكن مذنباً لأنه لم يشأ أن تصبح صلاته قضاء ، ثم إنه صلى قضاء) قال : هل تذكر ؟ قال :

(١) سورة الماعون ، الأيتان : ٦ و ٧ .

بلى يا ابنَ رسولِ الله ، قال : لو كان الله قد أعطاك الدنيا وما فيها ما كنت لتعوض تلك الخسارة . لقد فقدت أشياء كثيرة ، إنك لا تعلم ماذا يجري . ما هي الصلاة ؟ إنها تصنع الإنسان ، كما تحتاج خلايا الجسم للغذاء وإذا لم تحصل على الغذاء تضعف ثم تموت ، وقد يكون الشخص شاباً ويستفيد من طاقته الشابة ، ولكن الخسارة بالنسبة للجسم قائمة . عندما يحتاج جسمكم أي الجانب الناسوتي والبهيمي للغذاء ، وروحكم أيضاً تحتاج للغذاء ، فما هو غذاء وروحكم ؟ الصلاة غذاء الروح . صلاة الفجر تحل مكان الفطور وصلاة الظهر تحل محل الغذاء ، وصلاة المغرب والعشاء تحل محل وجبة العشاء ، والصلاة في منتصف الليل في محل الفاكهة التي تتناولونها .

كلما أردنا أن نقوّي الروح ، بمعنى أن نسمو بإنسانيتنا ، علينا أن نهتم بجميع الواجبات وبالأخص الصلاة . لقد وُصّي بها كثيراً حتى أن بعض الروايات تذكر أن النبي قبل وفاته كان يكرر هذه الجملة ، ثم قضى نحبه ، كان يكرر قول :

« أمتي الصلاة وما ملكت أيمانكم » بمعنى عليكم الاهتمام بشيئين : الأول : الصلاة ثم ما ملكت أيمانكم هنالك رواية عن الإمام الصادق (ع) أنه جمع أهله ساعة الوفاة ، فظن أهله أن لديه وصية جديدة . قال جملة ، ثم فارق الحياة ، الجملة الأخيرة التي قالها الإمام الصادق (ع) : « لا ينال شفاعتنا من استخفّ بالصلاة »^(١) .

أعزائي تعلمون أن الجميع يجب أن يذهبوا إلى الجنة بشفاعة أهل البيت ، حتى الأنبياء .

إذا لم تكن شفاععة أهل البيت (من الناحية العلمية أيضاً) فليس هنالك مكان في الجنة ، وهذه الرواية تقول إذا استخف أحدٌ بالصلاة لا ينال شفاعتنا .

أرجو أن تكون هذه الإثارة مفيدة لي ولكم وأن تأخذوا بمفاهيمها ما استطعتم إلى ذلك سبيلاً ، بالأخص أن تطبقوا البحث الأخير للشباب

(١) سفينة البحار ، المجلد الأول ، ص ١٣٣ .

وللأطفال ، وأن تُحدِّثُوا الأطفال كثيراً حول الصلاة لأنكم تعلمون أن دماغ الطفل يشبه كاميرة التصوير ، جملة واحدة من الممكن أن تؤثر على دماغه ، وأن يصبح مقيماً للصلاة طوال عمره فإن ذلك مفيد جداً بالنسبة لكم ، في كل صلاة يقيمها يكتب الله في ورقة أعمالكم ثواباً . اهتموا بهؤلاء الأطفال ما استطعتم فهؤلاء أمانة وعليكم حفظ الأمانة .

إلهي نقسم عليك بعزتك وجلالك ، أن تمنحنا جميعاً الصفات الإنسانية والشجاعة المعنوية والروحانية والبصيرة والتوفيق لعبادتك وعبوديتك وترك المعاصي والتوفيق للاهتمام بالصلاة .

إلهي نقسم عليك بعزتك وجلالك أن تحفظ هذه الثورة ، وقائدها العظيم وحدود إيران في كنف إمام الزمان (عج) وصلى الله على محمد وآل محمد .

النفس الأمارة

﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ، رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي
واحلل عقدة من لساني ، يفقهوا قولي ﴾ .

إلحاقاً بموضوع السابق فقد بيّنتُ أن في داخلنا حرباً تسمى حرب الرواية الإسلامية الجهاد الأكبر ، بمعنى أن الجانب المعنوي لروحنا في صراع مستمر مع الجانب البهيمي وكما قال النبي (ص) : « أعدى عدوك نفسك التي بين جنبيك »^(١) .

أي ليس لدينا أعدى من النفس الأمارة .

المقصود بالنفس الأمارة هو البعد الحيواني للإنسان ، والذي يُسمى أيضاً الرغبات والغرائز . الفلاسفة يسمونه الجسم ، والعرفاء يسمونه البعد البهيمي والناسوتي . هذا الصراع مستمر دائماً ، إذا استطاع الشخص أن ينتصر في هذا الصراع ، وأن يأسر العدو ، ويروضه ويهذبّه حينذاك بإمكانه أن يصل إلى أي مكان يشاء وسعادة الدنيا والآخرة مرهونة بمقدرته على ترويض غرائزه .

طبعاً يجب إشباع الغرائز ، لا يمكن قتل النفس ، قتل النفس والرهينة والعزلة وما شابه حرامٌ في الإسلام ، بل ينبغي الاستفادة منها (كالحصان الجامح ، ينبغي لجمه وامطأؤه . وهذا هو معنى الانتصار ، أي السيطرة على النفس الأمارة والرغبات والغرائز) . وإذا حدث العكس ، بمعنى أن يُهزَمَ في

(١) نهج الفصاحة ، ص ٦٦ .

هذه الحرب وتتغلب إحدى رغباتنا على بعدنا المعنوي سيكون شقاء الدنيا والآخرة من نصيبنا ، وإذا تغلبت إحدى الغرائز علينا ، وأسرت عقلنا وسيطرت عليه ، فإن عقلنا شتنا أم أبينا ، سيتبع الجانب البهيمي فينا ، وإذا حدث ذلك وكما يقول القرآن الكريم سيكون الإنسان خطراً فتاكاً على نفسه ومجمعه :

﴿ إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصَّمُّ الْبَكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ (١) .

إذا أخذنا الجانب العام للآية الشريفة سيكون معناها كالاتي :

الإنسان أخطر من الميكروب للمجتمع ، وأخطر من السرطان عندما يهزم عقله أو بعده المعنوي وتتغلب إحدى الغرائز أو البعد البهيمي . القرآن يقول :

هذا الشخص أقل من ميكروب السرطان بالنسبة لنفسه وأقل من ميكروب الجرب ، بالنسبة لمجمعه .

كما أنكم ترون الأشخاص الذين يسودهم حب الجاه والذين ترسخت في أنفسهم إحدى الصفات الدنيئة ، أولئك الذين تمكن منهم حب المال ، وسيطر عليهم ، إلى أي مدى يصلون وأي جرائم يرتكبون وعلاوة على كل ذلك يسميهم القرآن عبدة الأصنام :

﴿ أفرأيت من اتخذ إلهه هواه وأضله الله على علم ﴾ (٢) .

القرآن يقول : إذا سيطرت الشهوات على الإنسان وتغلب البعد البهيمي عليه فسيصبح وثناً .

الوثن يكون أحياناً صخرة أو خرافة يعبدها الإنسان ، وأحياناً ماله يعبده ، وأحياناً امرأة يعبدها ، وأحياناً الشهوات . والقرآن يعتبرها أوثاناً كما نقرأ في سورة يس :

﴿ ألم أعهد إليكم يا بني آدم أن لا تعبدوا الشيطان إنه لكم عدو مبين ﴾ (٣) .

(١) سورة الأنفال ، الآية : ٦٦ .

(٢) سورة البقرة ، الآية : ٢٣ .

(٣) سورة يس ، الآية : ٦٠ .

بمعنى ألم أعهد إليكم من الأزل أن لا تعبد الأوثان والشيطان ؟ إن معنى عبادة الشيطان من وجهة نظر القرآن هو أن يتبع الإنسان الشيطان ، بمعنى أن يتغلب ذلك البعد البهيمي على البعد المعنوي لذلك علينا دائماً أن لا نكون من عبدة الأوثان والخرافات وبالخصوص أنتم (المعلمون) الذين تُعَبِّرُونَ من الخواص . ومن وجهة نظر الإسلام لديكم ملف خاص . ليس لكم ملف مشترك مع عوام الناس كلا ، لديكم ملف خاص ، وبما أن ملفكم يختلف عن باقي الملفات ، إذن عليكم دائماً أن تنتهوا ، لكي لا تهزموا في هذه المعركة ، وفي هذا الجهاد الأكبر ، واعلموا أنكم لو هُزمتم ، علاوة على أن القرآن يسميكم عبدة الأوثان فسيلحق ضرر كبير بمجتمعكم وبأنفسكم .

البحث الذي يطرح نفسه هو : ماذا نفعل لكي نكون منتصرين دائماً ؟ الإنسان لا يمكنه أن يتنصر بصورة اعتباطية ، بالأخص إن الغرائز لها صبغة عاطفية ، لها صبغة مشاعر وعادة تتقدم العواطف والمشاعر على العقل . إذا تركنا الجهاد الداخلي لحاله ، فكونوا على يقين بأننا سنكون مهزومين دائماً ، فمن جهة هنالك صراع العواطف والعقل ، ومن جهة أخرى عندما يبدأ الصراع تكون العاطفة عاصفة إلا أن العقل لا يكون كذلك ، وأساساً ليس للعقل تمرد أو جُموع ، الغريزة الجنسية فيها جُموع ، وإذا جمعت وتمردت يقول القرآن الكريم :

﴿ قل أعوذ بربِّ الفلقِ من شرِّ ما خلقَ ومن شرِّ غاسقٍ إذا وقب ﴾ (١) .

بمعنى إقرأ دائماً ، دائماً قل اللهم أعوذ بك ، عندما تجمّع الغريزة الجنسية ، إذ عندما تجمّع تكون كالسيل الهادر تجرف معها كل شيء ، العقل أيضاً تجرفه وتتغلب عليه . العقل ليس لديه جُموع أو تمرد ، إذا أردنا أن يتغلب عقلنا ، ينبغي أن نضفي عليه صبغة الشعور بالعلو عن الشهوات والكلام هنا ماذا نفعل لكي نتنصر في هذه المعركة ؟ .

من الواضح أن الجهاد الأكبر أصعب بكثير من الجهاد الأصغر وفي معركة النفس مع شهواتها يجب الاستعانة بقوة من الخارج ، والشيء الأول الذي يجب

(١) سورة الفلق ، الآيات : ١ - ٣ .

أن ننتبه له هو أن نكون دائماً محل رعاية وعناية الباري عز وجل ، وأن تكون يد الله فوق رؤوسنا دائماً ، وإذا تركنا رب الكون لحالنا لحظة واحدة ، سنصبح في وادٍ وعناية ربنا في وادٍ آخر . هناك دعاء منقول عن النبي الأكرم (ص) ، يبدو أنه كان يردده دائماً ، لأن عائشة وأم سلمة نقلتا هذا الدعاء . تقول عائشة : في منتصف الليل لم أجد النبي (ص) في فراشه ، لذلك نهضت ، وبحثت عنه ، فجأة شاهدت النبي الأكرم (ص) منكفئاً على التراب ورأسه الشريف على التراب أيضاً ودموعه تنهمر كالمنطر وهو يقول : « اللهم لا تكليني إلى نفسي طرفة عين »^(١) .

اقرأوا هذا الدعاء دائماً ، بالأخص حين تشعرعون بالتعب ، وحين تشعرعون بالارتياح ، بعد الصلاة ، في منتصف الليل ، قولوا دائماً : اللهم لا تكليني إلى نفسي طرفة عين . وهذا هو معنى الضلال في القرآن . إذ نقرأ في أكثر من عشرين آية في القرآن فيها عبارة : « يضل الله » من الواضح أن الله لا يضل أحداً .

﴿ مَنْ يَضَلِّ اللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُ ، وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾^(١) .

هذا هو معنى الضلال في القرآن ، بمعنى أن الإنسان يقوم بعمل ما ويفقد من جرائه يد العناية الإلهية . مثلاً أنتم تمسكون بصخرة في منحدر جبل ، طالما أنتم تمسكون بها لا تسقط ، ولكن لو تركتموها (لا حاجة لدفعها) ما أن ترفعوا أيديكم عنها ، تسقط الصخرة ، تسقط من منحدر الجبل إلى الأسفل وتهشم إلى قطع صغيرة .

هذا هو معنى الضلال بمجرد أن يرفع خالق الكون عنائه عن أحد ما ، فإذا به يسقط ويؤول إلى اليأس . قدرة الله تشبه الكهرباء في معمل متكامل ، ليس فيها أدنى نقص ، ولكن فجأة قد يحدث نقص أو خلل في هذا الميكروفون فيصبح مجرد قطعة حديدية لا تستطيع استلام الكهرباء . قد لا يستطيع هذا المصباح أن يستلم الكهرباء فيصبح مظلماً ، مظلم ، مظلم ، الحياة بدون الله

(١) من لا يحضره الفقيه ، المجلد ٤ ، ص ١٣٨ الحديث .

(٢) سورة الأعراف ، الآية : ١٨٦ .

مظلّمة مظلّمة وموحّشة موحّشة القرآن يقول :

﴿ أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرِ لُجْبِي يَفْشَأُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ
ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكْذِبْ رَأَاهَا وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ
نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ ﴾ (١) .

كم هي بليغة هذه الآية . وكما يقول طلبة العلوم الدينية تشبيه المعقول
بالمحسوس بمعنى من أجل أن يوضح أمراً علمياً أو عقلياً يضعه في قالب
حسي .

وقد استخدم القرآن هذا الفن في هذه الآية الشريفة . لا أعلم هل
شاهدتم بحيرة خزر (بحر قزوين) أم لا ؟ البحر فيه أمواج عادة ، وهو مظلم
بذاته . فإذا عمّت الغيوم هذا البحر يكون ظلام على ظلام ، ووحشة على
وحشة . إذا كان الوقت ليلاً ، ظلام على ظلام ووحشة على وحشة . وإذا كان
البحر هائجاً وعاصفاً فهي الوحشة الداكنة القرآن يقول : الحياة المليئة
بالمعاصي ، الحياة التي قطعت فيها علاقة الإنسان بربه ، كهذا المصباح الذي
قطعت علاقته مع محطة الكهرباء ، الحياة التي توجد فيها علاقة مع الشيطان ،
هزيمة ، هزيمة عقلنا وروحنا ، حياة كهذه مظلّمة مظلّمة ، وموحّشة موحّشة .

عند المساء وسط البحر الهائج والغيوم المحيطة ، كم هو مظلم ؟ كم هو
موحش ؟ يقول (القرآن) هكذا هي الحياة بدون الله .

القرآن لديه أمثلة عديدة من هذا النوع ، يقول في سورة التوبة :

﴿ أَمْ مَنْ أَسْسَ بِنْيَانُهُ عَلَى تَقْوَى مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَمْ مَنْ أَسْسَ بِنْيَانُهُ
عَلَى شَفَا جُرْفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ (٢) .
هذه الآية بليغة جداً .

حقاً ما مدى بلاغة القرآن ، أرجوكم أن تتعاملوا مع القرآن . فبالإضافة
إلى أنه يفيض بالنور فهو يمنح المتعة ، لأن بلاغة القرآن هي إحدى معجزاته
الكبرى .

(١) سورة النور ، الآية : ٤٠ .

(٢) سورة التوبة ، الآية : ١٠٩ .

هنا أيضاً تشبيه المعقول بالمحسوس ، قد تبون بيتاً ، وعادةً إذا أردتم أن يدوم عمر هذا البيت عليكم بتقوية أعمدته ، فإذا كانت الأعمدة غير قوية فلن يدوم البيت ، ولكن قد بيني إنسان أبله أو أحمق بيتاً على حافة الهاوية المعرضة لخطر السيول ، حافة الهاوية ! .

من الواضح البيت الذي ننيه على حافة الهاوية المعرضة لخطر السيول قائم على ماء قليل ، عاصفة خفيفة تجرفه إلى قعر الهاوية .

القرآن يقول : الحياة بدون الله كبيت في حافة الهاوية المعرضة لخطر السيول : ﴿ فانهار به في نار جهنم ، والله لا يهدي القوم الظالمين ﴾ أي : أن الذي في حياته ذنوب يظلم نفسه ، يظلم ربه ويظلم مجتمعه ، ولن تكون يد العناية الإلهية فوق رأس هذا الشخص ، حياته كبيت في حافة الهاوية ، لن يدوم طويلاً . الحياة بدون الله لن تدوم طويلاً . الحياة بدون الله ليس فيها سوى الرعب والقلق والحيرة والاضطراب ، هذه دنياه ، أما آخرته فمعلومة ﴿ فانهار به في نار جهنم ﴾ لذلك علينا أن نعمل لكي تكون يد العناية الإلهية فوق رؤوسنا وماذا نفعل لكي نحصل على هذا التوفيق ، بمعنى ماذا نفعل لكي تكون يد العناية الإلهية فوق رؤوسنا ؟ ماذا نفعل لكي يغنيا الله في الأزمات ؟ ماذا نفعل لكي لا يكفنا خالق الكون إلى أنفسنا ، وبالأخص لكي لا نهزم في ذلك الجهاد الأكبر ؟ وماذا نفعل لكي نتصر في تلك المعركة ؟ قلت بأن القرآن يقول : ﴿ واستعينوا بالصبر والصلاة ﴾^(١) اهتموا بأمرين واستعينوا بالصبر والصلاة أي إذا أردت أن تتصر في تلك الساحة يجب أن تأتي قوة من الخارج . القرآن الكريم يقول في هذه الآية : أمران ، الأول الصبر ، والثاني الصلاة .

يجب أن نهتم بكافة الواجبات . كلما زاد اهتمامنا بالواجبات ستكون علاقتنا بالله أمتن ، كسلك الكهرباء كلما كان اتصاله بالمحطة أقوى كلما قل انقطاع التيار الكهربائي ، لذلك ، فإن الاهتمام بالواجبات يقوي العلاقة مع الله . وهذا تسديدٌ لدينا الإنسان وآخرته أيضاً ، وبالأخص إقامة الصلاة في حينها ، جماعةً وفي المساجد ، يجب أن تملأ المساجد كما جاء في بعض

(١) سورة البقرة ، الآية : ٤٥ .

الروايات العميقة التأثير كذلك ، الرواية التي نقلها الشيعة والسنة ، بأن النبي (ص) قال :

« سلموا على اليهود والنصارى ولا تسلموا على يهود أمتي »^(١) .

بمعنى اقطعوا علاقاتكم مع هؤلاء لكي يُعودوا إلى رُشدكم قيل : يا رسول الله ومن يهود أمتك ؟ قال : « الذين يستمعون الأذان والإقامة ولا يحضروا الجماعة » .

أولئك الذين يستمعون الأذان والإقامة ولكنهم لا يذهبون إلى المسجد لأداء صلاة الجماعة . قال : أولئك الذين يعرضون عن الجماعة والمسجد ، همُ يهودُ أمتي : لا ينبغي عدم الاكتراث بهذه الروايات ، لأنها بالإضافة إلى الجانب المعنوي كما قال قائد الثورة العظيم (ره) يوجد فيها جانب سياسي أيضاً .

المسجد متراس ، ينبغي - كما قال قائد الثورة - ملئ هذا المتراس . ليس هذا بحثنا الآن ، بحثنا الآن هو أن نهتم بالصلاة لأننا نقف بين يدي الله . عندما تكونون بين يدي قائد الثورة العظيم لمدة نصف ساعة . عادة يكون اهتمامكم منصّباً على النظر إلى القائد ، لأنكم تستمعون باهتمام إلى أقواله ، مع الأخذ بالاعتبار ، بأننا نحب الإمام القائد ، لأنه عبْدٌ ، عبْدٌ مَنْ ؟ عبْدُ ذلك الذي نقف بين يديه ونقيم الصلاة . مرات عديدة يسأل البعض ماذا أفعل لكي أتوجه في الصلاة إلى الله . يجب أن نسأل عكس هذا السؤال إذا أقام الإنسان الصلاة حقاً يجب أن يقول : ماذا أفعل لكي لا أتوجه إلى الله ؟ هكذا يجب أن يقول ، لأنه عبد واقف بين يدي الله . ينبغي أن تكون هذه أكبر لذاتنا ، خلوة العاشق بالمعشوق ، خلوة العبد بمولاه ، حديث المعشوق مع العاشق ، هكذا هي الصلاة . نصف الصلاة تقريباً حديث الله مع عبده ، والنصف الثاني حديث العبد مع مولاه . سورة الحمد وبقية السور القرآنية هي حديث المولى مع عبده ، وبقية الصلاة حديث العاشق مع معشوقه ، حديث العبد مع مولاه ،

(١) من لا يحضره الفقيه ، المجلد ٤ ، ص ١٣٨ .

ينبغي أن تكون هذه أكبر اللذات ، كل التعب يجب أن يزول بالصلاة .

مرحى لأولئك الذين يزيلون التعب بالصلاة ، مرحى لأولئك الذين يزيلون كافة الهموم والقلق والاضطراب والرعب بواسطة الصلاة . نحن يجب أن نكون هكذا في الصلاة ، وإذا تعودنا على ذلك ستمتّ علاتنا برنا ، وسنصل إلى هذه المرحلة تدريجياً . الصبر يستخدم بمعنى الاستقامة أمام الجزع والفرع . إذا كان الإنسان صابراً بمعنى إذا كانت لديه استقامة عادة لا يملك الاستقامة ، بل لديه الجزع والفرع ، كما يقول القرآن الكريم هذا الإنسان هلوع .

﴿ إِنَّ الْإِنْسَانَ خَلَقَ هَلُوعاً ﴾ بمعنى إذا أخذنا البعد المادي والمعنوي ، فإن الإنسان هلوع ﴿ إِنَّ الْإِنْسَانَ خَلَقَ هَلُوعاً ﴾ ، إذا مَسَّ الشَّرُّ جِزْوعاً ﴿ (١) ﴾ ، عندما يواجه المتاعب يرتفع صراخه ويبدأ بالتذمر ، ويظهر الغضب وتبدأ الكلمات النابية وتطراً التصرفات اللامعقولة .

نسال الله أن يصبح الإنسان هلوعاً كالحجارة في الزقاق يركلها كل عابر ، إذا لم يتحلّى المرء بالوقار ، وعندما لا يكون لديه استقامة ، فهو هلوعٌ بتأكيد القرآن ﴿ وَإِذَا مَسَّ الْخَيْرَ مَنُوعاً ﴾ (٢) ليس فقط عندما يصيبه شرٌ لا يمكنه المقاومة ، بل إذا مَسَّ الخير أيضاً ليس لديه القدرة على المقاومة ، ليصبح الإنسان هناك أيضاً ﴿ مَنَاعٍ لِلْخَيْرِ ﴾ (٣) ومتكبراً وأنانياً .

إذا لم يكن الإنسان مستقيماً ، ولم يكن لديه استقامة ، وليس عنده صبر ، فهو كالحجارة في وسط الزقاق ، وتعبير القرآن الكريم كالزيد فوق الماء ، يتهاوى لأقل ضغط أو قوة . وكما يقول أمير المؤمنين (ع) إنه كالبعوض ، البعوض الذي يؤذي الناس في ليالي الصيف ، إذا هبّت ريح خفيفة من أي جهة ستجره في طريقها .

إذا مَسَّنَا الإنسان في البعد المادي ، وإذا لم يكن لديه ذلك البعد المعنوي والصفات المعنوية ، ومن بينها الصبر والاستقامة ، فإنه مخلوق هلوع

(١) سورة المعارج ، الآيات : ١٩ و ٢٠ .

(٢) سورة المعارج ، الآية : ٢١ .

(٣) سورة ق ، الآية : ٢٥ .

من وجهة نظر القرآن ﴿ إِنَّ الْإِنْسَانَ خَلَقَ هَلُوعاً ﴾ .

إذا مسه الخير منوعاً ، وإذا أصابته مصيبة أيضاً هلوعاً من هنا إذا أردنا أن نكون أناساً صالحين علينا بالصبر والاستقامة في كل الأمور .

الصبر على ثلاثة أنواع ، وكل هذه الأنواع الثلاثة مفيد لبحثنا :

١ - الصبر عند المصيبة والشدائد .

٢ - الصبر في العبادة .

٣ - الصبر في المعصية .

القرآن الكريم يقول : ﴿ وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ ﴾ جاء بالصبر في البداية ثم الصلاة (وهذا ذكر الخاص بعد العام) ، بمعنى بالصبر يدرك مفهوم الصلاة . يقول العارفون : « إن ذكر الخاص بعد العام من أجل أهمية الصلاة ، فالصبر يشمل الصلاة أيضاً . بمعنى أن الصلاة هي إحدى مصاديق الصبر في العبادة .

أنواع الصبر الثلاثة تجعل يد العناية الإلهية فوق رؤوسنا وبالتالي نتصبر في جميع المعارك الداخلية الثلاث ، كما أن هذا الصبر ضروري في المعارك الخارجية أي الصبر عند المصيبة ، والصبر في العبادة والصبر في المعصية . من البديهي أن انتصارات شبابنا الأجزاء في جبهات الحق ضد الباطل رهينة بهذا الأمر ، أي رهينة صبرهم وحول الصبر في المعصية يجب القول إن الدنيا دار المصائب ، فلا يعقل أن يعيش المرء في الدنيا ، ولا يحدث له ما يستوجب القلق . وكما يقول أمير المؤمنين (ع) : « الدنيا بحر عميق يغرق فيه خلق كثير »^(١) . وفي حديث آخر يقول : « الدنيا محضوفة بالبلاء » إذا كنتم في الماء ، كيف يسيطر عليكم تياره ويحيط بكم من كل جانب ، وهذه حال كل من يكون في الدنيا ، محفوف بالبلاء الذي يحيط بالإنسان من كل جانب ، وإذا تمكن من توظيف هذا البلاء ، حينها يتجه نحو الكمال . الإنسان ذلك الذي يستفيد من البلاء إذ أن طريق الإنسان يمر عبر هذا الطريق ، وكما هو جميل قول

(١) سفينة البحار ، المجلد الأول ، ص ٤٦٧ .

حافظ (ترجمة الشعر) :

المُدلِّل المُتَّعِمُ لن يصل إلى المحبوب
العشق طريق الشجعان الصابرين على البلاء

إذا كان الإنسان يستطيع أن يصل إلى مكان لا يعلمه إلا الله ، بواسطة هذه المصائب والبلايا الموجودة في الدنيا . فإن البلاء هو أحد نعم الله الكبرى ، بشرط توظيفها وتمثلها على طريق الكمال والارتفاع عن الذنوب والمهابط .

لقد جئنا إلى هذا البحر الواسع ، في هذه الدنيا المليئة بالمماحكات والهموم ، ليس فيها لذة ، وكلها أبعاد للألم ، لا يوجد في هذه الدنيا لذة أساساً ، مثلاً نتصور أن هنالك لذة في الأكل والشرب ، ليست كذلك ، أنتم عندما تجوعون تشعرون بالألم ، تأكلون ويزول ذلك الألم ، لذلك عندما تكونون في غنى عن الأطعمة تصبح أحسن الأغذية أسوأ الأشياء لكم .

حين تشعرون بالظماً تتألمون ، وعندما تشربون الماء يزول الألم ، لذلك يقول السالكون : الدنيا كلها إزالةٌ للألم أما اللذة فتختلف أنها إطفاء الشهوة وإزالة آلامها لذة الإنسان في البحث عن الحقيقة ، وطلبها ، والبحث عن العلم وطلبه ، لذة الإنسان التقرب إلى الله . اللذة ، للعاشق ، الخلوة مع المعشوق ، ليست اللذة الأكل والشرب ، لأنها جميعها إزالةٌ للألم . هذه الدنيا تعني النزاع والمُصيبةُ تعني البلاء ، فينبغي توظيفها والاستفادة منها القرآن يقول في أماكن عديدة : إنا نمتحن البشر ، الكثير من المفسرين ظنوا أن الامتحان الإلهي يشبه امتحان طلاب المدارس ، لذلك ترون أنه لا يصح أن يمتحن الله البشر بهذه الطريقة ، لذلك الكثير من المفسرين يقولون : إن معناها امتحان البشر لكي يدرك ماهية ذاته .

ولكن يبدو أن الامتحان في القرآن الكريم يشبه ماورد في بداية سورة العنكبوت حيث يقول ﴿ أَحْسَبَ النَّاسُ أَنْ يَتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ، وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ﴾^(١) أي هل يكفي أن يقول الإنسان آمنت

(١) سورة العنكبوت ، الآيات : ٢ و ٣ .

وأنه لن يُمتحن . في آية أخرى يقول : ﴿ ولنبلونكم ﴾ أي أننا سنمتحنكم لا محالة . هذا الامتحان لا يشبه امتحان المُعلّمين للطلاب ، بل هو امتحان المهندس للصخرة المعدنية ، في داخل الصخرة يوجد ذهب ، ومن أجل أخذ الذهب الموجود داخل الصخر ، يجب أن يُصهر بقدرة حرارية قياسها (١٨٠) درجة لتطهيره من الشوائب ليصبح ذهباً خالصاً .

هذا هو الإنسان ، لماذا جاء الإنسان إلى الدنيا ؟ جاء من أجل الامتحان . ما معنى الامتحان ؟ إنه امتحان المهندس للصخور المعدنية ، أن يُسبر غوره ، أن تنزل عليه المصائب الواحدة تلو الأخرى ، وهو يقاوم ليصبح إنساناً بكل معنى الكلمة ، ليتجه نحو الكمال ، لكي يصل عبر هذه المصائب إلى مكان لا يعلمه إلا الله ، هذا هو الامتحان الذي يتحدث عنه القرآن . إذن ، الصبر في المصيبة يعني الاستفادة من البلاء . عندما يكون الإنسان فقيراً يجزع ويفزع ، ويتعالى صراخه ، وأحياناً يستفيد من هذا الفقر ، يصبر ويتحمل ، لا يفقد عزة نفسه ، ولا يصبح هلوغاً ، لا يمكن للفقر أن يحطمه ، ما أن يصبر على الفقر يتجه بصورة لا إرادية نحو الكمال ، بصورة لا إرادية كتلك الصخرة المعدنية ، تزول شوائبه في بوتقة (١٨٠) درجة ، وتنزل عليه المصائب الواحدة تلو الأخرى ، ولكن بشرط أن يستفيد من المصيبة .

هنا نورد مثلاً ، وهو مفيد جداً من الناحية النفسية ، وخاصة للاقتصاد المنزلي (بالأخص النساء) ، وهذا هو معنى الاستفادة من المصيبة .

في زمن النبي الأكرم (ص) كانت امرأة لديها طفل ، وكانت مسلمة ، ومن الأنصار لا تجيد القراءة والكتابة ، ولكن مؤمنة ، كان الإيمان قد ترسخ في نفسها ، لم يكن لديها إيمان عقلي بمعنى إذا قالوا لها تعالي بدليل يثبت وجود الله ، لا تعرف برهان النظم ولكنها كانت على يقين وقد رسخ الإيمان في قلبها ، وكانت تستطيع أن تستفيد من البلاء . كان طفلها مريضاً . وكان زوجها عاملاً ، ذهب إلى محل عمله وقد مات الطفل ، جلست المرأة إلى جوار طفلها وبكت قليلاً ، فجأة أحست بأن زوجها قادم ، فقالت تخاطب نفسها : إذا بكيت بجوار الطفل ، لن تعود إليه الحياة ، فلماذا أخرج مشاعر زوجي وأؤذيه وهو متعب . فمرحى لمثل هذه العوائل كم أنهم نموذج من نماذج الصبر والتحمل

وأسوةً لمجتمعهم . نهضت من مكانها وضعت الطفل في مكان ما وأخفته . وجاء زوجها (في الإسلام توجد آداب على الزوجة مراعاتها حين يأتي زوجها إلى البيت ، كما ذكروا آداباً للمرأة قبل مجي زوجها) عندما يريد الزوج أن يدخل البيت ، عليه أن لا يُبرز همومه وقلقه ، وكما قال أحد علماء النفس ، فإن الهموم والقلق والوجوم والغضب وأمثال هذه الأمور تعتبر بالنسبة للرجل كالطين في كعب الحذاء ، عندما تريدون دخول البيت تنظفون الطين من كعب الحذاء ، وتزيلون الغبار العالق بملابسكم ، ثم تدخلون البيت ، إنه يقول عندما يريد الرجل أن يدخل البيت يجب أن يكون هكذا ، بشوشاً مرحاً وأن يدع جميع الهموم جانباً ، ويلقي إلى الخارج القلق والمشاكل ، وشدة الأعصاب إذ ليس مكانها في البيت ، ثم يدخل البيت وقد أمرت المرأة عندما يدخل الزوج البيت بأن تفتح الباب بنفسها ، وأن تبسم بوجه الزوج ، وكما يقول ذلك العالم النفساني للزوجات ، فإن القلق والرعب والتشويش والكسل ، وأمثال ذلك يعتبر بالنسبة للمرأة كالقاذورات في المنزل ، أين مكان القاذورات ؟ يجب إخراجها من البيت ويقول أيضاً : قبل مجيء الزوج للبيت يجب إزالة القلق والرعب والتشويش والكسل ، إنها قاذورات يجب إزالتها ، على الزوجة أن تستعد لاستقبال زوجها ، وأن تحاكيه وتبسم له ، إن الأحاديث التي تبعث على القلق والهم ليست من نصيب الزوج ، ينبغي الاهتمام بالزوج كما على الزوج أن يهتم بزوجته ، إن هذه المرأة أنجزت ما أرادته الإسلام ، مات طفلها لكنها استقامت وصبرت لأنها تعلم : ﴿ ولنبلونكم بشيءٍ من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والشمرات وبشر الصابرين ﴾ (١) .

إنها تعلم أن نفس طفلها الميت يمكن أن يكون سبباً لكمالها ، جاءت أمام زوجها وفتح الزوج الباب وسلم عليها . ابتسمت الزوجة ، سأل الزوج عن الطفل فأجابته : الحمد لله تحسنت صحته ، نعم إنها لم تكذب ، تحسنت وذهب إلى شجرة طوبى ، يشرب الحليب هناك ، جلسا معاً وتحادثا مع بعضهما البعض وضحكا ، أزال التعب من قلب الزوج ، ناما ، وعرضت نفسها على

(١) سورة البقرة ، الآية : ١٥٥ .

زوجها ، استيقظا قبل أذان الفجر ، واغتسلا وصلّيا صلاة الليل أراد الزوج أن يذهب إلى صلاة الجماعة ، فقالت الزوجة : لديّ قضية ، قال : ما هي ؟ قالت : إذا وضع شخص عندكم أمانة ثم يأتي ويقول أعطوني الأمانة وأنتم تمنعون ولا تعطوه إياها ، ما رأيكم ؟ قال : ساكون إنساناً سيئاً جداً ، الخيانة في الأمانة عمل سيء جداً ، يجب ردّ الأمانات إلى أهلها ، قالت الزوجة : اصحیح هذا ؟ قال : نعم . قالت : قبل ثلاث سنوات أعطانا الله أمانة ، حتى يوم أمس كانت مشيئته أن تبقى هذه الأمانة عندنا ، وكانت فعلاً ، بالأمس استردّ أمانته ، طفلك ميت وموجود في تلك الغرفة ، اذهب وأتم الصلاة .

ثم تعالَى بنفر من الأشخاص وخذ طفلك وادفنه .

قال الرجل : ﴿ الحمد لله رب العالمين ﴾ ذهب للصلاة وكان النبي (ص) كان مستعداً للقاءه فما أن دخل حتى بادره النبي (ص) بالقول : مبروك عليكم ليلتكم الماضية ، القرآن أيضاً يبارك لكما . إذ يقول : ﴿ فاصحاب الميمنة ما أصحاب الميمنة ، وأصحاب المشئمة ما أصحاب المشئمة ، والسابقون السابقون أولئك المقربون ﴾ (١) .

بمعنى أن هذه المرأة ، وهذا الرجل سعيدان ، أيما سعادة . ولكن الذين ليس لديهم علاقة بالله مشؤومون ، تعساء ، القرآن يقول أيما شؤم وتعاسة ومصيبة يدوقون ، وليس لهم أجر ولا يتجهون نحو الكمال ، لأنهم كما يقول القرآن الكريم : أنانيون ومغرورون ، وكان النبي (ص) كان مستعداً حيث قال : مبروك عليكم ليلتكم الماضية . في تلك الليلة حملت المرأة ثم ولدت طفلاً ، تحدث العلماء كثيراً حول هذا الولد ، بعضهم يقول : إن هذا الولد صلى صلاة الليل بوضوء المغرب والعشاء طوال ٣٢ عاماً ، والبعض الآخر يقول : إنه أُستشهد في حرب صفين ، وهو يقاتل بين يدي علي (ع) ، وبعضهم يقول : إنه كان من مریدی علي (ع) وكان أمير المؤمنين يؤده كثيراً . في الختام أنصحكم جميعاً بعبارة وهي :

أعزائي ، كونوا على يقين إذا كان عملكم في سبيل الله ، فانه يجزيكم ،

(١) سورة الواقعة ، الآيات : ٨ - ١١ .

وتعمر دنياكم كما تعمر آخرتكم ، إعلموا بشكلٍ تأخذ فيه أعمالكم صبغة إلهية لأن القرآن الكريم يقول : ﴿ صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً ﴾ (١) ، ينبغي على الإنسان أن تكون أعماله ذات صبغة إلهية ، أن يتحدث في الصف لله ، حتى درس الرياضيات يدرسه لله ، العلوم أيضاً يدرسها لله وكذلك العلوم الدينية كذلك ينبغي أن يكون أكلكم وشربكم لله .

ليست الرجولة بأن تكون طيباً رؤوفاً وحنوناً أمام الزوجة ، بل الرجولة أن تواجه سوء أخلاق الزوجة بالسماح ، فلو كان للرجل زوجة تنطبق أخلاقها منه بالمنة مع أخلاقه ، لا تظهر الرجولة هنا ، بل إن الرجولة هي مجابهة المشاكل ، الرجل هو الذي لا يثير المشاكل في البيت ولا يؤزّم الأوضاع ، الرجل هو من يواجه سوء أخلاق زوجته بسعة الصدر . الزوجة ليست تلك التي لديها زوج مسلم وأوضاعه المادية جيدة ، ويبقى مرفهة ، ولديه بيت ، وحياة طبيعية وأخلاق طيبة ، في هذه الظروف تريد الزوجة أن تكون طيبة جداً مع زوجها ، ليست هذه امرأة استثنائية ، بل عادية جداً . من هي التي تُسمى السيدة ؟ .

السيدة هي التي التي توائم نفسها مع سوء أخلاق زوجها تلك هي المرأة الحقيقية . المرأة المسلمة هي التي تعيش إلى جانب زوجها راضية بقره وسوء أخلاقه وأعضابه المشدودة والقلق الذي يجلبه معه إلى البيت . عليكم بالصبر ولا تفرغوا البيت من أجواء الدفء والحنان ، لأن ذلك مضرّ جداً بالأخص لأطفالكم ويؤدي إلى تعقيد الأطفال - لا سامح الله - فلا تقدموا أطفالاً معقدين للمجتمع ، عليكم أن تتحلّوا بالرجولة وأن تتحملوا مشاكل البيت وتكونوا متسامحين .

عليك يا سيدتي أن تتحلّي بالصبر على المشاكل وسوء المعاملة لكي يجزيك خالق الكون ، وكوني على ثقة بأن الله يجزيك خيراً ، لا يجزيك في الدنيا بل يجزيك في الآخرة ، والقضية التي ذكرناها خير مثال لذلك والقضايا من هذا النوع كثيرة .

(١) سورة البقرة ، الآية : ١٣٨ .

إلهي نقسم عليك بعزتك وجلالك أن تمنحنا جميعاً الخصال الإنسانية
واليقظة ونور القلب والموفقية في أداء الفرائض والعبودية وترك المعاصي .

« الصبر »

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ ربِّ اشرح لي صدري ويسِّر لي أمري واحلل عقدة من لساني ، يفقهوا قولي ﴾ .

قلنا الإنسان يتشكل من بعدين : بعد ملكوتي ومعنوي يُسمى الروح ، وبعد ناسوتي وبهيمي يدعى الجسم ويسمونه الرغبات والغرائز أيضاً ، وقد استفدنا من الأبحاث السابقة أن حقيقة الإنسان تكمن في الجانب المعنوي والروحي .

كان البحث يدور فيما لو تغلب البعد المعنوي على البعد البهيمي ، واستطاع أن يروضه ويستفيد منه فإنه يستطيع في هذه الحالة أن يصل إلى مكان لا يعلمه سوى الله ، ولكن إذا هزم البعد المادي والبهيمي البعد الروحي ، هذا البعد أيضاً فيه أدنى من الحيوان حسب رؤية القرآن . ماذا نفعل لكي نتصبر في هذه الحرب الداخلية التي سماها النبي الأكرم (ص) الجهاد الأكبر ؟ ماذا نفعل لكي يروض البعد المعنوي البعد البهيمي ، ويستفيد منه ؟ حول هذا الموضوع ذكرت أنه ينبغي أن تأتي قوة من الخارج وليس من الداخل ، لقد عيّن القرآن الكريم قوى لهذا الأمر ولو استطاع الإنسان الاستفادة منها فستقوى إرادته وروحه وسيتصبر أخيراً في هذه الحرب .

كذلك قلت إن القرآن الكريم يقول حول ذلك : ﴿ واستعينوا بالصبر والصلاة ﴾ وتحدثت لكم بصورة إجمالية حول الصلاة ، البحث الذي ذكرناه

سابقاً كان بحث الصبر وقسمنا الصبر إلى ثلاث أنواع : الصبر على المصائب والمشاكل ، الصبر في العبادة والصبر في المعصية ، ويختلف جزء كل منها ، الصبر على المشاكل له جزء وجزاؤه كبير ، ومن وجهة نظر القرآن جزاؤه لا يعد ولا يحصى : ﴿ إِنَّمَا يُوفَى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾^(١) .

الصبر في العبادة جزاؤه أكبر وجزء الصبر في المعصية أكبر من جزء الصبر في العبادة . تحدثنا فيما مضى باختصار حول الصبر في المشاكل والمصائب . إنه بحث مفيد للجميع ، فمثلاً تصوروا صفأ فيه (٦٠) طفلاً وأخلاقهم مختلفة ، إن إدارة صف كهذا أمر صعب جداً ، وإذا لم يكن هنالك صبر واستقامة فسيبدو عليكم الإعياء ، وفي تلك الحالة لن تتمكنوا من أداء الواجب . لذلك سنتحدث حول الصبر في المشاكل .

القرآن الكريم يجزي الصبر في المشاكل أولاً . إذا استطاع المرء الاستقامة أمام المشاكل التي تواجهه ، ولم يفقد توازنه ، وإذا وقعت مصيبة لا يجزع ولا ينزع ولا يفقد توازنه في مواجهة المشاكل ، بالإضافة إلى تقوية الإرادة والروح سيتمكن لا محالة من التغلب على المشاكل الداخلية ، ويوظف هذه القوة للتغلب على الغرائز والرغبات ، علاوة على ذلك سيكون له ثواب كبير حسب الرؤية القرآنية .

علماء الأخلاق يقولون : إن كل فضيلة لها جزء ومكانة خاصة ، ولكن حسب الرؤية القرآنية الصبر له جزء غير محدود ، لأن القرآن يقول : ﴿ إِنَّمَا يُوفَى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾^(٢) بمعنى أن الإنسان الصابر ، والمقاوم للمشاكل الذي لا يفقد توازنه في مواجهتها ، الذي لا يغضب في المتاعب (طبعاً من الواضح أن عمله هذا في سبيل الله) فإن جزاءه لا يعد ولا يحصى ، بمعنى أن هذا الشخص ينال جزاءً كبيراً لا يعلم مقداره سوى الله : ﴿ إِنَّمَا يُوفَى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ إذا كان لديكم في الصف طالبٌ معقد وسيء الأخلاق ومن أجل أن تؤدبوه تغضون الطرف عن أخلاقه السيئة ، ولا تغضبون ،

(١) سورة الزمر ، الآية : ١٠ .

(٢) سورة الزمر ، الآية : ١٠ .

ولا تضربونه وبدلاً عن ذلك (من وجهة نظر الإسلام وعلماء النفس) تعالجون العقدة التي يعاني منها ، القرآن يقول : إن جزاءكم ليس إحياء شخص واحد فحسب ، كلا : ﴿ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ بل إن جزاءك لا يعد ولا يحصى ، ولا يعلم مقدار جزائك سوى الله القرآن الكريم يقول :

﴿ وَلَنُلَوِّنَكُمْ شَيْئًا مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ، الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ، أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ ﴾ (١) . هذه الآية الكريمة حول الصبر في المصيبة والمشاكل يُدرك منها أن الإنسان عندما يأتي إلى الدنيا لديه مشاكل . كل من تلقاه يشكودهره ، واحد لديه مشكلة عائلية ، وآخر لديه مشكلة الفقر ، وآخر لديه مشكلة رفيق السوء ، وآخر لديه مشكلة الاجتماع ، وآخر لديه مشكلة المرض وأخيراً هذه الدنيا « دار بالبلاء محفوفة » رحم الله مؤذن مسجد سيد أصفهان الذي كان يذهب قبل أذان الفجر إلى المأذنة يناجي ربه إلى أن يحين موعد أذان الفجر ، هذا الشخص قال لي : في يوم ذهبت إلى هناك ، وكنت أشاهد (أن المأذنة كانت مشرفة على البيوت) فرأيت أن أحداً قد مات وأهله يكون عليه . وفي مكان آخر حفل زواج ، والناس مبتهجون ، وفي جانب آخر امرأة ولدت . هذا هو حال الدنيا ، لا يمكن أن يكون الإنسان في الدنيا ويجري كل شيء حسب ما يشتهي ، لا معنى لذلك ، بل إن المصيبة والقلق وفير كالسيل ، إذا تمكن الإنسان من مواجهة هذه المشاكل بإمكانه أن يستفيد من تلك المصائب ، في هذه الحالة نفس هذه المشاكل تصبح أكبر النعم بالنسبة له ، لأن هذه المشاكل تؤدي إلى تقوية إرادته وروحه ، والتوجه نحو الكمال ، والهدف من خلق الناس هو التوجه نحو الكمال ، ولكن إذا لم يتمكن من التغلب على المشاكل ، ستجرفه كالسيل ، يجزعه ويفزع إلى أن يصل تدريجياً إلى حافة الكفر ، يصل إلى مرحلة يدب الوهن في أعصابه ، أولاً تحدث له مشاكل عائلية ، ثانياً يفقد أصدقاءه ، ثالثاً والأسوء من كل ذلك ، كفران النعمة ، هذه الآية الكريمة تصف الدنيا هكذا .

(١) سورة البقرة ، الآيات : ١٥٥ - ١٥٧ .

تقبل المصائب على الإنسان ، أحياناً مصيبة الأولاد ، وتارةً مصيبة الأب والأم ، مصيبة الفقر والغلاء وانعدام الأمن ، وأحياناً مصيبة الثورة ، وتارةً مصيبة انعكاسات الثورة ، وأمثال ذلك : ﴿ وبشر الصابرين ﴾ يا أيها النبي ، بشر الصابرين ، بشر أولئك الذين يستطيعون الاستقامة وقل لهم : إن هذه المصاعب نعمة لكم ، إذا صبرتم حقاً في زمن المصيبة سأعطيكم ثلاث نعم ، إذا أعطيت إحداها للعالمين لكفتهم .

١ - ﴿ أولئك عليهم صلوات من ربهم ﴾ في القرآن صُلِّيَ على النبي (ص) ﴿ إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ ، يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ (اللهم صل على محمد وآل محمد) .

هنا أيضاً صُلِّيَ على الإنسان الصابر ، على من ؟ على تلك الزوجة التي تستقيم مقابل سوء معاملة الزوج ، على ذلك الزوج الذي لا يفقد توازنه في تعامله مع المتاعب في خارج البيت ، لا تسوء أخلاقه ولا يصرخ . على من صُلِّيَ ؟ على تلك السيدة ، وعلى ذلك السيد اللذين يذهبان إلى الصف ويشاهدان الطالب المعقد ، وهو يشاغب ، مع أنه يلقيُ معاملةً حسنة إلا أنه يستمر في المشاغبة ، ومن أجل أن تصلح أخلاقه ، يستقيم المعلم ويصبر ولا يغضب ، ويدبر الصف بأخلاقه الحسنة ، يقال لهذا المعلم : سلامٌ من الله عليك وكما قال الإمام الصادق (ع) إذا كان واحد من هذا الجزاء لكل العالمين لكفاهم جميعاً ، حقاً إنه كذلك ، عندما تريدون احترام قائد الثورة العظيم وتجليله ، تقولون تحيةً لقائد الثورة العظيم . والآن يقول الله : تحيةً لك إذا كنت صابراً .

٢ - النعمة الأخرى هي الرحمة : ﴿ أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة ﴾ (٢) بمعنى إذا كان صابراً شتمله الرحمة الإلهية وكما يقول الطلبة الرحمة هنا مطلقة ، تشمل الدنيا والآخرة ، كشخص غطس في الماء وأحاطه من كل جانب ، هذه الآية تقول : إن رحمة الله تغطيةً من كل جانب ، في الدنيا ولديه رحمة ، وفي الآخرة لديه رحمة ، ومن ناحية الأولاد لديه رحمة ، ومن

(١) سورة الأحزاب ، الآية : ٥٦ .

(٢) سورة البقرة ، الآية : ١٥٧ .

وجهة حسن العاقبة لديه رحمة ، وضمان المستقبل لديه رحمة وسلامة النفس لديه رحمة ، وسلامة الجسم لديه رحمة . وإذا لم يكن للإنسان الصابر فائدة سوى أنه إذا صبر لن يصاب بضعف الأعصاب ، رحمة الله هذه لوحدها تكفي ، لماذا نصاب نحن بضعف الأعصاب ، ومن الذي لا يصاب ؟ الدكتور شهرازي لديه عبارة جميلة إذ يقول : عالم اليوم عالم المعتبرين أي دار المجانين ، إن (٩٥) بالمئة من الناس مجانين (طبعاً في ذلك اليوم كان قد قال (٩٥) بالمئة وقد يكونون الآن أكثر) (٩٥) بالمئة من الناس عندهم ضعف في الأعصاب ، وهذا في حد ذاته مرحلة من مراحل الجنون (في هذا الجمع من الذي ليس لديه ضعف في الأعصاب ، بالأخص النساء اللواتي من المفروض أن لا يكون لديهن ضعف في الأعصاب) .

من أين يأتي ضعف الأعصاب ؟ من القلق والهموم التي ليست في محلها ، من أين تأتي الهموم ؟ لأنه ليس لديه صبر وفكر ولا يملك الاستقامة على المشاكل وإذا كان صابراً عليه أن يقول عند المصيبة : ﴿ إنا لله وإنا إليه راجعون ﴾ يقال : عندما سمع قائد الثورة العظيم نبأ وفاة المرحوم الحاج مصطفى الخييني قال : ﴿ إنا لله وإنا إليه راجعون ﴾ ثم أضاف : إن لخالق الكون أطفاف خفية ووفاء مصطفى أحد أطفاف الله الخفية . إنه لم يكتب بقول : ﴿ إنا لله وإنا إليه راجعون ﴾ بل اعتبر ذلك من أطفاف الله الخفية وعلينا أن نعتقد أن كل ما يحدث للإنسان هو من أطفاف الله الخفية .

أحياناً الإنسان يجلب لنفسه المتاعب ، وهذا موضوع آخر ، أحياناً يغدو الذنب مصيبة ، إذا استطاع الإنسان أن يفهم هذا الأمر يسمى صابراً .

٣ - ﴿ وأولئك هم المهتدون ﴾^(١) بمعنى أن يد العناية الإلهية فوق رأسه تنجده دائماً في الأزمات وتقيه من السقوط ، وتأخذ بيده نحو دنياه وأخرته مُصانة ، ومن الطبيعي عندما تكون يد العناية الإلهية فوق رأس الفرد يستطيع أن يتغلب على رغباته وغرائزه ، وهذا ما يقوله القرآن : ﴿ وإلا تصرف عني كيدهن أصب إليهن وأكن من الجاهلين ﴾^(٢) . قال : إلهي ، يجب أن تكون يد عنايتك

(١) سورة البقرة ، الآية : ١٥٧ .

(٢) سورة يوسف ، الآية : ٣٣ .

فوق رأسي، وإذا لم تكن يد عنايتك قد أرغب أنا أيضاً. إذا أراد الإنسان أن يتغلب على هواه بمعنى أن ينتصر في جهاده الأكبر، وفي تلك الحرب الداخلية، يجب أن تكون يد العناية الإلهية فوق رأسه، وهذه الآية الكريمة تقول: إن يد العناية الإلهية فوق رأسه. إذا لم تكونوا صابرين ليس فقط تُصابون بضعف الأعصاب في الدنيا وتضعف إرادتكم وروحكم، وتهين عليكم الشهوات والفرائض، وذلك البعد الحيواني، بل إن ذلك هو نوعٌ من كفران النعمة، عندما لا نشكر النعمة ستكون ديانا عذابُ اليم، وآخرتنا فيها عذابُ اليم، وإيماننا ناقص، لأننا نقرأ في الروايات: «الصبر من الإيمان» ثم يُشبهه ويقول: «كالرأس من الجسد» إذا لم يكن للإنسان رأس فإنه ميت، هذه الرواية الموجودة أيضاً في «نهج البلاغة»، تقول: إذا لم يكن للإنسان صبر فليس له إيمان.

الأصمعي، وزير هارون الرشيد كان ذاهباً للصيد فتاه عن القافلة عند مطاردته للصيد، يقول: في هذه الحال شاهدت خيمةً وسط الصحراء، وكنت ظمآنًا، وكان الجو حاراً جداً، فقلت: دعني أذهب إلى هذه الخيمة لكي أستريح ثم ألتحق بالقافلة.

الأصمعي الذي كان وزيراً لنصف العالم في ذلك اليوم يقول: عندما خطوت نحو الخيمة شاهدت امرأة شابة وجميلة في داخل الخيمة. وهي وحيدة - العرب - يحبون الضيف كثيراً، ما أن رأيتي تلك المرأة حتى حيّتي قالت: تفضل. فولجت الخيمة. فأجلستني في مكان، وجلست في مكان آخر في الخيمة. قلت لها: ناويلني شيئاً من الماء لكي أشرب. فتغير لونها، قالت: ماذا أفعل إن زوجي لم يأذن لي بأن أعطيك ماءً، ولكن عندي قدرٌ من الحليب، وهذا الحليب لغذائي، لن أكل الغذاء، واشرب أنت الحليب.

يقول الأصمعي: شربت الحليب، ولم تكلمني تلك المرأة، فجأة شاهدتها وقد تبدل حالها، نظرت فرأيت سواداً قادمًا من بعيد. قالت: جاء زوجي، أخذت الماء الذي لم تعطني إياه لكي أشربه وخرجت من الخيمة، كنت أشاهدهما عن كثب. كان عجوزاً أسود، قبيح المنظر، ساعدته علي النزول من الجمل وغسلت يديه ورجليه وأدخلته الخيمة باحترام. فوجدته

عجوزاً سيء الخلق ، لم يأبه بي كثيراً ، بل كان يعامل تلك المرأة بخشونة . يقول الأصمعي : استأنت من خلق الرجل إلى الحد الذي نهضت من مكاني وفضلت البقاء تحت الشمس على البقاء داخل الخيمة . لذلك خرجت من تلك الخيمة ، لم يأبه بي ذلك الرجل ولكن السيدة رافقتني عند الخروج . قلت لها : سيدتي ، إنني أأسف لك ، أنت بهذا الجمال والشباب وتعلقين بهذا العجوز ، بأي شيء تعلقت ؟ بماله وهذا وضعه الأساسوي وسط الصحراء أم بأخلاقه وتلك أطواره الغريبة ؟ أم بجماله ! وهو مجرد عجوز دميم المنظر ، بماذا ؟ يقول : فجأة شاهدت السيدة وقد شحبت لون وجهها ، قالت : يا أصمعي ، إنني أسفة عليك لم أكن أظن أنك وزير هارون الرشيد تريد أن تمحي محبة زوجي من قلبي عن طريق النسيمة . يا أصمعي ، هل تدري لماذا أفعل هكذا ؟ لأنني سمعت حديث النبي الأكرم (ص) : « الإيمان نصفه الصبر ونصفه الشكر » بمعنى أن الإيمان له جناحان : صفة الصبر ، وصفة الشكر . ويجب أن أشكر الله لأنه منحني الجمال والشباب والخلق الحسن ، وشكري لله هو انسجامي مع زوجي ، وحتى يكتمل إيماني ويتم ، سأصبر على سوء معاملته ، الدنيا تمضي وأنا أريد أن أكمل إيماني وأن أرحل عن الدنيا بإيمان كامل .

حقاً كم هو جميل أن تراعي هذه الأخلاق في البيت ، بمعنى أن يقول الرجل إذا رأيت ما لا يروقني من زوجتي سأصبر ، ستصلح الأمور ، لكي يكون لديهم انسجام في الأخلاق مئة بالمئة ، طبعاً أولئك الذين هم نور واحد كالمعصومين الأربعة عشر بما أنهم خطئ واحد فلداهم انسجام كامل أيضاً ما عدا الأنبياء (الناس العارقين) لا يمكنهم الوصول إلى انسجام مئة بالمئة . عندما لا يمكن ذلك ماذا يجب أن نفعل ؟ إذا أردنا أن تكون الأجواء دافئة في البيت هل يجب أن يسود التسامح وحده أو الصبر ، أم تسود الاستقامة . إذا ساد الصبر والاستقامة والتسامح والحنان في البيت ، فإن أجواء البيت ستكون دافئة ، وإذا لم يكن هنالك صبر وتسامح فلا يوجد انسجام مئة بالمئة ، عندما يحدث الصدام ومن هنا تنبع جميع الخلافات العائلية . قوموا بدراسة بين أولئك الذين لهم خلافات عائلية ، وسترون من أين وجدت تلك الخلافات ؟ حول أولئك الذين

لديهم علاقات عائلية حميمة أيضاً ، ابحثوا عن ماهية الأسباب الكامنة وراء ذلك ؟ إذا كان قد ورد في القرآن أكثر من سبعين آية حول الصبر ، وفضيلته ، فإن السبب في ذلك أن هذه الفضيلة تتبخر أعمالاً كبيرة ، وإن فضيلة الصبر مفيدة جداً في بحثنا هذا ، إنها مفيدة لثمتين الإرادة ، وللمعلمين في الصف (من أن ألا يصابروا بضعف الأعصاب) مفيدة جداً ، وهي مفيدة للبيت والانسجام ، وبالأخص لأطفالكم .

ليس منطقياً أن يتربى طفل في بيت لا يوجد فيه انسجام بين الوالدين . وليس صحيحاً أبداً أن تجمعوا المال لضمان مستقبل أولادكم ، إنه خطأ ، بل إن ضمان مستقبله أن تشاؤوا منه إنساناً : ألا تربوه معقداً ، وأن تكونوا صابرين في البيت ولا تهابوا المشاكل . من الطبيعي إذا جاء الصبر ، وأصبح الإنسان لا يهاب شيئاً (كما قال القرآن) ستصلح جميع الأمور . إن القرآن الكريم يَمُنُّ على النبي الأكرم (ص) في سورة ألم نشرح وهذه هي أول مَنَّةٍ يَبَيِّنُ بها على النبي الأكرم (ص) :

﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ . أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ وَوَضَعْنَا عَنكَ وَزْرَكَ الَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ، فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ، إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ، فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ وَإِلَى رَبِّكَ فَارْغَب ﴾ (١) .

أيها النبي ، ألم نشرح لك صدرك لكي تستطيع مواجهة المشاكل ؟ ثم تأتي المَنَّةُ الثانية : ﴿ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴾ ، والثالثة : ﴿ وَوَضَعْنَا عَنكَ وَزْرَكَ ﴾ الذي أنقض ظهرك ، ثم يقول : إذا كان الإنسان منشرح الصدر صابراً ومقاوماً وكما يقول القرآن : أن لا يكون هلوغاً ، وأن لا يهرب من الساحة لمجرد حدوث قضايا بسيطة . الناس المصابون بضعف الأعصاب يَفْرُونَ من مواجهة الصعاب ، ويرتفع صراخهم ، وإذا كانوا لا سامح الله - سيئي اللسان فوامصيتاه - وكما يقول القرآن : ﴿ فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ، إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴾ عندما تحدث لكم مصيبة ، إذا صبرتم على المشاكل فستسهل عليكم الأمور .

(١) سورة الانشراح ، الآيات : ١ - ٧ .

إنكم تستطيعون حل المشكلة وستحل المشكلة ، الله يحل المشاكل ، كل شيء بيد الله :

﴿ قل اللهم مالك الملك تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير إنك على كل شيء قدير ﴾ (١) .

العزة والمذلة بيد الله . ومن أجل أن تُحل المشاكل فإن الأرضية مُمهدة لنا ، ولكن يد الله ينبغي أن تحل المشكلة . إذا كانت لديكم مشكلة حاولوا أن يكون الله محامياً عنكم ، الآية الكريمة تؤكد كثيراً على أن المشكلة ستحل : ﴿ فإن مع العسر يسراً ﴾ فيها خمس أو ستة تأكيدات ، معنى ذلك أن تكون صابراً ، إعلم وكن واثقاً ، ولا شبهه في ذلك : أن الله سيحل مشكلتك ، وإذا لم يحصل ذلك ، فإن الجزع والفرع من الانعكاسات الأولية لذلك .

ينقلون جملة حول مجنون ليلي (خرافة كانت أم حقيقة إلا أنها حقيقة هكذا) بأنه أخيراً تم الاتفاق على تزويج ليلي بمجنون ، ذهبوا إلى الخطوبة ، ولكن عندما ذهبوا ظهرت تجاعيد على جبين مجنون من أثر الحزن ، أخذوا مجنوناً إلى هناك ، فلم يوافقوا على زواجه بليلى بسبب تجاعيد وجهه .

أحد العلماء النفسانيين لديه جملة رائعة ، يقول : تجاعيد وجه مجنون ، أحدثت تجاعيد في قضية زواجه ، كم هي رائعة ، عدم الصبر يجلب التجاعيد ، الجزع والفرع يجلب التجاعيد ، كفران النعمة ، والصراخ والضجيج عند الله يجلب التجاعيد ، إن هذا لا يحل المشكلة ، وأن معظم الأدعية التي لا تستجاب تنبع من هنا ، كأنه أقرض الله قرصاً : ﴿ إن الإنسان خلق هلوفاً ، إذا مسه الشرُ جزوعاً ﴾ (٢) .

(١) سورة آل عمران ، الآية : ٢٦ .

(٢) سورة المعارج ، الآيتان : ١٩ و ٢٠ .

« ملكة الصبر »

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ ربّ اشرح لي صدري ويسّر لي أمري واحلل عقدة من لساني ، يفقهوا قولي ﴾ .

كان بحثنا حول الحرب التي تدور رحاها دائماً في داخلنا باسم الجهاد الأكبر ، وهي الصراع الدائر بين بعدنا المعنوي الذي يُسمى الروح ، وبعدنا المادي الذي يُسمى الجسم ، وهذا الصراع مستمر يقول أحد الشعراء الترجمة :

النفس غول لا يسموت إن النفس مغمومة إذ لا أداة لها
حتى عندما يبلغ الإنسان من العمر عتياً ، فإن الكثير من الغرائز تكتسب حيوية وشباباً أكثر . النبي الأكرم (ص) يقول :

« يشيب ابن آدم وتشب فيه الخصلتان الحرص وطول الأمل »^(١) .

بمعنى أنه قد يشيب المرء ، إلا أنه لم يهذب نفسه تشب وتحياً فيه خصلتان الحرص وطول الأمل .

هذه الحرب الدائرة في داخلنا ليست حرب سنة واحدة أو عشر سنوات ، إنها حرب مستمرة دائماً ، وانتصار الإنسان في هذه الحرب أمر صعب للغاية ،

(١) الخصال ، المجلد الأول ، ص ٨٤ .

كيوسف الصديق يعوذ بالرب ليتمكن من الظفر في هذه الحرب وأخيراً إذا لم تأت قوة من الخارج فنحن مهزومين لا محالة وإذا انتصرنا في هذه الحرب سنكون مرفوعي الرأس ، إن معنى الإنسانية هو الانتصار في هذه الحرب وكما يقول القرآن الكريم سنكون فائزين في الدنيا والآخرة ، وإذا هُزمتنا في هذه الحرب سنكون مطاطئي الرأس إلى الحد الذي يموت فيه عقلنا وضميرنا الأخلاقي ، نصل إلى الحد الذي نصبح فيه أدنى من الحيوان ، وأشد فتكاً ، لا سامح الله ، أن يهزم أحدنا في هذه الحرب .

من أجل الانتصار في هذه المعركة عرّف لنا القرآن الكريم بعض القوى وإذا تعرفنا على هذه القوى استخدمناها فنحن منتصرون لا محالة . أولى القوى التي تحدثنا عنها ، الاهتمام بواجبات الإسلام وبالأخص الصلاة ، إذا حدث للمرء تفاعل ذاتي عندما يحين وقت الصلاة ، فإن ذلك مفيد جداً لتقوية إرادته وروحه . القرآن الكريم يقول : إن ذلك التفاعل له تأثير ، وقد أثبت التجارب صدق هذه المقولة ، ويؤكد علماء الأخلاق والتربية هذه المقولة أيضاً . من الطبيعي أن ظهور هذا التفاعل الذاتي يحتاج إلى تواصل وديمومة ، لكي يصل المرء إلى مرحلة يشعر فيها بتفاعل في ذاته وكأنه أضع شيئاً ما لدينا روايات من جميع الأئمة الطاهرين (ع) حول هذا الموضوع .

عندما كان يحين موعد الصلاة ، كان أمير المؤمنين (ع) يشعر باضطراب في ذاته ، كان لون وجهه يتبدل ، عاتشة تقول عندما كان المؤذن يقول : الله أكبر كان لون وجه النبي (ص) يتغير ، ولم نكن لتتعرف عليه وكان يقول : « حان وقت الصلاة » ، إن هذا الأمر يحتاج إلى ممارسة ، على كل حال القرآن الكريم يقول : الاهتمام بالواجبات يوجد قوة لتهديب النفس ، والنصر في هذه المعركة الداخلية « واستعينوا بالصبر والصلاة » .

هذه القضية أهميتها كبيرة جداً لدى القرآن الكريم ، وروايات أهل البيت (ع) وعلماء التربية والتعليم .

أنتم من خواص الناس الذين تصنعون المجتمع ، وسعادة الجيل القادم

رهينةً بجهودكم ، عليكم الاستعانة بأداء كافة الواجبات من أجل النصر ، عليكم الاستعانة بالصلاة .

الموضوع الثاني : الصبر ؛ الذي يُقسم إلى ثلاثة أجزاء :

الصبر في المشاكل .
والصبر في العبادة ،
والصبر عند المعصية .

وفضيلة الصبر حسب الترتيب المذكور بمعنى أن الصبر في المشاكل - من وجهة نظر القرآن - له فضيلة كبيرة ، الصبر في العبادة فضيلة أكبر ، والصبر عند المعصية فضيلة أكثر من الصبرين المذكورين ، إن الصبر هو مصدر الإعمار ، بمعنى يمكن أن نسلك طريق المئة عام في لحظة واحدة ، كما سلك الكثير من العرفاء طريق المئة عام خلال لحظة واحدة ، وذلك من خلال الصبر عند المعصية .

الصبر في المشاكل موضوع مهم جداً والقرآن الكريم يوصيكم بالصبر في المشاكل ، في نهاية سورة الفرقان حين يتحدث عن صفات المؤمن يقول :

﴿ وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا ﴾^(١) .

بمعنى أن الرجل المسلم الذي يمكن أن نطلق عليه اسم عبد الله من أولى صفاته أنه ليس أنانياً ، إن الأنانية لا تتفق والإيمان . صفة الإنسان هي أن يكون صابراً ، إذا تعرض له شخصاً جاهل لا يواجهه بالمثل فحسب ، بل يخاطبه بلغة مرنة ﴿ وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا ﴾ وعندما يلتقي بإنسان جاهل وعنيد يبادره بالسلام ويتحدث إليه بليونة ويضمه بمرونة .

هنالك إشارة إلى بحثنا هذا في بداية سورة المزمل ، وهي مفيدة جداً لكم أيها المعلمون الذين تتعاملون مع الولد والشاب الذي لم يختمر فكره بعد . وهذه قوى يجب أن نأخذها من الخارج ، في هذه السورة يخاطب القرآن الكريم

(١) سورة الفرقان ، الآية : ٦٣ .

النبي (ص) ، يا أيها النبي إن على عاتقك عبئاً ثقيلاً وعليك أن تأخذ قوة من الخارج ، يحدد بعض القوى ثم يحدد في نهاية المطاف قوة أخيرة ، ألا وهي قضية الصبر . ﴿ واصبرْ على ما يقولونْ واهجرهمْ هجراً جميلاً ﴾ (١) .

وبكلمة أخرى يا أيها النبي ، عليك بالصبر في مواجهة الناس الذين لم يُختمروا بعد ، ليس عن طريق الغضب والتجهم . ﴿ واهجرهمْ هجراً جميلاً ﴾ .

ومن خلال هذه الخصوصية أعرض عنهم ، وعندما تعرض عنهم سيُفقدون إلى حالهم ويتدبرون ثم إنك تستطيع أن تستعين بقوى أخرى ، لتقوية الإرادة ، وتهذيب النفس وتفوز في الصراع الداخلي الذي أسماه النبي الأكرم (ص) الجهاد الأكبر أرجو منكم جميعاً ، أنتم المعلمون يجب أن تهتموا بالصبر في المشاكل ، لأن الشباب والأولاد في هذه السن في حالة من التمرد العاطفي وطول اللسان ، لأن الشاب عادة لم تختمر أفكاره بسبب عدم نضجه وقلبه تجرّبته .

الموضوع الآخر ، أن التلاميذ أمانة في أيديكم وعليكم أن تصونوا الأمانة . فأفضل السبل لصيانة الأمانة ، ولكي لا تفقدوا حيويكم ونشاطكم المعنوي والمادي عليكم بالصبر في مواجهة هؤلاء الأولاد والشباب ماذا تفعل لكي تمتلك ملكة الصبر ، يعني أن الرجل السريع الغضب ولا يملك أعصاباً قوية . . . ماذا ينبغي عليه أن يفعل ؟ .

هنالك طرق عديدة يستطيع الإنسان من خلالها ترسيخ صفات الفضيلة ، وإحدى هذه الطرق هي الممارسة ، إذا لم تستخدموا عينكم اليمنى لمدة شهر واحد ستصابون بالعمى ، إن يديكم اليمنى أقوى من يديكم اليسرى لماذا ؟ لأنكم تستخدمون يديكم اليمنى أكثر من اليد اليسرى لذلك تكون أقوى من اليد اليسرى ، هكذا هي أعضاؤنا وجوارحنا ، كلمة استخدمناها أكثر تستقوى أكثر ، لذلك يقول الفلاسفة وعلماء الأخلاق ، والغرماء وهكذا يستفاد من روايات أهل البيت (ع) : إن الأفعال تصنع لنا ملكة ، بمعنى أن أعمالنا هي التي توفّر لنا

(١) سورة المزمل ، الآية : ١٠ .

ملكة جيدة أو سيئة . مثلاً إذا لم تستطيعوا الصبر في البيت، يشعرون بالغضب أمام الطفل ، أمام التلاميذ بشكلٍ خاص فإن جميع هذه التصرفات تصنع لكم ملكة، إلى أن تصبحوا تدريجياً غير قادرين على تحمل المسؤولية، ناهيك عن تأثيرات ذلك على الحالة البدنية ولكن لو حدث العكس، إذا واجهتم المتاعب في البيت بالصبر والحلم من الحلم يأتي الصبر ، من التحلم أي الاعتماد على الذات يأتي الحلم ، يجب أولاً التحلّم ، عندما تصبرون على المتاعب ، تصبرون في اليوم الأول إلى الرابع، يزول عندها ضعف الأعصاب تدريجياً هذا الموضوع مهم جداً ، لأن بحثنا ليس بحثاً بدنياً . إن أكبر الفضائل في الإسلام أن يكون الإنسان صابراً ، وأن يتحلّى بالصبر في المشاكل ، وأنجح السبل للصبر في المشاكل هو التحلّم ، الممارسة تثمر الملكة ، الممارسة أي العمل من وجهة العيون والأذن واللسان والأعصاب إذا تحلّيتُم بالحلم في اليوم الأول في اليوم الثاني سيزول عنكم ضعف الأعصاب في غضون ستة أشهر وهكذا توجدون ملكة الصبر في أنفسكم ولكن من الواضح أن الصبر في العبادة أمرٌ صعب للغاية ، لدينا رواية عن الإمام الباقر (ع) يقول : احتضنتي والدي الإمام السجاد (ع) وهو يحتضر وقال : إن الإمام الحسين (ع) احتضنتي في يوم عاشوراء ، وقال لي هذه الجملة - يتضح أنها حساسة جداً - أمير المؤمنين (ع) احتضن الإمام الحسين (ع) وقال : « يا بني إصبر على الحق وإن كان مرأً » .

عندما يريد المرء عدم التفريط بالحق فإنه عمل شاق حقاً ، ولكن إذا استطاع أن يصبر في هذا الحق سيصل إلى ما ينبغي سريعاً ، ليس فقط ينتصر في تلك المعركة بل إن القرآن يقول :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أُنَّ لَا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشَرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُتِبَتْ لَهُمْ تَوْعَدُونَ ، نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ ﴾ (١) الآية بليغة جداً ، المؤمن يقول : يا إلهي ، أن يكون مسلماً ثابتاً في إسلامه ، قد يقول إنني مسلم ، ولكنه يتظاهر بالإسلام ، وقد يقول : إنني مسلم ويطبّق الإسلام عملياً ، وهذا أمرٌ صعبٌ يدعى بالصبر في العبادة .

(١) سورة فصلت ، الآيتان : ٣٠ و ٣١ .

القرآن يقول : إذا أصبح المرء هكذا : ﴿ تَنْزَلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ ﴾
 يشاهد الملائكة ، تنزل عليه الملائكة ، يقولون له نحن نعينك ، ينصحونه ،
 يقول له لا تفلق من المستقبل ، ولا تحزن على ما مضى ﴿ أَلَّا تَخَافُوا
 وَلَا تَحْزَنُوا ﴾ الملائكة يبشرونه بالجنة : ﴿ وَأَبْشُرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ
 تَعْبُدُونَ ﴾ ثم يقول له : ﴿ نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ ﴾ نحن أصدقاءك نحن نسدك في
 الدنيا والآخرة وقد وصل بعض العارفين وأصحاب السلوك إلى هذا المستوى وأنا
 أعرفهم .

كان المرحوم آخوند كاشي أحد علماء أصفهان رجلاً عجيباً ويقول : هذه
 الآية الشريفة التي تقول : ﴿ أُولِي أجنحةٍ مثنى وثلاث ورباع ﴾^(١) أن الملائكة
 لديهم أجنحة ، لا يمكن للمرء أن يفهم ما معنى أن للملائكة أجنحة ؟ كما أن
 الشهيد الثاني - عليه الرحمة - يذكر في كتاب « منية المرید » أن الملائكة
 يحضرون في جلسة العلم ، ويفرشون أجنحتهم لكي يجلس الحاضرون في
 الجلسة على أجنحتهم ، ثم يفتخرون بأن أجنحتنا سجادة طلاب العلم ،
 ولا يمكن استيعاب هذه الحقيقة .

آخوند كاشي ، قال : إنه اطلع على حقائق القرآن بشكل كسفي ورأى
 الملائكة . إن الصبر في العبادة لا يصل بالمرء إلى مرتبة يرفع هامته فيها أمام
 كافة الغرائز فحسب ، بل يمكنه أن يوصل الإنسان إلى عالم الملكوت ، وكما
 يقول المعري يمكنه أن يصل إلى مكان لا يعلمه سوى الله .

« شعر فارسي وترجمته » :

هل شاهدت تحليق الطير ، أخرج لترى كيف يطير الإنسان ، بعيداً عن
 طوق الشهوات .

الإنسان يستطيع التحليق ، كما يستطيع تسخير الفضاء ، وعالم الملكوت
 والجبروت وأن يصل إلى مكان يقول عنه جبرائيل : « لو دنوت أنملة لاحتقرت »
 اذهب ، اذهب ، فليس هذا مكاني إنه مكانك . أنت تستطيع التحليق والوصول

(١) سورة فاطر ، الآية : ١ .

إلى مكان لا يعلمه سوى الله .

إذا قام الإنسان بممارسة الصبر في العبادة ، سيشعر بلذة عجيبة تدريجياً ، يصبح فيها كملائكة الرحمن ، يعمل أتوماتيكياً . إذا أردتم الاقتداء بشخص ما وتقليد أحد المراجع ، وإذا أراد القاضي أن يقوم بعمله وإذا أراد الشاهد أن يشهد ، فيجب أن يكون عادلاً ، لا يمكن الاقتداء بالصلاة بأي كان ولا يمكن لأي شخص أن يكون قاضياً أو قائداً أو مرجعاً بل يجب أن يكون عادلاً .

من هو العادل ؟ العادل هو الذي تكون واجباته متظمة ولا يرتكب المعاصي ، لذلك إذا كذب (العياذ بالله) أحد مراجع التقليد - أدام الله ظلّه تسقط عنه القيادة والمرجعية تلقائياً ، وإذا استغاب أحد المراجع أحداً يسقط من المرجعية تلقائياً ، لا حاجة إلى تنحيته عن منصبه ، إنه يتنحى تلقائياً ، إذا نظر إمام الجماعة إلى امرأة نظرة شهوانية ، فهو يسقط من العدالة تلقائياً .

الفقهاء يقولون : ليس فقط لا يجب أن يرتكب الذنوب ، بل عليه أن يؤدي واجباته بانتظام وعن ملكة ، بمعنى أن تكون ملكة العدالة شرطاً وملكة العدالة هي أن تعمل أتوماتيكياً وأن يصبح عدم ارتكاب الذنوب أمراً عادياً بالنسبة له ، ثم يرتقي مكاناً أعلى من ملكة العدالة ، بحيث تصبح المناجاة أرقى لذة ، في منتصف الليل ، لذة العاشق بمعشوقه ، وأرقى لذة للعاشق هي أن يختلي بمعشوقه ، شيئاً فشيئاً يصل الإنسان إلى هذه المرحلة .

يؤكد مؤرخو التاريخ حول مريم العذراء : إنها نُفيت إلى الصحراء ، وعيسى ﴿ خائفاً يترقب ﴾ يتجّه مع والدته ، أرادوا أن يقبضوا عليهما ويقتلوهما ، كانا صائمين ، ذهب عيسى (ع) وأحضر مقداراً من الكلال للإفطار ، ولكن والدته كانت قد ماتت ، حَفَرَ قبراً لوالدته ودفنها فيه . من الواضح عندما توفيت مريم العذراء ذهبت عند الرب في الجنة ، غطي أعلى مكان في القبر ، ثم ناداها يقول : يا أمي هل تريدان العودة إلى الدنيا ؟ قالت : أريد أن أعود ! سألهما : لماذا ؟ حقاً إننا نعجب أيضاً لماذا تريد مريم أن تعود إلى الدنيا ؟ ليس لديها بيت أو زوج أو طعام لذيذ ولم تستفد من مواهب الطبيعة ، ولكنها تقول :

أريد أن أعود إلى الدنيا ، قال : أمّا لماذا تريد أن تعود إلى الدنيا ؟
أجبت : لأنني أريد أن أصوم في الأيام الحارة جداً ، وأن أتوضأ في الليالي
الباردة جداً .

لا تتصوروا أن هذه الأمور فرضت عليها ، كلا ، فقد غدت أكبر لذة لمريم
العدراء ، وهي أن تنهض في منتصف الليل ، وتتوضأ وتتأجج الرب : ﴿ أَمَّنْ لَهُوَ
قَاتَتْ آتَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْأَخْرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةً رَبِّهِ ﴾ (١) .

كيف حال أولئك الذين يتعاملون مع الله ، اللذين صبروا في العبادة فغدا
الصبر في العبادة شيئاً فشيئاً ملكه فيهم ، انتهت حرب الداخل ، لجموا
الغرائز ، وفدّبوا البُعْدَ المادي ووصلوا إلى المنزل الثالث . المنزل غدا لذته
الوحيدة ، منزل القلب ، قلب الليل ومناجاة لربه إنها أكبر لذة بالنسبة له .

الصلاة بالأخص صلاة النافلة ، القرآن والتوسل بأهل البيت (ع)
وبالخصوص إذا استطاع إطعام مسكين وأن يُفْرَحَ أحداً ما حتى الكلب أو
القطعة . أرجوكم أن تفرحوا قلوب الأطفال الذين تحت أيديكم ، أن تسخروا
قلوبهم ، وفي هذه الحالة تستطيعون بلوغ الرُقي سريعاً . إن هؤلاء الأطفال
لا ذنب لهم ، ولا يرتكبون المعاصي ، لذلك تُؤخذ ابتسامتهم مأخذ الجد كما
تؤخذ الآه التي يطلقونها مأخذ الجد ، إذا تأوهوا من جراء تصرفكم فالأمر صعب
مثلاً أنت عصبي أو كنت عصبياً في البيت ، وجئت إلى المدرسة ، ثم تناولت
على طفل أو شاب لم يكن مذنباً ، إذا تأوه هذا الطفل أو الشاب من الممكن أن
تجث هذه الآه جذورك ، كلا ، قد لا تجث جذورك فحسب ، بل من الممكن
- لا سامح الله - أن تغوز بحسن العاقبة وقد تؤدي إلى بؤس وشقاء أطفالك ، قد
تؤدي إلى التقاعس في تأدية الصلاة بحيث تنكر الصلاة تدريجياً وذلك بدلاً من
أن تتأجج ربك في أطراف الليل وآناء النهار .

المرحوم الكليني - رحمه الله عليه - ينقل رواية في كتاب الكافي إذ
يخاطب العبد المؤمن : أيها العبد المؤمن ، لا تستخف بالذنوب ، من الممكن

(١) سورة الزمر ، الآية : ٩ .

أن ترتكب ذنباً صغيراً ، إني أخاطبك بأني لن أصفح عنك ، وأنتك لن تستطيع التوبة . ثم قال : لا تستخف بالثواب ، لأنه من الممكن أن يكون عمل ما في نظرك صغيراً ، ولكنه من منظاري كبير جداً ، ويؤدي ذلك أن يصلك خطاب : يا عبدي ، لقد فزت وسعدت ، سعدت أنت كما سعد أولادك .

كان المرحوم السيد الرشتي أحد المراجع الكبار ، وذو منزلةٍ عاليةٍ في أصفهان وكان حين يُجَنُّ الليل ، تتأبه حالة من الخوف والرجاء ، وكان يضع الطوق في رقبته ويضجّ بالعويل والصراخ ، حيث بانت قدرته تضاهي قدرة ظل السلطان ابن ناصر الدين شاه ، الذي كان يريد ذمة الأمور ، فجاء شحاذ إلى السلطان ، فقال له السلطان : لماذا جئت عندي ، إذا أردت العلم اذهب إلى مسجد السيد ، إذا أردت القدرة والمال اذهب إلى مسجد السيد ، وحقاً إنه كان هكذا ، لقد أصاب ظل السلطان ، والأدهى من ذلك أنه بنى مسجداً في أصفهان باسم مسجد السيد ، وهو راقٍ جداً وفيه روحٌ ومعنويةٌ عجيبة (جربتها شخصياً) مع الأخذ بعين الاعتبار أن هنالك مساجد راقية جداً في أصفهان كمسجد الإمام (مسجد الشاه سابقاً) والنشاط والخدمة التي تقدم في مسجد السيد لا يُضاهيها أي نشاط أو خدمة في المساجد الأخرى .

كيف وصل السيد إلى هذه المرتبة ؟ هو شخصياً قال : إن كلباً أوصله إلى هذه المرتبة . وروى قائلاً : كنت طالباً في النجف ، ومَرَّتْ عدة أيام لم يصلني خلالها مالٌ من إيران ، صَبَرْتُ عدة أيام ، ولم أخبر أحداً عن ذلك عزة النفس - أمر هام - ولكن حدثت لي شبهة الرجوب ، فاستقرضت من رفيقي قدرأ من المال ، استقرضت المال ليلاً ، وقررت أن أكل خبز وياجة (رأس خروف) لذلك اشتريت خبزاً وياجة في الصباح ، وعندما كنت عائداً إلى المنزل شاهدت كلباً وقعت في مجاري المياه ، (جو النجف في الصباح يكون بارداً أحياناً) تتضور جوعاً ومعها ثلاثة كلاب من صغارها ، وقعوا على ندي الكلبة في حين كان نديها قد نضب من الحليب ، فشعرت بالأسى لحال تلك الكلبة ، فقلت أخاطب نفسي : لقد تحمّلنا الجوع فلتحمّله هذا الصباح أيضاً . إنه أثر وضحي ، يقول : غمست الخبز في ماء الباجه ووضعت الصحن أمام الكلبة .

فأكلته الكلبة ، ثم نهضت ، وعقرت الصحن - وهذه إحدى الأوامر الإسلامية المهمة ، إذا أكل أو شرب الكلب من صحن ، يجب أن يمرغ بالتراب اليابس ، ثم يُمسَل بالماء ليطهر ، وإذا لم يمرغ بالتراب اليابس فلو غسلوه ألف مرة في البحار أو إذا وقع سنة واحدة في المحيط لن يطهر ، ويسمى هذا العمل « التعفير » ويقال إنه ثبت أخيراً أن ميكروب فم الكلب لا يقتل إلا بواسطة الكلاب ، وهذه إحدى معجزات النبي الأكرم (ص) طبعاً إن انتساب هذه الأمور لا تليق بشأن النبي (ص) ، إن النبي (ص) أسمى من أن يكون التعفير معجزة لنا لكي يزداد إيماننا به .

يقول : ذهبت وأعدت الصحن ، وبعدها رزقني الله مالاً من حيث لا أحتسب ، إذ لم تمضِ فترة حيث جاء شخصٌ من شفت - كان من أهالي شفت ، وشفت هي إحدى مدن محافظة جيلان ، وقال : الحاج الفلاني توفي وأوصى بثلاث ماله لك وهو مزرعة . يقول : راجعت نفسي ، فوجدت أنه في ذلك الوقت الذي كنت أطعم فيه الكلبة الخبز والباجة ، عصر نفس ذلك اليوم جرت هذه الوصية لي ومنذ ذلك الوقت أحرزت في أصفهان تلك المكانة والمرجعية .

أجل إنه كان يردد : إذا استطعت أن أخدم الإسلام فإن ذلك رهنيّ بأني تمكنت أن أكسب ودّ الكلبة ، ولا تتعجبوا لأن التمتع بالرحمة الإلهية يحتاج إلى أرضية ، والأرضيات تختلف عن بعضها البعض ، أحياناً يستطيع الإنسان أن يمشي طريق المئة عام خلال لحظة واحدة . كان فضيل بن أياز ، رجلاً سيء الخلق جداً وشقياً ، في أحد الأيام مرّ من مكانٍ فشاهد فتاةً كانت جالسة على حافة المياه تغسل الصحن ، فوقع نظره عليها فتعلّق بها وجاء إلى الفتاة وقال : اذهبي إلى أمك وأبيك وقولي لها : أن يزوّقوك ويضعوك في غرفة لكي آتي أنا عند المساء ، ثم ذهب . جاءت الفتاة وأبلغت أمها الرسالة .

فساد القرية الوجوم ، الجميع كانوا يقولون : ماذا نفعل ؟ هل نضحّي بهذه الفتاة من أجل القرية أم نقاوم ، إذا ضحينا بهذه الفتاة من أجل القرية وزوّقناها ووضعناها في غرفة ثم يأتي فضيل ويذهب ، فأنمن شره ، وإذا لم نفعل

ذلك سينهب القرية ، ويرتكب المجازر ، ويهلك الجميع في هذه الليلة . أخيراً قبل الجميع حتى الأب والأم بأن يضحوا بالفتاة من أجل القرية ، وقد وافقت الفتاة على ذلك . زوّقوا الفتاة ، ووضعوها في غرفة ، ولكن القرية في ماتم ، الجميع يبكي ، الفتاة تبكي ، الأب يبكي ، والأم تبكي .

جاء فضيل بن إياز ، كان شريراً إلى درجة ، يقول التاريخ : إنه لم يدخل من الباب بل جاء من فوق سطح المنازل . في ذلك الوقت كان رجلاً عجوزاً يتلو ما يتيسر من القرآن الكريم . الجميع بانتظار وصول فضيل بن إياز وهذا العجوز الذي كان يتلو القرآن بصوت عالٍ هو أحد جيرانهم عندما وصل إلى هذه الآية : كان فضيل فوق السطح : ﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ ﴾ (١) ، قال : يا من ثقلت قلوبهم ، يا أيها الذين تكاثرت الذنوب تلو الذنوب في قلوبهم ، ألم يأت وقتٌ تلين فيه قلوبكم للقرآن ؟ ألم يحن الوقت لكي تنفضوا ، هذه القلوب المفعمة بالظلام بواسطة القرآن ؟ هذه الآية أثرت على فكر فضيل ، وقلبت رأساً على عقب ، قال : إلهي نعم حان وقت ذلك ، ثم أجهش بالبكاء . ومن هنا صاح : يا أهالي القرية ، يا أيها الأب ، ويا أيتها الأم ، ويا أيتها الفتاة اصفحوا عني ، لقد تبت ، لقد أخطأت ، نزل من فوق السطح وذهب حيث يقال : إنه وصل إلى المقامات الراقية وبدأ يتعامل مع الملائكة ، استجيب دعاؤه وأخيراً وصل إلى مرحلة أن يقتدي به العرفاء والصالحين ويقال أيضاً : إن فضيل أحد المعلمين والمرشدين والأكابر وحقاً إنه رجل كبير .

أجل ، يستطيع المرء أن يمشي طريق المائة عام خلال لحظة واحدة ، أتم أيها الأعداء ، هؤلاء الأولاد أمانة بأيديكم ، وأنتم يمكنكم أن تصلوا إلى ما تريدون عن طريق إيجاد جو البهجة والفرح للأولاد (في سبيل الله) وتذكروا أن تكون أعمالكم ذات صبغة إلهية ، إذ يصل الإنسان إلى ما يريد من خلال ذلك :

﴿ صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً ﴾ (٢) .

(١) سورة الحديد ، الآية : ١٦ .

(٢) سورة البقرة ، الآية : ١٣٨ .

سَخَرُوا قُلُوبَ الْاَوْلَادِ ، وَذَلِكَ فِي سَبِيلِ اللّٰهِ ، لَيْسَ مِنْ اَجْلِ اَبِيهِ ، اَوْ مِنْ
اَجْلِهِ هُوَ ، لَيْسَ فَقَطْ لِكَيْ تَصْبِرَ وَتَكُوْنَ مَعْلَمًا جَيِّدًا ، بَلْ فِي سَبِيلِ اللّٰهِ فَحَسْبُ ،
وَاعْلَمُوا اَنْ ذَلِكَ سَيُؤْتِرُ عَلٰى دُنْيَاكُمْ وَاَوْلَادِكُمْ وَاٰخِرَتِكُمْ .

« إنعكاس الصبر »

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ ربّ اشرح لي صدري ويسّر لي أمري واحلل عقدة من لساني ، يفقهوا قولي ﴾ .

كان البحث السابق حول جهاد النفس وقلنا إذا انتصر المرء في هذه المعركة يعتبر من أشجع الناس من وجهة نظر الإسلام . لذلك يقول : « أشجع الناس من غلب هواه » هذه الحرب الداخلية ، أي المعركة بين البعد المعنوي للإنسان والبعد المادي مستمرة ، ونحن إذا أردنا النصر ، يجب علينا دائماً أن نتوخى الحذر وأن نستعين بقوة من الخارج .

لقد حدد القرآن الكريم قوى من الخارج إذا استقدنا منها فنحن منتصرون كان أحد هذه القوى ، الاهتمام بالواجبات وبالأخص « الصلاة » .

﴿ واستعينوا بالصبر والصلاة ﴾^(١) لقد قسمنا الصبر إلى ثلاثة أقسام :

١ - الصبر في مواجهة المشاكل .

٢ - الصبر في العبادة .

٣ - الصبر أمام المعصية .

وتحدثت بصورة إجمالية حول الصبر في مواجهة المشاكل ، والصبر في

(١) سورة البقرة ، الآية : ٤٥ .

العبادة ، أما البحث هنا فهو الصبر أمام المعصية . وهو أمرٌ صعب جداً ، ولكن إذا استطاع المرء أن يصبر ، يستطيع أن يقطع طريق المئة عام خلال لحظة واحدة . يذكرون قضية حول ابن سيرين :

كان ابن سيرين بزازاً ولعله كان أمياً ، ولكن مقامه العلمي وصل إلى مدى يستفاد من علمه حالياً ، هذا العامل البزاز (الأمي حسب الظاهر) أذهل الجميع في تعبير الرؤيا . هنالك سبعون نظرية مقدمة في العالم حول المنام : الأحلام ولكن الاعتقاد السائد هو أننا لا نعرف حقيقة الأحلام تفسيره ، وماهيته .

لقد منح الله ابن سيرين كرامة تفسير الأحلام لأنه تجنب ارتكاب معصيته ، وتجنبه عن المعصية كان شبيهاً بيوسف . أحد معجزات وكرامات يوسف كانت تفاسيره للأحلام التي ورد ذكرها في سورة يوسف : جاءت امرأة عند ذلك البزاز ، واشترت قدراً من البضاعة . عندما أخذ ابن سيرين قماش تلك المرأة إلى بيتها واجه موقفاً حرجاً مفعماً بالمعصية ، ومن أجل أن لا يهوي إلى قعر هاوية المذلة تحجج بالذهاب إلى الطرق المائية ، ذهب ولوث نفسه ، وعندما خرج من هناك كان ملوثاً من رأسه إلى أخمص قدميه ، لذلك اضطرت تلك المرأة إلى إخراجه من البيت . كان ظاهره نجساً ، ولكن لم يتجنس ، بل تنور بنور الله ، عندما طهر نفسه وذهب إلى المحل ، شعر بنورٍ يغمُر وجوده إذ قطع طريق المائة عام في لحظة واحدة . قلت : أن الأخصائيين بعلم النفس مذهولين من علم وكرامات وتفسير أحلام ابن سيرين ، لذلك ومن أجل الاجتناب من الذنوب يمكن قطع طريق المائة عام في لحظة واحدة . إذ أردتم تقوية الإرادة عليكم باجتناب الذنوب مرات عديدة يسألونني ماذا نفعل لتقوية الإرادة ، لقد كتب الأطباء النفسانيين الكتب حول هذا الموضوع ، ولكن كما يقول طلبة العلوم الدينية : ﴿ لا يُسْمَنُ ولا يَغْنَى مِنْ جُوعٍ ﴾^(١) لا فائدة من ذلك . الإسلام لديه نظرية ، يقول اعمل لتفهم ما معنى تقوية الإرادة ، ماذا تعني ، ومن أين جاءت ، الإسلام يقول : اجتناب الذنوب تمنح تقوية الإرادة ، وتقوي الجانب المعنوي للإنسان ، في تلك الحالة يستطيع الإنسان أن يرفع

(١) سورة الغاشية ، الآية : ٧ .

هامتهُ عالياً أمام الشهوات والغرائز ، والانتصار في صراع الداخل الذي يعتبر أكبر معركة يواجهها الإنسان ، في تلك الحرب ، التي يقول عنها الإمام الحسين (ع) : في هذه الحرب ، لا يتصر إلا الرجل والشاب المسلم « إلا الفتى » . حقاً إنه كذلك النصر في هذه المعركة صعبٌ جداً ويحتاج إلى رجولة ومن أجل الحصول على النصر ينبغي التوجه نحو الإسلام ﴿ واستعينوا بالصبر والصلاة ﴾ هي الاجتناب عن المعاصي ، ليس فقط تعطي ملكة العدالة ، بل تنصر المرء في هذه المعركة المصيرية معركة الداخل . إذا كانت القضية العدالة فحسب ، علينا أن نكون جميعاً متهجين للعدالة يذكر أحد العلماء المبرزين في تاريخ التشيع إذا حصل لدينا شك في أن الشخص عادل أم لا ؟ علينا أن نقول إنه عادل . هذه الجملة تعني أن المسلم الشيعي يجب أن يكون عادلاً .

وضّحت لكم معنى العدالة ، وقلت بأن الإسلام يقول : يجب أن تكون في الشؤون الاجتماعية ، وإذا التزم الشخص بقضايا الزواج أو إمامة الجماعة أو القضاء أو الشهادة أو مرجعية التقليد يجب عليه أن يكون عادلاً . إن كافة الفقهاء ومن بينهم الإمام الخميني (رض) يقولون ليست العدالة أن لا يذنب فحسب بل من المفروض أن يمتلك المرء ملكة العدالة ، بمعنى أن يكون تلقائياً في تركه للذنوب وإنجاز كافة الواجبات .

إذن اجتناب الذنوب لا يوجد ملكة العدالة في الشخص فحسب ، بل نصرنا أيضاً في هذه المعركة الهامة أي معركة الداخل . إذن إذا كنا نريد السعادة وتقوية الإرادة ، والانتصار في هذه المعركة علينا أن نجتنب الذنوب .

إن القرآن الكريم يتحدث حول الإنسان المذنب وأول ما يبدأ به القرآن هو أنه يعتبر السير في التأريخ أمراً ضرورياً ، قد تكون في القرآن ما يقرب أكثر من عشرة آيات تحث الإنسان على التعمق في التأريخ إذ يقول : سيروا في الأرض ، اعتبروا يا أولى الأبصار ، انظروا لماذا وصل بعض الناس إلى السعادة ، لتقتدوا بهم وكذلك انظروا إلى الأسباب الكامنة وراء شقاء وبؤس أفراد آخرين في الدنيا ، ولماذا سقطوا في هاوية المذلة والمسكنة . تحدث القرآن مراراً حول المذنبين :

﴿ فسيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين ﴾^(١) ، ﴿ فانظر كيف كان عاقبة المجرمين ﴾^(٢) .

ونظير هاتين الآيتين كثير في القرآن يا أيها الإنسان سر في التأريخ وانظر عاقبة المذنبين ، انظر ما هي المحصلة النهائية للظالمين والمعاندين والمكذبين للحق ، ثم اعتبر وتعلم الأدب ممن ليس لديهم أدب ، إن القرآن يندرننا في هذه الآيات ، فالذنب ولو كان صغيراً فهو ذنب ، بمعنى أن الكذب ذنب كبير من وجهة نظرنا ، كبير إلى درجة أنه نقل عن موسى بن جعفر (ع) أنه في يوم القيامة يأتيون بالشخص الكذاب إلى المحشر فيعاقب بقضيب من نار قضيب مُحمر من نار جهنم يأتون به ، ويولجونه في صدره ويخرجونه من ظهره ، يُولجونه من جانب ويخرجونه من الجانب الآخر ويقولون : هذا جزء الإنسان الكذاب .

ويعتبر القرآن الكريم الكذب في عداد الوثنية ويقول :
﴿ فاجتنبوا الرجس من الأوثان واجتنبوا قول الزور ﴾^(٣) .

اتق شيئين ، الأول عبادة الأصنام ، والثاني الكذب .

إن للكذب ذنباً كبيراً ، ولكن بما أن الناس قد اعتادوا على الكذب لذلك أخذت مهابته من قلوبهم ، كذبة واحدة تضرنا كثيراً ، وهكذا الغيبة ومعنى الغيبة أنكم لا تستطيعون أن تقولوا ذلك بحق إنسانٍ أمامه . فإذا قلت بحضوره فسينزعج وقد عرف قائد الثورة العظيم - رضوان الله عليه - في ذلك الكتاب الذي حرره حول الاستغابة ، عرف الاستغابة بما يلي : « ذكرك أخاك بما يكره » وهو الأمر الذي يكرهه الناس إذا تحدثت بحضورهم في غيابهم فهذه غيبة ، إذا كان لدى الشخص صفة سيئة ، وتحدث عنها في غيابه فهذه غيبة أيضاً وإذا لم تكن لديه تلك الصفة السيئة فهذه تهمة (قذف) وامصيته إن ذنبها أكبر من قتل النفس .

لقد غابت عن قلوبنا مهابة الغيبة ، إن ذنبها كبير لدرجة أن القرآن يعتبرها

(١) سورة آل عمران ، الآية : ١٣٧ .

(٢) سورة الأعراف ، الآية : ٨٤ .

(٣) سورة الحج ، الآية : ٣٠ .

مساويةً لأكل لحم الميت :

﴿ وَلَا يَغْتَبِ بَعْضُكُم بَعْضًا أَيُجِبُ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ ﴾ (١) .

بمعنى هل تريد أن تأكل ميتاً عفناً بعد إخراجه من القبر ثم يثبت ذلك في ورقة أعمالكم؟ كم هو قطيع ، القرآن يقول : هذه هي الغيبة بأجلئ مصاديقها ، بمعنى ، لا تريدون أن تأكلوا لحم الميت ، إذن لا تستغيوا مُسليماً .

من الممكن أن تؤدي استغابة (بمعنى توجيه إهانة إلى شخصية المسلم) إلى أن يخاطبك الرب : « يا عبدي لن أغفر لك بعد الآن » .

« من أهان ولياً ، فقد بارزني بالمحاربة » (٢) إذا أهان أحد شخصية المسلم فإن ذنب ذلك يساوي محاربة الله ، حرب صدام ضد الشيعة كم ذنبها كبير؟ أما النبي (ص) فيقول : « من أهان ولياً فقد بارزني بالمحاربة » إذا أهنت شخصية المسلم ، أو إذا جرحت شعوره بكلمة نابية ، كأنك حاربت الله ، لذلك من الممكن أن تزول مهابة الذنب من قلوبنا ، ولكن ذلك يوجه ضربة عنيفة لروحنا ، لأنه يُضعف إرادتنا وتزول العناية الإلهية من فوق رؤوسنا :

﴿ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴾ (٣) .

﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ (٤) .

﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴾ (٥) .

لعلها تكررت أكثر من خمسين مرة إن يد العناية الإلهية لن تكون فوق رأس الإنسان المذنب فويل لمن لا تكون فوق رأسه يد العناية الإلهية .

(١) سورة الحجرات ، الآية : ١٢ .

(٢) سفينة البحار ، المجلد الأول ، ص ٤١ .

(٣) سورة الصف ، الآية : ٥ .

(٤) سورة القصص ، الآية : ٥٠ .

(٥) سورة العائنة ، الآية : ٦٧ .

أعزائي ، إقرأوا دائماً هذا الدعاء المنقول عن النبي (ص) ، النبي (ص) كان يقول مراراً : « اللهم لا تكلني إلى نفسي طرفة عين أبداً » .

إذا أوكل الله الإنسان إلى نفسه لحظة واحدة ، فهو تعيسٌ وشقيٌّ ، لن يكون مهزوماً في هذه الحرب فحسب ، بل قد يهوي من قمة العزة (كما يقول القرآن الكريم) إلى أسفل السافلين .

لدينا في جهنم أسفل السافلين ، وكل هذه الأمور نشاهدها في هذه الدنيا والعذاب الموجود هناك موجود هنا أيضاً .

الشيء الثاني الذي نستنتجه من القرآن هو ﴿ والله لا يهدي القوم الفاسقين ﴾ إن يد العناية الإلهية ليست فوق رأس الإنسان المذنب .

إن الله يكل الإنسان المذنب إلى نفسه ، ومن البديهي أن تكون حياته مظلمة ، القرآن الكريم لديه تمثيل حول الإنسان المذنب إذ يقول :

﴿ ومن يشرك بالله فكأنما خر من السماء فتخطفه الطير أو تهوي به الريح في مكانٍ سحيقٍ ﴾ (١) .

إذا سقط شخص من السماء السابعة كيف يتمزق ؟ وعندما يسقط على الأرض وتحيط به الكواसर وتنهش لحمه كم سيكون مصيره تعيساً ؟ إذا - والعياذ بالله - سقط من الطائرة وسقط في مكانٍ لا يراه فيه أحد ، كم سيكون ذلك مرعباً بالنسبة له ؟ وكما سيكون الموقف صعباً ؟ القرآن يقول : هذا هو الإنسان المذنب ، يقول : الذنب يهوي بك إلى الأسفل ويمزقك إرباً إرباً ، حيث تحيط بك الكواसर وتترك ممزقاً . ﴿ ومن يشرك بالله فكأنما خر من السماء ﴾ هنا الشرك ليس شرك عبادة الأوثان ، بل شرك الذنب واتباع الشيطان والشهوات . القرآن يخاطب الأشخاص الذين أتبعوا الشهوات بأنهم مشركون : ﴿ أفأرأيتم من اتخذ إلهه هواه وأضله على علمٍ ﴾ (٢) وهذا يعني أن الذي يتبع الشهوات يُعتبر من عبدة الأصنام وشهواته هي صنمة .

(١) سورة الحج ، الآية : ٣١ .

(٢) سورة الجاثية ، الآية : ٢٣ .

في سورة يسَ نقراً : ﴿ ألم أعهد إليكم يا بني آدم أن لا تعبدوا الشيطان إنه لكم عدو مبين ﴾ (١) .

بمعنى يا ابن آدم ، ألم أقل لك أن الشيطان عدوك ؟ ألم أقل لك في الأزل إن من يتبع الشيطان يعبد الأصنام وأن صنمه شيطانه ؟ لذلك فإن المذنب من وجهة نظر القرآن يعتبر عابداً للأصنام .

القرآن يقول : إن ارتكاب الذنوب في الحياة يمزق الإنسان إرباً إرباً ويوصله إلى مدى تكون حياته فيه موحشة ومليئة بالرعب والاضطرابات وضعف الأعصاب والقلق ، القرآن يقول : هل تريد أن لا تخشى المستقبل وأن لا تحزن لما فاتك ؟ هل تريد أن تبرأ من التشويش وأن تسيطر على أعصابك ؟ ﴿ لا ترتكب الذنوب ﴾ لأنها تجلب لك الرعب وشدة الأعصاب والمذنب يحزن لما فات أحياناً ، ويخشى من المستقبل أحياناً أخرى .

القرآن الكريم يقول : ﴿ مثل الذين كفروا بربهم أعمالهم كرماد اشتدت به الريح في يوم عاصف ﴾ (٢) إن هذه حياة الإنسان المذنب ، كما يقول الطلبة هذا تشبيه المعقول بالمحسوس ، بمعنى عندما يريد القرآن إيضاح أمر معنوي يضعه في قالب الحيات .

إذا كنتم وسط الصحراء وهناك جَمَعْتُمْ قدراً من الأعشاب لكي تقربوا ناراً ثم هبّت ريح عاصفة من البديهي أن تذهب الأعشاب في مهب الريح .

يقول : حياة الإنسان المذنب تصبح عرضة للرياح ، ليس لديه حياة مستقرة وسعيدة ، البيت يصبح سجناً ، والمجتمع مصدراً للقلق ، وأخيراً يمتلكه ضعف الأعصاب ، ويبتلى ببلاء ماذا أفعل ؟ ماذا أفعل وشن حتى الموت ؟ .

القرآن يقول : ﴿ ولا يزال الذين كفروا تصيههم بما صنعوا قارعة ﴾ (٣)

(١) سورة يسَ ، الآية : ٦٠ .

(٢) سورة إبراهيم ، الآية : ١٨ .

(٣) سورة الرعد ، آية : ٣١ .

كم هي بليغة هذه الآية ، وهي تدق ناقوس الخطر ، يقول : الإنسان المذنب تعيس في حياته ، ينجو من ألم لا نجاة منه ، ليقع في ورطة أخرى وينجو منها ليتلبي بداء آخر ، وهكذا دواليك . . .

القرآن يشبّه الذنوب بالمشاكل والمصائب وبالآلام ، وهذا ما يسمى بتجسّم العمل ، ذنبنا يتجسّم .

القرآن يقول : ليست قارعة فحسب بل لا تزال تنهمل عليه المتاعب ومطرقة الذنوب تنزل على رأسه دائماً ، تارة على رأسه وأخرى على رأس أقاربه . ﴿ أو تحلّ قريباً من دارهم ﴾ (١) .

هذا هو معنى تجسّم العمل وتجنس الذنب في هذه الدنيا :

﴿ ولا يزالُ بنيانهمُ الذي بنوا ريبيةً في قلوبهم إلا أن تقطعَ قلوبهم ﴾ (٢) .

إن الذنب يأتي بالرعب للإنسان ، يأتي بالتشويش الذي لا نهاية له ، إلى أن يتمزق قلبه إرباً إرباً جميع هذه الآيات التي قرأتها ورد فيها :

﴿ بما صنعوا ﴾ ، ﴿ بنيانهم الذي بنوا ريبيةً ﴾ بمعنى أن الإنسان هو الذي يبب المتاعب لنفسه ﴿ بما صنعوا ﴾ ، ﴿ بما كانوا يكذبون ﴾ ، ﴿ بنيانهم الذي بنوا ريبية ﴾ أنت الذي بنيت هذا البيت الجهنمي والسجن ، إذا كانت الحياة مظلمة ومرعبة فأنت الذي سببت هذا لنفسك . ﴿ أو كظلماتٍ في بحرٍ لججٍ يغشاهُ موجٌ من فوقه موجٌ من فوقه سحابٌ ظلّلماتٍ بعضها فوق بعضٍ إذا أخرجَ يدهُ لم يكد يراها ، ومن لم يجعلِ اللهُ له نوراً فما له من نورٍ ﴾ (٣) .

فإذا لم تكن يد العناية الإلهية فوق رأسك ، وإذا أصبحت حياتك خالية من النور ، وإذا هوت بك الذنوب وأوصلتك إلى مكان لا تكون فيه يد العناية الإلهية فوق رأسك ، إعلم بأن حياتك مظلمة وموحشة ، ثم يقول القرآن في نفس الآية :

(١) سورة الرعد ، الآية : ٣١ .

(٢) سورة التوبة ، الآية : ١١٠ .

(٣) سورة النور ، الآية : ٤٠ .

إن لديه حياة عبثية بحيث أضاع نفسه في خضم تياراتها ، وأضحى لا يرى نفسه وأولاده ، ولا يعرفهم ولا يمكنه أن يفكر ببنته وتمشية أموره . ﴿ إذا أخرج يده لم يكذ يراها ﴾ .

هذه الآية الشريفة أيضاً تشبيه المعقول بالمحسوس ، إنها تضرب مثلاً شخص في خضم البحر ، والبحر مانج وعاصف والغيوم تحيط بالبحر ظلام الأمواج من جهة ، والعاصفة والغيوم التي تحيط بالبحر من جهة ، كم هي موحشة ! .

القرآن يقول : الحياة بدون الله ، الحياة بدون علاقة مع الله ، الحياة المحفوظة بالذنوب موحشة ، وموحشة ، ومظلمة ومظلمة .

﴿ أقمن أسس بنيانه على تقوى من اللّهِ ورضوانٍ خيرَ أم من أسس بنيانه على شفا جرف هارٍ فانهار به في نارٍ جهنّم واللّهُ لا يهدي القوم الظالمين ﴾ (١) .

الله لا يهدي الظالم ، هذه الهداية هنا هي التي أوضحت معناها سلفاً بمعنى ، لا تكون يد العناية الإلهية فوق رأس الظالم ، إنه هوئى بنفسه ، إنه قام بأعمال مشينة إلى الحد الذي فقد الأرضية اللازمة لكي تكون يد العناية الإلهية فوق رأسه ، إن ذنوبه جعلته مُبتدلاً مُنحطاً ثم يقول : كأنه بنى بيتاً على شفا جرف هار ، فماذا سيكون مصيره : القرآن يقول هذه هي الحياة المحفوظة بالذنوب ، هنالك الكثير من الآيات نظير الآيات التي قرأتها في القرآن الكريم .

القرآن الكريم ينظر ، القرآن كتاب علمي ، ولكن مع أنه كتاب علمي ، فهو كتاب اختياري يحث على العمل ، وانظر هل تصل إلى ذلك أم لا . وإذا وصلت فاعلم أنه حق .

لذلك إذا قرأت القرآن من أوله إلى نهايته ترون الكثير من النظريات مهينة للاختبار . القرآن يقول :

أيها المسلم ، هل تريد أن تكون لديك حياة رغيدة ، حياة بعيدة عن

(١) سورة التوبة ، الآية : ١٠٩ .

الرعب والقلق والخوف من المستقبل ، هل تريد حياة كهذه ؟ .

﴿ فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ (١)

بمعنى لِمَنْ الأمان ؟ هنا الأمان روحيّ كأن تكون حياة خالية من الرعب والاضطراب والقلق . القرآن الكريم يقول :

﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ ﴾ كم هي بليغة ، يقول : إذا أردت حياة رغيدة ، عليك أن تؤمن بالله ، وأن لا يكون إيمانك ممزوجاً بالذنوب ، وأن تكون حياتك خالية من الذنوب ثم يؤكد ﴿ أَوْلَيْكَ لَهُمُ الْأَمْنُ ﴾ الأمان لك لا محالة وكما يقول القرآن : لن تكون هنالك متاعب ، ضعف الاعصاب لذلك الذي لا يؤمن بالله وكما يقول القرآن الكريم :

﴿ وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ ﴾ تعالوا لكي ننفض شائبة الذنوب من الحياة لترى كيف تزول جميع هذه المتاعب ؟ كلنا لدينا ضعف أعصاب قد تكونوا راجعتم الأطباء والتقيتم بعلماء النفس ، ولكن هل لذلك تأثير ؟ كلا ، أبداً وبالمرة الأطباء النفسانيون والأخصائيون في الأعصاب يقولون : لنفترض أننا نعطي أدوية إن ما تعطيه ليس سوى أقراص متومة وحسب ، ويقولون أيضاً : لأن البلاء الذي يُبتلى به يولد بلاء آخر ، لأن توتر الأعصاب ينجم من الرعب والاضطراب والقلق والهموم . ويقولون : والآن إذا كتبنا لك وصفة مطوّلة سَيَبْطُلُ مَفْعُولُهَا . القرآن يقول في مواجهة الأطباء النفسانيين الذين يقولون ليس عندنا دواء يقول لدي الدواء : ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أَوْلَيْكَ لَهُمُ الْأَمْنُ ﴾ . أنه يؤكد ، لديّ دواء لتوتر الأعصاب ، جَرَبَ وَسْتَرَى . ﴿ أَوْلَيْكَ لَهُمُ الْأَمْنُ ﴾ .

أيها الإنسان هل تريد الأمان ؟ اجتنب الذنوب ، اجتنب الذنوب . . تعالوا وكونوا علاقة مع الله ، بدل أن تكون قلقين لمتاعبنا بدل أن نصاب بالأرق وماذا سيحدث غداً ، وماذا حدث بالأمس ؟ انهض وتوضاً وناجي ربك ، وتب عن الذنوب وستزول جميع آلامك ، الصلاة يمكنها أن تُزيل ضعف الأعصاب ،

(١) سورة الأنعام ، الآية : ٨١ .

وقيام الليل يقوي الإرادة .

﴿ يا أيها المزمل ، قم الليل إلا قليلاً ، نصفه أو انقص منه قليلاً ، أو زد عليه ورتل القرآن ترتيلاً ، إنا سنلقي عليك قولاً ثقیلاً ، إن ناشئة الليل هي أشد وطأً وأقوم قيلاً ﴾ قم في منتصف الليل ولتكن لك علاقة بالله .

الجملة الأخرى التي نستفيدها من القرآن هي أن الذنوب لا يحيق ضررها بالإنسان فحسب ، بل إن الذنوب نار ، وحين تضرم النار تحرقك كما تحرق الآخرين ، لا تتساءلوا - مثلاً - إذا استغاب الأب أو ظلم ، فلماذا يجب أن يتحمل عبء ذنبه الولد؟ إذا كان طفلك في الغرفة وانتابك - والعياذ بالله - توتر في الأعصاب ، بأن تضرم النار في الغرفة من الواضح ماذا سيحدث ، أنت تحترق كما يحترق الطفل في المهد ، والآن نقول : إن السبب في ذلك الله والطبيعة ، كلا نحن السبب في ذلك ، هذا من الناحية الظاهرية ، القرآن يقول : إن تأثير الذنوب لا ينعكس في تدمير حياتك فحسب ، بل له تأثير في مصير أطفالك وبالعكس ، العلاقة مع الله ، وبالأخص خدمة الآخرين ليست مفيدة لك فحسب ، بل إن أطفالك سيحسون بحسن العاقبة .

﴿ وليخش الذين لو تركوا من خلفهم ذرية ضعافاً خافوا عليهم فليتقوا الله وليقولون قولاً سديداً ﴾^(١) إذا كنت تريد ضمان مستقبل أولادك ، وإذا كنت تريد حياة سعيدة لهم ، لا تقذف ولا تظلم ولا تشهد زوراً ، ولا تستغب .

﴿ وليقولوا قولاً سديداً ﴾ ماذا نستنتج من هذه الآية؟ إن الآية بنت طرفي القضية ، إذا أردت أن تسعد أنت وأولادك ، ليكن حديثك مهذباً ، ولتكن أعمالك مطابقة للعقل والشرع . . وبالعكس ، القرآن يقول : إذا كانت الذنوب في حياتك ﴿ ولم يلبسوا إيمانهم بظلم ﴾ إذا كان إيمانك مقروناً بالذنوب ، أعلم أن ليس لديك حياة سعيدة ، لقد اثبتت التجربة أن الأشخاص المرابين المعتدين ليسوا وحدهم تعساء بل أولادهم أيضاً تعساء .

كان هنالك شخص معتدي في أصفهان ، ورغم شدة الغلاء كان يتعاطى

(١) سورة المزمل ، الآيات : ١ - ٦ .

(٢) سورة النساء ، الآية : ٩ .

الربا ويحتكر ، وكان يمتص دماء الناس ، إن أولاده يعانون الآن من المصائب والمتاعب ، القضية التي يقلونها عنه هو أن القحط أصاب أصفهان ، وكان القمح قد شحَّ وعُلي منه ، فعلم خبازي أصفهان أن لديه قمحاً فجاءوا إليه وقالوا له : اعطِ قمحك للناس ، قال : بِكُمْ تشترون المَنَ (ثلاثة كيلوغرامات) ؟ مثلاً ، قالوا : سعره تومنان ، قال : أرفع السعر ، (٢٢) ريالاً ، فقالوا : كلا ، كان يرفع السعر وفي النهاية لم يتفقوا على السعر ، لذلك قال : إصبروا إلى يوم غد لكي أفكر . ولم يعط القمح للناس في اليوم التالي ، وأخيراً مرَّت الأزمة ، أولئك الذين يجب أن يموتوا من جرّاء ظلم الآخرين ماتوا وآخرون بقوا أحياء وانتهى القحط ، لم يمر وقت طويل إذا ابتلى ذلك الشخص بالَم في ساقه ، جاءوا بالأطباء إلا أنه لم تتحسن صحته ، وأخيراً قررت اللجنة الطبية قطع ساقه فوضع يده على إصبع الساق ، قال : من هنا ؟ قال الطبيب : كلا ، ارتفع إلى الأعلى ، لم يطاوعه قلبه ، مثل ذلك القمح الذي كان يقول ارفع السعر ، والآن يتجسم ذلك العمل ويقول إلى الأعلى ، الخلاصة دفع كل المال وقطعوا ساقه . القرآن يقول : ﴿ وليخش الذين . . . ﴾ إذا كنت لا ترحم نفسك فرقاً بأولادك ومجتمعك ، الذنوب تضر المجتمع ، الآيات التي قرأتها حول الأقارب والأولاد إلا أن آيات أخرى تقول إن الذنوب نار تحرق المجتمع : ﴿ واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة ﴾ (١) .

أيها الإنسان ، اتقِ الذنوب ، لأن الذنوب لا تحيق بك فحسب ، بل تستشري في مجتمعك أيضاً . أتعلمون متى يفنى الشعب ؟ ليس فناء الشعب بأن يجيء زلزال ويُدْمَر بل إن أكثر ما يدمر الشعب أن يسود توتر الأعصاب بين فئات الشعب حيث يرحل الإيمان وتنفس الأخلاق والأفطع من ذلك أن يظهر الهواء الفكري ، وأية مصيبة أكبر من أن يستعده المستغلون وهو يفتخر بذلك . القرآن الكريم يقول : من أين تأتي هذه الأمور ، وكيف تصل الأمور بالشعب بأن يمنح نقطة للمستكبرين ، ثم يقول : يا أميركا أنا خادمك المطيع ، افتخر بأني خادمك ، أية مصيبة أكبر من هذه ؟ القرآن يقول : ﴿ وإذا أردنا أن نهلك قرية

(١) سورة الأنفال ، الآية : ٢٥ .

أمرنا مترفها ففسقوا فيها فحقّ عليها القولُ فدمرناها تدميراً ﴿١﴾ .

وخلاصة الأمر أن الصبر عند الذنوب مفيد جداً ، وإذا أردتم الانتصار في هذه المعركة الداخلية يجب أن تصبروا عند مواجهة الذنوب والنتيجة الأخرى التي حصلنا عليها هي أن الذنوب مضرّة كثيراً لنا ولحياتنا ولأولادنا ومجتمعنا . وعلى عكس ذلك ، العلاقة مع الله تقوي الإرادة ، وتجلب لنا الحياة السعيدة وحسن العاقبة ، العلاقة مع الله لها تأثير في حياتنا وحياة أولادنا ومجتمعنا . إلهي نقسم عليك بعزتك وجلالك أن تمنّ علينا بالبصيرة والصفات الفضيلة وأن توفقنا لطاعتك وترك معصيتك .

(١) سورة الإسراء ، الآية : ١٦ .

« التوبة (١) »

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ ربّ اشرح لي صدري ويسّر لي أمري واحلل عقدة من لساني ، يفقهوا قولي ﴾ .

قبل أن أدخل في البحث ، أود أن أنوه عن موضوع ، وأرجو أن يكون ذلك مفيداً . لقد تعرض النبي الأكرم (ص) والأئمة الطاهرون - سلام الله عليهم أجمعين - للأذى كثيراً ، وبالأخص النبي الأكرم (ص) لدرجة أنه قال :
« ما أؤذي نبي مثل ما أؤذيت » .

نقرأ في التاريخ أن حضرة زكريا قطعوه إلى نصفين بالمشار ، ومع ذلك يقول النبي الأكرم (ص) : « ما أؤذي نبي مثل ما أؤذيت » .

المصائب التي حلّت بالإمام الثاني (ع) أكبر من المصائب التي حلّت بالإمام الحسين (ع) والمصائب التي جرت على الإمام الرضا (ع) كبيرة جداً بحيث أن الراوي يقول : « كلما كان الإمام الرضا (ع) يرجع من الصلاة (صلاة الجماعة) كان يطلب من الله الموت وبدورهم تعرّض سائر الأئمة الطاهرين - سلام الله عليهم - للظلم وقد أؤذيت الزهراء - عليها السلام - كما أؤذي النبي الأكرم (ص) مراراً .

جميع هذه المصائب حدثت من أجل أمر واحد ، هو أن يصل الإسلام الحقيقي إلينا . إذا أردنا أن يرضى عنا المعصومون الأربعة عشر

- عليهم السّلام - أولاً يجب أن نتحلى بالتدوين والتقوى ، وثانياً إنكم أيها المعلمون الأعزاء وأنتم صفوة المجتمع والجيل الشاب رهين جهودكم ، يجب أن تتجاهدوا لإحياء الدين . إن إبقاء الدين حياً لكافة الناس أمرٌ يختلف عن إحياء الدين بيد علماء الدين بواسطة الثقافة . فيجب أن نتوخى الحذر حد الإمكان ، أولاً يجب أن نكون متدينين ، وثانياً وببركة المعصومين الأربعة عشر - عليهم السّلام - أن نحيا الدين في الصف ، وباسم النبي الأكرم (ص) نحيا القرآن ، وأحكام الإسلام وهذا واجب عظيم علينا أن نهض به جميعنا .

كان لقائد الثورة العظيم جملةً ينصحنا بها مراراً ، الجملة التي كان النبي (ص) يقولها هي : « لقد ثبت لدي عن طريق التجربة إذا كان في مدينة ما أناس طيبون ومتدينون ، نفهم أن فيها عالماً ملتزماً ومتديناً وفي المقابل إذا كان في مدينة ما أناس غير طيبين ، ندرك إما أنه لم يكن هناك عالم أو إذا كان هناك عالم لم يكن ملتزماً ، حقاً إنه كذلك . نفس هذه الوصية أوصيكم بها أنتم يا أيها المعلمون الأعزاء إذا كنتم أيها المعلمون المحترمون متدينين ، وإذا كنتم تفكرون بإحياء الدين ، كونوا على ثقة : إن جيلنا القادم سيكون جيلاً طيباً ، وسيكون لدينا شباب متدينون وملتزمون في المستقبل .

إذن ، يجب أن أقول لكم : إن جيلنا القادم رهين نشاطاتكم أيها الأعزاء إذا أردتم أن يكون الجيل القادم ملتزماً ومتديناً ، عليكم أن تكونوا متدينين وملتزمين . يجب أن تكونوا مهتمين بالدين والأخلاق والثقافة الإسلامية وعليكم أن تقوموا بنشاطات واسعة . ولا بد أن يكون الجيل القادم عالماً ، فإذا لم يتسلح الجيل القادم بالعلم سيقع في شرك الاستعمار والاستغلال .

وقد أثبتت التجربة أن الدول التي وقعت في شرك الاستعمار ، أفرغت في البداية من محتواها الثقافي ، ووقعت تلقائياً في أحضان الاستعمار . إذا لم يكن لدينا في المستقبل علماء وأخصائيون سنقع في أحضان الاستعمار لا محالة . إنهم لا يأتون ليأخذوننا ، بل إن البرنامج الاستعماري قد نظم بطريقة نذهب نحن إليهم . إذن يجب أن يتسلح الجيل القادم بالعلم والخبرة ، وهذه مهمتهم أيها المعلمون الأعزاء . وكذلك العلم بدون التزام إلهي لا ينفع ، يجب أن

يقترن العلم بالتدين والالتزام . العلم بدون دين والدين بدون علم كل على حدة لا ينفعان أبداً ، إذا كان الدين موجود ، ولكن العلم والوعي غير موجودين ، فلا فائدة من ذلك العلم بل إنه مضر .

إذن جيلنا القادم يجب أن يكون متديناً وملتزماً ، وعالمياً ، ومتخصصاً أيضاً . وهذا رهين بجهودكم أيها المعلمون الأعزاء . يجب أن تتوخوا الحذر . أرجو أن تفوزوا بلطف خالق الكون ، وأن تكون يد العناية الإلهية فوق رؤوسكم دائماً ، لكي تنجحوا في إحياء الجيل القادم ، ولكي تتمكنوا من تقديم شباب ملتزمين ومتدينين وواعين ومتخصصين للمجتمع .

إن إحدى الأشياء التي تنفع كثيراً في تقوية الروح ، وفي حرب الداخل (الجهاد الأكبر) هي التوبة عن الذنوب .

التوبة عن الذنوب لها تأثير كبير في تقوية الروح ، وتقوية الإرادة والسير إلى الله ، والانتصار في الجهاد الأكبر . وحتى العرفاء^(١) يقولون : « إذا أراد شخص أن يكون لديه سير ملكوتي ، المنزل الأول في هذه الطريق هو التخلية ، ومن أجل أن يصل إلى أول محطة للعرفان عليه أن يتوب عن الذنوب .

إحدى مميزات الإسلام هي أنه لا يصل إلى طريق مسدودة أبداً ، بمعنى أنه لا يقول أبداً (لا أعلم) أنتم لا يمكنكم أن تجدوا مكاناً يقول فيه الإسلام لا أعلم . يقول الإمام الصادق (ع) حول القيادة : « بالإضافة إلى أن القائد يجب أن يملك أعلى حد من العدالة ، يجب أن يكون خبيراً في العلوم الإسلامية أيضاً ، وقادراً على إجابة المجتمع البشري . إذن إذا قال شخص عن قضية ما في الإسلام لا أعلم ، فهو ليس جديراً بالقيادة ، ولا يمكنه أن يكون مرجع تقليد للمسلمين » .

من الناحية العملية أيضاً لا يصل الإسلام إلى طريق مسدودة أبداً ، بمعنى أن الإسلام لا يقول لتابعيه أبداً إني لن أقبلك بعد الآن . ليس هنالك طرد للأفراد في الإسلام ، مهما كان الذنب كبيراً ، إذا حصل تفاعل داخلي ، وإذا

(١) الأشخاص الذين عملوا في مجال السير والسلوك .

ندم الشخص على ما فعله في الماضي ، وتاب وقرّر أن لا يرتكب ذلك الذنب مرة أخرى ، فإن الباري عزّ وجلّ يعفو عنه . لا يمكن أن نعثر في الإسلام على ذنب لا يُقبل التوبة عنه . إذن الإسلام يقبل دائماً توبة المذنبين . كما أشرنا سابقاً ، جوهر التوبة هو التفاعل الداخلي والندم على ارتكاب الذنب ، وعلى المذنب أن يقرّر عدم ارتكاب ذلك الذنب ، وقد لا يلتزم الشخص بذلك ، ولكن الله يتوب عليه ، فالله يقبل توبة ناقضي التوبة . إذا ارتكب الشخص ذنباً (مهما كان) وحصل لديه تفاعل داخلي بعد ارتكاب الذنب ، وشعر بالأذى والندم لارتكابه الذنب ويقرر عدم تكرار ذلك الذنب ، فإن الباري عزّ وجلّ يغفر له ذلك الذنب . إن ما يستشف من القرآن وروايات أهل البيت - عليهم السّلام - هو أن الله لا يغفر الذنوب فحسب ، بل إنه يغفر سريعاً .

نقرأ في دعاء كميل إن الله « سريع الرضا » ، كما نستشف أيضاً من القرآن وروايات أهل البيت - عليهم السّلام - إن الله لا يغفر سريعاً فحسب ، بل إن الذي يتوب يتلقى توفيقاً من خالق الكون ، الذي يتوب يغفر له الله ، ويمنحه حسنة أيضاً ، يُمحي ذنوبه وبدل تلك الذنوب يكتب له حسنة ، وبواسطة التوبة يفيض خالق الكون على التائب حياة مرفهة . فكما أن الذنب له تأثير وضيعي ويجلب التعاسة والبلاء فإن التوبة والتوجه نحو الله يتبعهما النجاح والحياة الرغيدة .

هنالك بحث بين العرفاء والعلماء يتلخص في مآل ذنوب الذي يتوب عن الذنوب ، والتي تجسدت عملياً ، هل تزول نهائياً ؟ أو تظهر بصورة « لعان » ؟ هنالك اختلاف في وجهات نظر العلماء . البعض ومن بينهم قائد الثورة العظيم ، يقول : إذا تاب شخص عن الذنب ، فإن خالق الكون يُمحي ذنوبه ، وبالتالي فإن المصائب الناجمة عن الذنوب تزول أيضاً .

كما يؤيد القرآن الكريم هذه الرواية . أما البعض الآخر ومن بينهم المرحوم كمباني - عليه الرحمة - وهو أحد العرفاء والفلاسفة ، ومن علماء الإسلام الكبار يقول : إن الذي يتوب عن الذنب نحن نبدل حياته التعيسة التي أوجدها الذنب ، نبدلها إلى حياة رغيدة . قبل أن أقرأ الآيات الكريمة حول هذا

البحث أود أن أنوه حول صفة « سريع الرضا » الإيجابية وسيكون ذلك مفيداً جداً للآباء والأمهات والمعلمين الكرام ، إحدى الأساليب التي وردت في علم النفس حول تأديب الطفل هي مخاصمة الطفل ، ولكن يُوصى أن تكون مدة الخصاص قصيرة ، وأن يكون المرئي « سريع الرضا » ، بعد مُضي فترة من المخاصمة يجب أن يجد المرئي حجة لمصالحة الطفل .

كما أن روايات أهل البيت - عليهم السّلام - تؤيد هذه الطريقة . هذه الطريقة مؤثرة جداً في تربية الأطفال شريطة أن تكون المصالحة سريعة .

ونرى أن كثيراً ما يستفاد من طريقة « سريع الرضا » حيث كانت هذه الطريقة ذات تأثير كبير في التربية . بناءً على ذلك ، أرجوكم إذا واجهتم أشخاصاً عنيدين وأردتم تربيتهم ، لا تستخدموا كلمات نابية ، ولا تهينوا شخصيتهم لأن هذه التصرفات غير ناجحة في التربية ، وتؤدي بكم إلى الفشل ، كما أن الضرب له تأثير سلبي في تربية الأطفال .

لا يمكن تربية الطفل عن طريق الإهانة والضرب ، يجب أن نكون ، « سريع الرضا » مع الأطفال ، وأن لا نستخدم كلمات الإهانة في البيت والمدرسة والمعهد ، لأن ذلك مضر جداً ويأتي بنتائج عكسية .

إن استخدام الكلمات النابية مذموم جداً في الإسلام وقد نهى الإسلام عن ذلك . وكنموذج نورد لكم مثالين من تعامل قادة الإسلام إزاء هذا التصرف . تأمر عدة يهود على الاستهزاء والسخرية بالنبي الأكرم (ص) جاء أحدهم ومر من جانب النبي (ص) وبدل أن يقول : « سلام عليكم » قال : « سام^(١) عليكم » ، فأجابه النبي الأكرم (ص) : « عليكم » ، فجاء الثاني ، وقال للنبي (ص) أيضاً : « سام عليكم » ، فأجابه النبي الأكرم (ص) : « عليكم » أي ليكن ما قلته عليك . فجاء يهودي ثالث وقال كما قال اليهوديان : « سام عليكم » ، فأجابه النبي (ص) : « عليكم » .

كانت عائشة جالسة عند النبي الأكرم (ص) ، فتألمت كثيراً لدى مشاهدة

(١) سام ، بمعنى السيف وسامٌ عليكم تعني الموت لك .

هذا الوضع وقالت لهم : « يا أبناء القردة والخنازير » لماذا تحدثون هكذا مع النبي (ص) ؟ .

إن ما نسبته عائشة لهؤلاء صحيح ، من رؤية الإسلام^(١) ولكن عائشة تقول : شحب لون النبي الأكرم (ص) والتفت قائلاً : « يا عائشة ، لماذا بدأت بالسب ؟ » ، تقول عائشة قلت : يا رسول الله لقد تأمروا ، يأتون واحداً بعد آخر ويقولون لك : « سامٌ عليكم » .

قال النبي (ص) : « لقد أجبتهم على ما قالوه لي وقلت : « عليكم » ، ثم قال : يا عائشة ، ألا تعلمين أن كلالنا وعملنا يتجسم ، هذا السباب يتجسم بصورة قبيحة ، ويحشر مع الإنسان في يوم القيامة ، السُّبَّة ، وإن كانت لفظ « يا ابن . . . » .

وأمثالها تتحول يوم القيامة على شكل كلب وخنزير وحيوانات موحشة ، وتحيط بالإنسان من كل جانب . تقول الروايات : إن الإمام الصادق (ع) كان لديه صديقٌ مُلازمٌ له دائماً ، وكان الإمام الصادق (ع) يحبه أيضاً ، ويرافقه في غدوره وترحاله . عندما كان يمشي بجوار الإمام في أحد الأيام ، وكان غلامه ملازماً لهما ، تخلف الغلام صدقةً ولسب ما عنهما . فنادى هذا الشخص الغلام ، ولكنه لم يسمع رداً منه ، فكرر مناداته مرةً ثانية ، ولكنه لم يسمع رداً . فغضب الرجل ، وقال للغلام : « يا ابن الفاعلة » أي يا ابن الزنا ما أن فاه الرجل بهذه الجملة حتى وقف الإمام الصادق (ع) وتألّم كثيراً بحيث وضع يده على ظهره ، وكان ظهره الشريف قد انتابه ألم . قال : ماذا قلت ؟ فعلم ذلك الرجل أنه قد ألمّ بالأمام ، قال : يا ابن رسول الله ، هذا الغلام من الهند ، ولا يُعرف له أب أو أم ، والنسبة التي نسبتها إليه كانت بسبب أنه لا يُعرف من هو أبوه وأمه . قال الإمام الصادق (ع) ما معناه : إني لا أريد أن أتأقش قولك هذا من الناحية الشرعية ، بل أريد أن أقول : لماذا فقدت عفة اللسان ، ولماذا لوثت لسانك بالسباب ؟ .

الرواية تقول : إن الإمام الصادق رفض صداقته ، وأبعده فجاكسته . نظراً

(١) ﴿ وجعل منهم القردة والخنازير ﴾ سورة المائدة ، الآية : ٦٠ .

لهذين النموذجين يتضح أن المسلم ينبغي أن يكون مؤدباً جداً وأن تكون لديه عفة اللسان ، والذي يكون لسانه ملوثاً بالكلمات النابية لا يمكن أن يعتبر مربياً جيداً ، وبالأخص السيدات الفاضلات عليهن الأشباه إلى أن السباب والصراخ والغضب وتوتر الأعصاب لا يمكنها أن تربي الطفل ، ولن تؤدي إلى نتيجة سوى التعاسة للشخص وأطفاله .

إحدى أساليب التربية هي أن نخاصم الطفل لدى ارتكابه مخالفة على أن نصالحه سريعاً ، بمعنى أن نكون « سريعى الرضا » .

إن عمل المربي شاق جداً ، ولكن عندما يكون العمل لله تهون الصعوبات . فالإمام الحسين (ع) قدم كل ما يملك في يوم عاشوراء وذلك ابتغاء لمرضاة الله ، وضحى بماله وأولاده ليقبى دين الله حياً . إن جميع الصعوبات تهون في سبيل الله ، المعلم الذي يخاصم الطفل لله ومن أجل تربية الطفل عليه أن يصالحه أيضاً بسرعة من أجل الله .

أحد أصدقائي يقول : عندما سافرت إلى القرية للدعوة والتبليغ لم يراجعني أحد من أهل القرية ، ذهبت إلى المسجد ، وعملت شيئاً ، ودعوتهم ، ولكن لم يأت أحد إلى المسجد ، فما كان مني إلا أن أخاصمهم وأترك القرية ، لم يقل لي أحد إلى أين أنت ذهبت ؟ عندما ابتعدت خطوات عن القرية ، قلت أكلّم نفسي : ما هذا الذي أصنعه ، فندمت لمخاصمتهم . قلت مع نفسي بأي حجة أعود إلى أن وقعت عيناى على طفلة جاءت لأخذ الماء من القناة . فقررت أن أعود إلى القرية مع الطفلة ، عندما عدت إلى القرية رأيت الناس واقفين في جانب ، ما أن شاهدوني حتى راحوا يقولون بصوت عالٍ : (الشيخ ذهب وعاد بقدميه) الشيخ ذهب وعاد بقدميه فصبرت إلى أن هدأوا ، وبدأت دعوتي من هناك . إن صفة « سريع الرضا » الإلهية ساعدتني وقد نجحت في دعوتي . علينا أن نكون هكذا في دعوتنا لدين الله . وهكذا هي طريقة القرآن الكريم في الدعوة حيث يقول الباري عز وجل في سورة الأنعام الآية (٥٤) :

﴿ وَإِذَا جَاءكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ

الرحمة أنه من عمل منكم سوء بجهالة ثم تاب من بعده وأصلح فإنه غفور رحيم ﴿١﴾ .

يقول الله للنبي الأكرم (ص) : أيها النبي ، إذا جاءك المذنب أبلغ سلامي أولاً ، أرجو أن تتبها إلى هذه النقطة ، انظروا إلى الله أرحم الراحمين حتى لا يصاب أحدكم باليأس من رحمة الله فاليأس بمستوى الكفر ، واسعوا إلى تهذيب أنفسكم بالاستفادة من هذه الآيات ، وكونوا رحماء ورؤوفين و « سرعي الرضا » .

الآية تقول : عندما يجيء العبد المذنب ، سلم عليه أولاً ، وقبل أن تقبل توبته قل له : إن الله كتب على نفسه أن يغفر للمذنب ، وأن يجعل رحمته من نصيب المذنب . ثم يقول : قل له : إن من يرتكب ذنباً بجهالة ، ثم يتوب ويصلح نفسه فليعلم أن الله يغفر له ذنوبه لأن الله غفور رحيم . إن رؤية هذه الآية تتركز في صفة « سريع الرضا » كما جاء في دعاء كميل : « يا سريع الرضا اغفر لمن لا يملك إلا الدعاء » .

ولكن هذه الآية تقول : إذا ذهب إلى بيت الله ، فإن الله يبدئك بالسلام ثم يقول : علي أن أغفر لك ، ويغفر لك .

ويصرح الله في آية أخرى بصورة أوضح عن هذا الموضوع حين يقول : ﴿ إلا من تاب وآمن وعمل صالحاً فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات وكان الله غفوراً رحيماً ﴾ ﴿٢﴾ هذه الآية تدور حول الزاني والزانية وحتى لو كان زنى المحصنة ﴿٣﴾ ، وما قبل هذه الآية تقول : المؤمن لا يزني ، وإذا زنى الشخص ، فإنه يدخل جهنم ذليلاً . نقرأ في الروايات : إن المرأة التي تزني ، والرجل الذي يزني ، إذا مات من غير توبة سلقى في جهنم عذاباً أليماً ، ويتكدر خاطر أهل جهنم من رائحة تعفن عورتيهما . الذنب كبير جداً ، ولكن نفس هذا الذنب الكبير ، حتى إذا كان زنى المحصنة ، الله يقول :

﴿ إلا من تاب وآمن وعمل صالحاً .. ﴾ وإذا تاب لا يغفر له

(١) سورة الأنعام ، الآية : ٥٤ .

(٢) سورة الفرقان ، الآية : ٧٠ .

(٣) زنا المرأة المتزوجة أو زنا الرجل المتزوج .

فحسب بل ﴿يبدُلُ اللهُ سيئاتهم حسناتٍ﴾ ويمحي الذنوب من أعماله ويكتب بدلها الثواب . العطف الإلهي في هذه الآية أكثر من الآية الأولى ، يقول في الآية الأولى : سَلَّمَ على المذنب ، وقل له إن الله كتب على نفسه أن يغفر له . لكنه في الآية الثانية يقول : ﴿... يبدُلُ اللهُ سيئاتهم حسناتٍ﴾ ويمحي الذنوب من أعماله ويكتب بدلها الثواب . حقاً إن الله رؤوف رحيم . يقول الشاعر :

تعال تعال أيما تكون تعال

إذا كنت كافراً وملحداً وعبداً للأوثان تعال

إن عبتنا ليست عتبه اليأس

إذا لم تلتزم بالتوبة مئة مرة تعال

هذا الشاعر ، لم يعط القرآن حقه . الآية تقول: تعال أيها المذنب، إني أحب توبتك كما أحب أنينك وحياءك ، لن أغفر ذنوبك فحسب ، بل سأمحي الذنوب من ورقة أعمالك واكتب مكانها حسنة^(١) . إن هذه الآية تبعث على الأمل والبناء ، كما يقول في سورة البقرة الآية (٢٢٢) : ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾^(٢) وهذه الآية بناة ، وتبعث على الأمل أكثر من الآيتين السابقتين .

تعلمون أن « التَّوَّابِ » صيغة المبالغة كـ « علام » وهو الذي يملك الكثير من العلم ، التواب هو الذي يتوب كثيراً . يبدو أن تفسيرها يصبح إذا لم تلتزم بالتوبة مئة مرة تعال .

﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ﴾ و﴿يُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾ فاليد الملوخة بالدم إذا طهرتها بالماء تطهر ، وتصبح كاليد التي لم يمسسها الدم إطلاقاً . كذلك الذي يتوب يطهر من الذنب . النبي الأكرم (ص) يقول : « التائب من الذنب كَمَنْ لَا ذَنْبَ لَهُ »^(٣) لذلك تقول الآية : لست فقط أحب المذنب التائب ، بل أحب

(١) يبدو أن الحسنة هنا هي ثواب التوبة ، مثلاً الذي استغاب وقذف ولم يقم الصلاة عندما يتوب يتعمق ذنوبه . وبما أن ثواب التوبة في الإسلام أكبر من ثواب سائر العبادات لذلك يكتب في ورقة أعمال المذنب الثواب .

(٢) سورة البقرة ، الآية : ٢٢٢ .

(٣) سفينة البحار . المجلد الأول ، ص ١٢٦ .

أيضاً ذلك الذي تَلَوْتَ مراراً وتاب . لأن التوبة تُطهر الإنسان والله يحب المتطهرين .

الآية الرابعة التي اخترتها لعلاقتها بهذا البحث ، الآية (٥٢) من سورة هود . هذه الآية أبلغ من الآيات الثلاث الأخرى فهي تقول : ﴿ وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَاراً وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ ۖ ﴾^(١) يَا أَيُّهَا الْمَذْنِبُ، تعالَى وتَبْ إِنْ اللَّهُ يَغْفِرُ لَكَ ، وَعِلَاوَةً عَلَى ذَلِكَ : ﴿ ... يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَاراً ۖ ﴾ النعمة والسعادة تهطل عليك كهيطول المطر في هذه الدنيا .

قلت سابقاً : إن الذنب ينهمر بالمصائب فوق رأس الإنسان . والآن إذا أردت أن تزول تلك المصائب ، ويزول التأثير الوضعي للذنب ، أو كما قال المرحوم كمباني - رحمة الله عليه - يصبح «لعان» يجب أن تتوب من الذنب لأن الله يقول : نحن لا نمحي الذنوب فحسب ، بل نجعل بدلها السماء تمطر فوق رأس التائب . إذن تعالَى . . تعالَى أيما تكون تعالَى . كما أن الآية الثالثة من سورة هود تؤيد هذا المعنى . يقول : ﴿ وَأَنْ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُمْ مَتَاعاً حَسَناً^(٢) .

فيا أيها المذنب ، إذا تبت يبعد الله تلك المصائب التي ابتليت بها من جراء الذنوب عنك ويوفر لك حياة رغيدة وسعيدة :

﴿ يُمَتِّعْكُمْ مَتَاعاً حَسَناً ۖ وَحَوْلَ الذُّنُوبِ ، يَقُولُ الْقُرْآنُ : ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى ﴾^(٣) أَي : إِنْ الَّذِي تَكُونُ حَيَاتُهُ بَدُونِ اللَّهِ ، وَالَّذِي يَعْيشُ مَعَ الذُّنُوبِ ، يَصَابُ بِمَصِيبَتَيْنِ : الْأُولَى أَنْ مَعِيشَتُهُ تَصْبِحُ ضَنْكاً وَيَحْشُرُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى ﴾ وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى ۖ .

القرآن يقول : إنسان كهذا يحاور ربه يوم القيامة قائلاً : ﴿ قَالَ رَبِّ لِمَ

(١) سورة هود ، الآية : ٥٢ .

(٢) سورة هود ، الآية : ٣ .

(٣) سورة طه ، الآية : ١٢٤ .

حشرتي أعمى وقد كنتُ بصيراً ﴿^(١)﴾ فيقول الله : ﴿ قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيْتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنسى ﴾ ^(٢)﴾ إن سبب عمالك هو أنك نسيتنا في الدنيا ، ونحن ها هنا نسيتك أيضاً . (من الواضح ، الإنسان الذي ينسأه الله ، لا يمكنه البصر) قلت : إن إحدى انعكاسات الذنوب هي أن حياة الإنسان تصبح تعيسة . القرآن يقول : إذا أردت أن تبدل حياتك التعيسة إلى حياة سعيدة ، عليك أن تتوب عن الذنوب .

أستاذنا الكبير المرحوم العلامة الطباطبائي - رحمه الله عليه - كانت لديه جملة يرددها في أبحاثه عند الضرورة ، ويبدو أن هذه الجملة كانت محطَّ عناية ، وقد استخدم هذه الجملة مراراً في تفسير الميزان ، وهي جملة تبعث على الأمل حقاً كأن يقول : « توبة العبد محنوقة بتوبتين من الله » ما يستشف من القرآن هو أن الله لديه توبتان لعبد المذنب فهو يتوب مرة واحدة ، بينما يتوب الله عليه مرتين ^(٣) . واحدة من هاتين التوبتين ، توفيق يمن الله به على عبده ليعود ويتوب .

إذا لم تكن هنالك جاذبية من المعشوقة

فسوف تذهب جهود العاشق المسكين سدى

إذا لم يكن هنالك توفيق وهداية من جانب الله ، لن يستطيع العبد المذنب أن يصل إلى هدف الوصول إلى الله . التوبة الثانية لله ، قبول العبد المذنب . انظروا كم الله رحيماً وغفوراً وروؤفاً . حقاً إنه لمن المؤسف أن لا يطيع العبد ربه . يقول الباري عز وجل في سورة التوبة الآية (١١٧) :

﴿ وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خَلَفُوا حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾ ^(٤)﴾ هناك قصة تقتني موضوع هذه الآية وهي : أن ثلاثة من أصحاب الرسول الأكرم (ص) تخلفوا عن الذهاب إلى جبهة الحرب

(١) سورة طه ، الآية : ١٢٥ .

(٢) سورة طه ، الآية : ١٢٦ .

(٣) التوبة في اللغة تعني العودة ، إذا خرج أحد من الغرفة ثم عاد ، والعرب تقول تاب بمعنى عاد .

(٤) سورة التوبة ، الآية : ١١٨ .

(غزوة تبوك) (١) ، فأنهى النبي الأكرم (ص) الحرب مع أصحابه ، وعادوا جميعاً . فخرج الناس لاستقبالهم ، ومن بينهم الثلاثة الذين تخلّفوا حيث كانوا من بين المستقبلين ، قال النبي الأكرم (ص) : « لا يكلم أحد أحداً من هؤلاء الثلاثة » المحكم حكم النبي (ص) ، تقول الرواية : وصلت الأمور بهؤلاء الثلاثة أن امتنع أزواجهم وأولادهم عن الكلام معهم ، وابتعدوا عنهم . القرآن يقول : بعد مضي ثلاثة أيام ضاقت بهم المدينة وشعروا أنهم لا يمكنهم أن يستمروا على هذه الحال : ﴿ ضاقت عليهم الأرض بما رحبت ﴾ إنهم شعروا أن لا حيلة بيدهم سوى التوبة . فاتجهوا نحو الصحراء وبكوا ، وانتحبوا ، وتابوا ، وقبل الله توبتهم ، نحن أيضاً نستطيع أن نستفيد من هذه الأساليب في مكافحة المذنبين . النقطة التي أردت أن أشير إليها هي أن الآية تقول : ﴿ ثم تاب عليهم ليتوبوا ﴾ لقد جاءت التوبة الإلهية بعد توبتهم .

(إذا لم يشفق خالق الكون . . . من أين للعبد أن يقوم بعمل ؟) وخلاصة البحث هي أننا نستشف من القرآن الكريم أن التوبة مفيدة جداً ، وهي بناءة جداً ، لتقوية الروح وجهاد النفس . ومهما كان الذنب كبيراً ، إذا تاب الإنسان بصدق عن ذلك الذنب فإن الله يغفر له . إلهي بعزتك وجلالك نقسم عليك أن تمنّ علينا جميعاً بالخصال الإنسانية ونور القلب والتوبة والتوفيق في عبادتك وعبوديتك وترك المعصية .

(١) كان وضع الذماب إلى الجبهة في سندر الإسلام كحربنا اليوم مع الكفر الصدامي ، بمعنى كانت تعلن التعبئة العامة ، ولم يكونوا يأخذوا أحداً إلى الحرب قسراً ، وما أن تنشب الحرب ويعلن النبي الحرب ينتج كل من يقدر على حمل السلاح إلى الجبهة ، وحتى العريس يترك فراش الزوجية وتوجه نحو الجبهة .

« التوبة (٢) »

بسم الله الرحمن الرحيم

« رب اشرح لي صدري ويسر لي أمري واحلل عقدة من لساني ، يفقهوا قولي » .

بحسبنا يهتمُّ حول الصراع المستمر بين الجانب الملكوتي ، والجانب البهيمي في داخلنا والذي سمّاه النبي الأكرم (ص) بالجهد الأكبر . وقلنا من أجل أن نتغلب على الجانب البهيمي في داخلنا ، يجب أن نستفيد من القوى الخارجية وإلا سنكون مغلوبين . وقد تعرفنا من خلال القرآن الكريم وروايات أهل البيت (ع) على قوى من بينها الاهتمام بالواجبات ، والصلاة ، واجتناب الذنوب ، وبحسبنا حول الصبر وأنواعه الثلاثة . القوة الثالثة التي تحدثنا حولها تكمن في التوبة . وقلنا إنه عن طريق التوبة نستطيع تقوية إرادتنا وروحنا وبعبارة أخرى يمكننا أن نتصر في هذه المعركة .

والقرآن الكريم مشحون بالحديث حول التوبة ، ويقول : ليس خالق العالم « سريع الرضا » فحسب ، بل إنه يُسلم أولاً على المذنبين ، ثم يقول : إني أقبل توبتك كما يستشف من القرآن الكريم أنه إذا حصل تفاعل داخلي عند الشخص ، ثم تاب فإن خالق الكون يغفر له ، وكما قال النبي الأكرم (ص) : « التائب من الذنب كمن لا ذنب له » إذا تاب المرء من ذنب فهو كمن لم يذنب أبداً .

حول هذا الموضوع يقول القرآن الكريم :

﴿ قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا ﴾^(١) .

من الناحية اللغوية هنالك ثمة نقاط في هذه الآية ، جملة : ﴿ يا عبادي ﴾ وكلمة « عباد » رقيقة وإضافة هذه الكلمة إلى « ياء المتكلم » أضفت عليها جمالاً خاصاً . الله يقول : يا عبادي المذنب الذي اعتبرك جزءاً مني تعالى ، تعالى ، أينما كنت تعالى ﴿ لا تقنطوا من رحمة الله ﴾ لا تقنط مهما كنت ، ومهما كان ذنبك كبيراً ، وبأي مقدار كان ﴿ لا تقنطوا من رحمة الله ﴾ لا تيأس ﴿ إنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا ﴾ كن واثقاً أن خالق الكون سيغفر جميع ذنوبك . وآية أخرى في سورة يوسف تقول : ﴿ لا تيأسوا من روح الله إنه لا يأس من روح الله إلا القوم الكافرون ﴾^(٢) يا عبادي المذنب لا تيأس من رحمة الله إن اليأس من رحمة الله كالكفر . إذ قال المرء : (ولو أنه كان مذنباً طوال سبعين عاماً) .

إن الله لن يرحمني ، فإن ذنب هذا الكلام وهذه الفكرة في اليأس من رحمة الله أكبر من ذنوب سبعين سنة ، لأن سبعين سنة من الذنوب ليست كفراً ، إذ يقول القرآن الكريم : إذا قنطت من رحمة الله فإن ذلك يضاهي الكفر : ﴿ لا تيأسوا من روح الله إنه لا يأس من روح الله إلا القوم الكافرون ﴾ . وينقل بعض المفسرين قصة حول هذه الآية الكريمة .

حميد بن قحطبة ضابط في جيش هارون الرشيد . قال الراوي للإمام الصادق (ع) : ذهبت في شهر رمضان عند حميد بن محطبة وشاهدته مُفْطِراً : قلت له : هل أنت مريض ؟ قال : كلا ، قلت : إنك لست مسافر ، فلماذا لا تصم الشهر المبارك ؟ قال : لأنني أعلم أن الله لن يغفر لي . ثم حكى لي القضية ، وقال : طلبني هارون الرشيد في إحدى الليالي وقال : إلى أي مدى أنت معي ؟ قلت : إنني مستعد لأن أفديك بمالي وعرضي ونفسي ، قال : كلا ، يقول كنت في طريقي عائداً إلى المنزل فطلبني مرةً أخرى . فذهبت ، قال : إلى أي مدى أنت معي ؟ قلت : لأنني مستعد لأن أفديك بديني ، وقال : هذا

(١) سورة الزمر ، الآية : ٥٣ .

(٢) سورة يوسف ، الآية : ٨٧ .

ما أريد ، ثم أعطاني سيفاً ، وقال : نفذ كل ما يقوله هذا الغلام ، يقول : أخذني الغلام إلى باب أحد البيوت ، ففتح باب إحدى الغرف ، كان في تلك الغرفة عشرون شاباً من سلالة النبي الأكرم (ص) مكبلين بالأصفاد ، فجاء بهم إلى وسط الدار ، كان فيها بئراً ، قال الغلام : اضرب أعناقهم وارم بها في هذا البئر . فضربت أعناقهم ورميت بها في البئر . فتح الباب الثاني ، كان فيها عدد من السادات من سلالة الزهراء (ع) محبوسين ، وكانوا مُسنين ، فضربت أعناقهم ورميت بها في البئر . فجاء بعشرين من السادات الطاعنين في السن والمكبلين بالأصفاد فضربت أعناقهم أيضاً ورميتها في البئر . كان آخرهم شيخاً أبيض البشرة فالتفت إليّ وقال : إذا سألتك أُمي الزهراء في يوم القيامة عن سبب قتلي بماذا تجيب ؟ فارتجفت أوصالي . قال الغلام : لقد أتممت مهمتك ، انجز ما تبقى . ضربت عنقه ورميتها في البئر . من الواضح أن الله لن يغفر لي بعد ذلك ، فلماذا أصوم ؟ يقول الراوي نقلت هذه القصة للإمام الصادق (ع) . تألم الإمام (ع) كثيراً لدى سماعه تلك القصة ، ثم قال : يا فلان ، إن هذا الذي قنط من رحمة الله لأنّ ذنبه أكبر من قتل (٦٠) نفرأ من سلالة النبي ، ومن الطبيعي لنماذج من هذه النوعية لا يوقفون إلى التوبة ، ولكن اليأس من رحمة الله ذنب كبير ، القرآن الكريم والآية التي ذكرناها من سورة يوسف تقول : إن القنوط من رحمة الله كالكفر . المحصلة التي خرجنا بها من بحث التوبة هي أنه إذا حصل تفاعل داخلي في الشخص من جراء الذنوب التي ارتكبها طوال سنة أو سنتين أو عشر سنوات ، ومع أن ذنبه كان كبير جداً ، ولكن بما أنه ندم على ما فعله نتيجة الاستغفار والمناجاة والبكاء ، والندم والتفاعل الداخلي يلزمه أن يقرر المرء أن لا يذنب بعد الآن . فإن الله سيغفر له لا محالة ، كأنه لم يرتكب ذنباً أبداً . وهذه الحالة تعوّض ما حلّ به من موبقات بالإضافة إلى أنه يستطيع أن يقطع مسيرة المائة عام خلال لحظة واحدة ، وأن يسطع نور الحق في قلبه وستقوى إرادته وروحه ، والأعظم من ذلك يستطيع أن يتنصر في تلك المعركة الداخلية . وعلى العكس يعتبر اليأس من رحمة الله من أحيابل الشيطان . القرآن الكريم يقول :

لا تياس من رحمة الله إذ أن ذلك يساوي الكفر ، ولهذا السبب إذا أفسد

الشیطان شخصاً یصبح من خلال ذلك كحمید بن قحطبة لا یصوم ولا یصلي ويرتكب أي جريمة تسنح له الفرصة للقیام بها .

الیأس من رحمة الله یؤدی إلى أن یصبح الإنسان مجرماً ومذنباً ، ولكن الأمل برحمة الله ، والیقین من أن الله سیغفر له ، سیجعله یسيطر على غرائزه ، شاء أم أبی ، وبعبارة أخرى یتمکن من السيطرة على الجانب البهیمی ویتنصر في معركة الداخل .

ویستشف من القرآن الکریم وروایات أهل البيت (ع) : أن أربعة أنواع من التوبة لا تُقبل .

قلنا سابقاً إنه لیست في الإسلام طریق مسدودة وأنه لا معنى أن یقول المرء إن الله لن یغفر لي ، وقد یدو ذلك مبایناً لقولنا إنه لا تقبل التوبة من أربع مجموعات ، ولكن في الحقيقة لیس هنالك تباين بین القولین . جمیع الآیات التي تتحدث عن عدم قبول التوبة موجودة في الآيتين (١٧) و(١٨) من سورة النساء حيث یقول : ﴿ إنما التوبة على الله للذین یعملون السوء بجهالة ثم یتوبون من قريب فأولئك یتوب الله علیهم وكان الله علیماً حکیماً ولیست التوبة للذین یعملون السيئات حتی إذا حضر أحدهم الموت قال إني تبت الآن ولا الذین یموتون وهم کفار ﴾^(١) . یقول : التوبة تُقبل من الذی یعمل السوء بجهالة ، والجهالة هنا بمعنی عدم الفهم ، وللجهالة عدة معانی ، منها تغلب الجانب البهیمی على الجانب المعنوي ، كأن تغلب الغریزة الجنسية على الشخص وینظر للمرأة بنظرة شهوانية ، یقولون : إنه ارتكب ذنباً بجهالة ، إنه یعلم أن إلقاء النظرة الشهوانية حرام ، ولكنه یغلب من قبل الشهوة ، وینظر بمعنی أنه یخالف الله ، هذا یسمونه ﴿ یعملون السوء بجهالة ﴾ یقولون : إن توبة هذا الشخص لا تقبل ، ولكن إذا ارتكب المرء ذنباً بدون أن یتنبه هنالك غلبة للشهوة وعاند وارتكب الذنب ، هذه الآیة الکریمة تقول : إنه لا تقبل توبة هذا الشخص .

(١) سورة النساء ، الآيات : ١٧ و ١٨ .

وحول الذين تقبل توبتهم تقول الآية الكريمة : ﴿ يتوبون من قريب ﴾ فيجب أن يتوبوا فوراً . وفي نفس هذا المثال عندما ينظر إلى امرأة شهوة ، عندما تمر المرأة ، ويندم ، عليه أن يتوب فوراً ، وستقبل توبته ، ولكن إذا سَوَّفَ وماطَّلَ في التوبة ، تقول الآية : لن تُقبل توبته ، بل التوبة للذين ﴿ يتوبون من قريب ﴾ .

وكما يقول القرآن الكريم في هذه الآية : ﴿ وليست التوبة للذين يعملون السيئات حتى إذا حضر أحدهم الموت قال إني تبت الآن ﴾ التوبة هي للذي يتوب ، وهو في أتم الصحة ، لا أن يكون في وقت الاحتضار ، ثم يطلب التوبة حينذاك ، وهذا هو الشائع عند العوام بأن التوبة عند الاحتضار لا تقبل . وقد أخذوا هذا المعنى من الآية التي تقول : إذا تاب قبل الموت ، عندما لا يكون بين يدي عزرائيل ، تقبل توبته ، ولكن التوبة عند الموت لا تقبل ، وقد يبدو ذلك مابئناً لما قلناه بأن التوبة في الإسلام مقبولة ، ولكن هذه الآية تقول : إن التوبة عند الممات لا تقبل . الحالة الأخرى التي لا تقبل فيها التوبة ، عندما يموت الكافر والمشرک ويريدون التوبة في يوم القيامة عندما يذهبون إلى القبر يريدون التوبة كما يقول في آية أخرى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ ﴾ (١) إن الله لا يغفر للمشرک ، والمقصود هنا أن يموت الشخص مشرکاً . وقد فسر البعض هذه الآية ، بأن الله لا يقبل توبة المشرک ، وهذا الكلام غير صحيح :

﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ ﴾ بمعنى أن يموت مشرکاً ، يذهب إلى القبر وهو مشرک ، أو يهودي ، أو كافر فلن تغفر توبته ، كما يقول في آية أخرى : بعض الناس عندما يذهبون إلى القبر ، ويرون الأوضاع سيئة يقولون : ﴿ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِي لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحاً فِيمَا تَرَكْتُ ، كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمَنْ وَرِثَهُمْ يَبْرِزْخُ إِلَى يَوْمِ يَبْعَثُونَ ﴾ (٢) .

خلاصة القول : إن باقي الآيات تعود إلى نفس الآية (١٧) من سورة

(١) سورة النساء ، الآية : ٤٨ .

(٢) سورة المؤمنون ، الآيات : ٩٩ و ١٠٠ .

النساء وقد جمعت هذه الآية كافة الآيات ، وجميع الروايات الموجودة عن النبي الأكرم (ص) والأئمة الطاهرين (ع) تعود إلى نفس الآية ، إذ لا تعتبر هذه الآية الكريمة توبة أربعة مجموعات مقبولة : هذه الآية الكريمة من أَلطاف الله الكبيرة ، لأن هنالك أربعة صفارات إنذار في هذه الآية وصفارة الإنذار من أَلطاف الله ، مثلاً عندما تحدث حادثة خطيرة تدوي صفارات الإنذار من الإذاعة والتلفزيون ، وهذه من مواهب الإذاعة والتلفزيون . لأنه عندما يهاجم العدو تل تصابون بمكروه ، هذه الآية الكريمة صفارة الإنذار تنوّه للمسلمين عن أربع نقاط رئيسية كالتالي :

١ - إذا استولت إحدى الصفات الدنيئة كالعناد على قلب الإنسان لن تدعُ يقوم بعمل خيرٍ ، ولن يوفق بعد ذلك في أن يتوب - أحياناً يستغيب الشخص - وهو يعلم أن ذلك حرام ، ولا يحاول تبريره ، بل يعترف بأنه استغاب وعمل عملاً سيئاً ، هذا الشخص عندما يتدم ويتألم حقاً تقبل توبته ، ولكنه أحياناً يبرر الذنب الذي يرتكبه كان يستغيب ويقال له : لا تستغيب ، يقول : هذه الصفة التي قتلها موجودة في ذلك الشخص ، وهو يجب أن يُستغاب ، وهذا عمل جائز . من البديهي أن توبته لا تقبل ، لأنه لا يعتبر نفسه مذنباً أساساً ، كشخصٍ مصاب بمرض السرطان ، من الواضح إذا اكتشف المرض في المرحلة الأولى يمكن معالجته وتعويضه ، ولكن عندما يشتري في الدم ويتجنر في اللحم والجلد ، حينذاك لا يمكن تعويضه .

أحياناً يشعر المرء بألم ويراجع الطبيب وقد يحدد الطبيب نوع المرض ويقوم بمعالجته ، ولكنه أحياناً لا يعلم أن لديه ألم ، لذلك لا يراجع الطبيب لكي يعالج الألم . وهكذا هو الإنسان العنيد . ذلك الذي يرتكب الذنوب ويرر ما يرتكبه ، وذلك الذي يرتكب الذنوب عناداً ، من الواضح أنه لا يعتبر نفسه مذنباً ليتوب ، ولكن على العكس إذا ارتكب الذنب بجهالة وتغلبه الشهوة وأذنب - والعياذ بالله - ارتكب الزنا ، ثم ندم على فعلته . واعتبر نفسه مذنباً ومريضاً وراجع الطبيب ، ويقول له الطبيب : دوائك التوبة ، ولكن إذا ارتكب الذنوب عناداً ، في هذه الحالة لا يعتبر نفسه مذنباً لكي يتوب .

الآية الكريمة تقول : ﴿ إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ

بجهالة ﴿ يقول : إحذر ، لا ترتكب الذنوب ، وإذا ارتكبت ذنباً بجهالة ، وإذا لم يكن بجهالة وبغلبة الشهوة ، اعلم أنك لن تنال التوبة ، إنه لا يقول : إذا وفقت في التوبة لن أبل توبتك ، هذه الآية فيها صفاة إنذار ، يقول : يا من أنت في خضم الذنوب ، إحذر أن لا تكون ذنوبك عن عناد ولجاجة بل بجهالة ، وإذا لم تكن عن جهالة ستصبح تعيساً .

هنالك الكثير من الأشخاص من هذا النمط ، يقفون في مواجهة الله مع أنهم يعلمون أنها معصية - لا سامح الله - أن يصيح المرء لجوجاً وتغمرة العصية الفردية أو الجماعية ، وكما يقول القرآن الكريم : ﴿ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ ﴾ (١) . يُضل نفسه على علم ، يُعرض نفسه للضلالة على علم ، بالأخص الأشخاص المعقدين يرتكبون الكثير من الذنوب عن عمد ، وإحدى واجباتكم أتم المعلمون هي أن لا تجعلوا هؤلاء الأطفال يشبّون معقدين ، بل أن تسعوا لاقتلاع العقدة المتجذرة لديهم . إذا أصبحتم - والعياذ بالله - غير مباليين أو إذا أصبح لديكم توتر في الأعصاب أو أن تذهبوا إلى الصف بدون استعداد مسبق ، بدلاً من أن تسعدوا الأطفال ، ستقدمون للمجتمع أفراداً معقدين فإذا تعقد الطفل وكما يقول القرآن الكريم : ﴿ أَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ ﴾ فإن ذنبه لن يكون بجهالة ، وسفاة ، بل عن عقدة وسيكون عند عناد ولجاج ، وهكذا هي سائر الصفات الرذيلة ، مثلاً عادة تناهر العروس وأم الزوج ، في الوقت الذي لو أعادت أم الزوج النظر في موقفها سترى أن العروس لا ذنب لها ، في حين أنها تتهمها وتستغيبها وتلجأ إلى النيمة لأن الجذور النفسية لهذه الحالة هي الحسد ، الذي يقول عنه أحد المراجع إن حملة نائم على عتبة بيتنا أي أن أهل العلم معرضون لهذا الخطر ، لدينا رواية أيضاً حول هذا الموضوع بأن حسد أهل العلم أكثر من الآخرين ، إن الحسد يسير بالمرء إلى جهنم ، والذنب الناجم عن الحسد ليس ناجماً عن الجهالة ، إنه يعلم أن ذلك ذنب ، ولكنه يظفيء وميض وجدانه بتبريره ويرتكب المعصية .

القرآن يقول : هذا الشخص لن ينال التوبة ، لأن الحسد يحول دون

(١) سورة الجاثية ، الآية : ٢٢ .

توبته . الإنسان الذي يحب الجاه يُذنب ويصل إلى مدى يكون فيه مستعداً لقتل
ثلثي سكان العالم ليحكم على الثلث الباقي .

وهذه إحدى النظريات الصهيونية التي وردت في كتاب موجود الآن وهي
تقول : إذا لزم الأمر أن تقتل ثلثي سكان العالم لتحكم على الثلث الباقي عليك
أن تفعل ذلك ، وقد أوضحت الحرب العراقية - الإيرانية هذه الحقيقة . هل
الجرائم التي يرتكبها صدام عن جهالة ؟ هل هي ناجمة عن تغلب الشهوة على
العقل ؟ طبعاً لا ، قد تكون عن لجاج ، ولكنها قبل ذلك عن حب الحياة . إنه
مستعد من أجل أن يصبح يوماً ما زعيماً على العراق أن يقصف دزفول بالصواريخ
إذ حتى الطفل يعلم أن هذا العمل خطأ ، بل حتى المجنون يعلم أنه خطأ ، إذن
لماذا يُقدم على هذه الأعمال الجنونية ، هل هو مجنون ؟ كلا ، بل إن عقله
مولع بحب الجاه - ولا سامح الله - أن يصبح المرء محباً للجاه .

على فكرة ، إن الجميع لديهم رغبة حب الجاه واجتثاث جذوره صعبٌ
للغاية ، أحياناً كان أستاذنا الجليل آية الله العظمى البروجردي - رحمة الله عليه -
ينصحننا ، ويقرأ هذه الرواية بأن النبي الأكرم (ص) قال : « آخر ما يخرج عن
قلوب الصديقين حب الجاه » (الصديق إحدى مراحل السير والسلوك العرفاني
ومرتبة الصديق تالي تلو العصمة ، تقول الرواية : آخر ما يجتث من قلب
الصديق حب الجاه) .

الجملة الأولى للقرآن الكريم صفارة إنذار للذين لديهم صفات رذيلة ،
يقول : إحدروا ألا تكونوا حسودين ، ومحبي الجاه وبخلاء ، لا تسيثوا الظن
بالناس ، لا تسود قلوبكم من تراكم الذنوب على الذنوب لتصبحوا قاسين بدون
رافة . لماذا ؟ لأنه إذا ترسخت إحدى الصفات الرذيلة في قلوبكم ، فسوف
ترتكبون الذنوب ولا تتوبون ، لأنكم لا تشعرون بأنكم مذنبين .

كان البعض في عهد الطاغوت يأتون إلى الشارع عراة ، وكانوا يبررون
عملهم هذا باسم الثقافة والتنوير ، يعتبرون أنفسهم علماء والأخريين رجعيين ،
يعتبرون أنفسهم واعين وعلماء ، لقد كانوا يرتكبون الذنوب ثم يبررون
ما يقومون به ، فالذين يكونون على هذا النمط لن يكون لهم استغفار ، كانوا

يعتبرون السفور ليس تعزياً بل وعياً ، كيف يمكن أن يتوبوا ؟ القرآن يقول :
﴿ إنما التوبة على الله للذين يعملون السوء بجهالة ﴾ .

التوبة لأولئك الذين يرتكبون السيئات بجهالة ، وإحدى مكاسب ثورتنا الإسلامية هي أن الكثير من هؤلاء النسوة تُبْنَ ، ولأن عملهن كان عن جهالة ، فإن توبتهن مقبولة لا محالة ، ليس تقبل توبتهن فحسب ، بل إن الباري عز وجل أبلغهن السلام ، ليس فقط توبتهن مقبولة ، بل إن الله يقول : يا عبيدي المذنب ، أحبك ، بل أحبك كثيراً ، تعالى ، تعالى ، فإني أقبلك . إذن الآية لا تريد أن تقول : إذا كان الذنب عن عناد ولجاج لن تقبل التوبة ، كلا ، لا توجد في الإسلام طريق مسدودة ، بل الآية صفاة إنذار أن إحذر أن لا يكون ذنبك بلجاج ، لأنه إذا كان ذنبك عن عناد ، فنادراً ما تُوفَّق إلى التوبة . وحول الجماعة الثانية يقول : ﴿ يتوبون من قريب ﴾ التوبة للذي إذا ارتكب ذنباً سارع إلى التوبة ، هذه أيضاً صفاة إنذار للذي يماطل في التوبة . كان هنالك الكثير من الذين لا يصلون ، يظلمون ويأكلون الربا ، يمتصون دم الناس ، كان لديهم جرائم ومفاسد ، وكانوا عندما يسألون عن السبب يجيبون : تكبر ثم نتوب ، ثم يذهبون إلى قم أو كربلاء ويجاورون الأماكن المقدسة ، على أمل أن يغفر لهم الإمام الحسين (ع) التسوية والإهمال في التوبة فطر قائم ، الإنسان أحياناً بعد أن يرتكب ذنباً يندم مباشرة ويتوب فوراً ، ولكن بالإهمال يتناسى التوبة وبالتالي عندما ينسى ، والذنب يدرج في قائمة أعماله ، ولكنه لا يعلم أنه مذنب لكي يتوب ، الذي يفوته وقت الصلاة يقيم صلاته قضى بدون تأخير ، ولكنه إذا تأخر في قضاء الصلاة ، لن يتذكر بعد ذلك أن صلاته أصبحت قضى ليقمها . الآية الثانية تقول : أيها المذنب ، إذا ارتكبت ذنباً تب فوراً ، عوض فوراً ، إذا لم تصلي تأهب فوراً للصلاة ، لا تؤخر ذلك ، لأن للتأخير ضررين كبيرين هما :

١ - تنسى الذنب ، وعندما تنسى ، لن توفَّق بعد ذلك في أن تتوب .

٢ - شيئاً فشيئاً يتقل العبء الملقى على عاتقك وعندما تنكر كل شيء من خلال تبرير واحد ، مثلاً الذي يملك عشرة آلاف تومان إذا لم تكن رأسماله ، يجب أن يدفع خمسمها تأدية لفريضة الخمس ، ولكن إذا لم يدفع

وبعد مُضي عشر أو عشرين سنة يحسب ماله فيجد أن عليه أن يدفع عدة ملايين كخمس ، يشعر أنه لا يستطيع ذلك ، ويريد أن يظفيء وميض وجدانه ، فبماذا يطفئه ؟ يقول : لقد كدحت وعملت ، وجمعت مالا ، ليذهب الفقير ويعمل ، لماذا أعطي مالي ، ويدل أن يتوب يسير باتجاه وادي الكفر .

القرآن الكريم يطلق صفاة الإنذار هذه . القرآن الكريم يقول : ﴿ ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاؤُا السُّوْاى أَن كَذَبُوا بِآيَاتِ اللّهِ ﴾^(١) ، الذين يرتكبون الذنوب ويؤخرون التوبة سيصلون إلى مرحلة ينكرون فيها الإسلام ﴿ أَن كَذَبُوا بِآيَاتِ اللّهِ ﴾ يقول : ما هو القرآن ؟ وما هو الإسلام ؟ هنالك نماذج متعددة في التاريخ من هذا النوع . ولكن الذي يؤخر التوبة متماهلاً إذا وفق إلى التوبة ، هذه الآية لا تقول توبته غير مقبولة ، إن الآية لا تدل على ذلك ، القرآن الكريم يقول : ﴿ قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللّهِ إِنَّ اللّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا ﴾^(٢) .

أينما تكون تعالى ، وكيفما تكون ، حتى إذا كُنْتُ كبشر الحافي .

من هو بشر الحافي ؟ كان رجلاً مستهتراً وبيته كان خمارة طوال خمسين سنة ، وكان مجاًلاً للفواحش ، كان بيته مكاناً للرجال المستهترين الماجنين . وفي أحد الأيام سَرَّ الإمام موسى بن جعفر (ع) من أمام بيته فسمع صوت الموسيقى والغناء يخرج من بيته فسأل خادمته : صاحب هذه الدار حرٌّ أم عبد ؟ قالت : كلا يا سيد إنه حر ، قال : نعم إنه حر ، ولأنه حر يفعل هكذا . جاءت الخادمة عند بشر الحافي فسألها من الذي كَلَمَكَ ؟ قالت : كان سيداً سألني هكذا وأجبته هكذا ، كان كالشرارة التي تقع على البتزين إذ حدث تفاعل في ذاته . قال : إني أعلم من هو . ذهب إلى الإمام موسى بن جعفر (ع) حافي القدمين فأصبح اسمه بشر الحافي ، قال : لقد أخطأت ، لقد أخطأت ، لقد ارتكبت الذنوب خمسين عاماً ، ولكني أسأت فعلاً . فقبله الإمام موسى بن جعفر (ع) ، لم تقبل توبته فحسب ، بل ذاع صيته بالإيمان . العارفون يقولون

(١) سورة الروم ، الآية : ١٠ .

(٢) سورة الزمر ، الآية : ٥٣ .

عنه (لا علم ما مدى صحة هذا الخبر) : إنه لم يتعل حذاء بعد ذلك ، وكان دائماً يمشي حافياً . قالوا له : لماذا تمشي حافياً ؟ قال : عندما تبت كنت حافي القدمين ، أود أن أبقى حافي القدمين إلى أن أموت ، تدريجياً ، وَصَلَ إلى مرحلة كانت الحيوانات لا تلقي فضولاتها في أماكن تردده ، هذا ليس مستبعداً . مرحى لمن تكون يد العناية الإلهية فوق رأسه ، مرحى لمن ينهض في غياهب الليل ، ويناجي ربه نادماً على ذنوبه ، لا تعلمون إلى أين يصل ؟ يصبح فضيل بن أياز ، يصبح بشر الحافي .

تذكروا حر بن يزيد الرياحي ، وكونوا على ثقة مهما كان الذنب كبيراً يغفر

له .

نفس حر بن يزيد الرياحي يقول : يا حسين ، أنا أول من رَوَعَ زينب (ع) هو الذي منع الإمام الحسين (ع) من الذهاب إلى المدينة ومنعه من الذهاب إلى الكوفة ، حاصر الإمام الحسين (ع) ليجتمع الجيش ويقتلوا الإمام . هذا الذنب كبير جداً ، ولكن توبته أكبر ، رافة الله أكبر ، رافة الإمام الحسين (ع) أكبر . يقول : شاهدت الحر في يوم عاشوراء هذه يسمونها التوبة - لا تحتاج إلى استغفار الله - شاهدته يرتجف ، قلت : لماذا ترتجف ؟ لم تقع الحرب بعد ، ماذا دهاك ؟ قال : كلا ، ولكني أخير نفسي بين الجنة والنار ، يا لسوء فعلتي ، ماذا أصنع الآن ؟ جاء عند الإمام الحسين (ع) ، الإمام الحسين (ع) عنوان الرحمة الإلهية . قلنا سابقاً : إن الله يخاطب عبده قائلاً : يا عبدي المذنب ، تعال ، سلامٌ عليكم ، الإمام الحسين (ع) أيضاً قال : يا أبو الفضل ! اذهب وقل له سلامٌ عليكم ، جاء أبو الفضل لاستقبال الحر ، وأخذته عند الإمام الحسين (ع) ، طأطأ الحر رأسه - هذه هي التوبة - الإنسان في ظلمة الليل الدامس يشعر بالخجل لوقوفه بين يدي الخالق مذنباً .

هذه نفس تلك الجملة التي كان قائد الثورة العظيم يُعيدها على مسامعنا وقد ثبت مراراً من وسائل الإعلام : عليكم أن تتروا أنفسكم في محضر الله ، عليكم أن تعلموا أن الله حاضر ويراقبكم عن كُتب ، إذ وجدت نفسك بين يدي الله ستشعر بالخجل دائماً من ذنوبك ، إذا وجدت نفسك بين يدي الله ،

ورأيت الله حاضر ويراقب أعمالك عن كثب ، قلما تصدر عنك أعمال شيطانية بل تصبح أعمالك رحمانية .

الخرنفسه بين يدي الإمام الحسين (ع) مطاطاً الرأس ، حاولوا أن تكونوا كالحر بين يدي الإمام الحسين (ع) ، هكذا كونوا في محضر الباري عز وجل ، إن الله موجود في كل مكان ﴿ يعلمُ خائنة الأعين وما تخفي الصدور ﴾^(١) موجود في كل مكان ويعلم بما يجري في الخلوة والرخام ، التوبة تجعل الإنسان خجلاً في محضر الله . قال الإمام الحسين (ع) : إرفع رأسك يا حر ، لقد غفر لك ، ولكن الحر لا يرفع رأسه ، إنه يشعر بالخجل - هنا توجد نقطة - صحيح أن الله يغفر ، ولكن خجل العبد يبقى . الحر خجل لا يستطيع أن يرفع رأسه ، وأخيراً لم يرفع رأسه ، ولم يقع نظره على الإمام الحسين (ع) . يقول الراوي : عندما كان سلمان الفارسي يحتضر ، وكان والياً على المدائن ، كنت عنده فوجدته يبكي . قلت : يا سلمان لماذا تبكي ؟ إنك رجل ذو مكانة مرموقة ، ووصلت إلى مقام رفيع حتى قال فيك النبي (ص) : « سلمان منا أهل البيت » ونقرأ في الروايات : « أن سلمان أحرز تسع درجات من الإيمان . قال سلمان : تذكرت رواية عن النبي الأكرم (ص) هنالك منعطفات في يوم القيامة ، هنالك يوجد مأمورون يسألون سبعة مأمورين يسألون ، والنبي (ص) يقول : « نجى المخفون وهلك المثقلون » . يعني نجى من كان حملاً خفيفاً ، ولكن حملي ثقيل . سلمان الفارسي يحتضر ويقول : حملي ثقيل ، نفس الراوي يقول : تمعنت في النظر ، لكي أرى لماذا نفل حمل سلمان وشاهدت جلدًا للخروف كان فراشاً للنوم والجلوس ، مع أنه كان والي المدائن ، أعد إناء من الطين للأكل وإبريقاً للطهارة ، وقلم ودواة للكتابة ، لم يكن شيء آخر في غرفته وكانت غرفته مستأجرة ، ومع ذلك يقول : حملي ثقيل ، وعبي أنقل « نجى المخفون وهلك المثقلون » يقول بابا طاهر : أنا الذي كالجمال .

ومع هذه العدة القليلة والعبء الثقيل لا أزال خجلاً أمام صاحبي إن الله يغفر توبة المذنب ، مهما كانت ، ومهما كان ، ولكن علينا أن

(١) سورة غافر ، الآية : ١٩ .

نخجل ونصلح أنفسنا ، ونعوّض ما فات لأن الله إذا غفر ، علينا أن نتعرف على واجبنا تجاه ذلك ، كالحربن يزيد الرياحي الذي لم يستطع أخيراً أن يلقي بنظراته على الإمام الحسين (ع) وعندما استشهد جاء الإمام الحسين (ع) واحتضن رأسه ، ولكن الحر لم يبرح يرفع رأسه ويضعه على الأرض ، لم يفتح عينيه ، كان خجلاً وبعينين مغمضتين ، قال للإمام (ع) : هل رضيت عني يا إمام ؟ قال : أجل يا حر ، رضي الله عنك ، وكما سمتك أمك حرّاً أرجو أن تكون حرّاً في الدنيا والآخرة . لقد عفى الحسين (ع) معلم الرحمة الإلهية عن الحر ، ولكن خجل الحر لا يزال باقياً .

إلهي ، بعزتك وجلالك نقسم عليك أن تمن علينا جميعاً بالصفات الإنسانية والتوبة الإنابة وتوفيق طاعتك وعبوديتك وترك معصيتك .

« التوبة (٣) »

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ ربّ اشرح لي صدري ويسّر لي أمري واحلل عقدة من لساني ، يفقهوا قولي ﴾ .

كان بحثنا حول التوبة والإنابة ، وقلنا : إن الذنب مهما كان كبيراً أو كثيراً يمكن تعويضه حسب الرؤية القرآنية . لأن الإسلام ليس فيه طريق مسدودة . فالآية القرآنية تُصَرِّحُ : ﴿ إنما التوبة على الله للذين يعملون السوء بجهالة ثم يتوبون من قريب ﴾ . . . ﴿ وليست التوبة للذين يعملون السيئات حتى إذا حضر أحدهم الموت قال إني تبت الآن ولا الذين يموتون وهم كفار ﴾ (١) .

يقول القرآن في هذه الآية : هنالك أربعة مجموعات ، لا تقبل توبتهم ، ليس لهم توبة ، وهذا لا يخالف ما قلته ، بل إن هاتين الآيتين لطف وصفارة إنذار من جانب الله للمذنب ، لا يقول : لا أقبل التوبة ، بل إذا كان الذنب بلجاجة ، في هذه الحالة لن تنال التوبة ، رواية مشهورة ، مع أننا لا نعلم مدى صحتها ولكنها شاهد لما أريد أن أقول . كان يزيد يقول للإمام السجاد (ع) : ماذا أصنع لكي أعوض هذا الذنب ، قال : صلي صلاة الغفيلة ؟ من الذي يتوب ؟ قال الإمام (ع) : إنه لن يوفق للتوبة ؟ شاهد ما أريد أن أقول ، هو أن الذنب إذا كان عن لججاج ولم يكن بجهالة أو سفاهة فلن يوفق الإنسان في

(١) سورة النساء ، الأيات : ١٧ و ١٨ .

التوبة ، بمعنى أنه لا يعتبر نفسه مريضاً ليستعمل الدواء ويراجع الطبيب . والآية الكريمة تطلق صفارة إنذار بأن لا يصبح الذنب أمراً عادياً أو لا يكون عن لججاج وعناد ، فإذا زالت مهابة الذنب من القلب لن يوفق للتوبة . ﴿ إنما التوبة على الله للذين يعملون السوء بجهالة ﴾ (١) .

التوبة لمن إذا ارتكب ذنباً ، تاب فوراً . ليس معنى ذلك إذا ارتكب الشخص ذنباً أيام شبابه ، وحصل لديه الآن تفاعل ذاتي وتوفرت له ظروف التوبة ، لن تقبل توبته ، لا شك أن توبته مقبولة من الرؤية الإسلامية . إذن الآية الكريمة تطلق صفارة إنذار أخرى وتقول : إحذر ، إذا ارتكبت ذنباً عوض عنه فوراً ، لأنك قد تنساه ، ناهيك عن أن تراكم الذنوب يسود القلب ويزيل مهابة الذنب ، ولن توفق بعدها للتوبة رواية عن الإمام الصادق (ع) شبه فيها الذنب ، كخالٍ أسود في القلب إذا تلافيته سيزول الخال الأسود ، ولكن إذا حدث ذنباً ثانياً يكبر الخال ويتراكم الذنب فوق الذنب ويسود القلب تماماً .

نقل عن الإمام الصادق (ع) أنه قال : ﴿ ولن تفلحوا إذاً أبداً ﴾ (٢) بمعنى إذا غمرت المعصية القلب لن يفلح في التوبة . المعنى الآخر هو أن إحذر ، إذا ارتكبت ذنباً تلافاه ، وكما يقول الإمام الصادق (ع) : إمحي ذلك الخال الأسود لأن الذنب يغمر العقل والوجدان تدريجياً وأنداك لن تفلح في التوبة . القرآن الكريم يقول :

﴿ وليست التوبة للذين يعملون السيئات حتى إذا حضر أحدهم الموت ﴾ أي لا جدوى من التوبة عند الممات ، هذه أيضاً صفارة إنذار أخرى . كونوا على يقين بأنه من الناحية الفلسفية والعرفانية والأخلاقية وأيضاً من حيث منطق القرآن والروايات والمسائل الفقهية إذا تاب الشخص عند الممات تقبل توبته أيضاً ، لا توجد طريق مسدودة في الإسلام ، إن يحدث تفاعل ذاتي ، ويخجل المرء من ذنبه والله يقول لا ، إن ذلك لا يتفق مع كون الله ﴿ أرحم الراحمين ﴾ . ينقلون إن شاباً ارتكب الكثير من الذنوب في زمن موسى (ع) وقد تدنس بالقدر

(١) سورة النساء ، الآية : ١٧ .

(٢) سورة الكهف ، الآية : ٢٠ .

الذي طلب موسى (ع) من قومه إبعاد ذلك الشاب إلى خارج المدينة . ذهب هذا الشاب إلى الصحراء وعند المبات. بات وحيداً هناك ، ولم يكن لديه أحد سوى الله ، وحين تذكر ذنوبه خجل وقال : ﴿ يَا مَنْ لَهُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةُ إِرْحَمْ مَنْ لَيْسَ لَهُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةُ ﴾ . الرواية تقول : إن خالق الكون قبله حتى أنه أرسل إليه أمه وأباه وأقرباءه على هيئة الملائكة ، عندما توفي ، قيل لموسى (ع) : مات أحد عبادنا الصالحين إذهب وادفنه . جاء موسى (ع) وشاهد نفس ذلك الشاب المذنب الذي أبعده بسبب ذنوبه .

قال : يا إلهي ، إنه نفس الشاب اللاأبالي ، كيف أصبح عبداً صالحاً ؟ جاء الرد : يا موسى هذه عبتنا ليست عتبه اليأس ، عندما كان مذنباً ، كان سيئاً ، ولكن ماء التوبة غسل ذنوبه ، لذلك غفرت له ، وأصبح من أهل الجنة . ولنفترض أنه لم تكن لدينا هذه القضية التاريخية ، لا شك من الناحية الفلسفية والعرفانية والأخلاقية يجب القول : لا توجد طريق مسدودة في الإسلام إذن الآية الكريمة ، صفارة إنذار ، بمعنى عادة ما يرى الإنسان عند الموت مشاهد عديدة . لدينا رواية تقول : إن أمير المؤمنين (ع) يجب أن يأذن لتؤخذ روح المؤمن أو الكافر ، ويرى الجنة أو جهنم أمامه ، الإنسان السيء يرى جهنم وهو نادم . ولكن ليس من الذنب ، أو قد يتوب ، ولكن ليس التوبة من الذنب ، إنه نادم بسبب تصرفه بهذه الطريقة التي أدت إلى معاقبته على هذا النحو ، كالمحكوم بالإعدام ، عندما يأتون به إلى المشنقة بندم ، إلا أنه عادة يكون نادماً ليس على أنه لماذا قتل فلاناً ، بل من خوفه على نفسه من حبل المشنقة ، هذا العارف والفقير والفيلسوف نصير الدين الطوسي يقول في شرح الإشارات : إذا كانت التوبة من أجل الذهاب إلى الجنة أو عدم الذهاب إلى النار ، فليست مقبولة ، التوبة تعني الخجل من الذنب ومن الله .

لقد قلت في وقت سابق : إن توبة الحر بن يزيد الرياحي أمام الإمام الحسين (ع) كانت ندماً على ما فعله ، لم يكن أحد يريد قتله ، لم يكن هناك عذاب أو دنيا ، عندما جاء باتجاه الإمام الحسين (ع) لماذا لم يستطع أن يرفع رأسه ويواجه الإمام الحسين (ع) بنظراته ؟ لأنه كان خجلاً من ذنوبه ، هذه يسمونها التوبة الحقيقية .

نصير الدين الطوسي - رحمة الله عليه - يقول : إذا أراد المرء أن تقبل توبته عليه أن يكون هكذا ، أن يقول : لقد أفطرت في شهر الصيام ، كنت في ملكه وأمام الله وارتكبت الذنوب في محضر الله ، عجباً يا لي من عديم الوفاء . لذلك يطلق القرآن الكريم صفارة إنذار ، ويقول : إصلاح نفسك قبل الممات فلن تدعك التصورات والفرع والهلع أن تتوب ، من الممكن أن تندم ، ولكن الندم ليس التوبة . إذن أعلم ، إذا لم تتأهب ، فلن تقدر أن تتوب عند الممات .

القرآن يقول : ﴿ وليست التوبة . . ﴾ بمعنى لا يمكنك أن تتوب ، أجل ، إذا استطعت أن تتوب عند الممات فستقبل منك لا محالة .

خلاصة القول : أن لا توجد طريق مسدودة في الإسلام مهما كان الذنب كبيراً وكثيراً ، إذا جاءت التوبة ، بمعنى عندما يكون الخجل من الذنب في محضر الله كالخجل الذي انتاب الحرين يزيد الرياحي أمام الحسين (ع) أن يكون عند الممات أيضاً فالتوبة مقبولة ، في الشباب أو الشيخوخة ، عن عناد أو من دون ذلك . القرآن يقول : إذا كانت عن عناد ، فهي صفارة إنذار ، بمعنى أعلم أنك في هذه الحالة لن تفلح في التوبة ، وعندما يقول : إن التوبة عند الممات لا تقبل بمعنى لا يمكنك التوبة حينذاك .

أما الجملة الرابعة : ﴿ ولا الذين يموتون وهم كفار ﴾ بمعنى ما هو الموقف عندما يموت المشرك ؟ وابن يتوب ؟ .

الذي يُدان ويريد حاكم الشرع أن يقبل توبته ، لا يحق له ذلك . إنه أدين ، وحكم عليه بالسجن ، وليس لديه كفاءة أن يتوب ، لذلك تكررت الجملة الرابعة في القرآن .

﴿ إن الله لا يغفرُ أنْ يُشركَ به ، ويغفرُ ما دونَ ذلكَ لمنْ يشاءُ ﴾ (١) .

إذا مات الشخص ، وهو كافر ، فإن مكانه في جهنم ، وهذا لطف آخر يستشف من هذه الآية .

إذا مات المسلم مذنباً ، سيظهر في القبر ويَزول ضغطُهُ عن صدره إذا

(١) سورة النساء ، الآية : ٤٨ .

كانت ذنوبه كثيرة فهو يعذب في عالم البرزخ ، هناك يتعامل مع أعماله وتستحيل أعماله السيئة بشكل حيوانات فتأكله ويعذب . لديه عذاب القبر ، وعذاب البرزخ وإذا كانت ذنوبه كثيرة جداً . فإن فضيحة يوم القيامة تخفف من عذابه ، وإذا لم يتطهر يجب أن يذهب إلى جهنم ، جهنم من أطف الله الخفية ، جهنم إحدى نعم الله الكبيرة يجب أن يذهب المذنب إلى جهنم ليتطهر هناك ، بمعنى تزول عنه الشوائب ويصبح من أهل الجنة تدريجياً ، لذلك ، فإن المسلم ، المسلم الشيعي لن يقبض في جهنم خالداً . نعم ، أحياناً قد يحتاج إلى البقاء ألف سنة في جهنم لكي يتطهر ، وهذا الأمر مرتبط بالمقدار الذي أتى به من شوائب الدنيا ، أحياناً قد يكون الذنب مترسخاً في قلبه ، مترسخاً في جلده ولحمه وعظمه ، ويجب أن ينقى ليصبح من أهل الجنة كالصخر الذي يحتوي على الذهب ، إذا أراد أن تكون له مكانة وقرب ، يجب أن يصهر في بوتقة (١٨٠) درجة لتزول عنه الشوائب . الذي يريد أن يذهب إلى قلب الحور العين ، لا يمكن أن ينال ما يُريد إذا كان مذنباً . القرآن الكريم يقول : بقاء الشيعي في جهنم يستغرق سنة واحدة أحياناً وقد يستغرق سبعمائة عام أحياناً أخرى ، لذلك ، فإن مدة بقاء الشيعي في جهنم مختلفة وبما أن الجنة مقام القرب الإلهي لا يجب أن يدخل بذنوبه ، يجب أن يتطهر من الذنوب إما يتطهر بواسطة التوبة والإنابة والعبادة في الدنيا أو في القبر والبرزخ والقيامة ، وإذا يظهر بواسطة الشفاعة والعتق الإلهي ، يجب أن يبقى في جهنم إلى أن يتطهر .

إذا شعر بالخجل من جراء ما ارتكبه من ذنوب ، سيفقر له لا محالة ، كأنه لم يذنب أبداً .

القسم الثاني من التوبة ، هو حق الله ، إن خالق الكون وضع شروطاً للتوبة كالصلاة والصيام ، وهي حق الله ، ولا علاقة للناس بها . إذا لم يُصل أو أقام الصلاة بصورة رديئة ، فإن ذنبه كبير جداً ، بالقدر الذي يقول القرآن الكريم حول الساهين عن الصلاة إنهم كفرة وويل للكفرة : ﴿ فويل للمصلين الذين هم عن صلاتهم ساهون ﴾^(١) ويل للذي يستخف بالصلاة إنه غير مسلم وذنبه كبير

(١) سورة الماعون ، الأيتان : ٤ و ٥ .

جداً ، توبته أن يخجل لارتكابه الذنوب وعليه أن يقضي الصلاة التي لم يقمها من قبل . وهذا الأمر يختلف عن الكذب وشرب الخمر ، حيث لا يمكن تلافيهما ، ولكن الصلاة يمكن تلافيتها يمكننا أن نقيم الصلاة ، وأن نصوم الأيام والشهور التي لم نصمها .

أنا لا أقول : إن الذي لم يصلْ أو لم يصم طوال عشر سنين عليه أن يصوم كل يوم ، وأن يصلي بلا انقطاع ، كلا ، عليك أن تلتفتي ذلك بحيث لا تضر بقية أعمالك ، بمعنى الذي لم يصلْ فترةً من الزمن يمكنه أن يصلي صباحاً بدل الركعتين أربع ركع ، وهكذا الظهر والعصر ، والمغرب والعشاء ، أو في يومٍ من أيام العُطل ، يقضي صلاة أربع أو خمسة أيام ويصوم أيضاً على هذا النحو .

الإمام الخميني (رض) ومن أجل السير والسلوك العرفاني يصبر كثيراً على صيام يومي الاثنين والخميس ، وهذا مفيد جداً ، إذن بصيام يومين أو ثلاثة أيام في الأسبوع يمكن أن نقضي الصيام . والآن إذا ندم المرء وقال : لماذا لم أصل الصلاة التي يجب أن تكون أكبر متعة للعبد ، الصلاة التي نصفها حديث الله مع العبد (الحمد والسورة) والباقي حديث العبد مع الله ، إن هذه أكبر متعة للإنسان . أكبر متعة هي الانفراد مع الله ، وأكبر من هذه المتعة حديث العاشق مع المعشوق ، وأكبر من ذلك حديث المعشوق مع العاشق ، والمولى مع العبد عشر سنين لم يصل فيها ، فجأة يعي ذلك ، إنه يرى أية خسارة لحقت به ، ولكن يمكن تعويضها .

« النائب من الذنب كمن لا ذنب له » .

انظروا إلى حياء الحربين يزيد الرياحي أمام الإمام الحسين (ع) ، ذنوبه ستغفر ، ولكن عليه أن يتأهب لتعويضها .

الوجه الثالث : حق الناس :

حق الناس بمعنى الحق الذي له علاقة بالناس ، وهذا مهم جداً ، نقرأ في القرآن الكريم : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ لَبَلرَّصَادٌ ﴾^(١) وحول هذه الآية الكريمة توجد

(١) سورة الفجر ، الآية : ١٤ .

شرطه مرور في يوم القيامة ، وكما يقول سلمان الفارسي عقبات تسأل ، أولاً عن الصلاة إذا تمكن من الإجابة يقول : إذهب إلى الأمام ، ولكنه لو أخفق من هناك يعودون به إلى جهنم . يسألون عن الصلاة والخمس وصله الرحم - شرطه الله أي الملائكة - ولكن هنالك مرحلة يسأل الله بنفسه ، وليس المملك ، لذلك يقول القرآن : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ ﴾ .

وقد أقسم الله أرحم الراحمين قسماً حين قال : بعزتي وجلالي ، قد أعفو عن أي شيء ، ولكن لن أعفو عن حق الناس ، لذلك فإن حق الناس صعب للغاية .

كان النبي الأكرم (ص) يقول لأصحابه والمسلمين من على المنبر : « أيها المسلمون ، واطبوا على حق الناس ، واعلموا إذا غضبتم خيطاً وخطمتم به لباساً فإن الصلاة بذلك اللباس باطلة وعلاوة على ذلك يجب أن تذهبوا إلى جهنم ، أو حول الأرض المغتصبة التي يطوقون بها عنقه بطوق حديدي أو المال المغتصب والخ . ﴿ هَذَا مَا كُنْتُمْ لَأَنْفُسِكُمْ ﴾^(١) هذه السرقات وأموال الناس التي أكلتها بالحرام ستسبب لك صعوبات جمّة ، الآن هل يستطيع الذي أكل مال الناس بالحرام أن يتوب ؟ نعم يمكنه أن يتوب « التائب من الذنب كمن لا ذنب له » إذا تاب واستحى وندم ، أن يقول : أنا الذي يجب أن أفكر بالآخرين دائماً ، يجب أن أعطي غذائي للآخرين ، كيف اغتصبت أموال الناس ؟ هل تكفي هذه التوبة ؟ كلا ، علاوة على ذلك عليه أن يرذ ما اغتصبه من أموال إلى أصحابها . التوبة من الذنب هي تأدية حق الناس للناس وترضيتهم ، والآن إذا لم يكن لديه مال ، هذا كلام آخر « المفلس في أمان الله » وهنالك رواية : أن الله يرضيه يوم القيامة ويصبح الإثنان من أهل الجنة .

القسم الرابع : حق الناس ، ولكن ليست له علاقة بنا ، كالفية مثلاً ، تلك التي نمارسها جميعاً ، وعندما يجتمع البعض ، يريقون ماء وجه الشخص غير الموجود بينهم . أنا لا أعلم هل هذا صحيح أم لا ؟ يقولون هنالك ذناب فتك ببعضها البعض ، ولكنها تعيش بصورة جماعية ، سبع أو ثمان ذناب

(١) سورة التوبة ، الآية : ٣٥ .

تجلس مع بعضها ويراقب كل منها الآخر ، طالما أنها تراقب بعضها لا يحدث أي شيء ، ولكن إذا سَرَخَ أحدها تشن بقية الذئاب هجوماً ، وتمزقه إرباً إرباً ، هنا نجد مصداق هذا الأمر فيما بيننا ، مثلاً أنتم المعلمون صفوة المجتمع إذا اجتمعتم في غرفة المعلمين - ولا سامح الله - بدأتم تتحدثون عن أحد الأصدقاء ولم يكن موجوداً بينكم بحيث ، إذا كان لأحد منكم عملاً يخشى أن يخرج من الغرفة ، هذه نفس صفة الذئاب ، وفي يوم القيامة نفس هؤلاء الأشخاص يقفون في طابور المحشر . حول هذا الموضوع توجد أكثر من خمسين آية في القرآن ، وقد تناولت روايات أهل البيت وعلماء علم الأخلاق والعارفون الموضوع بالبحث . تقول الرواية : « الغيبة إدام كلاب أهل النار ، أي أن الذي يمارس الغيبة يتحول إلى كلب يريد غداءً في داخل جهنم . نفس الغيبة التي مارسها في الدنيا تصبح غداءً له ، نفس الأوساخ والدماء تصبح غداءه .

نحن نصنع جهنم بأيدينا ، لذلك فإن قسماً من ذنوب القسم الرابع هي كالتالي : الغيبة ، القذف ، زنا المحصنة (بمعنى المرأة المتزوجة مع الرجل المتزوج - العياذ بالله - يرتكبان ذلك) .

هل يمكن التوبة ؟ بدون شك يجب أن يتوب وأن يخجل من ذنبه ، بمعنى أن يقول : ويل لي ، أنا الذي يجب أن أكون مرآة تعكس الإيمان الكامل ، أنا الذي يجب أن تكون سيئات المؤمن سيئاتي وبر المؤمن برِّي ، لماذا استغبت الناس ؟ الغيبة تغفر ، الزنا والقذف والنميمة تزول ، هل يمكن تعويضها ؟ كلا ، تعويضها أن تدعولمن اغتبت ، لذلك هناك رواية بأن عليك أن تقول : « اللهم اغفر لمن اغتبت وسمعت غيبته » إلهي اغفر لكلانا ، إلهي ، إنه إنسان شريف وأنا اغتبت ، إلهي اغفر لنا ، تصلي نافلة الليل وتدعوله . إخدمه ، احترمه في المجتمع وامنحه شخصية .

والشائع بين الناس أن تطلب منه براءة ذمتك ، ولكن هذا لا يجدي لأن هذا العمل يؤدي إلى بروز الخلافات .

إذن هذا القسم من حق الناس « الغيبة ، القذف ، النميمة ، وزنا المحصنة » وأمثال ذلك ، « التوبة » منه أن تخجل ، وتعويض ذلك بالدعاء

والخدمة ، أي ذنب يمكن أن يعوّض ، ويجب أن نعوّض ذنوبنا ، يجب أن نعلم أن الذنب الصغير يصبح أحياناً ذنباً كبيراً ، اللامبالاة إزاء الذنب أحياناً تجعل الإنسان فتاكاً ويحشر مع الحيوانات .

أمل أن أعود بالحديث عن تجسم الأعمال ، وأن يكون ذلك مجدياً لي ولكم . إلهي بعزتك وجلالك نقسم عليك ، أن تمنّ علينا جميعاً بالصفات الإنسانية والوعي والتوبة والإنابة وأن توفقنا لما فيه طاعتك وترك معصيتك .

« رَحَابَةُ الصِّدْرِ (١) »

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي وَاحْلِلْ عُقْدَةَ مِنْ لِسَانِي ، يَفْقَهُوا قَوْلِي ﴾ .

إحدى القوى التي تمكن الإنسان من النصر في حرب الداخل هي « رحابة الصدر » كان بحثنا السابق يتمحور في أن الإنسان لديه بعدان مادي ومعنوي ، البعد المادي يسمى الجسم ، والبعد المعنوي يسمى الروح ، وهذان البعدان في حرب مستمرة . هذه الحرب الداخلية سماها الإسلام « الجهاد الأكبر » ونحن إذا تمكنا من أن نتصر في هذه الحرب وأن يتغلب بعدنا المعنوي على جانبنا المادي سنكون مرفوعي الرأس ونستطيع الوصول إلى الهدف وسنكون بلا شك سعداء في الدنيا والآخرة .

وصلنا في بحثنا إلى ماذا يجب أن نعمل لكي نتصر في هذه المعركة الذاتية وهذا الجهاد الأكبر . قلنا : يجب أن نستعين بقوى من الخارج وإلا لن نستطيع أن نعمل شيئاً لوحدنا . واتضح لنا لماذا تتغلب نفس الإنسان على روحه وقلنا : إن القرآن الكريم قد عيّن قوًى لنجدة الإنسان .

أحد هذه القوى الصلاة . الآية تقول :

﴿ وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ ﴾ (١) .

(١) سورة البقرة ، الآية : ٤٥ .

ولقد تحدثنا بصورة مجملة عن الصلاة والاهتمام بتأدية الواجبات . القوة الثانية التي تنجد الإنسان في هذه المعركة الداخلية هي قوة الصبر . الصبر في العبادة والصبر في المعصية ، والصبر في مواجهة المشاكل وقد تحدثنا إجمالاً حول الصبر أيضاً . كما تعرفنا على التوبة من الذنب كأحد القوى وتحدثنا حول ذلك باختصار ومن سورة ﴿ ألم نشرح لك صدرك ﴾ نعرف على ثلاث قوى أخرى إذا لم تكن أقوى من القوى الثلاث المذكورة فهي في نفس مستواها من القوة .

يقال عن المسلمين في صدر الإسلام إنهم عندما كانوا يلتقون مع بعضهم البعض ، وبعد السلام وبدل أن يجاملوا بعضهم كانوا يقرأون سورة : ﴿ والعصر ﴾ مثلاً وأحد منهم كان يقول :

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ، والعصر إنَّ الإنسانَ لفي خسر ﴾ (١) ، والآخر يقول : ﴿ إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحاتِ وتواصوا بالحقِ وتواصوا بالصبر ﴾ (٢) .

هكذا كان سلوكهم الذي هذبهم ، وهكذا عاشوا في فترة خمسين عاماً تمكنوا خلالها من السيطرة على نصف العالم ، وأحدثوا تغييراً جذرياً في مسيرة تطور البشرية . إذا قمنا جميعاً وبالأخص طلبة العلوم الدينية المحترمين والمعلمين الأعزاء ، عندما نلتقي ببعضنا البعض وبعد السلام بقرءة سورة : ﴿ ألم نشرح ﴾ لبعضنا البعض ، سنحظوبجدية نحو الكمال ، مثلاً عندما نلتقي يقول واحد منا بعد التحية : ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ، ألم نشرح لك صدرك ، ووضعنا عنك وزرك ، الذي أنقض ظهرك ، ورفعنا لك ذكرك ﴾ (٣) ، وآخر يقول : ﴿ فإنَّ مع العسر يسراً ، إنَّ مع العسر يسراً ، فإذا فرغت فانصب ، وإلى ربك فارغب ﴾ (٤) .

إذا أصبحنا على هذا المنوال ستجده نحو الكمال ، وبالأخص أن هذه

(١) و(٢) سورة العصر .

(٣) و(٤) سورة الانشراح .

التلفيقات تصيح ملكة شيئاً فشيئاً ، وهذه الملكات تصنع الإنسان، الإنسان الشجاع القوي .

إن الله يَمَنّ على النبي الأكرم (ص) في سورة : ﴿ ألم نشرح ﴾ ويقول : أيها النبي ، ﴿ ألم نشرح لك صدرك ؟ ﴾ (بمعنى شرحنا لك صدرك) ﴿ ووضعنا عنك وزرك الذي أنقض ظهرك ﴾ (أي وضعنا عنك) ﴿ ألم نرفع لك ذكرك ﴾ (بمعنى رفعناه) . ثم يقول : ﴿ فإنّ مع العسر يسراً ، إنّ مع العسر يسراً ﴾ لا شك إذا استطاع المرء أن يتجاوز المشاكل ، سيكون لديه محصلة جيدة ، وسوف يصل إلى هدفه الإنساني ثم يقول : يا أيها النبي ﴿ فإذا فرغت فانصب ﴾ بمعنى إذا أردت الوصول إلى الهدف عليك أن تستقم وأن تستمر في نشاطك ﴿ وإلى ربك فارغب ﴾ يجب أن تبدأ أعمالك باسم الله وأن تواصل عملك بسم الله وأن تنجزه بسم الله ، بمعنى أن تكون جميع أعمالك ذات صبغة إلهية وأن تكون لله ﴿ صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة ﴾ إن سورة ﴿ ألم نشرح ﴾ تدخل ضمن بحثنا تماماً ويستشف منها بعض الأمور . كان بحثنا هو أن هنالك معركة مستمرة بين الروح والجسم ، تسمى الجهاد الأكبر وإذا أردنا السيطرة على النفس الأمارة يجب أن نكون أقوياء ، سورة ﴿ ألم نشرح ﴾ تقرب : إذا استطعت أن تتحدث ثمة أشياء في نفسك وأن تطلب من الله ، تستطيع أن تتغلب على عدو الداخل والخارج ، وتستطيع أن تسيطر على قلبك وأفكارك ، وليس تذكر الله في الصلاة منذ بدايتها حتى نهايتها ، بل ترى نفسك في محضر الله دائماً .

انشراح الصدر أحد هذه القوى ، انشراح الصدر ورحابة الصدر ضرورية للجميع بالأخص للمربي والمعلم .

انشراح الصدر يعني ببساطة أن يكون القلب كالبحر وأن يستطيع الإنسان أن يهضم المشاكل والمتاعب في ذاته ، كالبحر يهضم الماء الأسن ولا يتلوث من امتزاجه ، مع ذلك الماء ، ويقاوم الحيوانات الكاسرة ولا يأخذ من لون ورائحة تلك الحيوانات ، يقف شامخاً أمام الجزر والمد والعواصف ، ولا يبالي شيئاً . إذا أراد الإنسان أن يتغلب على النفس الأمارة وأن يستوعب المشاكل

يجب أن يكون قلبه كالبحر ، ليكون صامداً دوماً في مواجهة المياه الآسنة والصافية ، والحلوة بنموذج ثابت ، وأن لا تنجاذبه المسرات والمتاعب إلى هذه الجهة أو تلك . قلنا : إن هذا البحث ضروري جداً لنا نحن الطلبة وأنتم المعلمون الأعزاء ولكن من الواضح أن هذا البحث عام ، والجميع يحتاجون لانسراح الصدر ، إذا كان لدى ربة البيت رحابة الصدر ، وإذا استطاعت أن تستوعب مشاكل إدارة البيت ، وأن تستقم ، هذه المرأة ، تستطيع أن تكون ربة البيت المثالية كما تستطيع تربية الأولاد تربية صالحة ، والأهم من كل ذلك أنها تستطيع أن تصون نفسها من أنواع الأمراض الجسمية والروحية المختلفة . ولكن العكس ، إذا لم تتمكن ربة البيت من استيعاب المشاكل ، وكما يقول القرآن الكريم ليس لديها « شرح الصدر » فالمصيبة الأولى التي تُصيبها هي توتر الأعصاب ، وبالتالي لن تتمكن من القيام بمهامها كزوجة وفي القضايا الزوجية تلجأ إلى الشرثرة والتشنج وهذا السلوك يسبب الخلافات العائلية . والأعظم من ذلك ، أن الأطفال يصابون بعقد نفسية في بيت كهذا البيت الذي تهزّه الخلافات ، وتكون الأجواء جليدية وغير طبيعية يصبح الأطفال فيه معقدين ، هؤلاء الأطفال المعقّدون لا يمكنهم أن يُفيدوا مجتمعهم ، فيما ينتهجون الجريمة ويسببون الفضائح أو تموت قلوبهم ، ويصبحون منغزلين . الفتاة الميتة القلب لا يمكنها أن تكون ربة بيت مثالية ، زوجها غير راضٍ عنها وأطفالها يصبحون غير طبيعيين . القرآن يقول : ﴿ إِنَّ الْإِنْسَانَ خَلَقَ هَلُوعاً ﴾^(١) إذا لم يواظب الإنسان على سلوكه ، ولا يراعي القضايا الأخلاقية يصبح هلوعاً ، كحصاة صغيرة تتقاذفها ضربات سيقان الأطفال . ولكن إذا واظب الإنسان على سلوكه ، يصبح كالجبل لا تؤثر فيه متاعب الأيام كالطود الشامخ .

القرآن الكريم يفسر هلع الإنسان على هذا النحو : ﴿ إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعاً وَإِذَا مَسَّ الْخَيْرُ مَنُوعاً ﴾^(٢) عندما تحدث مشكلة للإنسان الهلوع ، يعلو صراخه . وحينما يصيبه الخير والفرح . يطغى وينسى نفسه . إن سبب عدم استجابة هوانه لا يملك انسراح الصدر ، ورحابة الصدر ، لأن الذي ليس قلبه

(١) سورة المعارج ، الآية : ١٩ .

(٢) سورة المعارج ، الآيتان : ٢٠ و ٢١ .

كالبحر ييلو كحوض صغير سرعان ما تموج به الأحداث ، إذا حدثت له مشكلة لا يستطيع أن يصبر ، ولأنه لا يستطيع الاستيعاب يلوث نفسه بأنواع الذنوب كالغيبة والقذف والنميمة والسباب ويفقد سيطرته على لسانه ، وتدرجياً يأخذ كلامه منحىً إلحادياً حيث ينتقد ويؤاخذ الله . من جهة أخرى ، إذا كان للإنسان الهلوع وضع مستتب ، بأن يكون لديه زوجة وأطفال ، وأن يعطيه الله بيتاً مرفهاً ، يقول القرآن الكريم : ﴿ وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنوعاً ﴾ هذا الشخص بما أنه لا يمتلك القدرة على الاستيعاب ، ينسى نفسه ، بحيث إذا وصل إلى منصب بسيط لن يرد السلام ويشغل منصبه لخدمة أغراضه الشخصية . إنها من مصائب المجتمع أن يصبح لدى الذين لا يمتلكون « رحابة الصدر » منصباً ، في هذه الحالة يؤذون الآخرين بأشكال مختلفة .

ولكن إذا كان الإنسان وقوراً وذا مقدرة على الاستيعاب يتقبل كافة المشاكل برزانة ، ويقوم بإيجاد الحلول المناسبة لها ، بحيث يصل إلى مرحلة يعتبر فيها كل خيراً أو شراً يصيبه من جانب الله ، ولا يرى آنذاك سوى الله ، إذا كان ذا علم ومنصب يعتبره من جانب الله ، ويعتبر نفسه غير ذي تأثير . رواية جيدة جداً ، وبالأخص لنا نحن الطلبة وأنتم المعلمون الأعزاء تقول : « العلم ثلاثة أشبارٍ من دخل في الشبر الأول تكبر ، ومن دخل في الشبر الثاني تواضع ، ومن دخل في الشبر الثالث ، يعلم أنه لا يعلم شيئاً » .

تقول : للعلم ثلاثة محطات ، الإنسان الهلوع يصبح متكبراً في المحطة الأولى بحيث أنه عندما يتعلم أربعة مصطلحات ، وبعد أن يحصل على شهادة دراسية يقف أمام والديه ، ويصفهم بالأمية ويعتبر نفسه عالماً وثقافاً . « ومن دخل في الشبر الثاني تواضع » ولكنه عندما يصل إلى المحطة الثانية فإن العلم يمنحه القدرة على الاستيعاب ، وحينها يفهم أنه إذا جمع كل علوم الدنيا وأصبح أنشتاين العصر ، فإن علمه أمام جهله لا يزال كقطرة أمام البحر . يقول نيوتن : من وراء عدسة الكاميرا أرى عوالم يصبح العلم أمامها كقطرة أمام البحر .

القرآن الكريم يعتبر كافة النجوم والكواكب والمنظومة الشمسية السماء الأولى ، الكواكب التي يستغرق وصول نورها إلينا مليوني سنة ضوئية لا يمكن

تسخيرها عبر السماء الأولى . فيخبرنا عن السماء السابعة ، ولكن ياترى أين تقع السماء الثانية والثالثة والرابعة والخامسة والسادسة ، لا نعلم ونأمل أن الذي لديه « علم ما كان وما يكون وما هو كائن » يأتي ليزيح الستار عن المجهولات . لدينا رواية تقول عندما يأتي بَقِيَّةُ الله - عَجَّلَ اللهُ تعالى فرجه الشريف - .

« يركب ويرقى الأسباب ، أسباب السماوات السبع والأرضين السبع » .

الأرضين السبع لا تزال مجهولة من الناحية العلمية ، والقرآن والروايات لم تدال بإيضاحات حولها . لذلك ماذا تعني الأرض الثانية أساساً ، لا نعلم ، إذن عندما يصبح الإنسان عالماً يقف على وجود المجهولات ، وهنا يصبح متواضعاً إلى مدى يقول فيه : سبعون عاماً كابدت فيها وتعلمت ، والان أصبح لدي واضحاً أنني لا أعلم شيئاً . يقولون : إن أحد العلماء في آخر لحظاته - حياته قال : « لقد علمت بالقدر الذي لا أعلم فيه أي شيء » .

أحد العلماء الكبار يقول : « أن يعلم الإنسان أنه لا يعلم شيئاً زعمٌ كبير » ، باختصار ، عندما يصل الإنسان إلى درجة أن يفهم أنه لا شيء إزاء تنظيم الخلق ، عندها يصل إلى المحطة الثانية للعلم ، ويشعر برحابة الصدر . القرآن الكريم يقول حول النبي موسى (ع) : ﴿ إِذْ هَبَّ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى ﴾^(١) . إن الله يأمر موسى الراعي الذي لا يملك سوى عصي أن اذهب إلى فرعون مصر ، فرعون الذي وصل به الأمر أن يدعي الألوهية .

موسى ، في هذه المهمة لا يطلب من الله جيشاً وقدرة بل يقول : ﴿ قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي ﴾ . يتضح لنا أن رحابة الصدر أهم من أي جيش مدجج بالسلاح ، حقاً إنها أهم .

ثم يقول : ﴿ وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي ﴾^(٢) بمعنى إلهي ، إذا كانت لدي رحابة الصدر ، ستيسر لي كافة الأمور . حقاً إذا استطاع الإنسان أن يستوعب المشاكل ، وكما يقول القرآن ستيسر له كافة الأمور .

(١) سورة طه ، الآية : ٢٤ .

(٢) سورة طه ، الآية : ٢٥ .

(٣) سورة طه ، الآية : ٢٦ .

ثم يطلب موسى من الله : ﴿ واحلّل عقدةً منّ لساني يفقهوا قولي ﴾ (١)
 أي : يا إلهي ، امنحني رحابة الصدر لأنه إذا كانت لدي رحابة الصدر ، فلن
 أخشى العدو وبمكنتني أن أبلغ رسالتك إلى العالمين . إلهي ، إذا كانت لدي
 رحابة الصدر ، فلن أعاني من القلق وتوتر الأعصاب وعدم القدرة على مواجهة
 بقايا الجاهلية . علماء النفس يقولون : إن الذي لديه رحابة الصدر ، يمتلك
 إرادة قوية ويستطيع أن يُدلي بأقواله أمام الجميع وكلمته تكون مسموعة . إن
 رعاية هذه النقاط مفيد جداً لنا نحن الطلبة لكم وأنتم المعلمون الأعزاء . لأن
 أداة عملنا هي أن نتكلم جيداً وأن لا نجعل . عندما يكون الإنسان ضعيفاً ويتابه
 الغضب ، لا يستطيع أن يتكلم ، هذا التوتر العصبي الذي نعاني منه جميعنا
 ناجم عن عدم استيعابنا للمشاكل . « المُعلّم » إذا كانت لديه رحابة الصدر ،
 لا يغضب في الصف وعندما لا يغضب ، لا يمرضُ ، من أهم النتائج التي
 يحصلُ عليها من رحابة الصدر هو أن يَرُدَّ الأمانات التي ائتمن عليها ،
 والموضوع الذي لا يعلم عنه شيئاً ، يقول لا أعلم . أستاذنا الجليل حضرة آية
 الله العظمى البروجردي - رحمة الله عليه - ينقل عن أستاذه المرحوم محمد باقر
 درجة أي الذي كان من المراجع الكبار في أصفهان ، ويقول : عندما كان يسأل
 عن مسألة ما ، إذا كان يعلم كان يجيب بهدوء ، وإذا لم يكن يعلم ، كان يقول
 بكل صراحة : لا أعلم ، وهذه من علامات انشراح الصدر .

نحن الطلبة إذا لم يكن لدينا رحابة الصدر ، عندما نُسأل عن مسألة ما
 لا نعرفها ، لسنا مستعدين أن نقول لا أعرف ، نقول المسألة غير متفق عليها ،
 وإن وجهات نظر الفقهاء تختلف . المعلم إذا لم تكن لديه رحابة صدر يصاب
 بضعف الأعصاب ، ولا يستطيع أن يصون الأمانة بجدارة ، كلما سُئل عن
 موضوع في الصف ، وهو لا يعلم ، يظن أنه إذا قال لا أعلم ، ستثقل مكانته ،
 لذلك يقوم بتلفيق الجواب ، ويطره أمام الطالب . وامصيتهاه ! وامصيتهاه إذا
 كان هذا الجواب الملقق حول الدين وأن يحدث انحراف فكري . عند
 الطالب ، إن الذنب يقع على عاتق المعلم .

(١) سورة طه ، الآية : ٢٧ .

إذا كان لدى الإنسان رحابة صدر لا يضعف أمام المشاكل ، ولا يضيّع نفسه في الخيرات والمسرات ، وتيسر كافة أعماله وتقوى إرادته لا يصاب بلكنة ويتفوه بالكلام بصورة جيدة ، والأعظم من ذلك أن كلمته تكون مسموعة ويحكم على القلوب .

ادرسوا تاريخ النبي الأكرم (ص) ، عندما بُعث ليدعو الناس إلى دين الحق صلى ومعه علي (ع) وخديجة الكبرى - عليها السلام - صلتى الثلاثة في بيت الكعبة ، كان بيت الكعبة مزدحماً بالناس ، البعض جالسون والبعض يطوفون ، أحدهم يرقص والآخر يلعب ، والنبي (ص) كان يصلي باتزان تام ، اجتمع العرب حولهم ، وكانوا ينظرون إليهم ويقولون : ماذا يصنع هؤلاء ؟ طبعاً هؤلاء الثلاثة لم يكونوا أناساً عاديين حول علي (ع) يقول أهل الفكر : إن إحدى صفاته كانت أنه لم يكن يخشى في الله لومة لائم .

لقد صلّوا فترةً ، وفجأة شاهد المشركون أن موجاً سرى بين الناس ، وازداد عدد المسلمين . ومن أجل منع المسلمين من التقدم لجأوا إلى التخويف وضربوا المسلمين وأهانوهم .

حول أم عمار ، زوجة ياسر يقولون : إنها كانت قد أسلمت توأ وهي أول شهيدة في الإسلام ، أسك بها الكفار وضربوها بالسياط ، وجمعوا الناس ، وقاموا بالتشهير بها لكي تعود عن الإسلام ، وقد تمادوا في تعذيبها ، ولكنهم أخفقوا في فك عضدها إلى أن قرروا أن يأتوا بجملين وربطوا ساقى أم عمار بالجملين وساروا بالجملين في جهتين مخالفتين وشطروا تلك السيدة إلى نصفين . كانوا يظنون أنهم يستطيعون بواسطة هذه الأساليب الحزول دون اتساع رقعة الإسلام .

جمعوا الأراذل والأوباش وأمروهم برمي الحجارة على النبي (ص) عند خروجه من البيت صباحاً ، كانت لديهم أوامر برمي الحجارة على ساق الرسول (ص) حيث ، تبعث على الألم أكثر وتؤدي إلى الموت أيضاً .

أحياناً عندما كان النبي (ص) يعود إلى البيت كانت خديجة تقيه الحجارة بيدنها ، وكانت الحجارة تنهمر كالمطر على كتفها وبدنها ، وفي صباح اليوم

التالي كان النبي (ص) يستعد للدعوة وخديجة تستعد لقبول الحجارة . كانوا يظنون أنهم يستطيعون بواسطة هذه الأساليب الحؤول دون اتساع رقعة الإسلام . جمعوا الأراذل والأوباش وأمروهم برمي الحجارة على النبي (ص) عند خروجه من البيت صباحاً ، كانت لديهم أوامر برمي الحجارة على ساق الرسول (ص) حيث ، تبعث على الألم أكثر وتؤدي إلى الموت أيضاً .

أحياناً كانت الأخبار تصل إلى خديجة بأن النبي (ص) أصيب من جراء رميه بالحجارة ، وذهب بجسمه المدمى إلى جبل حراء . خديجة ، هذه الزوجة السوفية ، كانت تهض وتحمل قدراً من الماء والغذاء ، وتأتي مع أمير المؤمنين (ع) إلى الجبل ، وبعد أن يبحتا عن النبي (ص) بين الصخور ، كانا يجدان النبي (ص) عند صخرة كبيرة يتاجي ربه ، كانا يشاهدان النبي (ص) يقول : « اللهم اهْدِ قومي فإنهم لا يعلمون » يعني يا إلهي ، إذا هم ضربوني ، فإنهم لا يعلمون ، اللهم اهْدِ قومي ، وإذا كنت تريد أن تمن عليّ وأن تفرح قلبي ، اهْدِ قومي فإنهم لا يعلمون . هذا معنى رحابة الصدر . نحن كلنا بالأخص الطلبة والمعلمون والمربون يجب أن نتعلم من النبي الأكرم (ص) يقول الراوي : شاهدت النبي الأكرم (ص) عندما كان يُرمى بالحجارة وشاهدته أيضاً عندما جاء إلى مكة مع اثني عشر ألف مقاتل ، فلم أجد أدنى اختلاف في الموقفين ، هذا هو معنى « رحابة الصدر » في بداية البعثة النبوية ، واجه كل تلك المشاكل التي تقول عنها الآية الكريمة :

﴿ ووضعتنا عنك وزرك الذي أنقض ظهرك ﴾^(١) في المدينة شارك النبي الأكرم (ص) في أربعة وسبعين معركة ، وكل معركة كانت ذات مشاكل كثيرة . أما من ناحية سورة : ﴿ ألم نشرح ﴾ فإن المشاكل التي واجهها النبي قبل الهجرة كانت أكثر بكثير ، وتصف هذه السورة أيام ما بعد الهجرة بأنها أيام راحة للنبي (ص) . يقول الراوي : عندما جاء النبي الأكرم (ص) مع اثني عشر ألف مقاتل إلى مكة كان في وضع خاص فعندما كان يتوضأ كان المسلمون يتزاحمون

(١) سورة الانشراح ، الآية : ٣ .

للتبرك بالماء المتساقط من وضوء النبي الأكرم (ص) وكان أبو سفيان يقف فاغر
الغم من مشاهدة هذا الوضع .

هذه المكانة الاجتماعية للنبي (ص) في فتح مكة ، وتلك المعاناة في
بداية البعثة لم تؤثر في النبي (ص) إطلاقاً . هذا هو معنى رحابة الصدر ، وهذا
هو مفهوم أن يكون قلب الإنسان كالبحر لا يهلج أمام « الشر » ولا يتمرد أمام
« الخير » بل يقف في مواجهة المشاكل ، ويستوعبها كالبحر ، وهو مشكور أمام
« الخيرات » الإنسان « الهلوع » هو الذي ﴿ إذا مسَّ الشرُّ جزوعاً وإذا مسَّهُ
الخيرُ منوعاً ﴾^(١) الإنسان « الهلوع » يفزع ويصرخ لدى مواجهته المشاكل
ويتحدث بلغة نابية ويشير المتاعب مع زوجته ، وإذا وجد نفسه في بحبوحة ،
ينسى نفسه . كل هذه الأمور تنجم عند فقدان الشخص لرحابة الصدر .

يقول الراوي : كانت إحدى زوجات النبي (ص) قد طبخت أكلةً وكان
بودها أن يأكل النبي (ص) منها ، لأن النبي (ص) كان في بيت عائشة ، فحملت
صحناً من تلك الأكلة وجاءت به إلى بيت عائشة . كان الصحن أمام
النبي (ص) ، وكان النبي (ص) يرغب في تناول هذه الأكلة ، وفجأة غضبت
عائشة ، وقالت : لماذا أتت « ضرتي » بهذه الأكلة . ووجهت ضربة بساقها
للصحن فوق الصحن خارج الغرفة وانسكب الغذاء على الأرض وكبر الصحن
أيضاً ، نرى رحابة الصدر عند النبي (ص) ، نظر النبي (ص) إلى عائشة وقال :
« يا عائشة ، لماذا فعلت ذلك ؟ كان صحناً من الشوربا تأكله سويةً ، والآن وقد
كسرت صحن الناس ، لقد اقترفت حراماً ، وأنت ضامنة بأن تعيدي الصحن إلى
صاحبه ، لقد أسرفت واقترفت حراماً ، ورفضت هدية الناس وهذا ما لا يليق
بالإنسان ، والآن أرجو أن لا تفعل ذلك مرةً أخرى » . هذا يسمونه رحابة
الصدر ، على الزوج والزوجة أن يكونا هكذا يجب على المعلم أن يكون
هكذا ، وكل شخص عليه أن يتعامل هكذا مع الناس . إذا لم تكن هكذا ،
فنحن « هلوعين » من وجهة نظر القرآن . وبعبارة أخرى ليس لدينا رحابة
الصدر . تعالوا لإيجاد هذه النعمة الكبيرة في أنفسنا . طبعاً إيجادها أمر صعب

(١) سورة المعارج ، الآية : ٢٠ .

لأنه لا توجد نعمة تفوق هذه النعمة ، ولكن بالترويض نستطيع إيجادها . في سورة ﴿ ألم نشرح ﴾ ، الله لا يقول أيها النبي إنا أعطيناك علم ﴿ وما كان وما يكون وما هو كائن ﴾ ولكن يقول : لقد أعطيناك « رحابة الصدر » ﴿ ألم نشرح لك صدرك ﴾ وكان أكبر نعمة للنبي كانت رحابة الصدر .

ثم يقول : يا أيها النبي ، لقد رفعنا عنك وزرك في مكة ﴿ ورفعنا لك ذكرك ﴾ ووصلت إلى ما كنت تصبو إليه ، كل هذه كانت لأنك كنت تملك رحابة الصدر . ﴿ فإن مع العسر يسراً ، إن مع العسر يسراً ﴾ .

وبما أنك تخطيت مشاكل مكة ، أعلم أنك ستتراح في المدينة ، وسوف تسيطر على الحجاز كله . لقد جربت رحابة الصدر لدى أستاذي الجليل قائد الثورة العظيم مراراً ، وإذا لم تكن رحابة صدره ، لم تكن هنالك ثورة .

لن أنسى ، في قضية المدرسة الفيضية ، ساد (قم) رعبٌ عجيب لعل الكثيرين يتذكرون أنه من أجل تخويف طلبة العلوم الدينية ولكي يتراجعوا عن مواقفهم ومن أجل توجيه ضربة قاضية لقائد الثورة العظيم صدرت الأوامر بضرب (قم) لذلك قاموا بارتكاب أعمال القمع في المدرسة الفيضية ، وقذفوا بالطلبة من الطابق الثاني للبنية إلى بهو المدرسة والنهر المجاور .

في اليوم التالي ، تجول رجال السافاك في الشوارع ، وقاموا بتشكيل تجمعات باسم الناس وسبوا الروحانيين (رجال الدين) . مع هذا الرعب العجيب ، ذهب إلى قائد الثورة العظيم ، كان الوضع عادياً والابتسامة لا تفارق محياه كان شيئاً لم يحدث . عندما كنا نهم بالخروج من المنزل مع أحد علماء أصفهان ، قال ذلك العالم : كأن الإمام لا يدري ماذا يجري خارج البيت . في حين أن قائد الثورة العظيم كان قد اتخذ قراره ، قال قبل هذه الحادثة : يجب أن يذهب الشاه . غداً وبعد غد أيضاً ، كان يقول : يجب أن يذهب الشاه . في المنفى وبعد المنفى أيضاً ، كان يقول : يجب أن يذهب الشاه إلى أن ذهب الشاه . بعد انتصار الثورة جاء الصحفي المصري هيكمل وعند الإمام أجرى مقابلة صحفية .

أحد الأسئلة كان يتعلق بعبارات التجاوز التي تفوّه بها أنور السادات ضد الإمام ، أما الإمام وكأنه لم يسمع ذلك السؤال أخذ الحديث إلى مكان آخر وقال : إن الإسلام الذي يريد أن يطبقه أنور السادات ، هو الإسلام الأمريكي . وإن مصر إذا كانت تريد السعادة يجب أن يطبق فيها الإسلام الحقيقي . أنا في تلك اللحظة تذكرت حديث الإمام علي (ع) حين قال : « أمر على الكلب يسبني » يا سيدة ، لماذا تغضبين في المنزل وتسيبن طفلك ؟ هل أنتِ هلوعة ؟ وبأيتها المعلم ، لماذا تتنابك العصبية في الصف وتفوه بكلمات نابية ؟ الإنسان الهلوع يفوه بكلمات نابية . النبي (ص) قال : « يا عائشة لماذا تسيبن ؟ قالت : يا رسول الله ، رأيتهم يستهزؤون بك ، قال : لقد أجبتهم ، إذا قالوا خيراً قلت : عليكم ، وإن قالوا شراً ، قلت : عليكم .

ثم قال : يا عائشة ، ألا تعلمين أن السباب يتجسم ؟ إن السباب يتجسم بصورة قبيحة ، وهو جليساك في القبر والبرزخ والقيامة ويجلب لك الفضيحة في القيامة ، السباب بأي شكل كان ولاياً كان ، يتجسم بصورة كلب بل أقطع من الكلب ويحشر مع الساب .

المرحوم ملا صدر -رحمة الله عليه- يقول في الأسفار : السباب يتحول إلى شكل يكون القرد في مقابله جميلاً جداً ، القرآن الكريم يقول :

﴿ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمَلَتْ مِنْ خَيْرٍ مَحْضَرًا ، وَمَا عَمَلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا ﴾ (١) ، يقول : يا إنسان ، إنني أتوعدك ، أن تخاف لأن أي عمل خير تقوم به في هذه الدنيا سيحشر معك في القيامة على شكل رقيق في القبر والبرزخ والقيامة . كما أن كل عمل سيء اقترفته سيتحول إلى قرد ونمر وأفعى وعقرب ويحشر معك في القبر والبرزخ والقيامة .

في القيامة عندما يتحول السباب إلى كلاب تحيط بالذي تفوهه بالسباب ، والأسوء من ذلك أن يتحول هو أيضاً إلى كلب ، الآية تقول : ماذا تفعل إزاء الفضيحة حينذاك ؟ ولذلك نقول : يا إلهي ، باليتني بعيداً عن هذه الكلاب ورفاق السوء ، وهذه الأعمال القبيحة ، إلهي بعزتك وجلالك تقسم عليك أن

(١) سورة آل عمران ، الآية : ٣٠ .

تمنّ علينا بالسوعي وحسن الصفات أي « رحابة الصدر » والتوفيق لعبادتك
وعبوديتك . وترك معصيتك واعطنا الصفات الإنسانية وصلّ الله على محمد
وآل محمد .

« رحابة الصدر (٢) »

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ ربّ اشرح لي صدري ويسّر لي أمري واحلل عقدة من لساني ، يفقهوا قولي ﴾ .

كان بحثنا حول جهاد النفس الأمارّة ، وكما بيّنا سابقاً فإن الانتصار في هذه المعركة يستلزم قوياً من الخارج وقد تحدثنا مستفيدين من القرآن الكريم عن بعض هذه القوى وبيّنا كلاً منها بإسهاب .

كانت القوة الرابعة هي رحابة الصدر ، بمعنى من أجل أن يتغلب الإنسان على المشاكل يجب أن يكون قلبه رحباً كالبحر ، وأن يستوعب المشاكل من أجل حلها . وقد اهتم القرآن الكريم بالغ الاهتمام برحابة الصدر ، حتى اعتبر قبول الإسلام مرتيناً برحابة الصدر حيث يقول : ﴿ أفمن شرّ الله صدره للإسلام فهو على نورٍ من ربه فويلٌ للقاسية قلوبهم من ذكرِ الله ﴾ (١) .

إن هذه الآية تدل بوضوح على أن الذي يمتلك رحابة الصدر يضيفي الله على قلبه نوراً وتصبح يد العناية الإلهية على رأسه ليتمكن من الفوز في هذه المعركة الداخلية ، ولكن إذا لم يتمكن من استيعاب المشاكل وأن يفقد توازنه أمام إحدى الرغبات . القرآن يقول : ويلٌ له ، ويلٌ للذي ليس قلبه كالبحر ، ويل لمن ليس لديه رحابة صدر ، لأن الذنوب المتكدسة أخذت منه رحابة

(١) سورة الزمر ، الآية : ٢٢ .

الصدر . وفي آية أخرى يقول :

﴿ فَمَنْ يَرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ ، وَمَنْ يَرِدِ اللَّهُ أَنْ يَضُدَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيْقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصْعَدُ فِي السَّمَاءِ كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ (١) .

يقول : إن يد العناية الإلهية على من لديه رحابة الصدر ، ولكن إذا لم تكن يد العناية الإلهية أي رحابة الصدر ، فهو إنسان ضيق النظر لا يستطيع أن يواجه المشاكل ، وفي هذه الحالة يكون موقفه كمن يريد أن يصعد في السماء. يصبح صدره ضيقاً ﴿ حتى إذا ضاقت عليهم الأرض بما رحبت ﴾ (٢) فإن الدين مع رحابتها تضيق عليه ، أحياناً تصيب الإنسان مصيبة يشعر فيها المرء أن أنفاسه تنقطع ، مثلاً إذا أردتم صعود الجبل ، ولم تكونوا مدربين ، عندما تصعدون إلى قمة الجبل تشعرون بضيق النفس ، القرآن الكريم يضرب مثلاً لرحابة الصدر ، ويشبهها بهذا الأمر المحسوس ويقول : من لا يمتلك رحابة الصدر عليه اللعنة . اللعنة على من ليس لديه رحابة الصدر .

هنالك سؤال يطرح نفسه : ماذا نفعل لكي تكون الدنيا رحابة صدر؟ يجب أن نقول : إن بحث تهذيب النفس ، يشبه شحن بطارية السيارة لأز الأعمال الحسنة تنبع من الإيمان ، والقلب الطاهر والصفات الرذيلة تؤدي إلى أعمال رذيلة ، الشخص البخيل ، حسود ومحب للجاه ومتكبر ، هذه الأعمال الرذيلة تصبح مصدراً للأعمال الرذيلة ، وكما يقول القرآن الكريم : ﴿ قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ ﴾ (٣) والإناء ينضح بما فيه . المرأة الحسود تنبع تصرفاتها وأعمالها من الحسد عادةً ، ونفس أعمالها القبيحة تقوي جسدها وترويه ، وإذا لم تلتفت ذلك ، ستتجذر هذه الصفة إلى مرحلة يصعب فيها اجتثاث جذورها .

الإنسان المحب للجاه أيضاً هكذا ، كلامه ، تصرفاته ، وحتى نياته تنبع من حب الجاه ، وهذا الكلام ، وهذه التصرفات ، والنيات - أيضاً - لها تأثير

(١) سورة الأنعام ، الآية : ١٢٥ .

(٢) سورة التوبة ، الآية : ١١٨ .

(٣) سورة الإسراء ، الآية : ٨٤ .

على حب الجاه ، ويقوّي هذه الاتجاه . إن كلامنا وتصرفاتنا تنبع من الإيمان ، كل من كان إيمانه قوياً ، يكون كلامه أفضل وتصرفاته أحسن ونياته أطيب ولكن نفس كلامنا وتصرفاتنا تؤثر على إيماننا ، لذلك فإن الإيمان يصنع العمل ، والعمل أيضاً يصنع الإيمان .

جميع الصفات الرذيلة ، وكل الصفات الحسنة ، ومن بينها الإيمان تشبه بطارية السيارة ، مثلما تعطي الكهرباء تأخذها أيضاً ، الإيمان أيضاً في الوقت يمنح العمل ، نفس العمل أيضاً يؤثر على الإيمان ، وهذه قاعدة عامة .

رحابة الصدر أيضاً هكذا ، فالذي يكافح المشاكل ، ويقاوم الذنوب ، عندما تحدث لديه رغبة جنسية يضرها عرض الحائط ، ويتجاوز صفة الأنانية ، كل هذه الأمور تنبع من رحابة الصدر ، وهذه الأعمال التي يقوم بها تجلب له رحابة الصدر أيضاً ، في الوقت الذي تنبع فيه الأعمال من رحابة الصدر ، نفس العمل يضاعف من رحابة الصدر ويُرسّخها ويجعلها ملكة في الذات الإنسانية .

وعلى العكس ، فعندما يواجه ذنباً يفقد توازنه ، يرتكب الذنب ، وعندما تحدث مشكلة يتابه الغضب ، ويمتنع من القيام بالعمل الأهم ، عندما يسمع في الصف كلاماً نابياً لا يتمكن من استيعابه يفقد ما كان لديه من رحابة . مختصرة ويصبح إنساناً ضيق الصدر لا يستطيع أن يواجه طفلاً صغيراً ، بمعنى أن ضيق نظره ، أثر على عمله ، وعمله أثر على ضيق صدره . لذلك تقول الآية الكريمة : ﴿ أفمن شرّ الله صدره للإسلام فهو على نورٍ من ربه ﴾^(١) إذا كنت تريد رحابة الصدر ، إذا أردت أن يسطع نور الله على قلبك ، إذا أردت أن تصبح رحابة صدرك ملكة ، لكي يكون قلبك كالبحر وتستطيع مجابهة كافة المشاكل بواسطة نور الله ، عليك أن تلجأ إلى رحابة الصدر : ﴿ فويل للقاسية قلوبهم من ذكر الله ﴾^(٢) إذا لم يكن لديك رحابة صدر فويل لك ، لأن عدم امتلاك رحابة الصدر تجلب لك الذنوب تلو الذنوب ، وحين تأتي الذنوب يسود

(١) سورة الزمر ، الآية : ٢٢ .

(٢) سورة الزمر ، الآية : ٢٢ .

القلب ويفقد انشراحه ، فويلٌ لهذا القلب . الآية الثانية تتحدث عن ذلك أيضاً .

إذن ، إذا أردتم إيجاد صفات جيدة في أنفسكم ينبغي أن تعملوا حسب الصفات الجيدة الحميدة في الوقت الذي تستنهض صفاتكم الجيدة الأعمال الجيدة ، الأعمال الصالحة أيضاً تُوجد الصفات الحسنة ، وعلى العكس إذا أردتم تفادي الصفات الرذيلة ، اقطعوا الفروع والأوراق ولا تقوموا بأعمال سيئة ، فإذا كانت لديكم أعمال سيئة ، وأقوال نابية فجأة تصلون إلى مرحلة ترتكبون فيها الذنوب بصورة لا إرادية وأحياناً تعتبرون أنفسكم أناساً طيبين وتقبلون الذنوب ، كأن يقوم الشخص بارتكاب الذنب ثم يقول : قمت بعمل صالح ، لقد أحسنتُ عملاً بارتكابي ذلك الذنب . إن سورة : ﴿ ألم نشرح ﴾ ﴿ بناءً لنا جميعاً بالأخص للمربي والمعلم . هذه السورة تتحدث أولاً عن رحابة الصدر ، وتقول : ينبغي أن يكون المربي رحب الصدر ، كل الناس ينبغي أن يكونوا منشرحي الصدر ، ولكن الشرط الرئيسي لعمل المربي والمعلم هو رحابة الصدر ، يقول : ﴿ فإن مع العسر يسراً إن مع العسر يسراً ﴾ .

وأن يعلم إذا كانت لديه رحابة صدر تيسر كافة المشاكل ، ويؤكد القرآن على ذلك ثم يقول : ﴿ فإذا فرغت فانصب ﴾ الصفة الثانية التي يجب أن يمتلكها كل مربي الاستمرار والاستقامة في العمل .

إن الاستماع إلى بحث تهذيب النفس ، قد يكون سهلاً ولكن التطبيق صعب للغاية . وتنقسم العلوم إلى عدة أقسام ، بعض العلوم تعلمها صعب ، ولكن تطبيقها ليس صعب جداً ، إذا كان المرء فيلسوفاً فإن جلب البرهان أمرٌ سهل بالنسبة له أو حل مسألة ما وتطبيقها أمرٌ هين لمعلم الرياضيات ، ولكن بعض العلوم كعلم الأخلاق ، وتهذيب النفس فالحديث عنها ليس صعباً كالرياضيات والفلسفة ، بل إنها فطرية من وجهة نظر القرآن الكريم : ﴿ ونفس وما سواها ، فآلهمها فجورها وتقواها ﴾^(١) لأنّ قسماً بالإنسان ونفسه

(١) سورة الشمس ، الأيتان : ٧ و ٨ .

الملكوية ، وبعده الإنساني قسماً بهذا البعد يدرك الصفات السيئة والجيدة بالفطرة .

جميعنا نحن الجالسون هنا نعلمُ أن التكبر عملٌ سيء ، وإذا فكرنا بعض الشيء نستطيع أن ندرك سلبياته ، وأن نتحدث للآخرين عنها ، لذلك فإن الحوار والبحث عن تهذيب النفس ليس عملاً شاقاً ، العمل الشاق هو التنفيذ ، إذا استطاع الإنسان المتكبر والأناي أن يقتلع جذور التكبر والأناية من نفسه فلا يدرك ذلك إلا بالمشقة ، لذلك يذكر أستاذنا الجليل قائد الثورة العظيم -رحمة الله عليه- عن أستاذه المرحوم الحاج الشيخ الحائري - عليه الرحمة - مؤسس الحوزة العلمية في قم أن المشهور بين الناس « ما أسهل أن يصبح الإنسان طالب علم » ، ولكن أن يصبح إنساناً أمر صعب الإمام كان يقول كلا هذا خطأ ، بل يجب القول : « ما أصعب أن يصبح الإنسان طالب علم . وأن يصبح المرء إنساناً أمرٌ محال والحق أنه هكذا ، إذا أراد المرء أن يبعد صفة رذيلة ينبغي أن يكابد لسنين طويلة وأن يستقيم لسنين عديدة ، ليتمكن من اجتثاث جذور الصفة الرذيلة ويستبدلها بصفة حسنة . فالالتزام بهذه الأمور صعب ، وعلى هذا الأساس يكرر القرآن ، فلماذا يكرر القرآن إلى هذا الحد ؟ إن الكثير من آيات القرآن مكررة وقد اختلفت وجهات نظر المفسرين حول هذه الظاهرة ، وكيفية تفسيرها . العلامة الطباطبائي -رحمة الله عليه- في الميزان ، وفخر الرازي في تفسيره ، والمرحوم الطبرسي في مجمع البيان (هذا التفسير فخر الشيعة وهو تفسير رائع) والمرحوم فيض - عليه الرحمة - في الصافي والآخرون تحدثوا حول هذه الظاهرة وحديثهم مقبول جداً ، ولكن حول هذا الموضوع هنالك جملة لقائد الثورة العظيم - آدم الله طله - أروع وأجمل من باقي الأقوال ، حيث يقول : إن التكرار في القرآن له تأثيرٌ بدليل أن تهذيب النفس يحتاج إلى التكرار والقرآن كتاب تهذيب النفس ، فإذا قال القرآن مرة : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ﴾^(١) بمعنى أن الذين يحبون أن تشيع الفاحشة ، ولو أنهم لن يرتكبوا

(١) سورة النور ، الآية : ١٩ .

ذلك ، ولكن مجرد أنهم يحبون أن يدنسوا شخصية أحدٍ ما ، أولئك الذين يستغيبون الآخرين ، أولئك الذين يريدون أن يكون الطرب والموسيقى والغناء في الإذاعة والتلفزيون ، لهم عذابان ، عذابٌ في الدنيا وآخر في الآخرة ، إذا كانت الآية قد بينت هذا الأمر مرةً واحدة ، لما كان ذا تأثير ، إن ذلك سيكون ذا تأثير عندما يتكرر بيان المفهوم في أماكن أخرى . وهذا الأمر يشبه التلقين . من الطبيعي أن التلقين مؤثر جداً . إذا أمسك المرء بسبحةٍ ويقول كل صباح : « أنا مسلم ، أنا مسلم » ، فإن لذلك تأثيراً كبيراً . تسبيح الزهراء - سلام الله عليها ما جدواه ؟ (٣٤) مرة الله أكبر ، (٣٣) مرة الحمد لله ، (٣٣) مرة سبحان الله . إن الإمام الصادق (ع) يقول تسبيح جدي أفضل من ألف ركعة صلاة لماذا يقولون لنا عليكم بالذكر ، وقولوا دائماً : « لا إله إلا الله » قولوا : يا الله ، لماذا يقولون توسلوا بالدعاء ، إذا يستم من الدعاء فإن هذا اليأس في مستوى الكفر ، إن عليك أن تدعو ربك سواء استجاب لك أم لا يستجيب لماذا ؟ السبب هو ما قاله قائد الثورة العظيم حيث كان يقول لماذا تكرر آية : ﴿ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ في سورة الرحمن ؟ لماذا يتكرر قول : ﴿ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ في أكثر من عشرين مكاناً ، كلها لأن بحث تهذيب النفس يحتاج إلى التكرار والتلقين ، في بحث تهذيب النفس نحتاج إلى التكرار نلو التكرار ، والاستماع نلو الاستماع إلى أن نصل إلى ما نبتغيه ، إذا لم يكن هنالك استمرار واستقامة لن نصل إلى ما نبتغي ، لذلك يقول علماء النفس : إن النفس الأمانة التي تمثل البعد البهيمي هي ، كالفيل والإنسان الذي يمتطي الفيل يجب أن يضرب على قفاه ، وإذا غفل لحظة عن ضربه ، فإنه سيؤدي بحياته ، كما يؤدي بحياة صاحبه .

نقرأ في التاريخ حول معركة أحد أن النصر في البداية كان من نصيب المسلمين ، ولكن المسلمين هزموا في نهاية الأمر وتكبدوا خسائر فادحة ، حيث قتل سبعون من المسلمين في المعارك التالية . يقولون : كان النبي (ص) جالساً عند منحدر الجبل ، وكان الصحابة جالسين حوله . فسألوه : يا رسول الله ، لماذا انتصرنا في البداية وهزمنا فيما بعد ؟ قال : لأنكم نسيتم الله لحظة واحدة . إذا نسي المرء ربه لحظة واحدة ينسى صراعه مع نفسه ، وينجرف نحو

الهاوية . قد تضع غلة حبه في فمها ، ثم تصعد إلى الأعلى ، وقد تصعد بالحبة إلى الأعلى خلال فترة تستمر من الصباح حتى المساء ، ولكن لحظة واحدة من الإهمال تعود بها إلى مكانها الأول وتسقط .

إننا بحاجة للاستقامة في كافة الأمور ، هذه الآية التي تقول : ﴿ فإذا فرغت فانصب ﴾ يعني : فإذا فرغت فاتبعت نفسك في الله تبارك وتعالى . إذا استطعت أن تنصرف ذات يوم في هذه المعركة لا تظن أن النصر حليفك دائماً ، استمر وانتبه إنك في الجبهة دائماً ، وما دام الإنسان في هذه الدنيا لا يمكنه الخروج من الجبهة .

النفوس تسين متى تموت إنها ذُ بكت من الشيخوخة إذا أصبح شاباً ، تحيي فيه الكثير من الصفات الرذيلة ، ويصبح شيخاً ولا تزول عنه باقي صفاته الرذيلة ، إلى أن يصل إلى مرحلة يصبح فيها مثل « راسل » والأمثلة كثيرة .

نحن لا نعتبر راسل الفيلسوف البريطاني المعروف والذي يُوليه العالم اهتماماً كبيراً ، لا نعتبره فيلسوفاً بل إنه لا يعرف ألف باء الفلسفة . هذا الشخص عالم ، وقد تعب كثيراً طوال سبعين عاماً في سبيل العلم ولكن هذا الشخص المخضرم ليس بحاجة إلى المرأة في هذه السن بل إن المرأة داء ومصيبة له ، يقدم نظرية حيث يوردها في كتابه ويقول : إن تشكيل الأسرة خطأ ، يقول : ما المانع في تداول المرأة بين الرجال كل يوم تكون لواحد ، إن بيان هذه النظرية فخري ، لماذا يقول وينشر أحد فلاسفة العالم كلاماً فخرياً ؟ يقول : ما المانع أن يقرض الشخص زوجته لرفيقه ، وأن يتبادلا الزوجات ؟ كل هذه الأمور تصدر لأنه لم يهذب نفسه ، وعندما لا يهذب نفسه ، فهو ليس إنساناً وحين يفقد إنسانيته تأخذ الغريزة الجنسية بزمامه ، إذن علينا أن لا نتصور أن الإنسان إذا بلغ من العمر عتياً ، تفارقه الغريزة الجنسية ، لا نتصور أن الإنسان إذا حصل على المال وأصبح متمولاً سيركن إلى الهدوء ، ويزول عنه جانب حب المال ، بل إذا كان سارقاً يسرق ، وإن كان يملك العالم كله . أليست أمريكا الدول الغنية ، إذن لماذا تسرق وتتعدى ؟ لماذا تكون مستعدة لأن توصل صداماً

إلى سدة الحكم ليرتكب كل هذه الجرائم ؟ لماذا تسرق وترتكب الجرائم ؟ - لا سامح الله - أن تسود إحدى الغرائز على المرء ، تأخذ بيده إلى ما يجب حيث لا يشيع . إن أمريكا إذا استولت على كل الكرة الأرضية لن تشيع ؟ كلا إنها تواصل ارتكاب الجرائم ، لذلك حين تصنع أبولو وترسلها إلى القمر أول ما تقول إننا كنا نعتقد بإمكانية صنع قاعدة عسكرية على القمر ، معنى هذا هو أنني قاتل ومجرم ، أنا نمر ، أنا ذئب ، أينما ذهبنا أنا نمر ، الحوار حول تهذيب النفس سهل يسير ، وإنما الصعب تطبيق ذلك كان أستاذنا الكبير آية الله البروجردي ينصحننا دائماً ويقول : عليكم ما دعتكم شباباً باجتماعات جذور الأناثية ، وحب الرئاسة ، وحب الجاه ، وإلا إذا لم تواظبوا على أنفسكم ستواجهون صعوبات تقول الرواية :

« وآخر ما يخرج عن قلوب الصديقين حب الجاه » بمعنى أن حب الجاه لا يزول بسهولة . من الممكن أن يكون الشخص متقياً وعادلاً ، ولكنه يحب الرئاسة ، هذه الأمور لا ترتبط ببعضها البعض . من الممكن أن يكون شيخاً مخضراً ، وأن يكون آية الله ، وأن يكون عادلاً ، ولكنه يحب الرئاسة لذلك نقرأ في الروايات إذا أراد الشخص أن يصبح مرجعاً ، يجب أن يكون عادلاً وخبيراً ، وعلاوة على ذلك يجب أن لا يكون « مكباً على الدنيا » لذلك يفني المرحوم السيد -رحمة الله عليه- بذلك ، كما أفتى بذلك قائد الثورة العظيم بمعنى يجب أن يكون الله وراء كل تحركاته ، يجب ألا يحب الرئاسة ، ولو كانت عن طريق الحلال ، وإلا لا يستطيع أن يصبح مرجعاً ، إذا لم يكن مرجعاً ، وكان إمام جماعة ، ولو أنه يحب المال عن طريق الحلال إذا كان عادلاً نستطيع الاقتداء به في الصلاة ؛ ولكن المرجح ولو أنه يحب المال عن طريق الحلال لا يمكنه أن يصبح قائداً ، لأنه يجب أن يكون قد اجتث جميع الصفات الرذيلة من جذورها ، ينبغي أن يكون قائد الثورة العظيم أن لا يكون في قلبه سوى الله ، وأن لا يحب سوى الله . وهذا هو الهدف من خلق الإنسان . « فإذا فرغت فانصب » بمعنى أنك قد تكونت تجاوزت المحطة الأولى ولكن إحذر السقوط ، إذا كنت ماشياً في طريق تهذيب النفس عليك أن تواجه المشاكل ، وأن تستقيم وتقوم بنشاطات ، لأن تهذيب النفس يحتاج للاستقامة .

إلهي ، بعزتك وجلالك نقسم عليك أن تمنّ علينا بالصفات الإنسانية
والتوبة والإنابة والتوفيق لعبادتك وعبوديتك وترك معصيتك .

إلهي بعزتك وجلالك نقسم عليك أن تمنّ علينا بالصفات الإنسانية
وإنوارانية الباطن .

« كفارة الذنب »

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ رَبُّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي واحلل عقدة من لساني ، يفقهوا قولي ﴾ .

البحث يدور عن كفارة الذنب ، وأمل إن شاء الله تعالى وبإلطف حضرة بقية الله - عجل الله تعالى فرجه الشريف - أن يكون هذا البحث مفيداً ونافعاً .

حكى لي أحد الأصدقاء قائلاً : ذهبت إلى الطبيب وجلست أنتظر دوري فجاء الدور لامرأة عجوز قروية ، فذهبت إلى الطبيب ، وقالت : الوصفة التي كتبتها لي غليتها وشربتها ، ولكن لم تتحسن صحتي ، واتضح أن هذه السيدة بدل أن تذهب إلى الصيدلية وتأخذ الدواء وتغليه ، قامت بغلي نفس الوصفة (أي الورقة) .

قال الطبيب : يا لخسارة الخبز الذي يعطيك إياه زوجك لتأكله . ثم كتب وصفة لكي تذهب السيدة إلى الصيدلية وتأخذ الدواء وتستعمله لكي تشفى . وأضاف هذا الصديق : عندما وصل دوري ، لم يكن هناك أحد سوى الطبيب وأنا ، فقلت للطبيب : يا سيد هل تعلم ماذا فعلت هذا اليوم ؟ قال : ماذا فعلت ؟ قلت : لم ترتكب ذنباً واحداً بل ارتكبت ذنوباً كثيرة قال : ذنبك الأول أنك استهزأت بمسلم ، وإذا استهزأ المسلم بمسلم آخر ونال من شخصيته بين الناس ، فهذا ذنبٌ كبير جداً ، حيث نقرأ في الروايات أنه يكتب على ناصيته

هذا الشخص فهو آيس من روح الله لا تشمله رحمة الباري ، ويجب أن يذهب إلى جهنم ونقرأ في الروايات أن ذنبه كمحاربة الله : « من أهانَ ولياً فقد بارزني بالمحاربة »^(١) .

أما الذنب الثاني ، فإنك كنت سبياً في إضحاك الآخرين والنيل من شخصية هذه المرأة العجوز ، حيث انتابها الخجل والحياء . إذا لم تكن قد تفوهت بهذه الجملة لما كان الآخرين قد استهزؤا بها .

ذنبك الثالث ، أنك كذبت : « يا لخسارة الخبز الذي يعطيك إياه زوجك لتأكله » هذا كذب ، هذه المرأة لا تعلم ماذا تفعل بالوصفة ؟ من أين لك أن تعلم أنها ليست ربة بيت جيدة وزوجة صالحة ؟ إنها ربة بيت وزوجة صالحة ، لذلك فإن جملة : « يا لخسارة الخبز الذي يعطيك إياه زوجك لتأكله » كذب ، والذي يكذب يقول عنه القرآن الكريم : ﴿ فاجتنبوا الرجسَ من الأوثانِ واجتنبوا قولَ الزورِ ﴾^(٢) ثم قال : إذا أردت أن أعد ذنوبك فهي كثيرة ، إن هذه الجملة مفيدة لي ولكم .

علينا أن نتوخى الحذر في تصرفاتنا ، وهذا هو الفرق بين الأحمق والعاقل ، العاقل هو من يفكر أولاً ثم يتكلم ، ولكن الأحمق يتكلم أولاً ثم يفكر . من الواجبات الكبيرة الملقاة على عاتق كل مسلم أن يفكر أولاً ثم يتكلم . من الممكن أن تقولوا جملة في الصف تسبب المصائب ، نفس هذه الجملة تصبغ عقدة عند شخص ما ، وتجلب المصائب ، في الحقيقة أنتم قتلتم الطفل بهذه الجملة ، لأن قتل الروح والشخصية أسوأ من قتل الجسم . نقرأ في روايات كثيرة : إن المسلم هو من يمك بعنان لسانه . إن البعض يذهبون إلى الجنة وهؤلاء لديهم خلوات مع خالق الكون ، إن خالق الكون ينظر إليهم نظرة عطف .

« أكلمهم وأنظر إليهم سبعين مرة في كل يوم » .

(١) سفينة البحار ، المجلد الأول ، ص ٤١ .

(٢) سورة الحج ، الآية : ٣٠ .

هذه أمثلة ، بمعنى أنني أكلّم هؤلاء العباد كثيراً ، وأنظر إليهم نظرة لطف وأفضل مكان في الجنة يكون من حصّة هؤلاء ، لهم قصور من الدرّ والمرجان ، وغداؤهم لذات وكلام ونظرات المعشوق للعاشق نظرات المولى للعبد .

ثم يقول : من هم الذين ينظر الله إليهم نظرة لطف ؟ يقول : المسجونون ، والإمام نفسه يفسر معنى المسجون : « سجننت أنفسهم عن الكلام وسجننت بطونهم عن الحرام » نقرأ في الروايات : إذا توخى المرء الحذر من ثلاثة أشياء سيفوز حتماً : الأول بطنه وماذا يأكل ، والثاني لسانه وماذا يقول ، والثالث غريزته الجنسية ، وأن لا يعتدي .

على المعلم ورجل الدين أن يتوخى الحذر في ما يقولونه . (حتى الكلام الصحيح) حتى ما لا يقبله الناس ، لا يجب أن يتفوه به ، وكما يقول العرب : « ليس كل ما يُعرّف يقال » الكثير من الأمور مطابقة للواقع وصحيحة ، ولكن لا يمكن أن تقال . نفس الجملة المعروفة بين العوام ، جملة جيدة تلك التي تقال : الصدق الذي يبدو كالكذب أسوء من الكذب الذي يبدو كالصدق . كلا ، بل يجب القول كلاهما سيئان ، أن يكذب المرء ليصدقهُ الناس ، عمل سيءٍ وذنبه كبير ، حتى الزوج إذا كذب أمام الزوجة أو العكس ، وكذلك أن يتحدث المرء بصدق ، ولكن الناس ترفض كلامه ، يجب أن يتحدث بصورة ينفذ فيها كلامه إلى العقول .

كتاب قابو سنامه كتابٌ جيد ، وكاتبه أحد أمراء إيران ، يقول : جئت من مكة إلى تركيا ، كنت فترة عند سلطان تركيا وعقدنا اجتماعات ، ذات يوم ذكرت في الجلسة جملة ، فشاهدته وقد انتابته حالة من الاشمئزاز والثبور ، في أثناء الحوار قلت له : إن في إيران قرية ليس فيها ماء ، والنساء يجب أن تذهب إلى منحدر الجبل لجلب الماء ، وأن هناك دودة خضراء موجودة بكثرة إذا دُهمت بالرجل وماتت ، يتحول الماء إلى المرورة ، وطبعاً يصعب تصديق هذا الكلام .

يقول : تفوهت بهذه الجملة ، فشاهدته وقد اشمئز مني ، سكت السلطان ، ولكنني قررت أن أبرهن على صدق ما قلته ، لذلك كتبت إلى إيران

أن يهيشوا طوماراً يشهد فيه القضاة والعلماء أن كلامي صحيح . بقيت فترة إلى أن جاء الطومار ، وأتيت به عند السلطان فنظر إلى الطومار ، وقال : كنت أعلم أنك لا تكذب ، ولكنني أسألك : الكلام الذي يحتاج المرء إلى أربعين شاهداً لإثباته ، لماذا يتفوه به الإنسان ؟ ويُحكى أن شخصاً قال في اجتماع : لقد شاهدت في الهند طيراً تاكل النار لأنه شاهد عدم اقتناع الناس ، لذلك ذهب إلى الهند وجاء بالطير التي تاكل النار . فقال أحد الحاضرين : يا سيد ما الداعي لكي تقول كلاماً يحتاج لكل هذه المتاعب المالية والجسمية ؟ ما الداعي أن يقول المرء كلاماً لا يقبله الناس ؟ كلاماً كهذا نتيجة الأولى أن فيه ضغط القبر .

نقرأ في الروايات : إن شاباً دفن على يد النبي الأكرم (ص) وشارك في غسله وتكفينه ودفنه .

بعد أن وضعوه في القبر وغطوا القبر جاءت أمه عند القبر وقالت : يا ولدي ، لقد كنت حزينة لموتك ، ولكنني الآن حين شاهدت أن النبي الأكرم (ص) دفنك بيده لست حزينة ، وأعلم أنك سعيد . النبي الأكرم (ص) لم ينس بيت شفة ، ذهبت الأم ، فقال : إن القبر ضغط عليه ضغطاً كسر عظام صدره ، قالوا : يا رسول الله ، لقد كان شاباً طيباً ومستقيماً . قال : أجل ، ولكن كان لديه الكثير من « ما لا يعني » « ما لا يعني » هي أن يتفوه المرء بكلام لا جدوى منه لا في الدنيا ، ولا في الآخرة . إن أولي نتائج هذا الكلام هي ضغط القبر . ولكن هذا التأثير وضعي ، وكما قلت إن الرجل السيء الأخلاق في البيت ، ولو كان من أهل الجنة ، ولو كان سعد بن معاذ ، سيعاني من ضغط القبر .

أحد رجال أصفهان الكبار ، كان معلماً للأخلاق ، وكان كلامه مسموع بين الجميع ولكن كان سريع الغضب . إلا أنني لا أعلم كيف كان في البيت . مرةً قلت له : لماذا . . . ؟ فخاطبني بلهجة حادة ، ولكنه سرعان ما ندم على ذلك . كان عصبياً وسيء الأخلاق ، وكان يبكي ودموعه تنهمر كالمنطر ويقول : ذات ليلة رأيت في المنام أن الناس وضعوني في القبر ، فجاء كلب أسود وتقرر أن يبقى معي دائماً ، في نفس المنام شعرت أن هذا الكلب الأسود من سيئات

خلقي في الدنيا التي تحولت إلى كلب ، كان يتحب ويقول : كنت حزينا جداً على ما آلت إليه أموري ، فجأة شاهدت الإمام الحسين (ع) قادماً ، فعلمت أن خدماتي لأهل البيت لم تذهب سدى ، لقد أنجذني الإمام الحسين (ع) ، قلت للإمام الحسين (ع) : كيف يصبح هذا الكلب ؟ قال : سأنتذك من برائه ، وبإشارة من يده يذهب الكلب . واستيقظت من النوم .

لدينا قضايا كثيرة تشبه هذه القضية . حدثني أحد مدرسي الحوزة العلمية وقال : إن فلاناً (كنت أعرف ذلك الشخص ، رحمه الله ، كان إنساناً طيباً ومؤمناً بنافلة الليل ، ويأتي إلى صحن معصومه (ع) ويعمل فراشاً في المدرسة الفيضية ، كان هذا الشخص من معارف ذلك المدرس ، وفي الصيف يقطن في بيت المدرس وكانا صديقين ، مات ، ذات ليلة رأيتُه في المنام ، وقد تحول إلى كلب ، فتعجبت ، وقلت : يا فلان أهذا أنت ؟ قال : أجل ، سلامٌ عليكم ، قلت : لماذا غدوت كلباً ؟ قال : الويل من سوء الخلق ، لقد كنت سيء الخلق في البيت . وسوء الأخلاق جعلني بهذا الشكل ، ثم قال : تعال يا سيد لترى قبري . يقول : ذهبت عند قبره فرأيت ثقباً في القبر . قال : يا سيد عندما وضعتني في القبر تحمّلت ضغطاً خرجت على أثره كافة الزيوت من بدني ودخلت في هذا الثقب ، لو كان الثقب كبيراً لشاهدت كيف سُحقت تحت وطأة المضغطة الإلهية . الكلام فيه ضغط القبر ، سوء الأخلاق في البيت (الرجل أو المرأة) فيه ضغط القبر ، ويحوّل هوية الإنسان إلى شيء آخر ، وهذا بحث يحتاج إلى وقت أكثر .

كلامنا ، وبالأخص سلوكنا ونياتنا كيف تصنع لنا ملكة ، والملكة تصنع لنا هوية ؟ مراراً يصنع لنا الكلام الذي في غير محله ملكة والملكة هوية . تسلب من الإنسان إنسانيته ، وإذا كان كلامه للسخرية يتحول شيئاً فشيئاً إلى كلب ، وكذلك إذا كان يجرح شعور الآخرين أو يستغيب أو يقذف أو يكذب ، وأن يكون نماماً أيضاً يتحول إلى كلب .

إذن ، علينا أن نوقف لساننا عند حده ، نعرف الكثير من الأشخاص الذين أدى بهم المزاح عدم التروي والكلام الغير مُجدي إلى الضياع ، ونعرف الكثير

الذين برزت لديهم مشاكل عائلية من جراء ذلك وكما يقول الشاعر :

« من الصعب إعادة الإناء المكسور إلى ما كان عليه » .

فيا سيد إذا جرحت مشاعر زوجتك ، ولم يندمل الحرج وخرج الحب من قلبها حينذاك يصعب إعادة المياه إلى مجاريها ، لقد رأيت الكثير من النساء اللاتي أدى طول لسانهن إلى أن تتجمع الضغينة قطرةً قطرةً ، ثم تصبح بحراً ، الخلاف العائلي أدى إلى الطلاق حيث أذللن أنفسهن وأطفالهن . في البداية لم تكن أكثر من جملة ، ولكن نفس الجملة وطول اللسان أوصل الأمور إلى ما لا تحمد عقباه ، كان ابن المقفع من الأدباء الإيرانيين في عهد المنصور الدوانيقي . خلفاء بني العباس بالأخص المنصور ، وهارون ، والمأمون ، كانوا يشغلون الناس بالقصص والأدب اليوناني والفارسي والعربي والترجمة . وكان مقرباً جداً في البلاط العباسي ، لكونه أديب ، وكانت كلمته مسموعة لدى الجميع - العلم أحد عوامل الغرور ، إذا لم يتوخَّ المرء الحذر مثلاً - قد يكون لديه شهادة إعدادية أو بكالوريوس ، ومع أنه يعلم أنها لا تساوي شيئاً ، ولكنها تجلب الغرور - ولأن ابن المقفع لم يتوخَّ الحذر وقع في الغرور ، بحيث وصل غروره إلى مدى كان يسخر من الولاة (المحافظين) الذين يأتون إلى البصرة مثلاً عندما كان يأتي قائم مقام الوالي إلى الجلسة ، كان يقول : سلام عليكما ، فكانوا يقولون : إنه واحد ، فلماذا السلام عليكما ؟ يقول : سلامٌ له ، وسلامٌ آخر لأنفه الطويل ، فكان الناس يضحكون وتصيح النكتة عقدةً لذلك الشخص ، أو أنه كان يسأل في الجلسة إذا مات الرجل ، وكان لديه زوج وابن وبنت كيف يُقسم ميراثه ؟ فكان الناس يضحكون ، ابن المقفع لم يكن يعلم أية مصيبة يجنيها على نفسه ، مثلاً في جلسة ما ، كان وكيل الوالي يقول : إنني لست نادماً على السكوت ، ولم أتضرر من ذلك .

فكان ابن المقفع يقول : نعم لأن أفضل الأشياء لك هو السكوت ، بمعنى أنك جاهل ولا تفهم « المرء مخبوء تحت لسانه » وعندما نار عم المنصور الدوانيقي على المنصور هُزِمَ وهُرب ، ثم جاء الناس إلى الناس والتمسوا أن يعفي المنصور عن عمه . قال : قولوا لابن المقفع أن يكتب كتاباً لكي أوقعه ،

ولكن ابن المقفع كان مغروراً ، ولم يتوخَّ الحذر في قلمه .

أستاذنا الكبير آية الله البروجردي - رحمة الله عليه - منذ أن تولى المرجعية إلى أن مات لم يمسك القلم ، ولم يوقع حتى توقيعاً واحداً ، ولذلك فإن التواقيع الموجودة في الحوزة العلمية عبارة عن ختم أو صورة طبق الأصل ، ولكنه كان قد قرر أن لا يمسك القلم بيده أبداً .

المعلم أو الإنسان الوجيه عليه أن يتوخى الحذر في كلامه وقلمه وغدواته وترحاله ، أعرف الكثير من الوجهاء الذين شاركوا في جلسة في غير محلها (مع أن ذلك لم يكن ذنباً) وضيّعوا أنفسهم .

إن ابن المقفع أهلك نفسه بقلمه . كتب ، التزم منصور الدوانيقي إذا كان لديه عمل مع عمه ، أن تفتنى خللاته وأن يُنحَى ، وأن يعطى ماله للصدقة ، وأن تطلق امرأته وأن يطلق سراح عبيده . كان يريد أن يستفيد من أدبه ، فكتب كتاباً على هذا الطراز .

عندما جاءوا بالكتاب إلى المنصور ، غضب جداً ومزق الكتاب ثم كتب خفية كتاباً إلى الوالي بأن يقتل ابن المقفع بحيث لا يشعر أحد ، وهذا ما كان يتمناه الوالي . فنادى الوالي على ابن المقفع فجاء هو وحمارة وخادمه إلى الذي كان يستهزئ به . فأعطى الوالي كتاب المنصور إلى ابن المقفع ، فهوى ملتماً العفو ، أمر الوالي بإعداد التنور ، وجاءوا بابن المقفع المسكين عند التنور ، فقطع أنفه أولاً قال : سلامٌ عليكم والقراءة داخل التنور ، وقطع يديه ورجليه ، وقال : وهذا بدل الاستهزاء . معلومٌ أن ابن المقفع كان يحتضر عندما ألقوا به في داخل التنور ، تأخر الخادم قليلاً إلى أن حان الظهر ولم يأت ، قرع الباب وقال : يا ابن المقفع ، فجاءه الجواب ليس موجوداً هنا ، فتنجم الناس وذهبوا إلى المنصور ، وقالوا : إن ابن المقفع ذهب عند الوالي ، ولم يخرج من عنده ، فقال المنصور الذي كان يعلم حقيقة الأمر : سأقتص من الوالي بدلاً عنه وسأقتله ، ولكن إعلموا أنه إذا عُثر على ابن المقفع سأقتلكم جميعاً ، والخلاصة هكذا يحترق ابن المقفع ويفنى .

لكن لماذا ؟ بسبب لسانه الطويل ، ولاستهزائه بالآخرين وغروره من أجل

ضحكة في غير محلها .

كان شخصٌ ضيفاً عند أحد الحكام ، فجاءوا بطيرين مشوينين فابتسم . قال : لماذا ضحكت ؟ قال الضيف : لدي قضية ، في أيام الشباب عندما كنت من قطاع الطرق أخذت أموال أحد التجار وأردت أن أقتله ، فكان يلح عليّ بأن لا تقتلني ، فجاء هناك طيران فالتفت إلى الطيرين ، وقال : أريد منكما أن تشهدا أنني قتلت مظلوماً فضحكت من قول التاجر ، وسخرت منه وقلت له : ماذا تقول ؟ الآن تذكرت تلك القضية . فابتسمت لذلك . ومع أنه كان صديق الحاكم يقال صرّخ : يا جلاد، هذان الطيران هما نفس الشاهدين إذ ذهب واضرب عنق هذا الرجل ، وأتني به . ضحكة في غير محلها ، كلامٌ في غير محله ، علاوة على ضغط القبر أحياناً يجلب العقد والخلافات العائلية والعداوات . على الإنسان المسلم أن يتوخى الحذر في كلامه ، بالأخص أنتم صفوة المجتمع ، لا تنطقوا بكلامٍ تافه ، فكروا أولاً ثم تكلموا والأهم من ذلك أرجو منكم أن لا تجرحوا مشاعر زوجاتكم في البيت . إن أول مصيبة تحل بأولئك الذين يجرحون مشاعر الآخرين أنهم يفقدوا سيادتهم على القلوب ، ويصبحوا مغفورين من قبل المجتمع ، ومن ناحية روايات أهل البيت (ع) هذه اللدغات تتحول إلى عقرب وأفعى وذئب تعض الإنسان في القبر والبرزخ ، وفي طابور المحشر في جهنم .

أنتم إذا سمعتم أن الأفعى والعقرب تلدغ الإنسان في القبر وجهنم ، إنها لدغات ألسنتنا . يقول القرآن :

﴿ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا وَيَحْذَرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ ﴾ (١) .

فيا أيها الناس ، إن الله يحذرك ، احذر ، وكن على يقين أينما تعمل وأيما تقول يتجسم ، إذا كان طيباً فهو معك في القبر وفي البرزخ وفي القيامة ، وإذا كان سيئاً فهو معك بشكل أفعى وعقرب وكلب فتاك . وكما يقول المشنوي :

(١) سورة آل عمران ، الآية : ٣٠ .

بواسطة لدغات اللسان تعضك الذئاب التي أعددتها .

إلهي ، أقسم عليك بعزتك وجلالك أن تمنّ علينا جميعاً بالوعي وأن نتوخى الحذر في كلامنا ونياتنا وسلوكنا وأن نوفّق لما فيه طاعتك وعبوديتك وترك معصيتك . إلهي ، بعزتك وجلالك نقسم عليك ، أن تدلّنا على ما فيه رضاك ، وأن تمنعنا عما فيه سخطك وغضبك .

« عبودية الله »

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي واحلل عقدة من لساني ، يفقهوا قولي ﴾ .

القرآن الكريم فيه جذابية ، ووضيء القلب ، « وانصتوا » بمعنى أن عليكم أن تسكتوا جميعاً . يقول أحد علماء أصفهان : كنا مع جماعة متوجهين إلى المحج وفي المدينة مات أحدنا ، وبعد دفنه عقدنا مجلساً للفاتحة ، ودعونا أحد قراء السنة ليأتي ويقرأ القرآن . جاء القاريء إلى المجلس وجلس ، ولكن لم يقرأ القرآن . قلنا له : اقرأ القرآن . قال : إنكم مشغولون بالكلام ولن أقرأ القرآن إلى أن تسكتوا . سكتنا جميعاً ، فوجدناه لا يقرأ القرآن قال : طريقة جلوسكم لا تناسب مع مجلس القرآن . فجلسنا بطريقة أفضل ، ولكنه لم يبدأ بقراءة القرآن ، قلنا : اقرأ ، قال : لا يزال المجلس غير مناسب لقراءة القرآن ، لأن البعض في أيديهم شاي وسجائر . فتركنا الشاي والسجائر ، فتلى القاريء السني آية من القرآن وغادر المجلس . الآية التي تلاها كانت : ﴿ وإذا قرء القرآن فاستمعوا له وأنصتوا ﴾ (١) .

لذلك أرجو منكم جميعاً ، أن تستمعوا للقرآن لدى تلاوته فذلك واجب من مسؤولياته احترام القرآن ، ومفيد أيضاً لتقوية روح الإنسان .

(١) سورة الأعراف ، الآية : ٢٠٤ .

إن التكلم أثناء تلاوة القرآن ، تطاولُ على القرآن . وحسب رواية عن النبي (ص) فإن القرآن يلغى الذين لا يحترمونه ، قال النبي الأكرم (ص) : « وإذا التبست عليكم الفتن كقطع الليل المظلم فعليكم بالقرآن فإنه شافع مشفع ، وما حل مصدق ، ومن جعله إمامه قاده إلى الجنة ومن جعله خلفه ساقه إلى النار »^(١) .

إذن من اللائق أن تسكتوا في جلسة القرآن وأن يستمع المستمعون بمتتهى الأدب والاحترام لتلاوة القرآن .

أستاذنا الكبير آية الله العظمى البروجردي -رحمة الله عليه- ينقل عن أستاذه المرحوم آغا ميرزا عبد المعالي الأصفهاني أنه قال : « إذا كان في غرفة ما قلمٌ كتب به فقه الشيعة ، أنا لا أنام في تلك الغرفة ، وإذا أردت أن أنام فيها ، أخرج أتعلم أولاً ثم أنام » .

حين يتحدث أحد علماء الشيعة هكذا ، يتضح أن احترام الكتب الفقهية وكتب الروايات وبالأخص احترام القرآن الكريم مهم جداً .

وأما بحثنا :

بحث حول معركة الداخل التي نعاني منها جميعاً ، وهذه المعركة مستمرة وأبدية في داخلنا ، وأعتقد أن هذا البحث مهم جداً .

نستشف من الروايات الشريفة أن النبي الأكرم (ص) سعى هذه المعركة « الجهاد الأكبر » وقال : إن النضال في هذه الجبهة أهم من الجهاد في جبهة الحرب .

معركة الداخل هي الجهاد الأكبر ، وإذا لم نتصر في هذه الحرب ، فإن الهزيمة في جبهة الحرب الخارجية ليست ذات أهمية ، لأن حرباً بدأت في سبيل الله ، ولم تتمكن من دحر العدو ، لذلك استشهدنا والشهادة في طريق الإسلام أكبر مُجْد .

(١) بحار ، المجلد ٩٣ ، ص ١٧ ، الحديث ١٦ .

ولكن إذا هزمنا في معركة الداخل ، فذلك مدعاةً للهوان ويصبح الإنسان ادنى من أي حيوان . القرآن الكريم يقول : ﴿ إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصَّمُ وَالْبَكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴾^(١) أن الذي يُهزم في هذه المعركة يصبح أدنى من ميكروب السرطان والجزام . ولكن إذا انتصر المرء في معركة الداخل ، أعزه الله . في سورة الفجر حيث قال : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنِّةُ ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً فَادْخُلِي فِي عِبَادِي وَادْخُلِي جَنَّتِي ﴾^(٢) .

هنالك رواية بأن هذه الآية وردت بالإمام الحسين (ع) والله يقول : يا من لديك نفس مطمئنة ، تعالي ، تعالي ، إلى جانب الحسين (ع) ، تعالي ، إنك مع الإمام الحسين (ع) في مكان واحد ومتعتك أنك جليس وأنيس مع الإمام الحسين (ع) تعالي ، تعالي فأنا راضٍ عنك ، وأنت راضٍ مني ، تعال ليس إلى الجنة العادية بل إلى جنتي .

إذن يمكننا أن نقول : إن هذه المعركة تبدأ من نقطة ، وفيها ذروة القمة ، وفيها السقوط إلى الهاوية ، ذروتها مصداقُ لآية : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنِّةُ ﴾ وسقوطها آية : ﴿ إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصَّمُ وَالْبَكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ المعلمون الذين هم صفوة المجتمع ، ويدهم مصيرهُ ، وهم مُرَبُّو أجيال الغد ، يجب أن يهتموا كثيراً بهذا البحث .

البحث يتركز وحول ماذا نفعل لكي نفوز في هذه المعركة ونكون مرفوعي الرأس ؟ .

القرآن الكريم دلّنا على بعض السبل من بينها رحابة الصدر وأن يكون القلب كالبحر ، وهذا ما يستشف من سورة الانشراح .

والآن بما أنكم أيها الأعزاء تكرررون السؤال حول ماذا نفعل لينشر صدرنا ؟ أقرأ لكم رواية عن الإمام الصادق (ع) : المرحوم الشيخ البهائي - عليه الرحمة - ينقل في الكشكول رواية عن الإمام الصادق (ع) ويقول : إن سفيان

(١) سورة الأنفال ، الآية : ٢٢ .

(٢) سورة الفجر ، الآيات : ٢٧ - ٣٠ .

الثوري قال : من أجل أن أحصل على رحابة الصدر وضياء القلب ذهبت عند الإمام الصادق (ع) (لأنه من الممكن أن يتغير الإنسان أثر مشاركته في جلسة أو لدى استماعه للكلمة ، لقد شاهدت أو شاهد الكثير من الأشخاص الذين غمرتهم التعاسة وتغيروا من جراء كلمة واحدة ، لذلك يقول سفيان الثوري : ذهبت إلى الإمام الصادق (ع) لكي أتغير) يقول : عندما جلست في محضر الإمام (ع) لم يقبلني الإمام ، وقال عندي عمل ولذلك لا أستطيع أن أجلس معك - سفيان الثوري لم يكن إنساناً طيباً جداً - إنه يقول : لأن الإمام (ع) لم يقبلني ، خرجت من هناك ، وذهبت إلى قبر النبي الأكرم (ص) وصليت هناك ركعتين وتوسلت بالرسول الأكرم (ص) وقلت له : يا رسول الله ، أرجو منك أن تجعل الإمام الصادق (ع) يقبلني وأن يرفق بي . (لأن الله مقلب القلوب والنبي الأكرم (ص) والزهراء - سلام الله عليهما - والأئمة الطاهرين - عليهم السلام - هم واسطة فيض هذا العالم . إذن ، هم الذين يجب أن يغيروا الإنسان وهم الذين يجب أن يحيوا الإنسان لدى الآخرين) يقول سفيان : بعد أن توسلت ، جئت عند الإمام الصادق (ع) ، واستقبلني الإمام (ع) بحفاوة ، فعلمت أن توسلي قبل من قبل النبي الأكرم (ص) . قال لي الإمام الصادق (ع) : جئت إلى هنا لكي ينشرح صدرك ؟ قال سفيان : أجل يا بن رسول الله ، جئت عندكم ليتور قلبي وينشرح صدري .

قال الإمام (ع) : يا سفيان ، إذا أردت انشراح الصدر عليك أن تواظب على ثلاثة أشياء :

١ - يا سفيان ، أعلم أنك عبد ، وهو مولى ، ولأنك عبد يجب أن تكون مطيعاً مئة بالمئة لمولاك .

حول هذا الموضوع تذكرت قصة لا بأس من ذكرها :

شاهد غلام مؤدب وعاقل مولاة مهموماً . فقال له : لماذا أنت مهموم ؟ قال : إني مديون والتفكير في الديون سلبني الراحة . قال الغلام : حسناً ، خذني إلى سوق الرقيق ، واعرضني للبيع وبشمني سدّد ديونك . قال : إن لدي قروضاً كثيرة وثمنك لا يكفي لعشر قروضي .

قال الغلام : بنفس المقدار الذي أنت مقروض به ، سعرتني .

قال المولى : إنهم لا يشترونك بهذا السعر .

قال الغلام : قل للزبائن إن هذا الغلام لدية صفة حسنة جداً وارتفاع سعره ناجم عن حيازته تلك الصفة ، إن تلك الصفة هي أنه يعرف جيداً أسلوب العبودية .

مرحى لهذا الغلام . طبعاً لم يفهم ماذا يقول : جاء بالغلام إلى سُوق بيع الرقيق وسعره بسعر يعادل عشرة أضعاف سعره الطبيعي ، مثلاً إذا كان السعر المعمول به لهذا الغلام عشرة آلاف تومان ، كان يقول إني أبيع هذا الغلام بمئة ألف تومان . كل من كان يسمع يضحك ، إلى أن سأل إنسان عاقل سبب ارتفاع سعر الغلام ، قال المولى : إن ارتفاع سعر الغلام يرجع إلى أنه يعرف طريقة العبودية جيداً .

قال الرجل : إذا كان كما تقول فإن قيمته أكثر من ذلك ، إني اشتري هذا الغلام بشرط أن تكون لديه هذه الصفة ، وإذا لم تكن لديه هذه الصفة يحق لي فسخ الصفقة .

وهذا ما يجري في الصفقات الفقهية ، إذا اشتريتم مثلاً بيتاً بشروط ولم تتواجد فيه تلك الشروط يحق لكم فسخ الصفقة .

وخلاصة الأمر : دفع مبلغ المائة ألف تومان، وأخذ الغلام للبيت ، ومن أجل أن يعرف هل الغلام طريقة العبودية أم لا ، أمر بضربه بالسوط . ضربه بالسياط ، فكان الغلام لدى ضربه بالسوط لا يبكي ولا يتأوه ولا يسأل عن سبب ضربه بالسوط .

أمر الرجل بترك الغلام ، ثم قال للغلام : ألم تكن تشعر بالألم ؟ قال : نعم . قال : ألم تكن تُضرب بدون سبب ؟ قال : نعم ، قال : إذن لماذا لم تحتج على ذلك ؟ .

قال الغلام : أنا عبد وأنت مولى ، ولا يليق أن يسأل العبد عن سبب تصرفات مولاه ، العبد يجب أن يكون مطيعاً لمولاه مائة بالمائة . إذا أنعمت عليّ

فأنا مطيع لك ، وإذا ضربتني بالسوط أنا مطيع لك أيضاً . مرحى لهذا الغلام ! .

بابا طاهر - رحمة الله عليه - يقول في هذا المجال :

واحد يحب الداء واحد يحب الدواء واحد يحب الوصول وواحد يحب الهجر
أنا من الداء والدواء والوصول والهجر أحب ما يحبه المعبود

طبعاً في قصة العبد ومولاه هذه ، القصة خطأ أساساً ، بمعنى لا يحق للمولى أن يضرب العبد بالسوط ، وهذه العبودية والموالاتة تصدق بحق الباري عز وجل فحسب ، لأننا عندما نظمنا إلى الله حكيم وأدركنا أن الله عادل ورحيم نصبح مطيعين له وإذا أنزل الله بنا مصيبة ومشكلة نعلم أن فيها حكمة وليست ظلماً ، بل هي رافة من جانب الله ، ونستطيع أن نستفيد من هذه المصيبة . كما إذا أنعم الله علينا ، فنحن مطيعون ونحب ما يحبه المعبود ، الذي لم يدرك بعد موقفه كعبد يصبح مصداقاً للآية الكريمة :

﴿ إِنَّ الْإِنْسَانَ خَلَقَ هَلُوعاً ، إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعاً ، وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعاً ﴾^(١) و ﴿ كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَّاظٍ ﴾^(٢) .

إن هذا الإنسان ليس عبداً ، بل هو إنسان مذنبذ :
﴿ مَذْبِذِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَلَا إِلَى هَؤُلَاءِ ﴾^(٣) .

وكما يقول أمير المؤمنين (ع) : هذا الإنسان كالبعوضة ، لا ثبات لديه ، تأخذه رياح المصيبة ، كما ستأخذه رياح النعمة .

أمير المؤمنين علي (ع) يصف العبد في نهج البلاغة فيقول :
« المؤمن كالجبل الراسخ ، لا تحركه العواصف » .

جاء أحد أصحاب الإمام الصادق (ع) وأراد أن يمتدح نفسه ، فقال :
« يا بن رسول الله ، إني صبور أمام المصيبة وشكور أمام النعمة » .

(١) سورة المعارج ، الآيات : ١٩ - ٢١ .

(٢) سورة العلق ، الآيات : ٦ و ٧ .

(٣) سورة النساء ، الآية : ١٤٣ .

قال الإمام الصادق (ع) : ولكننا لسنا كذلك . فاهتز ذلك الرجل الذي كان يظن أن أسلوبه رائع أمام المصيبة والنعمة ، فقال : يا بن رسول الله ، إذن ما هي الطريقة الصحيحة ؟ .

قال الإمام : نحن نطيع أوامر الله . إذن ، ما يأتي من عنده حسن ، إذا جاءت مصيبة ومشكلة فهي طيبة وإذا جاءت نعمة وسعادة أيضاً طيبة . ابتعدنا عن الرواية . قلنا : إن سفيان الثوري جاء عند الإمام وقال : يا بن رسول الله ، لقد جئت عندكم لكي ينشرح صدري . قال الإمام : يا سفيان ، أعلم أنك عبد وهو مولى .

إذا استطاع المرء أن يدرك أول جملة قالها الإمام الصادق (ع) لسفيان الثوري ينشرح صدره ، ويصبح قلبه كالبحر مطيعاً للباري تعالى . مرحى لمن أطاع ربه وأصبح مصداقاً للآية الكريمة : ﴿ يا أيها النفس المطمئنة ﴾ وشخص كهذا سيفوز حتماً في صراع الداخِل . القرآن الكريم يذكر محاوراة للشيطان مع الباري عز وجلّ وهنا يبدي الشيطان عجزه في التعامل مع عباد الله المخلصين ويقول : أنا لا أستطيع أن أغويهم ، وليس لدي عمل مع هؤلاء : ﴿ قال فبعتك لأغوينهم أجمعين إلا عبادك منهم المخلصين ﴾^(١) حقاً إنه لا فخر يفوق أن يكون الإنسان عبداً لله . أمير المؤمنين علي - عليه السلام - يقول :

« كفى بي فخراً أن أكون لك عبداً »^(٢) .

تعالوا نسعى لكي نكون عبيداً لله ، فهذا المقام أعلى من مقام الرسالة ، لا ننافي التشهد عندما نورد صفة للنبي الأكرم (ص) نذكر أولاً عبوديته ، ثم نذكر رسالته « وأشهد أن محمداً عبده ورسوله » يبدو من هذه الجملة أن العبودية تفوق الرسالة ، وقد جاءت الرسالة أساساً لكي تصنع العبد الخالص ، والنبي الأكرم (ص) عبد مائة بالمائة .

الجملة الثانية التي أدلى بها الإمام الصادق (ع) لسفيان الثوري :

(١) سورة ص ، الأيتان : ٨٢ و ٨٣ .

(٢) بحار الأنوار ، المجلد ٩ ، ص ٩٤ ، الحديث ١٠ .

يا سفيان ، إذا أردت رحابة الصدر ، عليك أن تنتبه أن مولاك عنده غضب ، كما عنده رضى . إحتذر أن تقوم بأعمال يرضى عنها الله وأن تتعد عما يغضب الله .

في البحث الذي دار حول آية : ﴿ واستعينوا بالصبر والصلاة ﴾ قلت : إن إحدى الأشياء التي تقوي الإرادة ، وتنصر الإنسان في تلك المعركة الداخلية ، الاهتمام بأداء الواجبات وترك المحرمات .

إن معنى العبودية هو الاهتمام بالواجبات وأن يتناكب الحرج من الذنب . الذنب مهما كان صغيراً ولكن من أجل أنه يلوث العبودية ، كبير جداً . لذلك نرى أن العبد الحقيقي ، يشعر بالأسى لمجرد ارتكابه لذنب صغير .

يقال : إن أحد أصحاب الرسول الأكرم (ص) وفي إحدى المعارك عندما خرج المسلمون للقتال ، بقي هذا الشخص في المدينة لرعاية النساء ، ذات يوم ذهب إلى بيت رفيقه فوقع نظره على زوجة رفيقه فوسوس له الشيطان ولمس بيده نهد تلك المرأة . المرأة التي انزعجت كثيراً قالت له : « النار ، النار » بمعنى ماذا تفعل ؟ النار ، النار .

هذا التنويه كان له وقع عجيب على ذلك الرجل ، فخرج إلى الشارع لا يلوي على شيء ، وهو يبكي ويصرخ كالمجانين : « لقد أصبحت من أهل جهنم ، لقد أصبحت من أهل جهنم » ، وخرج من المدينة متجهماً نحو الصحراء .

حين عاد النبي الأكرم (ص) من الحرب نزلت الآية بأن توبة ذلك الرجل قد قبلت .

قال النبي (ص) : إن توبتهُ غفرت وُغْفِرَ له ، اذهبوا وجيئوا به حين جاءوا به ، كان النبي (ص) يصلي في المسجد ، فجلس ذلك الرجل في صف المصلين ، ولكنه كان يخجل أن ينظر في وجه النبي (ص) ، ارتقى النبي الأكرم (ص) المنبر ، ولكن ذلك الرجل أطرق برأسه إلى الأرض ولم يتمكن من النظر إلى النبي (ص) . وعلى سبيل الصدقة بدأ النبي (ص) بتلاوة سورة :

﴿ أَلْهَاكُمْ التَّكَاثُرُ ﴾^(١) لينصح بها الناس . وفي هذه السورة يوجد أيضاً آيات العذاب ، عندما انتهى من السورة ، فجأةً صرخ ذلك الرجل صرخةً ووقع إلى الأرض مغشياً عليه . فجاء الناس ليروا ما حلَّ به ، ولكنهم وجدوا أنه قد مات .

إن ذلك الرجل تاب عن الذنب ، وقبلت توبته ، ولكنه من جراء الخجل الذي انتابه أثر فعلته ما أن سمع آيات العذاب الإلهي حتى فاضت روحه للمعبود .

الكثير من الفقهاء ومن بينهم أستاذنا الجليل قائد الثورة العظيم ، يقولون حول الذنوب : « جميع الذنوب كبيرة ، وليس لدينا ذنوب صغيرة ومن أجل أن يخرج الشخص عن العدالة ، فإن جميع الذنوب كبيرة ولكن فيها ما هو كبير وصغير » .

مثلاً النظر إلى النساء المحرمات ذنب كبير ، ولمس جسمهن ذنب أكبر والأكبر من ذلك ارتكاب العمل المنافي للعفة . إذن كل الذنوب كبيرة ، ولكن فيها درجات .

هنا يجب أن نقول : إن كلام قائد الثورة العظيم ذا مغزى عظيم حينما يقول : « إذا أردنا أن نصل إلى ما نبتغي ، يجب أن تكون في حياتنا ذنوب » .

لذلك ، أرجوكم أن تحاولوا الفوز في هذه المعركة الداخلية ، وأن سر انتصارنا هو الابتعاد عن الذنوب ، ورحابة الصدر .

عليكم أن تكونوا رحيبي الصدر وأن يكون قلبكم واسعاً كالبحر ، وأن تهتموا كثيراً بأداء الفرائض . لذلك يقول الإمام الصادق (ع) لسفيان الثوري : إذا أردت أن تصل إلى ما تريد يجب أن تهتم كثيراً بأداء الفرائض . وكذلك عليك أن تترك معصية الله ، لأن الإنسان الذي يعصي ربّه يواجه غضب الله . لدينا روايات أن الله يقول : « يا عبدي » ، لا تستصغر الذنب ، لأنك قد ترتكب ذنباً أحاطبك بعدها : يا عبدي ، لن أغفر لك ، وأنتك لن تنال التوبة . ولا تستخف بالشواب ، لأنك قد تقوم بشواب بسيط ، مثلاً أن تجلب قلب أحد

(١) سورة التكاثر ، الآية : ١ .

الناس بسلام منك وعلى أثر هذا الثواب أحاطبك : يا عبدي ، لقد وفقت وأصبحت سعيداً وبدّ عنائي فوق رأسك دائماً .

إذن الجملة الثانية التي قالها الإمام الصادق (ع) لسفيان الثوري إذا أردت انشراح الصدر عليك أن تطيع مولاك .

أما الجملة الثالثة : قال الإمام الصادق (ع) لسفيان الثوري : إنك عبد ، أنت وما تملكه ملك لمولاك « العبد وما في يده كان لمولاه » . إن كل ما يملكه الإنسان من مال وعقل وإرادة وأمان وصحة كلها ملك لله الغني العزيز .

إذا استطاع المرء استيعاب هذه الحقيقة بأن كل ما ينتمي له من نعم ظاهرة وباطنة كلها لله ، فلن يغدو الإنفاق في سبيل الله حينذاك أمراً صعباً .

مثلاً ، إذا أعطاكم شخص مالا لكي تنفقوه على الفقراء ، فإن إنفاق ذلك المال سيكون سهلاً بالنسبة لكم ، لأن المال ليس ملكاً لكم ، بل ملكاً للآخرين .

عندما نؤمن بأن كل ما نملك من الله (حيث يشير القرآن إلى هذه الحقيقة في أماكن عديدة) لن نتأخر في الإنفاق بما أمرنا به . يقول : اعط خمس مالك ، يقول : انفقوا مما رزقناكم ، أعطاك الصحة والعافية لتستفيد منها في تقوية معنوياتك ، منحك عقلاً ، وقال : استفد من عقلك لصالح الناس ، أعطاك علمك ، وقال : امنح من علمك للآخرين ، وعلم الآخرین وربهم بصبر وتأن .

حسناً إذا كنا حقاً عبيداً ونعرف أننا لا نملك شيئاً ، فنحن مستعدون أن نعمل ليلاً نهاراً لمجتمعنا ومستعدون لإنفاق كل ما نملك لعباد الله ، لأنه ليس لدينا شيء ، وكل ما لدينا لله . والله يحب أن نكون هكذا .

قال الإمام الصادق (ع) : يا سفيان الثوري ، إذا أردت رحابة الصدر عليك بمراعاة هذا الجزء . حقاً إذا التزمنا بالجملة الثالثة تصلح الكثير من أمورنا وتزول عنا الكثير من الصفات الرذيلة . كان هذا ما قاله الإمام الصادق (ع) حول رحابة الصدر .

وخلاصة القول : إذا أردنا أن نتصرف في هذه المعركة الداخلية فإن سورة الانشراح تقول لنا يجب أن يكون لدينا رحابة الصدر . وأيضاً الإمام الصادق (ع) يقول : من أجل الحصول على رحابة الصدر ، يجب أن يكون لدينا ثلاثة أشياء :

- ١ - نكون عبيداً .
- ٢ - مطيعين لله مائة بالمائة .
- ٣ - أن نعلم أن كل ما نملك مُلكاً لله .

عندما تصبح هكذا ، تعلم أنك عبد ويجب أن تغمرك رحمة الباري وليس غضبه ، وأن تهتم كثيراً بالفرائض وأن تجتنب الذنوب وتعلم أن كل ما تملك من الله ليصبح الإنفاق سهلاً .

إلهي ، بعزتك وجلالك نقسم عليك أن تمنّ علينا جميعاً بالصفات الإنسانية والوعي وضياء القلب ، ورحابة الصدر والتوفيق لعبادتك وعبوديتك وترك معصيتك .

إلهي ، بعزتك وجلالك نقسم عليك ، أن تهدينا لما فيه مرضاتك وأن تمنعنا عما فيه سخطك وغضبك .

« والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته »

جهاد النفس

جزء ٢

محاضرات الأستاذ المظاهري

ترجمة لجنة الهدى

بسم الله الرحمن الرحيم

ما يزال سيرنا الإلهي والملكوتي غير بالغ منتصف الطريق ؛ لكي نجرؤ في زماننا الحاضر على القول : إن طريقنا ينقصه بعض الشيء ، وإن بعض النفوس الباحثة عن النبع الصافي قد وصلت للتو إلى العطش الذي ذقنا طعمه بالأمس .

إن العيون لترنو إلى طريق الشراب الولائي منتظرة « مسيحا » آخر يُمارس دوره المرسوم له في الهداية .

وعلى الرغم من انتظاراتنا وشوقنا لإطفاء هذا العطش حاولنا ولمرات عديدة من جلبي الصدا العالق بالأرواح الظائمة من خلال انتهازنا من المنابع الفيضة ضمن « الجزء الأول من كتاب جهاد النفس » ، ولكننا لا نزال بحاجة إلى أن نهل كثيراً لنصل إلى الحالة التي يُضفي بها الله علينا من لطفه ومدده .

وهذا ما حاولنا تقديمه في جزئنا الثاني لكي يتخلص طلاب النجاة من قيود العبودية وأسر الأهواء النفسية المقينة .

كلنا أمل أن يتفجع القراء الأفاضل بسيرة نبع الولاية الفيض وأفكار هذا العالم العامل الفقيه العارف ، ليتمكنوا من إزالة الصدا العالق في النفوس .

وضمن هذه العبارات المختصرة ، نتقدّم بالشكر الجزيل للأستاذ الفقيه
ونتمنى له دوامَ الموفقية في هداية المجتمع صوب الأخلاق الإسلامية الرفيعة ،
ونشكر كذلك الإخوة الأعزاء الذين ساعدوا في طباعة هذا الكتاب سائلين
المولى لهم الأجر والثواب ؛ وما النصر إلا من عند الله .
الجمعية الإسلامية لمعلمي قم

السعي والاستقامة في العمل

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي وَاحْلِلْ عُقْدَةَ مِنْ لِسَانِي ، يَفْقَهُوا قَوْلِي ﴾

بحثنا هذا يدور حول مسألة الجهاد الأكبر وانتصار البعد الإنساني أو الروحي على البعد الحيواني في كوامننا ؛ وقد تطرقت إلى ورود القوى المساعدة لذلك من خارج الروح الإنسانية ؛ ومن جملة هذه القوى : الصلاة ؛ أو الاهتمام بجميع الواجبات أو المفروض وبالخصوص الصلاة التي توجب أن يكون الإنسان حاملاً للإيمان العاطفي ، أي الإيمان الذي يرسخ في القلب ويحدوه لتصديق مسألة المبدأ والمعاد ؛ وعندما يصدّق القلب مسألة المبدأ والمعاد يتمكن من التغلب على النفس الأمارة بالسوء .

إن عامل انتصار الشباب في جبهات القتال هو الإيمان الذي ترسّخ في قلوبهم من خلال إدراكهم وهضمهم لقضية المبدأ والمعاد ، ولذا كان بذلهم لأرواحهم عملاً هيئاً .

أما القوة المساعدة الثانية فهي الصبر على المشكلات ، والصبر على العبادات ، والصبر على اجتناب المعاصي .

(سورة طه ، الآيات : ٢٥ - ٢٨) .

فمن تمكّن من منع نفسه وردعها عن المعاصي برزت فيه حالة سمّاها القرآن « النفس اللوامة » أو ما اصطلح عليه بالوجدان الأخلاقي ، وهذه النفس اللوامة تساعد الإنسان كثيراً في انتصاره على البعد الحيواني الذي يصطرع مع البعد الإنساني في حرب ضروس . ﴿ واستعينوا بالصبر والصلاة ﴾ (١) .

القوة المساعدة الثالثة هي : التوبة ؛ والتوبة : هي تلاطم أو صراع داخلي يحدد بالإنسان صوب فلاحه ونجاحه وانتصاره على النفس الأمارة بالسوء .

القوة الرابعة : سعة الصدر أو انشراحه ، فمن أراد الغلبة على المعضلات فليشرح صدره ، لأن أغلب المعاصي هي نتيجة لضيق الصدر وعدم تحمل الضغوط الحياتية أو المصائب الدنيوية ، ولكن سعة الصدر والترقي في الأمور تمنح الإنسان قدرة على التغلب في حربه الداخلية .

القوة الخامسة : وهي ما تعرّضت لها سورة الانشراح ، فقد جاء فيها : ﴿ فإذا فرغت ، فانصب ﴾ (١) .

والتفرغ هو الخلو من الشيء أو إنمائه أو الانقطاع له ؛ والانتصاب هو : الاستقامة في العمل والجد فيه ؛ فمن كان فعالاً في عمله سويّاً تمكن من الانتصار في كل أعماله ، ومن كان على غير ذلك لم يتمكن من بلوغ درجة النصر .

قال نابليون بونابرت عبارة تنفع في موضوعنا هذا وهي : « لا يوجد في معجمي عبارات : لا أعلم ، ولا أتمكن ، ولا يكون » .

وقد تمكن نابليون بقانونه هذا من مواجهة (٢٥) مليون عسكري لينتصر عليهم ويتسلط على مصر .

وكل ذلك راجع إلى تلقينه لنفسه تلك العبارات ، وعليه نقول : من أراد

(١) سورة البقرة، الآية ٩١ .

(٢) سورة الانشراح، الآية ٧ .

تمكّن ، ومن أراد تعلّم .

كثيرون هم الأشخاص الذين نعرف عنهم ضعف استعدادهم وقابليتهم للتعلم مثلاً ، ولكنهم أضحووا فيما بعد نوابغ .

وعندما نطالع حياة المخترعين نرى أن استعدادهم للتعلم في بداية الأمر كان ضعيفاً ، فهم أدنى فهما من أقرانهم الذين يتعلّمون معهم في المدرسة .

وكذا حال عدة من العلماء الإسلاميين إذ لم يكن استعدادهم خارقاً للعادة ، ولكن بلوغ المقامات العليا يتأتى من العمل والجدية والاستقامة ، وقد أتمكن من حساب (٥٠) نموذجاً من هذا القبيل ، وأستطيع ذكر أسماء أشخاص تمكّنوا من اجتياز الموانع الكثيرة باستقامتهم وجدّتهم في العمل ووصلوا إلى ما يريدون على الرغم من أنهم لم يكونوا أفراداً أذكاء أو من الذين يمتلكون حافظةً أو استعداداً ذهنياً حاداً ، بل كانوا أقل من ذلك ، ولكن عملهم الجدّي المتواصل واستقامتهم جعل منهم علماء ونوابغ ومخترعين .

لو أراد الإنسان تسخير الفضاء لخدمته ، لاستطاع إلى ذلك سبيلاً ، وإذا أراد تسخير نفسه الأمانة بالسوء لاستطاع ذلك أيضاً ؛ وتسخير النفس والتغلب عليها اسمى وأرقى من تسخير الملكوت وعالم الفضاء .

لقد وصل ميشم التّمَار إلى الدرجات العلى باستقامته ، وعمله الجددي على الرغم من كونه أمياً لا يعرف حتى أوليات الكتابة والقراءة وقد كان في أول حياته عبداً لامرأة اعتقته فيما بعد ليصبح أمير المؤمنين علياً (ع) في قيامه وجلوسه .

وقد وصل ميشم التّمَار أن يكون صاحب سر أمير المؤمنين علي (ع) وهذا ليس بالشيء القليل ، لأن الأمر يحتاج إلى استعداد وقابلية .

قال أمير المؤمنين (ع) : « . . . وإنّ هنا لعلماً جمّاً - وأشار إلى صدره - ولكن طلابه يسير ، وعن قليل تندمون لو فقدتموني »^(١) .

قد يكون الأشخاص الذين أحاطوا بأمير المؤمنين قد تجاوزوا المليوني

(١) تفسير نور الثقلين/ج ٤ ، ص ١٦ ، نهج البلاغة/فيض الإسلام ، ص ١١٤٤ ، كلام ١٣٩ .

شخص ، ولكن لم يحظَ أحد منهم بمثل ما حظيَ به ميثم التمار لكونه من أصحاب سر الإمام علي (ع) ؛ وقد قال ميثم لابن زياد في أثناء اعتقاله : قال الإمام علي (ع) : ستقطع لساني بعد أن تعلقني لعال ؛ فأجاب عبيد الله بن زياد : سأعقلك ولكن لن أقطع لسانك لأكذب مقولة سيدك الإمام علي (ع) .

جاء بحبل ، وشُدَّ وثاق ميثم ، ثم سحب إلى عال ليقى معلقاً بين الأرض والسماء ، فراق الأمر لميثم لكونه فاز بهكذا منبر يرومه ، وبدأ باستعراض مناقب أمير المؤمنين على الملأ ، ثم قال : أيها الناس ، إني أعلم علم ما كان ، وما يكون ، وما هو كائن ، فعجلوا بالمجيء إلي كي أنيثكم بذلك ، ثم أردف يقول : ما عندي من علم فهو من علم علي (ع) باب مدينة علم الرسول الأكرم (ص) ، وقد علمني إياه لأنني كنت صاحب سره سلام الله تعالى عليه .

كان حديث ميثم التمار ذاك باعثاً لتساؤل الناس واجتماعهم إليه وهو معلق ، فوصل الخبر لابن زياد ، فخاف من انقلاب الناس عليه وقيامهم لإخراب دار الأمانة ، فأمر بقطع لسانه .

وبعد ثلاثة أيام يأتي شخص إلى حلبة التعذيب ليقول : « يا ميثم أنا أعرف بقيامك والناس نيام ، واستقامتك لوجه الله تعالى ، ولكن من أجل أن يفرح ابن زياد أقتلك » وعندها طعنه برمح اخترق خاصرته ليذهب شهيداً .

ولو قارناً بين هذين الشخصين لشاهدنا الفرق الشاسع بين سمو ميثم وسقوط جلّاده الذي تنكّر للعمل الجاد في سبيل الله والاستقامة والصبر عليه ، فهو في البداية يقرُّ برفعة ميثم وبعد ذلك يقتله ؛ ويمكن تمثيل مثل هؤلاء الأفراد بالحيشة التي تقتل نفسها بنفسها ، على العكس من ذلك الإنسان الذي انتخب السير الصعودي ليتحرك نحو الأعلى ؛ وقد يطوي البعض مائة عام بصلاة ليل واحدة ، ومصادق ذلك ميثم الذي بلغ مراحل عالم الملكوت في أربعة أعوام صاحب فيها ابن عم رسول الله (ص) فتعلم منه تأديب النفس الأمانة ليتنصر عليها في جهاد كبير .

كم هو طريف قول الخواجة عبد الله الأنصاري الذي جاء فيه : لا أهمية

لمن استطاع الطيران في الهواء لكون الذباب يستطيع ذلك ، ولا أهمية لمن استطاع السير على سطح الماء لكون التبن يطفو أيضاً على سطحه ، ولكن إذا استطعت أن تكون إنساناً ، تكون قد بلغت شيئاً جليلاً مثلما يبلغ الضمآن الماء ؛ وعندها تستطيع السيطرة على تلك النفس الأتارة لتجعل منها بَرَأَقاً كَبْرَاقَ الرسول الأكرم (ص) الذي طلع به إلى السموات العلى ، وعندها تكون قد أنجزت عملاً مهماً .

وبعبارة أخرى يريد الخواجة عبد الله الأنصاري أن يقول : إذا بلغت الهدف ، فأنت إنسان مثالي ، وإذا لم تبلغه ولكن تمكنت من السير بين الأرض والسماء أو على سطح الماء ، فإن المرئاضين الهنود يستطيعون أن يفعلوا ذلك أيضاً ولا فخر لك على أحد .

ولو أمعنت النظر في المشكلات والمعضلات والموانع التي كانت تواجه قائد الثورة الإسلامية في إيران ، لأيقنت استحالة قيام هكذا ثورة ، فالعلماء قالوا بالاستحالة ، والمراجع قالوا بذلك أيضاً والطلاب والمدرسون وعمامة الناس كلهم قالوا باستحالة قيام ثورة إسلامية .

ولكن الشخص الوحيد الذي قال بصيرورتها ووجوب قيامها بالعمل الجاد والاستقامة ، الذي تمكن من ورود الميدان والانتصار فيه على أعدائه وأعداء الله سبحانه وتعالى هو قائد الثورة الإسلامية مؤسس جمهوريتها .

وبناءً على هذا ، فإن الحرب القائمة في دواخلنا أصعب وأشد من تلك الحرب التي يمكن أن تقوم خارج النفس البشرية ، ومن أراد أمراً وسعى لذلك ، نال ما يريد وفاز بلذة الانتصار الحقيقي .

إن اليأس والسرور في الخيال من أخطر المسائل التي يمكن أن تلحق الضرر بالإنسان ، وخصوصاً أولئك المحسوسين على دائرة ضعاف الأعصاب والنفوس ، فاليأس والضرب بأنواع الخيالات يرُدُّ الإنسان إلى الوراء بخطوات مهزوزة ويجعله يردد عبارات : « لا يمكن » و « لا أستطيع » و « مستحيل » بالرغم من خطأ الارتكان إلى هكذا عبارات بنظر الإسلام ، وعلم النفس والتجربة والتاريخ .

انظر إلى التاريخ وشاهد كيف تحوّلت المستحيلات إلى إمكانات ، فالرسول الكريم محمد (ص) على الرغم من العقبات والموانع الكثيرة التي اعترضته عشر سنوات في المدينة وبرز (٧٤) حرباً أو غزوة ، فهو لم يكن يائساً من بزوغ شمس الانتصار .

لقد تعرّض (ص) للضرب والشتم ، وتعذيب أصحابه وأجابه وتعريضهم للمجاعة في شعب أبي طالب ثلاث سنوات متتالية حتى بلغ الأمر مبلغه في موت أبنائهم من الجوع والعطش الذي أصابهم آنذاك ، وعرض المشركون على الرسول (ص) أن يترك هذا الأمر على أن يجعلوا أترامهم ويزوجوه أجمل بناتهم ، ويطيعوا له إن أراد رئاسة مقابل عدم التعرض لأوثانهم وأصنامهم ، ولكن الرسول الأكرم (ص) أبى ألا أن ينشر دين الله - جلّت قدرته - بمواظبته على العمل الجاد المقترن بالصلاة والإصرار .

كان المرحوم الملا صالح المازندراني تلميذاً عند المجلسي وزوج ابنته ، وكانت تلك الابنة من النساء الجليلات العالمات المتخصصات في الفقه والأصول .

يقال : إن الملا صالح وفي أول ليلة عرسه كان مشغولاً بإحدى المسائل المستعصية عليه ، وما إن مضى من الليل ثلثاه حتى بدا التعب على الملا صالح فترك المسألة وخرج من حجرته إلى باحة الدار ، ليستنشق الهواء النقي ، وعندها تدخل العروس حجرة الدرس لتحلّ المسألة دون أن يشعر بذلك الملا صالح ؛ وعند رجوعه ثانية إلى حجرته رأى حلّ مسألته ؛ فانتبه حينئذ إلى عروسه التي تركها لوحدها .

لقد كتبوا كثيراً عن الملا صالح ، وضعف حافظته التي تخونه في بعض الأحيان ، فلا يعرف كيف يرجع إلى داره ، ولكن هذا الشخص الذي كان يضع مكان داره تمكن بتأثير العمل الجاد والإصرار على النجاح والاستقامة من كتابة أفضل شرح للكافي ، حيث لا يتأتى لأحد أن يكتب هكذا شرح إلا من كان متخصصاً في الأصول ، وإذا ما أردنا طباعة شرحه ذلك لأضحى (٣٠) مجلداً إذا ما قيس بالكتب ذات القطع المتوسط .

كتب الغزالي في إحياء العلوم : تزامن سفر شائبين إلى الحج في آن واحد ، وعند منتصف الطريق نزلاً معاً في مكان واحد ، فذهب الأول لتهيئة الطعام ، وجلس الثاني لقراءة القرآن ؛ وعند عبور إحدى فتيات سكان البادية من هناك وكان غرضها الاستجداء ، وهي ذات جمال ، أخرج قاريء القرآن من أمواله شيئاً ليتصدق به عليها ؛ وما إن رفع رأسه ليشاهد وجهها حتى شعر بتلاطم روحه التي كانت تصطرح معه لإحساس فيه بالذنب ، فبدأ بالبكاء كامراً فقدت طفلاً لها ممّا اضطر الفتاة الجميلة للفرار من ذلك المنظر العجيب .

جاء صاحبه ليشاهده على تلك الحال فسأله عن السبب في ذلك ، ولكنّ الفتى لم يستطع الجواب من شدة الانزعاج الذي كان يشعر به ، ولكنه استطاع أن يتفوه بجملته هي : إلهي أدركني ! لقد قاربت على المعصية ؛ وما إن سمع صاحبه بذلك حتى انهالت دموعه ، فسأله الشاب : لماذا تبكي أنت ؟ فقال : لو كنت مكانك لوقعت يقيناً بالخطيئة والمعصية !! .

كيف يمكن للإنسان أن يصل إلى حالة من السيطرة على النفس الأمانة بالسوء ؟ .

وكيف يتأتى له الانتصار في هذه الحرب الداخلية ؟ .

يقول القرآن المجيد : ﴿ فإذا فرغت فانصب ﴾^(١) ، أي : عليك أن تعمل بجدّ ونشاط وإصرار على أن تنجح مستفيداً من الاستقامة في العمل لتصل إلى الدرجات العُلى ؛ وإذا افتقر العمل إلى النشاط والجدية أضحي ناقصاً .

وعلى حدّ قول الإمام موسى بن جعفر الكاظم (ع) : « يَبْأَكُ وَالْكَسَلُ وَالضَّجْرُ ، فَإِنَّهُمَا يَمْنَعَانِ حَظَّكَ مِنْ خَيْرِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ »^(٢) .

قال موسى (ع) : « يَا رَبِّ ! أَيُّ عِبَادِكَ أَبْغَضَ إِلَيْكَ ؟ قال : جِيفَةٌ بِاللَّيْلِ بَطَالٌ بِالنَّهَارِ »^(٣) .

(١) سورة الانشراح، الآية ٧ .

(٢) وسائل الشيعه/ج ٦٦ ، خ ١ .

(٣) بحار الأنوار/ج ٧٦ ، ص ١٨٠ .

وقال تعالى في محكم كتابه : ﴿ وَابْتَغِ فِي مَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيكَ مِنَ الدُّنْيَا ﴾ (١) .

وقال أيضاً في محكم كتابه : ﴿ إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحاً طَوِيلاً ﴾ (٢) ، وجاء أيضاً : ﴿ قَمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلاً ﴾ (٣) .

إن ذلك الخطاب الموجّه إلى الرسول الأكرم (ص) بشكل خاص وإلى العباد بشكل عام يؤكد العمل والنشاط اليومي ، والقيام لصلاة الليل . ومن فعل ذلك أوصله الباري إلى ما يريد في الدنيا والآخرة .

وإن هؤلاء الشباب الذين يعملون جاهدين لدفع العدو الظالم عن بلادهم هم من الذين تركوا الكسل والضجر وابتأوا يرومون السمو والرفعة رافضين كل أنواع الانحطاط والسقوط الذي يتأتى من الكسل والضجر .

يقال : إن موسى (ع) أمر بني إسرائيل بصلاة الليل مثلما أمرهم بدخول الأرض المقدسة التي كتب الله لهم فأبوا ، وسأله أن يدعو ربه أن يخرج لهم مما تنبت الأرض من بقلها وقثائها وفومها وعدسها وبصلها ، فابتلاههم الباري تعالى بالتبّيه ، يتيهون في الأرض أربعين سنة . (الإصحاح الثاني والثلاثون من سفر الخروج) .

هذه هي المرحلة الأولى من مراحل السقوط والانحطاط وآخرها التكذيب بآيات الله كما جاء ذلك في القرآن الكريم : ﴿ ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاءُوا السُّوأى أَن كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ ﴾ (٤) .

فالسقوط والانحطاط هو أن يصل الإنسان إلى مرحلة يتكرّر فيها مثلاً للمبدأ والمعاد ، ويصل إلى أكثر من ذلك وهو التلذذ بالمعصية ؛ وقد كتب بعضهم بصدد الحرب التي قامت بين كندا وأفغانستان ؛ إن الكنديين كانوا يلتذون بتعليق

(١) سورة القصص، الآية ٧٧ .

(٢) سورة العزمل، الآية ٧ .

(٣) سورة العزمل، الآية ٢ .

(٤) سورة الروم، الآية ١٠ .

الأطفال بين جمع من الناس ثم يطلقون الرصاص على رؤوسهم أو صدورهم مع قهقهات عالية .

أو يلتذون بتجميع النساء والرجال في مكان واحد ، وينادون أحدهم للقيام من جلوسه ليفاجأ بإطلاقه في رأسه ؛ أو إحراق البيوت على رؤوس ساكنيها مع إظهار حالة التلذذ بذلك بالاحتفال الذي كان يقوم به الكنديون آنذاك .

قرأنا الكثير عن الحجاج بن يوسف الثقفي في التاريخ ، وكنا لا نصدق ببعض مواقفه المخزية ، أما الآن وما يمكن أن نشاهده من انحطاط وسقوط يؤكد لنا سيرة الحجاج الوضيعة والمخجلة .

كان الحجاج لا يطعم طعاماً إلا بحضور رأس مقطوع لأحد معارضيه من أولئك الذين قالوا : لا إله إلا الله محمد رسول الله .

ويقال : جيء بأحد محبي أهل البيت (ع) إليه وهو جالس إلى طعامه ، فما دخل عليه حتى قال المحب لأهل بيت الرسول (ع) : « الله أكبر » .

فقال الحجاج : لِمَ قلت : « الله أكبر » ؟ .

فأجاب : وهل في ذلك معصية ؟ .

فقال الحجاج : وتكلم في حضوري دون إذن مني ؟ يبدو أن لك قلباً قوياً !! أيها الجلاد افتح صدره بسيفك كي أرى قلبه ، فجاء الجلاد وفتح صدره وأخرج قلبه !! فالتذ الحجاج بذلك المنظر ليتناول طعامه والدم يسيل من ذلك المظلوم ! .

إن البشر إذا سقط كان كالحجاج الذي لم يعرف غير الهوى وانحطاط النفس المغلوبة على أمرها وهذا ما نراه جلياً في نفس صدام اليوم الذي هوى وتساقط إلى الحضيض .

إن صداماً لم يكن على الشكل الذي هو عليه الآن حين ولادته ، بل كانت فطرة الله ملاصقة له حين الولادة ، وكذا الحجاج كان مفطوراً على فطرة الله التي فطر الناس عليها ، ولكنه بفعل الخطايا والمعاصي والتماذي في

ذلك صار وحشاً ضارياً لا يعرف إلا التلذذ بسيلان الدماء البرينة .

لقد كان عبد الملك بن مروان يسمى دائماً « حمامة الحرم » لحضوره الدائم في المسجد ، وكان يقول بتأثره لقتل بعوضة ، ولكنه تغير بعد ذلك بحيث صارت ترسل إليه الأفواج من الناس لقطع رؤوسهم !! .

ونقرأ في الروايات : أن اليهود قتلوا في ليلة واحدة (١٢٠) نبياً من أنبياء بني إسرائيل ليمارسوا أعمالهم المألوفة صباح اليوم التالي بكل هدوء ؛ وهذا هو عين السقوط والانحطاط ، ومن الممكن أن نزرع لذبح دجاجة ، ولكننا نريق ماء وجه مسلم من خلال اغتيابه أو إشاعة فحشاء أو نصرة ظالم على مظلوم وهذا هو قمة السقوط الذي يبدأ بمراحل أقل من ذلك شدة قد نعتبرها لا شيء .

وأنتم أيها المعلمون : لا ينبغي لكم التظاهر بالحب والود لأصحابكم أو لزملائكم الذين يعملون معكم ، وفي غيابهم تكيلون لهم السباب والشتائم ، وتفضحون ما خفي من أعمالهم متلذذين بما تقومون به من تدنٍ وانحطاط وأنتم لا تشعرون ، حتى تضحي تلك المسائل عادة ملازمة لكم وتضحي مجالسكم مجالس غيبة ونميمة وسوء - والعياذ بالله - ومن يفعل ذلك سيلقي حسابه في يوم لا تنفع فيه شفاعة الشافعين حيث يبذل الله جلود المراءغين بجلود غيرها ﴿ كلما نضجتْ جلودهم بدلتناهم بجلوداً غيرها ﴾ (١) .

فالمهمزُ واللمزُ والغيبةُ والنميمةُ وما إلى ذلك تؤدي في آخر المطاف بالعمل بها إلى الحطمة ، والحطمة هي نار الله التي أوقدها لكي يلوح بها الإنسان فتطلع على فؤاده الأثم .

﴿ ويبلُ لكلُّ همزةٍ لُمرّةٍ ، الذي جمعَ مالاً وعددهُ ، يحسبُ أنَّ مالهُ أخذهُ ، كَلَّا لِيُنْبَذَنَّ فِي الْحُطْمَةِ ، وما أدراك ما الحُطْمَةُ ، نارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ ، التي تَطَّلِعُ على الأثْمَةِ ﴾ (٢) .

والجدير بالذكر أن البعض من الذين ارتكبوا المعاصي التي جرتهم إلى

(١) سورة النساء، الآية ٥٦ .

(٢) سورة الهمزة، الآيات ١ - ٧ .

الانحطاط والتدنّي يجادلون الباري تعالى في تعذيبه لهم فيجيبهم جلتُ
أسماءه : ﴿ اخسأوا فيها ولا تكلمون ﴾ (١) .

فيا أيها الأعرّة : انتبهوا لأفعالكم وأقوالكم ولا تعرضوا أنفسكم للعذاب
الاليم الذي أعدّه الله للمسيئين الخاطئين ، فمن لم يلق حسابه اليوم سيلقاه غداً
عند مليك مقتدر ؛ وخلاصة القول : من لم يستطع الانتصار على باطنه سقط
وتهاوى وكانت له جهنم مآباً .

يقول عز وجل في محكم كتابه : ﴿ ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً من الجنّ
والإنس لهم قلوب لا يفقهون بها ، ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان
لا يسمعون بها ، أولئك كالأنعام بل هم أضل ، أولئك هم الغافلون ﴾ (٢) .

(١) سورة المؤمنون، الآية ١٠٨ .

(٢) سورة الأعراف، الآية ١٧٩ .

الإخلاص

بسم الله الرحمن الرحيم

خَلَصَ - خلوصاً ، وخِلاصاً : صفا وزال عنه شوبه ، وخَلَصَ بنفسه وإلى الشيء : وصل إليه فهو خالص ، وأخلص الشيء : أصفاه ونَقَّاه من شوبه ؛ وأخلص لله دينه : ترك الرياء فيه .

فمن تطابقت أفكاره وأعماله وأقواله مع ما جاء في القرآن الكريم فهو مخلص لله سبحانه وتعالى وسيكون الباري دائماً في عونته ونصره في حربه القائمة في كوامنه ليصل بعد ذلك إلى أهدافه السامية .

ومن أجل رفع المعضلات والمشكلات التي تقف حائلاً دون ذلك النصر علينا أن نلتزم الآية المباركة التي تقول : ﴿ إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴾ (١) .

جاء في القرآن المجيد أكثر من مائة آية يتعرض فيها الباري تعالى إلى الوعد بالسعادة للإنسان المتقي في الدنيا والآخرة ، وجاء فيها عشرون آية تنجلى فيها لطف الله وعنايته للشخص المتقي في هذه الدنيا وحمانيته له .

فالمتقي لا يعرف ملجأً غير الله تعالى ولا يعرف مكاناً تأتيه منه النعم غيره تعالت أسماؤه وأخيراً فإن الباري يعين المتقي للوصول إلى الهدف السامي ألا وهو الفوز على نفسه الأمانة بالسوء في صراعه مع الخلدات والأهواء النفسية

(١) سورة محمد، الآية ٧.

البيضة ، ولا يتأتى للإنسان الفوز بذلك إلا بالالتزام لما أمر الله على لسان رسوله الكريم (ص) وعترته الطاهرة من بعده - سلام الله عليهم أجمعين - .

فمحرك الإنسان نحو الله هو الفكر والتفكير بالعواقب التي سيلاقيها البشر بعد انتقاله من دار الفناء إلى دار البقاء ، على العكس من ذلك ، نرى الفرد الذي اتخذ إلهه هواه ضالاً تائهاً ضائعاً وفي الآخرة ينتظره العذاب الاليم : ﴿ أفرأيت من اتخذ إلهه هواه ، وأضله الله على علم ﴾ (١) .

﴿ أَلَمْ آهَضْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴾ (٢) .

فمن أراد حياة هانئة سعيدة بلا اضطراب ينبغي له أن يلتجئ إلى المولى تعالى في كل أموره ، لأنه الوحيد الذي يمكن أن يصل بالإنسان إلى شاطئ الأمان والنجاة من المهالك الدنيوية والأخروية .

وقد قال الباري تعالى في ابتداء القرآن المجيد : ﴿ آلم ، ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ (٣) .

فمن رام الهداية والنجاة رجع إلى ما جاء في كتاب الله تعالى وتمعن في آياته العظام ليفهم منها أن الملجأ هو الله لا غير ، وما دونه زائل إلى غير رجعة فكيف يلتجئ البشر إلى من هم مثله ممن لا يستطيعون نصر أنفسهم .

أما المسألة الثانية فهي : من عمل عملاً لله خالصاً ، تمكن من سحق الصفات الرذيلة في نفسه واستطاع كسب الكثير من الصفات الحميدة ، وما ضعف الأعصاب والاضطراب والحقد والضعينة وما إلى ذلك إلا نتيجة لعدم الإخلاص في الأعمال له - تباركت أسماؤه - .

فالمرأة العاملة في بيتها بجد ونشاط تخدم زوجها وتطيعه وتربي أبنائها وتلتزم تربيتهم السليمة وتقول : ما أفعله الله ، لأنه تعالى أمر بذلك ، ولا تتوقع

(١) سورة الجاثية، الآية ٢٣ .

(٢) سورة يس، الآية ٦٠ .

(٣) سورة البقرة، الآيات ١ و ٢ .

من أحد غير الله أجراً وثواباً لها مثل ما للشهيد المجاهد من أجر وثواب وحسنات .

قال رسول الله (ص) : « أيما امرأة خدمت زوجها سبعة أيام أغلق الله عنها سبعة أبواب النار ، ولتح لها ثمانية أبواب الجنة تدخل من أيها شاءت » (١) .

فمن حملت تريد بذلك تربية جيل ونشء صالح مهذب ، عد ذلك حملاً في سبيل الله ، وما إن تضع وليدها حتى يحتسب لها أجر العامل في سبيل الله تعالى لخلوص في نيتها غير المشوبة .

قال رسول الله (ص) : « ما من امرأة تسقي زوجها شربة من ماء ، إلا كان خيراً لها من عبادة سنة .. » (٢) .

وكذا الأمر بالنسبة للرجل الذي يكذب على عياله قرينة إلى الله تعالى ، قال الإمام الصادق (ع) : « من حسن بره بأهله زاد الله في عمره » (٣) .

فالرجل الذي يخرج من بيته صباحاً ، ونيتة أن يحصل على رغيف العيش ليديم حياة وزوجه وابنه يعد مجاهداً في سبيل الله شريطة أن يكون محرّكه الأساسي هو الله تعالى ، أي معرفته بأن الباري سوف يبيئه على عمله ذلك وليس غيره ، لكونه يفكر بأن الذي بين يديه هو أمانة ، فإذا رباه تربيةً سالحةً إسلاميةً يكون قد نهض بالمجتمع إلى حيث يريد الباري تعالى وبذلك يكون مثل ذلك الذي أحيا الناس جميعاً .

أما ذلك الذي يعمل بغير نية الحصول على الأجر والثواب أو كسب رضا الباري تعالى وتنفيذ أمره ، يخرج صباحاً للعمل ويرجع عصراً متعباً ويتوقع أن يجد الراحة والهدوء في بيته ، ولا يجد ذلك في بعض الأحيان فتراه يفعل ويفضب ويتكبر ويرعد ويزيد لكونه هو الذي جاء بالمال بدون أن يعمن التفكير بأن الذي عمله وكسب به الأموال ليأتي بها إلى عياله ما هو إلا قانون أمر به

(١) وسائل الشيعه/ج ١٤ ، ص ١٢٣ .

(٢) وسائل الشيعه/ج ١٤ ، ص ١٢٣ .

(٣) بحار الأنوار/ج ١٠٣ ، ص ٢٢٥ .

الله تعالى ولكنه لا يعرف العمل لوجه الله ، بل يعرف أنه يعمل فقط ولا غير سوى ذلك ! .

لمن ؟ ولماذا ؟ وماذا ينبغي أن يترتب على ذلك ؟ .

هذه كلها أسئلة غريبة عليه ، ماذا يعني العمل لوجه الله تعالى .

هنيئاً لأولئك الرجال والنساء الذين يتمكنون من طلي أفكارهم ، وأقوالهم وأفعالهم بصبغة الله ، وأن الصبغة تختلف من مكان لآخر ، لكون بعض الأصباغ تضحل وتلاشى على العكس من صبغة الباري تعالى وهي تلك التي نراها مثلاً في الدجاجة السوداء التي لا يمكن أن يُزيل أحد صبغتها ؛ ﴿ صبغة الله ، ومن أحسن من الله صبغة ﴾ (١) .

فيا أيها الأعرّاء ، اعملوا عملاً يكون المحرك فيه ضمن حياتكم هو الله - جلّت أسماؤه وتعالّت صفاته - وقد يكون الأمر مشكلاً بعض الشيء ، ولكنكم ستشعرون بلذّة ما بعدها لذّة .

كتب الغزالي في « إحياء العلوم » أن شخصاً بعث إلى « حمص » والياً عليها ، وبعد مدة من الزمن شكاه أهلها ، فطلب الوالي للمثول أمام القاضي في المدينة دون أن يلاقي أحداً من الناس ، فحمل الوالي أسبابه على رأسه وسار ماشياً من حمص ليصل إلى المدينة ومن ثمّ ليدخل مسجدها الذي هو عبارة عن دار قضائها ، فقال له القاضي : شكاك أهل حمص بثلاث ، وعليك أن تجيب :

١ - يقولون : إنك تخرج من دارك صباحاً متأخراً ، لتصل إلى عملك متأخراً أيضاً .

فقال : صحيحٌ ما قالوا .

٢ - يقولون : إنك موجود في النهار ومفقودٌ في الليل .

فقال : صحيحٌ ذلك .

٣ - أما الشكاية الثالثة ، فهي أنك تغيب في أحد الأسبوع نهاره وليله .

(١) سورة البقرة، الآية ١٣٨ .

فقال : صحيح ما قالوا .

أما الإجابة على تلكم الشكاوى ، فهي :

أن خروجي متأخراً صباح كل يوم يرجع في الأساس إلى أنني تقاسمت مع زوجتي أعمال المنزل ، فصار الخبز من نصيبي ، ويسبب ذلك تأخر عن الخروج من الدار كيما يختمر العجين لأخبزه ، وإنني أشرع بعجنه بعد صلاة الصبح ، فأتأخر بعض الشيء عن الوصول إلى دار الإمامة .

أما غيابي في الليل : فقد قسمت وقتي بين الناس والباري تعالى ، فأعطيت جهدي في النهار للناس ، وسكن قلبي لله عندما تغفو العيون أملاً أن أجد علاقةً مع الله تعينني على قضاء حوائجي .

أما اليوم الذي لا أخرج فيه أبداً من داري والذي لا يراني الناس فيه لا نهاراً ولا ليلاً نسبته عدم امتلاكي للباس آخر ، لذا أكون مضطراً للبقاء في الدار بعد أن تغسل امرأتي جميع البستي ، وبما أن الجو بارد بعض الشيء في حمص ، ولا تجف الملابس بسرعة أبقى ملازماً لمنزلي طيلة النهار وجزءاً من الليل .

وعندها منحه القاضي جائزة ، وقال له : ارجع إلى عملك مؤيداً منصوراً .

فرجع الوالي إلى حمص ، وقبل أن يذهب إلى داره ، ذهب إلى المسجد وقال للمؤذن قل للناس : إن الوالي أصبح ثرياً ، وإن الأموال لا تتعلق ببيت المال ، فمن أراد أن يصيبه شيء من ذلك من الفقراء والمساكين فليأت وليأخذ سهمه .

فجاء الناس إلى المسجد ليحفظوا بالأموال التي كان يوزعها الوالي دون أن يحصيها ، فقد كان يدفع بها إليهم قبضات قبضات ؛ وما إن فرغ من ذلك بعد أن أخذ الجميع ما طلبوا ، بقي من الأموال نزر يسير حملة وسار إلى منزله ، وهناك حكى لامرأته ما حصل فباركت له الأمر وقالت له : استتر لنا بما بقي من النقود خادمة تساعدني في أمر الخبز كي لا يشكوك الناس ثانية بسبب تأخرك صباحاً ، فقال : إن للنقود مكاناً آخر - ولم يكن يعلم لها شيئاً - ولم تمض عدة

أيام حتى جاءه أحد المساكين ليعطيه ما عنده من النقود ثم يلتفت لزوجته فيقول لها : إن عملنا في الدار وتعبنا سيؤول إلى زوال ، ولكن الصدقة سنبقى ثابتة وباقية لنا عند الباري تعالى ، وهذا أفضل من بقاء المال الزائل في الدار ، ففرحت الزوجة بحديثه الصائب وباركت له حسن نيته .

﴿ إِنَّمَا نَنْعَمُكُمْ لِرُجْحِ اللَّهِ لَا تُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا ﴾ (١) .

أما اليوم لو حدث لأحد الولاة مثلما حدث لذلك الوالي من شكاية لرجع وعلا المنبر ، وسأل الناس عن سبب شكائتهم ، ومن هم الذين أوصلوا الشكوى إلى القاضي ، وحينئذ يشرع بالظلم والقتل والسب والشتم ، لكون عمال اليوم لا يعملون لوجه الله تعالى ولكون المحرك لهم ليس الله ، بل هو أهوائهم وشهواتهم المضلة لهم عن طريق الحق والصواب .

إن الآية التي ذكرنا نزلت بحق أهل بيت الرسول الأكرم (ص) حيث كانوا صياماً جميعهم (علي ، فاطمة ، الحسن ، الحسين) - سلام الله عليهم أجمعين - لتصدقتهم بما كانوا يريدون أن يفطروا به إلى أسير ومسكين ویتيم .

ولا ننسى أن نتعرض هنا إلى أن الزهراء - سلام الله عليها - كانت علاوة على خبزها تقوم بطحن القمح والشعير ، وكانت تغالب التعب والنعاس الذي كان يصيبها من شدة العمل .

إنها كانت تذوق مرارة الدنيا لتحظى بحلاوة الآخرة ؛ لم يكن لديها خادمة ، فطلبت ذلك إلى والدها (ص) ، فقال لها بقول « الله أكبر » (٣٤) مرة ، والحمد لله (٣٣) مرة ، وسبحان الله (٣٣) مرة بعد الانتهاء من الصلاة .

وفضّل الرسول (ص) هذا الذكر على ما في الدنيا جميعاً من أذكار ، ثم قال : « تعرّضوا لرحمة الله بما أمركم به من طاعته » (١) .

وبعد ممارسة الزهراء - سلام الله عليها - للتسبيحات التي تعلّمتها من أبيها رزقها الله بخادمة اسمها فضة .

(١) سورة الإنسان، الآية ٩.

(٢) تنبيه الخواطر/ص ٣٦٠ .

وفي زماننا هذا اشتهر بين العرب يوم فِضَّة حينما يريدون تقسيم العمل فيما بينهم ، تيمناً بذلك اليوم الذي قسمت فيه الزهراء - سلام الله عليها - العمل بينها وبين خادمها فِضَّة .

وبناءً على ما تقدم ، ينبغي لنا ولكم أن يكون محرِّكنا هو الله الذي يجب أن نعمل من أجله فقط ، ولا نتنظر من أحد حمداً ولا شكوراً كيما نصل إلى ما نريد وما يرضي الباري - تعالت أسماؤه - إذا أردنا حياة سعيدة هائلة .

﴿ فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ، الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ ﴾ (١) .

فالذين ييغون أمناً في حياتهم وهدايةً نحو الله تعالى عليهم أن لا يلبسوا إيمانهم بظلم ، وهم أحقُّ بالأمن من غيرهم لأنهم كانوا يعملون من أجل رضا الله ووفق أوامره التي أجزاها على لسان عبده ورسوله محمد بن عبد الله (ص) .

﴿ إِنْ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا ﴾ (٢) .

أي سيجعل لهم العزيز القدير محبة خاصة في قلوب الناس ، وسيجعل لهم بهاءً وأبهةً وحساباً لا يناله إلا من آمن وعمل بما اعتقد به من إيمان ؛ أما الذين اتخذوا هواهم إلهاً لهم فلن يتأتى لهم الانتصار على خلجات نفوسهم وطلباتها غير المتناهية ، وسيغريهم الشيطان جميعاً إلا المخلصين من عباد الله الصالحين .

﴿ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغَوِّيَهُمْ أَجْمَعِينَ ، إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴾ (٣) .

إلهي نسألك وندعوك باسمك العظيم الأعظم أن تحفظ شبابنا من البليات والمصائب ، ووقتنا للاتباه والالتفات إلى نعمائك كيما نصل بأفكارنا وأرواحنا إلى مقام العبودية لك وترك المعصية واجعل نياتنا خالصةً لوجهك الكريم دون

(١) سورة الأنعام، الآيتان ٨١ و ٨٢ .

(٢) سورة مريم، الآية ٩٦ .

(٣) سورة ص، الآيتان ٨٢ و ٨٣ .

الناس ، وأقولنا تصبُّ في سبيلك الذي لا بد وأن يؤدي بسالكه صوب
الخلاص من النار الحامية ، وصلى الله على محمد وآل محمد .

صلاة الليل

بسم الله الرحمن الرحيم

إن القوة أو القدرة السابعة التي يمكن من خلالها الانتصار في حربنا على كوامتنا هي قيام الليل ، والنهوض بين الطلوعين .

لقد اهتم القرآن الكريم بقيام الليل والسحر وطلوع الفجر إلى طلوع الشمس بشكل خاص ، فأقسم المولى تعالى بالفجر وبصلاة الليل ، فقال عز وجل : ﴿ والفجر وأبالي عشر ، والشفع والوتر ، والليل إذا يسر ، هل في ذلك قسم لذي حجر ﴾ (١) .

وقد توج المولى قسمه بجملة : ﴿ هل في ذلك قسم لذي حجر ﴾ والجحر هو العقل ، فمن كان له عقل يدرك هذا القسم الجليل لله سبحانه وتعالى وأهميته .

فالقسم بالفجر ، وبالليالي العشر ، وبصلاة الليل المشتملة على ركعتي الشفع ، وركعة الوتر ، ومجمل الليل الساري يحظى باهتمام الباري تعالى .

وهناك آيات كثيرة تتعرض لأوقات السحر الذي هو قلب الليل ، والوقت الذي يسبق طلوع الفجر ، قال تعالى : ﴿ والليل إذا عسعس ، والصبح إذا تنفس ﴾ (٢) .

(١) سورة الفجر، الآيات ١ - ٥ .

(٢) سورة التكوثر، الآيات ١٧ و ١٨ .

وفي مكان آخر من القرآن المجيد نقراً : ﴿ واللَّيْلِ إِذَا أَدْبَرَ ، وَالصُّبْحِ إِذَا أَسْفَرَ ﴾ وهي إشارة إلى آخر قسم من الليل أي السَّحْرِ الَّذِي هُوَ قَبْلَ طُلُوعِ الْفَجْرِ .

أما الصبح إذا أسفر ، فهو كناية عن الوقت السابق لطلوع الشمس .

إن الصلاة وممارسة الأذكار قبل الطلوعين لها أثر عظيم وعظيمة وفائدة قصوى في صلاح هذه الأمة المرحومة ، وقد تعرض القرآن الكريم لهذه المسألة بشكل مشير ، وحدد لها الثواب الجزيل والمقام المحمود ﴿ أقيم الصلاة لِذُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنِ الْفَجْرِ ، إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُوداً ﴾ (١) .

في هذه الآية المباركة يحدد الباري تعالى لنا الصلوات الخمس التي تجب علينا من أول الظهر إلى نصف الليل أربعة صلاة هي : الظهر ، العصر ، المغرب والعشاء ، ومن ثم يقول : ﴿ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ ﴾ عانياً بها صلاة الصبح التي يكون أجرها وثوابها مساوياً لجميع تلك الصلوات الأربع لكونها في أول الوقت بين الطلوعين ؛ أما صلاة الليل ، فلها آيات لوحدها إضافة إلى ذكرها مع الآيات المتعرضة للصلوات الخمس ؛ قال تعالى : ﴿ وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ ، عَسَىٰ أَنْ يَمُنَّكَ رَبُّكَ مَقَاماً مَّحْمُوداً ﴾ (٢) .

إن هذه الآية المباركة تبين لنا بكل وضوح وصراحة المقام المحمود الذي يمكن أن يسعد به الإنسان بإقامته لهذه النافلة التي تكتمل بها الصلوات الخمس لينال أعلى المراتب والدرجات في الدنيا والآخرة بعد أن يتمكن من ترويض نفسه التي تميل بطبعها للراحة والدعة .

فمن أراد أن يحظى بإرادة قوية ، ونفوذ كلمة في المجتمع وعزة وجلال وحل للمعضلات والثوابت فليقم هذه الصلاة في قلب الليل والناس نيام ، وهذا ما أثبتته علماء النفس العصريون أيضاً .

قال رسول الله (ص) : « إن العبد إذا خلا بسيدته في جوف الليل المظلم

(١) سورة بني إسرائيل ، الآية ٧٨ .

(٢) سورة بني إسرائيل ، الآية ٧٩ .

وتجاه أثبت الله النور في قلبه .. ثم يقول لملائكته : « ملائكتي انظروا إلى عبدي فقد تخلي بي في جوف الليل المظلم والبطالون لاهون ، والغافلون نيام ، اشهدوا أنني غفرت له »^(١) .

وقال (ص) أيضاً : « من رُزق صلاة الليل من عبد أو أمة قام لله عز وجل مخلصاً فتوضأ وضوءاً سابقاً ، وصلى لله عز وجل بنية صادقة ، وقلب سليم وبدن خاشع ، وعين دامعة ، جعل الله تبارك وتعالى خلفه تسعة صفوف من الملائكة ، في كل صف ما لا يحصي عددهم إلا الله تبارك وتعالى أحد طرفي كل صف بالمشرق ، والآخر بالمغرب ، قال : فإذا فرغ كتب له بعددهم درجات »^(٢) .

فمن أراد الحياة الدنيا فليهتم بهذا البحث الذي يتطرق لصلاة الليل ليفوز بسعادتها ، ومن أراد الحياة الآخرة ، فليمعن النظر في هذا البحث الذي يهتم بأفضل القوى التي تأتيه من خارج بدنه لتصل به إلى عنان السماء : ﴿ إن ناشئة الليل هي أشد وطأً وأقوم قبلاً ﴾^(٣) .

إن الحالة التي يعيشها الإنسان في قلب الليل الدامس ينظر علماء النفس وعلماء الأخلاق ، وينظر القرآن والروايات المتواترة حالة مساهمة في بناء النفس الإنسانية ، ولا يمكن إدراك هذه الحالة إلا للذين عاشوها لخصوصيتها .

إننا نبقى في العادة يقظين يوماً حتى الساعة الحادية عشرة أو الثانية عشرة وهذا يعدُّ أول الليل . ومن انشغل به بعبادة كمن انشغل بها في وسط النهار ، وأول النهار أو أول الليل لا يعطي شيئاً للإنسان إذا قيس بتلك العبادة التي تكون آخر الليل أو بالأحرى في وقت السحر ، وأن تأثير اليقظة في آخر الليل ملموس حتى لو كان بدون عبادة .

ولذا نقرأ أن إحدى مستحبات ليالي الإحياء أن يكون الفرد صاحياً أو يقظاً

(١) بحار الأنوار/ج ٣٨ ، ص ٩٩ ، بحار الأنوار/ج ٧٣ ، ص ١٢٠ .

(٢) بحار الأنوار/ج ٨٢ ، ص ٢٠٤ .

(٣) سورة العزمل ، الآية ٦ .

طوال الليل ، حتى ولو كان ذلك بلا عملٍ أو ممارسة عبادية .

ونقرأ في الروايات التأكيدات الكثيرة لصحة الإنسان بين الطلوعين ، ولو بلا ممارسة لصلاة الليل ، لكون البقاء بلا نوم بين الطلوعين أو في آخر وقت من الليل مفيداً جداً للإنسان من ناحية نفسية ، ومفيد جداً في إيجاد نشاط خاص حيث يساعد في رفع الحزن والهم والاضطراب من النفس البشرية .

إن الكثير من الأجلاء يسعون للنوم في أول الليل ليقوموا في آخره ، وإن الغالبية العظمى منهم يؤجلون مطالعاتهم إلى آخر الليل لينشغلوا بالعبادة بين الطلوعين ثم يمارسوا قراءة القرآن بعد صلاة الفجر ويقال : إن الدعاء مستجاب بين الطلوعين وإن قراءة القرآن حينها مؤثرة جداً وتترك أثرها الإيجابي على الروح البشرية ؛ ومن لم يستطع أن يتعبد في ذلك الوقت الحساس ينبغي له أن ينجز ما لديه من أعمال كان يكون مطانعةً أو ما شابه ذلك لكي يحظى بالتأثيرات التي ترافق ذلك الوقت المبارك .

لقد كان الرسول (ص) والأئمة من أهل بيته عليهم السلام ينامون أول الليل ليصحو في آخره ، وإن أغلب الأخوة من السنة ملتزمون لهذا فيحضرون في المسجد قبل طلوع الفجر ، وقد لاحظ إخواننا الإيرانيون ذلك عند ذهابهم لحج بيت الله الحرام .

وصلاة الليل تتكوّن من إحدى عشرة ركعة ، تكون النية في الثمانية الأولى منها على أنها صلاة الليل ، وتكون ركعتين ركعتين .

أما الركعتان التي تلي الثماني الأولى ، فهي ما يصطلح عليها بصلاة الشفع التي تسبق الركعة الأخيرة المسماة الوتر ، ولا تغور في تفصيلاتها وفي قنوتها ويستحب الدعاء فيها لأربعين مؤمناً حياً كان أو ميتاً ، وتكرار كلمة العفو (٣٠٠) مرة ؛ ويفضّل قراءة بعض الأدعية بعد الانتهاء من صلاة الوتر .

إن الممارس لصلاة الليل يشعر بالتعب أول الأمر ، ثم يعود هذه الصلاة لتضحى ملكةً في حياة الفرد المؤمن ، وينبغي للمصلي لمراعاة التعب الجسمي في الوقت الذي يحاول فيه تقوية روحه ، ويمكن تشبيه هذه الحالة بحالة الحصان الجامح ، فلو أردنا الاستفادة من الحصان الجامح علينا أن نلجم فمه

في الوقت الذي نراعي فيه مسألة غذائه وسقيه وراحته .

إن القيام لصلاة الليل بالنسبة للمبتدئين يجب أن يكون بشكل مختصر جداً حتى يمكن ترويض النفس للنهوض في الساعة الأخيرة من الليل قبل أذان الفجر والقيام بها على أتم وجه ، وقد تطرق القرآن الكريم لهذه النقطة فقال عز وجل : ﴿ يَا أَيُّهَا الْمَرْمُلُ ، قُمْ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلاً ، نَفْصَهُ أَوْ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلاً ، أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً ﴾ (١) .

أما بالنسبة للصلاة في أول الوقت فقد قال الإمام الباقر عن جده رسول الله (ص) أنه قال : « إعلم أن أول الوقت أبدأ أفضل ، فعجل بالخير ما استطعت ، وأحب الأعمال إلى الله ما داوم العبد عليه وإن قل » (٢) .

قال الإمام الصادق (ع) عن جده رسول الله (ص) أنه قال : « لكل صلاة وقتان : أول وآخر ، فأول الوقت أفضله ، وليس لأحد أن يتخذ آخر الوقتين وقتاً إلا من علة ، وإنما جعل آخر الوقت للمريض والمعتل ، ولمن له عذر ، وأول الوقت رضوان الله ، وآخر الوقت عفو الله » (٣) .

إن البحوث الأخلاقية تختلف بطبيعتها عن البحوث الفلسفية ، لكون البحوث الفلسفية مشكلة من القول والسمع حيث لا يتأتى لنا التطرق إلى الحركة الجوهرية لملاً صدرا ، وطرحها على بساط البحث معكم ، ولو تأتى أن أكتب فيها إليكم لعامٍ كامل لما استفدتم شيئاً ولما استفدت أنا أيضاً ، ولكن البحوث الأخلاقية بلحاظ القول والسمع سهلة ومقبولة ناهيك عن أنها محببة إذا ما تمعن القاريء أو السامع فيها ، ولكن العمل بها لا يخلو من الصعوبة ، فالكل يعرف أن التكبر صفة متدنية ، والكل يدرك ذلك بالفطرة ، والتواضع صفة حسنة ؛ أما الامتناع عن ممارسة التكبر فيدخل ضمن دائرة المستعصيات .

إننا نفهم جيداً أن قيام الليل يحظى بأهمية خاصة في القرآن المجيد ، وأن أول طلوع الفجر وقت مهم ، وكذا آخر الليل ، من خلال تعرض القرآن له

(١) سورة المزمل، الايات ١ - ٤ .

(٢) فروع الكافي/ج ٣ ، ص ٢٧٤ .

(٣) بحار الأنوار/ج ٨٣ ، ص ٢٥ .

في عدة أماكن ؛ وأنه يذهب بالغمّ والهَمّ ، ويزيد الإنسان قوّة ونشاطاً ، ليتمكن من الانتصار على النفس الأمّارة بالسوء ؛ وقد لا يتمكن الفرد من إنجاز ذلك مع تهيؤ جميع وسائل ذلك القيام من مثل وضع ساعة توقيت أو النوم مبكراً أو غير ذلك من الأمور والوسائل التي تساعد على ذلك النهوض .

وعدم الإمكانية في ممارسة ذلك القيام يرجع بالأساس إلى أن هذا التوفيق لا يحظى به إلا من أراد القرب مخلصاً من الباري تعالى وقد مثله البعض بمثل الكبريت الأحمر النادر الوجود ؛ إضافة إلى عمل الخطايا والمعاصي ، وأكل المال الحرام ؛ لتأثيرها الفاعل في الحيلولة دون هذا القيام ؛ قال الإمام الصادق (ع) : « لا تدع قيام الليل ، فإن المغبون من حرم قيام الليل »^(١) .

فالأعمال بشكل إجمالي لها تأثير مباشر في النهوض في قلب الليل وما نقوم به في النهار ينعكس سلباً أو إيجاباً علينا ليمنعنا أو ليساعدنا في إقامة صلاة الليل التي يقول بعض العلماء على أنها مكتملة للصلاة الواجبة .

يقول الأستاذ المرحوم عباس الطهراني : كان لي في النجف الأشرف من يعينني على القيام إلى صلاة الليل ، ولكنني لا أعرف من يكون ! - جاء في الروايات : أن المؤمنين توقظهم الملائكة لصلاة الليل - ففي بعض الأحيان أسمع نداءً أن يا عباس قم ، وفي البعض الآخر أسمع : قم يا هذا .

وقد حدث مثل هذا لأحد تلامذة المرحوم الطهراني فقد كان يقول : كنت أشعر أن أحدهم يركلني برجله لأنهض لصلاة الليل .

قال الإمام الباقر (ع) : « جاء رجل إلى أمير المؤمنين علياً (ع) فقال : إني قد حرمت الصلاة بالليل ، فقال : قيّدتك ذنوبك »^(٢) .

وقال الصادق (ع) : « إن الرجل يذنب الذنب فيحرم صلاة الليل ، وإن العمل السيء أسرع في صاحبه من السكين في اللحم »^(٣) .

(١) بحار الأنوار/ج ٨٣ ، ص ١٢٧ .

(٢) بحار الأنوار/ج ٨٣ ، ص ١٢٧ .

(٣) بحار الأنوار/ج ٧٣ ، ص ٣٣٠ .

وقال أيضاً (ع) : « إن الرجل ليكذب الكذبة فيحرم بها صلاة الليل^(١) .

إن صلاة الليل تمنح الإنسان لقباً في عالم الملكوت الأعلى إذا وازب على ممارستها ، وهذا اللقب هو « المتجهّد » .

فالرجل أو المرأة اللذان يحظيان بهذا اللقب في عالم الملكوت تعينهم الملائكة بأمر الباري تعالى في كثير مما استعصى عليهم من أمور ؛ وقد أشار الله سبحانه وتعالى إلى ذلك في الآية المباركة التي جاء فيها : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ ﴾^(٢) .

قال رسول الله (ص) : [قال الله تعالى] : « . . . إِنْ مِنْ عِبَادِي الْمُؤْمِنِينَ لَمَنْ يَجْتَهِدُ فِي عِبَادَتِي فَيَقُومُ مِنْ رَقَادِهِ وَلَذِيذُ وَسَادِهِ ، فَيَتَّهَدُّ لِي اللَّيْلِيَّ فَيَتَعَبُ نَفْسَهُ فِي عِبَادَتِي ، فَأُضْرِبُهُ بِالنَّعَاسِ اللَّيْلَةَ وَاللَّيْلَتِينَ نَظْرًا مِنْ لِيَّهِ وَإِبْقَاءً عَلَيْهِ ، فَيَنَامُ حَتَّى يُصْبِحَ وَهُوَ مَاقَتْ لِنَفْسِهِ ، زَارَ عَلَيْهَا ، وَلَوْ أُخْلِجَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ مَا يَرِيدُ مِنْ عِبَادَتِي لَدَخَلَهُ الْعُجْبُ فَيَصِيرُهُ الْعَجَبُ إِلَى الْفِتْنَةِ بِأَعْمَالِهِ ، فَيَأْتِيهِ مِنْ ذَلِكَ مَا فِيهِ هَلَاكُهُ لِعُجْبِهِ بِأَعْمَالِهِ وَرِضَاؤِهِ عَنْ نَفْسِهِ ، عِنْدَ حُدِّ التَّقْصِيرِ ، فَيَتَبَاعَدُ مِنْ عِنْدِ ذَلِكَ ، وَهُوَ يَظُنُّ أَنَّهُ يَقْتَرِبُ إِلَيَّ »^(٣) .

وقال رسول الله (ص) أيضاً : « ما من عبدٍ يحدِّثُ نفسه بقيام ساعة من الليل فينام عنها إلا كان نومه صدقةً تصدَّقُ اللهُ بها عليه وكتب له أجر ما نوى »^(٤) .

(١) بحار الأنوار/ج ٧٦ ، ص ٣١٦ - علل الحديث/ص ٣٦٢ .

(٢) سورة فصلت، الآية ٣٠ .

(٣) بحار الأنوار/ج ٧١ ، ص ١٥١ .

(٤) كنز العمال/خ ٢١٤٧٥ ، انظر: النية : باب ٣٩٨١ (النية الصالحة أحد العملين) .

الالتجاء إلى القرآن

لا ينبغي أن نغفلُ عن أن بحثنا هو الجهاد الأكبر ، ومجاهدة الإنسان لنفسه كما يتنصر البعد الإنساني على البعد الحيواني إذا أراد هذا الإنسان سعادة الدارين .

فالقوة السابعة التي تعين المسلم في جهاده الأكبر هي الالتجاء إلى كتاب الله الحكيم القرآن الكريم .

ومن نظر القرآن يمكن أن نتعرف على أهمية الالتجاء إليه ، ونتعرف أيضاً أن المعرض عنه خاسر لا محالة ﴿ فاقرؤا ما تيسر من القرآن ﴾^(١) ، ﴿ فاقرؤا ما تيسر منه ﴾^(٢) .

وقد جاء في هذه السورة الشريفة : ﴿ علم أن سيكون منكم مرضى وآخرون يضربون في الأرض يبتغون من فضل الله وآخرون يُقاتلون في سبيل الله ، فاقرؤا ما تيسر منه ﴾^(٣) ؛ أي : أن الله يعلم أن منكم من يسافرون طالبين للتجارة أو تحصيل العلم وكل طاعة ، غير أولئك المرضى ؛ وكل من الفرق الثلاث يشق عليهم التهجُّد المذكور ، فهم أحق بالتخفيف ، فكرر مرتباً عليهم بقوله : ﴿ فاقرؤا ما تيسر منه وأقيموا الصلاة ﴾ الواجبة ﴿ وآتوا الزكاة ﴾ المفروضة ﴿ وأقرضوا الله قرضاً حسناً ﴾^(٤) بالإفناق تطوعاً

(١) سورة المزمل، الآية ٢٠ .

(٢) سورة المزمل، الآية ٢٠ .

(٣) سورة المزمل، الآية ٢٠ .

(٤) سورة المزمل، الآية ٢٠ .

في سبيل الخير أو بفعل الحسنات مطلقاً ؛ وفيه ترغيب لإشعاره بالعرض كالتمريح في ﴿ وما تقدّموا لأنفسكم من خير ﴾ (١) مال أو إحسان ﴿ تجدوه عند الله هو خيراً وأعظم أجراً ﴾ (٢) لبقاء ثوابه ﴿ واستغفروا الله ﴾ (٣) في كلّ حال ﴿ إن الله غفورٌ رحيمٌ ﴾ (٤) .

أما أولئك الذين يتهكّون الحرمات فقد جاء في حقهم في القرآن الكريم : ﴿ أفلا يتدبرون القرآن ﴾ (٥) أي يتدبرون بالتفكير في زواجره ومواعيده فيعتبروا ﴿ أم على قلوب أقفالها ﴾ فلا يدخلها معانيه ، وتنكير القلوب لتعم قلوب أمثالهم أضيفت الأقفال إليها إرادة لأقفال مختصة بها .

لقد تعرضت إحدى آيات القرآن المجيد إلى الستر الذي يحول دون أذى الذين لا يؤمنون بالآخرة من إنس وجن إلى قارئ القرآن ، فقال عز وجل : ﴿ وإذا قرأت القرآن جعلنا بينك وبين الذين لا يؤمنون بالآخرة جباباً مستوراً ﴾ (٦) ، أي ساتراً أو ذا ستر بينك وبين شياطين الإنس والجن ، وبينك وبين نفسك الأمارة بالسوء لكي ينتصر فيك البعد الإنساني على البعد الحيواني .

أما سورة المزمل فقد تعرضت إلى ترتيل القرآن فقال تعالى : ﴿ ورتل القرآن ترتيلاً ﴾ (٧) أي حاول أن تحفظ الوقوف وتبين الحروف لما في القرآن من التكاليف الشاقة التي تستدعي الوقوف كيما يدرك الإنسان معانيها ؛ وقد جاءت مسألة صلاة الليل بعد آية ترتيل القرآن مباشرة مما يدل على أثر ذلك الترتيل في النفس البشرية حينما تقوم للصلاة والنفوس الأخرى غافلة في نوم عميق : ﴿ إن ناشئة الليل هي أشد وطأً وأقوم قيلاً ﴾ (٨) ؛ أي أنّ القيام في الساعات الأخيرة

(١) سورة المزمل، الآية ٢٠ .

(٢) سورة المزمل، الآية ٢٠ .

(٣) سورة المزمل، الآية ٢٠ .

(٤) سورة المزمل، الآية ٢٠ .

(٥) سورة محمد، الآية ٢٤ .

(٦) سورة الإسراء، الآية ٤٥ .

(٧) سورة المزمل، الآية ٤ .

(٨) سورة المزمل، الآية ٦ .

من الليل للصلاة أو النفس التي تنشأ أي تنهض من منامها للعبادة هي أشد وطأ أي ثقلاً أو ثبات قدم ، وأقوم قِيلاً بمعنى أصوب قولاً وقراءةً لقرآن البال .

قال رسول الله (ص): « ... فإذا هجمت عليكم الفتن كقطع الليل المظلم ، فعليكم بالقرآن ، فإنه شافع مشفع ، وماحل مصدق ، فمن جعله أمامه ، قاده إلى الجنة ، ومن جعله خلفه ساقه إلى النار»^(١) .

قال أمير المؤمنين الإمام علي (ع): « ... وإن القرآن ظاهره أنيق ، وباطنه عميق ، لا تغنى عجائبه ، ولا تنقضي غرائبه ، ولا تكشف الظلمات إلاّ به»^(٢) .

قال رسول الله (ص): « مثل القرآن ومثل الناس كمثل الأرض والغيث ، بينما الأرض ميتة هامدة إذا أرسل الله عليها الغيث فاهتزت ثم يرسل الوابل فتتهتز وتربو ، ثم لا يزال يرسل الأودية حتى تبذر وتنبث ويزهر نباتها ، ويخرج الله ما فيها من زيتتها ، ومعاش الناس ، والبهاائم ، وكذلك فعل هذا القرآن بالناس»^(٣) .

قال الإمام علي (ع): « ... وتعلموا القرآن ، فإنه أحسن الحديث ، وتفقهوا فيه فإنه ربيع القلوب ، واستشفوا بنوره ، فإنه شفاء الصدور ، وأحسنوا تلاوته فإنه أحسن القصص»^(٤) .

وقال أيضاً: « ... وعليكم بكتاب الله ، فإنه الحبل المتين ، والنور المبين ، والشفاء النافع ، والرأي الناقع ، والعصمة للمتمسك ، والنجاة للمتعلق ، لا يعوجُّ فيقام ، ولا يزيغ فيستعجب ، ولا تخلقه كثرة الرد ، وولوج السمع ، من قال به صدق ، ومن عمل به سبق»^(٥) .

أما أولئك الذين لا يلتزمون قراءة القرآن ، ولا يعلمون بما جاء فيه فسوف

(١) سفينة البحار/ج ٢ ، ص ٤١٣ .

(٢) نهج البلاغة/صحي الصالح ، ص ٦١ .

(٣) كنز العمال/خ ٢٤٥٧ .

(٤) نهج البلاغة/صحي الصالح ، ص ١٦٤ .

(٥) نهج البلاغة/صحي الصالح ، ص ٢١٩ .

يحشرهم الله سبحانه وتعالى عُمياً لكونهم نَسُوا آيات الله التي كان يفترض بهم أن يجعلوا أحكامها منهجاً لهم : ﴿ ومن أَعْرَضَ عن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً ونحشره يومَ القيامةِ أعمى ، قال رَبِّي لِمَ حَشَرْتَنِي أعمى وقد كُنْتُ بصيراً ، قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسَيْتَهَا وكَذَلِكَ اليَوْمَ تُنسى ﴾ (١) .

ما أعظمها من مصيبة عندما يكون الإنسان مشمولاً بالإهمال ، فلا أحد يلتفت إليه ، ولا أحد يكلِّمه بسبب ما جتته يده التي سوف يعرضُ عليها يوم القيامة ، وعندها يأتي الجواب من الرسول : ﴿ قال الرسولُ ياربُّ إنَّ قومي اتخذوا هذا القرآنَ مهجوراً ﴾ (٢) .

لقد تعرضت بعض الروايات إلى مرور القرآن الكريم بشكل مجسّم على صفوف الناس ، وإلى كيفية شكايته منهم في محضر الباري تعالى ، وذلك في يوم القيامة ، فيراه الجميع في أحسن صورة .

فأما الذين كانوا يلتزمون بقراءته فتراهم يرقون سلاالم العزِّ والمجد والرفعة إلى حيث رضوان الله وفضله ؛ ولقد ذكر الكليني - عليه الرحمة - في أصول الكافي وفي الجزء الثاني منه الآيات والروايات والأخبار التي تبين فضيلة القرآن وفضيلة قراءته ؛ ومثل ذلك ذكر العلامة المجلسي - عليه الرحمة - في الجزء الأول من بحار الأنوار فأسهب في فضائل القرآن الكريم وأجر وثواب القاريء والمنافع التي يمكن أن يحظى بها المسلم من جراء مداومته على قراءة القرآن .

ولو أردنا هنا أن نتعرض لتلك الفضائل لما استطعنا أن نُغلق هذا الباب لما للقرآن من فضائل لا تُعدُّ ولا تحصى ، فهو الذي يكشف الغمِّ والهَمِّ ، ويرفع عن الإنسان الاضطرابات النفسية ، ويمنعه عن ممارسة الرذائل .

إنه في واقع الأمر ﴿ شفاءٌ لما في الصدور ﴾ (٣) .

قال الله تعالى في محكم كتابه : ﴿ لو أنزلنا هذا القرآنَ على جبلٍ لرأيته خاشعاً متصدعاً من خشيةِ الله ، وتلك الأمثالُ نضربها للناسِ لعلهم

(١) سورة طه، الآيات ١٢٤ - ١٢٦ .

(٢) سورة الفرقان، الآية ٣٠ .

(٣) سورة يونس، الآية ٥٧ .

يَتَفَكَّرُونَ ﴿١﴾ .

إن ما جاء في هذه الآية المباركة يمكن احتسابه تمثيلاً أريد به توبيخ الإنسان على عدم خشوعه حين قراءته للقرآن الكريم بدليل ﴿ وتلك الأمثال ﴾ أي هذا وغيره ﴿ نضربها للناس لعلهم يتفكرون ﴾ فيتعظون .

إن في قراءة القرآن المجيد لذّة خاصة حيث يشعر الإنسان بمخاطبة الله له في كتابه ؛ فعبارة : ﴿ يا أيها الذين آمنوا ﴾ تعنيك أنت أيها القاريء المؤمن ، فكم هو جميل خطاب الله لك الذي يريد به تيسير أمرك وإبعادك عن طرق الأهواء والشهوات .

لقد تكررت عبارة : ﴿ لبيّ آلاء ربكمَا تكذّبان ﴾ في سورة الرحمن ، وعبارة : ﴿ ولقد يسرنا القرآن للذّكر فهل من مدّكر ﴾ في سورة القمر .

وهذا التكرار دليل قاطع على تشبيه الإنسان على القرآن الذي هو من آلاء الله ونعمه ، وقد يسّر الباري للذّكر ، ولكن للأسف ما من متذّكر إلا من رحم ربّي . وكلمة مدكر تعني هل من معتبر ، وأصلها « مدتكر » قلبت التاء دالاً وأدغمت فيها الدال .

وقد يسّر الباري القرآن الكريم للاعتبار به والاتعاظ إذ يمكن اعتباره سهلاً ممتنع ، أي أن ما يفهمه الإمام المعصوم من قراءته لآية من آيات القرآن المجيد لا يتأتى أن يفهمها من هو مثلي .

وما يمكن أن يفهمه العلامة الطباطبائي صاحب كتاب الميزان من القرآن لا نتوقع من عامة الناس أن يفهموه ناهيك عن مراحل القراءة : فالمرحلة الأولى هي القراءة بشكل عام ، حتى لو بدون تدبّر ، أما المرحلة الثانية ، فهي التدبّر الذي توصل الإنسان إلى حالة الإحساس بمخاطبة الله له مباشرة ؛ وما تبقى من المراحل فهي الثالثة والتي يكون فيها الإنسان عاملاً بنهج القرآن بعد أن قرأه وتدبّر فيه ، واقتنع بضرورة العمل به واتخاذها طريقاً ونهجاً لبلوغ السعادة في الدارين ﴿ إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم ﴾ (٢) ، ﴿ قد جاءكم من الله نور

(١) سورة الحشر، الآية ٢١ .

(٢) سورة الإسراء، الآية ٩ .

وكتابٌ مبينٌ يهدي به الله من أتبع رضوانه سُبُلَ السَّلامِ ويُخرجهم من الظلماتِ إلى النورِ بإذنه ويهديهم إلى صراطٍ مستقيمٍ ﴿١﴾ .

وكذلك الأمر بالنسبة للصلاة ؛ فهي على ثلاثة مراحل أيضاً : فالمرحلة الأولى هي : إسقاط التكليف ، أي ينبغي لنا أن نقوم بإنجاز الصلاة التي تبدأ من تكبيرة الإحرام : « الله أكبر » إلى نهايتها : « السلام عليكم ورحمة الله وبركاته » . المرحلة الثانية : هي التدبُّر أي بلوغ حالة « لا مؤثر في الوجود إلا الله تعالى » ، والإدبار عن الدنيا بما فيها من الولد والتلد وما إلى ذلك والاشتغال بمناجاة الباري وكأنك تراه . ويقال : إن بعض العرفاء يسمعون جواب سلامهم على النبي (ص) في آخر الصلاة لشدة تفاعلهم معها ، وإحساسهم الجدي بوقوفهم بين يدي الباري تعالى ، فترى البعض منهم يرتجف إذا قام للصلاة والآخر يرتاع إذا بدأ بقراءة الفاتحة .

أما المرحلة الثالثة ، فهي العمل والالتزام لما قيل في الصلاة ، فاللسان يقول : ﴿ إياك نعبدُ وإياك نستعينُ ﴾ أول الأمر ، وبعدها يبدأ القلب بقول : ﴿ إياك نعبدُ وإياك نستعينُ ﴾ ليصل الأمر إلى المرحلة الثالثة أي أن العمل يقول : ﴿ إياك نعبدُ وإياك نستعينُ ﴾ وهذا يعني اجتناب المعاصي في جميع الأمور الحياتية ، وإذا اتفق أن عصى الفرد الله في مسألة أضحت : ﴿ إياك نعبدُ وإياك نستعينُ ﴾ غير لائقة ، وأضحى هو من عبدة الشيطان ؛ وإن الله يقول في محكم كتابه : ﴿ ألمْ أعهدْ إليكم يا بني آدمَ أن لا تعبدوا الشيطانَ ﴾ (١) .

قال الإمام جعفر بن محمد الصادق (ع) عن جده رسول الله (ص) أنه قال : « إذا استقبلت القبلة فانس الدنيا وما فيها ، والخلق وما هم فيه ، واستفرغ قلبك من كل شاغل يشغلك عن الله ، وعاین بسرك عظمة الله ، واذكر وقوفك بين يديه يوم تبلو كل نفس ما أسلفت وردوا إلى الله مولاهم الحق ، وقف على قدم الخوف والرجاء .

فإذا كبرت ، فاستصغر ما بين السماوات العُلى والثرى دون كبرياته فإن

(١) سورة المائدة، الآية ١٦ .

(٢) سورة يس، الآية ٦٠ .

الله تعالى إذا اطلع على قلب العبد وهو يكبر وفي قلبه عارض عن حقيقة تكبيره قال : يا كاذب أتخدعني؟! وعزّتي وجلالي لأحرمنك حلاوة ذكري ، ولأحجبتك عن قربي والمسارّة بمناجاتي ؛ واعلم أنه غير محتاج إلى خدمتك ، وهو غني عن عبادتك ودعائك ، وإنما دعاك بفضل ليرحمك ويبعدك من عقوبته .. (١)

فمن أراد الدنيا فليقرأ القرآن وليمعن التفكير في معانيه ، ومن أراد الآخرة فليتدبّر القرآن وعباراته ، ومن كان في نفسه اضطراب فليبعده براءة القرآن ، ومن أراد تسلطاً على نفسه رجع إلى القرآن ، ومن كان فيه صفات رذيلة تمكّن من إزالتها بالقرآن ، ومن رام الدرجات العلى في جناته تعالى عليه بالقرآن .

إلهي احجب بالقرآن خطرات الوسوس عن صحة ضمائرنا ، واغسل به درن قلوبنا وعلائق أوزارنا ، واجمع به متشر أمورنا ، وارو به في موقف العرض عليك ظمأ هواجرنا ، واكسنا به حلال الأمان يوم الفزع الأكبر في نشورنا ، واجبر بالقرآن خلّتنا من عدم الإملاق ، وسق إلينا به رغد العيش وخصب سعة الأرزاق ، وجبّنا به الضرائب المذمومة ومداني الأخلاق ، واعصمنا به من هوة الكفر ودواعي النفاق حتى يكون لنا في القيامة إلى رضوانك وجنانك قائداً ، وفي الدنيا عن سخطك وتعدي حدودك ذائداً ، ولما عندك بتحليل حلاله وتحريم حرامه شاهداً ، اللهم صل على محمد وآل محمد ، وهون بالقرآن عند الموت على أنفسنا كرب السياق وجهد الأنين وترادف الحشارج إذا بلغت النفوس التراقي ، وقيل من راق ، وتجلّى ملك الموت لقبضها من حجب الغيوب ، ورمأها عن قوس المنايا ؛ اللهم اسلك بنا سبيل القرآن وتوفنا على نهجه برحمتك يا أرحم الراحمين بحق محمد وآله الطاهرين .

(١) بحار الأنوار/ج ٨٤ ، ص ٢٣٠ ، وكذا جاء في مصباح الشريعة .

فوائد الدعاء

إن أحد العوامل المساعدة في جهاد الإنسان الأكبر مقابل النفس الأمارة هو الدعاء ، وقد أولى القرآن الكريم أهمية خاصة للدعاء لكونه يرتب علاقة أو ارتباطاً بالمدعو ، وذمّ القرآن الكريم أولئك الذين لا يهتمون بالدعاء والتبُّل ؛ قال عزّ وجلّ : ﴿ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾^(١) ، ثم أردف الباري فقال : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾^(٢) .

لم يأت في القرآن عذاب مثل هذا العذاب يترتب على ترك عمل بهذه الكيفية ، أو يمكن القول نادراً ما نرى وعيداً بهذه الكيفية التي جاءت بصدد التارك للدعاء ، فمن لم يدع ثم يش من الدعاء وترك الحبل على الغارب في هذه القضية الحساسة أدخله الباري جهنم بعد اقتياده ذليلاً ، لقوله داخرين التي تعني الاقتياد بذل .

وفي آية أخرى يقول الباري تعالى : ﴿ قُلْ مَا يَعْبُدُونَ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ ﴾^(٣) أي ما يصنع بكم أو لا يكثر بكم لولا دعاؤكم له .

فمن امتنع عن الدعاء والطلب إلى الله تباركت أسماؤه ، رفع الباري يده عنه وأوكله إلى نفسه ، وعندها تراه خاسراً في الدنيا وفي الآخرة ، لذا حثّ الروايات الشريفة على التقيد بقراءة دعاء الرسول في ظلمة الليل الذي كان يقول فيه : « اللهم لا تكلمني إلى نفسي طرفة عين أبداً » .

(١) [المؤمن/٦٠].

(٢) [الفرقان/٧٧].

إن الدعاء شعبة من شعب تهذيب النفس وبنائها وهي التي ذكرها الباري سبحانه وتعالى بعد قسم غليظ بالشمس وضحاها، والقمر إذا تلاها، والليل إذا يغشاها والسماء وما بناها والأرض وما طحاها ثم جاءت عبارة النفس وتسويتها وإلهامها الفجور والتقوى وكيفية فلاح النفس بالتركية، وخيبتها إذا أخفاها البشر بالمعصية وبالجهل ؛ ﴿ قد أفلح من زكَّاهَا ، وقد خاب من دَسَّاهَا ﴾ (١) .

فتزكية النفس تمرُّ بالدعاء والتوسل بالمولى تعالى وقد تكرر ضمير المتكلم في هذه الآية الشريفة سبع مرات من أجل الدعاء الذي يربي النفس البشرية ويهذيها ، وهذا مما يدل على الأهمية البالغة للدعاء ؛ وفي سورة البقرة نلاحظ مسألة قرب الباري من الداعي حينما يدعو ويتهل إليه فيقول : ﴿ وإذا سألك عبادي عني ، فإني قريبٌ أجيبُ دعوةَ الداعِ إذا دعانِ ، فليستجيبُوا لي وليؤمنوا بي لعلهم يرشُدون ﴾ (٢) .

وقد نزلت هذه الآية المباركة حين سأل البعض أقرب ربنا فتناجيه أم بعيداً فنناديه ؟ .

فأجاب : بأنه قريب عليم بأحوالهم ، سميع لدعائهم كما يسمع القريب كلام صاحبه ﴿ أجيبُ دعوةَ الداعِ إذا دعانِ ﴾ إذا أتى بشرائط الدعاء وعرف من يدعو ، ﴿ فليستجيبُوا لي ﴾ إذا دعوتهم للإيمان والطاعة ، ﴿ وليؤمنوا بي ﴾ وليتحققوا أنني قادر على إعطائهم ما سألوه ﴿ لعلهم يرشُدون ﴾ أي يصيبون الحق ويهتدون إليه .

وقال أيضاً : ﴿ نحنُ أقربُ إليكم من حبلِ الوريدِ ﴾ (٣) . وحبل الوريد هو العرق الذي يكون في صفحة العنق ، وهو تدليل على سماع الله للعبد أكثر من كل قريب ، إضافة إلى التشجيع على الدعاء والتوسل به لوحده سبحانه وتعالى وصراف النظر عن التماس الآخرين .

(١) [الشمس/٩ و١٠] .

(٢) [البقرة/١٨٦] .

(٣) [ف/١٦] .

قال الإمام علي (ع) : « أحب الأعمال إلى الله عز وجل في الأرض الدعاء »^(١) .

قال رسول الله (ص) : « ياربُّ وددت أن أعلم من تحب من عبادك فأحبه ؟ » .

فقال : إذا رأيت عبدي يكثر ذكري ، فانا أذنت له في ذلك وأنا أحبه ، وإذا رأيت عبدي لا يذكرني ، فانا حججته وأنا أبغضته »^(٢) .

وبناءً على ما تقدّم يكون الدعاء بلحاظ ما جاء في القرآن الكريم والروايات المعتمدة المتواترة عن الرسول الأكرم (ص) وأئمة أهل بيته - سلام الله عليهم - أهم وأفضل وأحب إلى الله من صلاة الليل ، ومن إقامة الصلاة في أوقاتها ، وأفضل كذلك من الجهاد ، لكون الدعاء يربط الانسان بالله بشكل مباشر ، ويجعله لا يعتمد إلاً عليه تعالى ، وقد كتب المرحوم الكليني كتاب الدعاء في الكافي ورقده بالكثير من الروايات التي تقول بفضيلة الدعاء ، وكذا فعل المجلسي - عليه الرحمة - حينما جمع الكثير من الروايات التي تهتم بمسائل الدعاء ؛ وهذان الكتابان والصحيفة السجادية تشكل جميعها نهج الأئمة الطاهرين من أهل بيت الرسول الأكرم (ص) ، والحقُّ يقال : إن الدعاء يمكن الإنسان من بناء نفسه وتشذيبها ممَّا لصق بها من أدران ومعاصي ، وعلى حد قول مؤسس الجمهورية الإسلامية بصدد هذا الموضوع جاء : يتمكن البشر من بناء نفسه بشيئين ؛ الأول : القرآن ؛ والثاني : الدعاء .

فالقرآن كلام الله النازل من جانب الحق ، والدعاء : كلام الإنسان الطالع إلى الخالق ، لذا يمكن اعتبار الدعاء تحدث الإنسان إلى خالقه ؛ والقرآن مخاطبة الخالق لمخلوقه .

ولهذا يكون الدعاء أحد اختارات الإنسان والذُّ اللذائذ .

إن فوائد الدعاء كثيرة نحجم عن التعرض لأغلبها ، وتنبئ فائدتين منها ؛

(١) بحار الأنوار/ج ٩٣ ، ص ٢٩٥ .

(٢) بحار الأنوار/ج ٩٣ ، ص ١٩٠ .

الأولى : إن إحدى فوائد الدعاء هو الافتخار الذي ينعم به العبد بمناجاته لربه الخالق العظيم ؛ فلو وَقَّفَ الإنسان على سبيل المثال لمقابلة القائد الفلاني أو السلطان الفلاني تراه يفتخر بذلك الأمر أمام أقرانه وأعدائه .

والدعاء في حقيقته افتخار للعبد في مناجاة سيده ، ولا فخر أسمى من أن يتاجي الإنسان في قلب الليل - ولوحده - سيده الخالق المتعالي .

إنه يختلي به دون العيون فيلتذ بهكذا افتخار بعيد عن حب الدنيا ولذاتها .

قال الإمام علي (ع) : « من أحب لقاء الله سلا عن الدنيا »^(١) .

فيما أوحى الله تعالى به إلى موسى (ع) : « كذب من زعم أنه يحبني ، فإذا جنَّه الليل نام عني ، ليس كل محبٍّ يحبُّ خلوة حبيبه ؟ ! ها أنذا يا بن عمران مُطَّلِعٌ على أحبائي ، إذا جنَّهم الليل حُولَّتْ أبصارهم من قلوبهم ، ومثلت عقربتي بين أعينهم ، يخاطبوني عن المشاهدة ، ويكلموني عن الحضور »^(٢) .

فالدعاء معناه ذهاب العبد إلى باب بيت مولاه الذي طالما دعاه وقال له : تعالى إليّ ﴿ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾ وهُدَّه كذلك إذا لم يأتِ إليه ، وبعد ذلك قال لعباده : ﴿ أَجِيبْ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَا ﴾ فليأتوا لدعوتي فليستجيبوا لي ، وليؤمنوا بي لأحَقَّ لهم ما يريدون ﴿ لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴾ أي : أنهم يصيرون ما ييغون .

لو وَقَّفَ الإنسان أن يرى علياً (ع) وهو مغشي عليه في ظلمة الليل الحالك لظنَّ أنها صار إلى ذلك من خوف جهنم ؟ إنه أسمى وأرفع من ذلك .

أنه حبُّ العبد مقابل محبوبه ونخالقه ؛ وكذا كانت الزهراء البتول - سلام الله عليها - في مقابل الحق تعالى حيث لا يُسمع منها إلا الأنين ، ولا يرى منها إلا ما يدلُّ على جريان دموعها . وقد قال فيها الرسول (ص) في

(١) كنز الفوائد/للكرجكي ، ميزان الحكمة/باب ١٢٤٩ : « الدنيا والآخرة عدوان » .

(٢) بحار الأنوار/ج ٧٠ ، ص ٢٣ .

خبر طويل : « ... أما ابنتي فاطمة فإنها سيّدة نساء العالمين .. متى قامت في محرابها بين يدي ربّها - جلّ جلاله - زهر نورها لملائكة السماء ، كما يزهر نور الكواكب لأهل الأرض ، ويقول الله عزّ وجلّ لملائكته : يا ملائكتي انظروا إلى أمّتي فاطمة سيّدة إمامي قائمة بين يديّ ، ترتعد فرائصها من خيفتي ، وقد أقبلت بقلبها على عبادتي ... » (١) .

قال الإمام الصادق جعفر بن محمد (ع) : « الرڪعتان في جوف الليل أحبُّ إليّ من الدنيا وما فيها » (٢) .

قال الإمام الرضا (ع) : « سئل علي بن الحسين - عليهما السلام - : ما بال المهتجدين بالليل من أحسن الناس وجهاً ؟ .

قال : لأنهم خلّو بالله فكساهم الله من نوره » (٣) .

الفائدة الثانية : هي انصلاح الإنسان الداعي من الهموم والغموم والاضطرابات التي قد تكثُر معيشة الفرد ؛ ومن نظرة نفسية يقال إن أغلب الاضطرابات يمكن أن تزول بالدعاء والتبتُّل إلى الله في جوف الليل لإمكانية التصريح بما في القلب للواحد الأحد ؛ وبذلك يفرغ القلب من الحمل الزائد عن الطاقة البشرية الذي تطفو آثاره - أي الحمل الزائد - في العادة لتنعكس على أخلاقية الفرد ، فيضحى متعباً بدون ممارسة أعمال شاقة ، ومضطرباً بدون انتظار لمن يكرمه على ذلك الاضطراب ، هذا إضافةً إلى ما جاء في الروايات المعتمدة من أن الباري تعالى أحسنُّ من الوالدة على ولدها ، « وهو الذي يتألّه إليه عند الحوائج والشدائد كل مخلوق عند انقطاع الرجاء من كل من دونه » (٤) .

ولا بأس بالتعرض هنا إلى مناجاةٍ كان يقرأها الإمام علي (ع) ومن بعده الأئمة من ولده وأهل بيت الرسالة والنبوة رواها ابن خالويه وهي موجودة في كتاب مفاتيح الجنان ص (١٥٦) تحت عنوان أعمال شهر شعبان :

(١) بحار الأنوار/ج ٢٣ ، ص ١٧٢ .

(٢) بحار الأنوار/ج ٨٧ ، ص ١٤٨ .

(٣) علل الشرائع/ص ٣٦٦ .

(٤) التوحيد/ ص ٢٣١ .

اللهم صل على محمد وآل محمد ، واسمع دعائي إذا دعوتك ، واسمع دعائي إذا ناديتك وأقبل عليّ إذا ناجيتك ، فقد هربت إليك ، ووقفت بين يديك ، مستكيناً لك ، متضرعاً إليك ، راجياً لما لديك ثوابي ، وتعلم ما في نفسي ، وتخبر حاجتي ، وتعرفُ ضميري ، ولا يخفى عليك أمرُ منقلبي ومثواي ، وما أريد أن أبدىء به من منطقي ، وأنصوّه به من طلبتي ، وأرجوه لعاقبتي ، وقد جرت مقاديرك عليّ يا سيدي فيما يكون مني إلى آخر عمري من سريرتي وعلانيتي ، ويبدك لا بيد غيرك زيادتي ونقصي ونفعي وضرّي .

إلهي إن حرمتني فمن ذا الذي يرزقني ، وإن خذلتني فمن ذا الذي ينصّرني .

إلهي أعوذ بك من غضبك ، وحلول سخطك ، إلهي إن كنت غير مستأهلٍ لرحمتك ، فانت أهلٌ أن تجود عليّ بفضل معتك

قد يقول البعض : لماذا لا يُستجاب دعائي على الرغم من أنني أدعو الله ليل نهار من أجل أن يرزقني على سبيل المثال ؟ .

وهنا يقول العلامة الطباطبائي صاحب تفسير الميزان : إن الدعاء مستجاب ولكنه لا يتطابق في أغلب الأحيان مع تخيلاتنا ، بل يتطابق مع الفطرة الإنسانية ، فقد ندعو الباري تعالى أن يرزقنا مالاً كثيراً ، أو أولاداً ذكوراً ، أي ندعو طبق رغباتنا لا طبق مصالحنا الفطرية على الرغم من أن الدعاء ينبغي أن يكون متلائماً ومنسجماً مع الواقع لا مع الخيال ؛ فقد يكون المال الكثير لنا إفساداً وابتعاداً عن الدين ، ونحن لا نعلم بذلك ؛ ولكن الباري تعالى يعلم ويرى ولا يريد لنا إلا الخير ، ويعلم أن مصلحة فلان تقتضي أن يبقى فقيراً أو بدون أموال كثيرة ، وأن دينه أفضل مما لو رزقه تعالى المال الكثير ؛ ولكن لو علم الله تعالى أن فلاناً من الناس يكتمل دينه مثلاً أو يكون على أفضل أوضاعه لو رزقه ولذا ذكراً فإنه سيفعل ذلك بالتأكيد ؛ وقد تطرق القرآن الكريم إلى هذه القضية بشكل مختصر ومفيد فقال عز وجل في محكم كتابه : ﴿ وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خيرٌ لكم ، وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شرٌ لكم ، والله يعلمُ وأنتم لا تعلمون ﴾ (١) ؛ وجاء في مكان آخر ما يقرب المعنى أكثر فقال تعالى :

(١) [البقرة: ٢١٦].

﴿ نفسى أن تكررهما شيئاً ويجعل الله فيه خيراً كثيراً ﴾ (١) .

فما كان في غير نفعنا لا يمكن أن يكون ، وعندها يبقى الدعاء بدون نتيجة بحسب تصورنا .

وما كان فيه نفعنا يتم بسرعة بعد الدعاء ، وهذا ما يقدره الباري تعالى لنا ، وهو أعرف سبحانه بمنافع ومصالح العباد الذين قصروا عن معرفة الخير ، فدعا الكثير منهم بالشر بدون أن يلتفت إلى ذلك ، ولكن القادر هو الذي يحدد ويقدر استجابة الدعاء الذي ندعوه به كل يوم .

ومن المسائل المهمة بالدعاء هي عدم الإصرار على المسألة الفلانية أو القضية الفلانية ، فالأئمة من أهل بيت الرسول الأكرم (ص) كانوا يبدأون أدعيتهم بتوحيد الله وذكر صفاته والتعرض للطفه ورحمته التي وسعت كل شيء ولا يذكرون حاجاتهم إلا آخر الدعاء ، وهذا ما لمسنه في دعاء كميل بن زياد الموجود في كتاب « مصباح المتهجد » يبدأ بـ « اللهم إني أسألك برحمتك التي وسعت كل شيء ، وبقوتك التي قهرت بها كل شيء ، وخضع لها كل شيء ، وذل لها كل شيء ، وبجبروتك التي غلبت بها كل شيء . . . » .

ويستمر الدعاء على هذه الشاكلة ، حتى يصل الإنسان إلى استعراض أغلب صفات الله وأسمائه من أجل إعطاء أهمية بالغه بالدعاء وبالمدعو الذي هو الله جلّت أسماؤه ، وبعد ذلك يتطرق الداعي إلى ذكر حاجته بعد أن يقسم على الله جلّ وعلا بأنيائه ورسله ، وبخاتم النبیین وبالعترة الطاهرة من أهل بيته - صلوات الله وسلامه عليهم - لكي يتعرض الداعي إلى لذة الدعاء الذي يحب الله أن يرى عبده عليها ﴿ قل ما يعبوا بكم ربّي لولا دُعَاؤُكُمْ ﴾ (٢) .

وإذا لم يستجب الباري تعالى للدعاء الذي دعوانه به ، فلا ينبغي لنا أن نياس من رحمة الله ، لأن اليأس قد يصل في بعض الأحيان إلى حد الكفر ﴿ ولا تياسسوا من روح الله ، إنه لا ينس من روح الله إلا القسوم ﴾

(١) [النساء/١٩] .

(٢) [الفرقان/٧٧] .

أما السبب الثاني في عدم استجابة الدعاء ، فهو الذنب أو معصية الله في قوانينه التي تحول دون الاستجابة حيث تكون كالستر بين العبد ومولاه ؛ قال رسول الله (ص) : « من أكل لقمة من حرام لم تقبل له صلاة أربعين ليلة ... » ﴿٢﴾ .

كم هو جميل ما جاء في دعاء كميل بن زياد - عليه الرحمة - حيث يدعو المسلم فيقول : « اللهم اغفر لي الذنوب التي تغير النعم ، اللهم اغفر لي الذنوب التي تنزل النقم ، اللهم اغفر لي الذنوب التي تحبس الدعاء » .

وجاء أيضاً في أول المناجاة الشعبانية : « اللهم اسمع دعائي إذا دعوتك ، واسمع ندائي إذا ناديتك » وتعني هذه العبارة : أن يا إلهي وفقني لإزاحة الستار الذي بيني وبينك ، أو بيني وبينك ، ألا وهو الحجاب الذي صنعه الذنب أو المعصية وهذا ما يطلق عليه باب تشبيه المعقول بالمحسوس .

وبناءً على هذا نفهم أن لقبول الدعاء أو استجابته شروطاً منها الابتعاد عن المعاصي ، وما يُغضب الله - جلَّت أسماؤه - ولذا ينبغي أن نبتدىء الدعاء بالتوبة والاستغفار والإنابة ، لتتمكن من إزاحة الستار الذي يحول دون صعود الدعاء ، ولا بأس أن تكون التوبة والإنابة وسط الدعاء وآخر الدعاء أيضاً ، وهذا ما نلاحظه في المناجاة الشعبانية ، ودعاء مكارم الأخلاق ودعاء كميل .

إذن ، عدم استجابة الدعاء سببه نحن ، سببه معاصينا وتمادينا بالذنوب والآثام الذي يوجب عدم قبول الله تعالى لدعائنا ، وعليه ينبغي لنا أن نبتعد عن كل ما حرم الله من أذى وأكل حرام وانتهاك حرمان وما إلى ذلك ؛ قال الإمام الباقري (ع) : « إن الرجل إذا أصاب مالم من حرام لم يقبل منه حج ولا عمرة ولا صلة رحم ، حتى أنه يفسد فيه الفرج » ﴿٣﴾ .

(١) [يوسف/٨٧].

(٢) كثر العمال/خ/٩٢٦٦ .

(٣) بحار الأنوار/ج ٩٩ ، ص ١٢٥ .

على أية حال يجب علينا إذا أردنا أن يستجاب دعاؤنا عند الله تعالى، علينا أن نتجنب المعاصي والآثام ، نراعي حق الناس ، ولا نتكبر على أحد ، ولا نغتر بما عندنا من أموال وثروات ، وأن نحمد الله كثيراً على عظيم إحسانه ، ونبرهانه ، ونوامي فضله وامتنانه ، حمداً يكون لحقه قضاءً ، ولشكره أداءً ، وإلى ثوابه مقررًا ، ولحسن مزیده موجباً وأن نلتزم بما جاء في كتابه الحكيم ، وما جرى على لسان نبيه الكريم وأهل بيته الأطهار (ع) كي نتمكن من إبلاغ الدعاء إلى مراحل الأصولية لنفرز بالقبول والرضا من عند العزيز القدير .

أما السبب الثالث الذي يحول دون الاستجابة ، فهو : التصديق بالقلب بعيداً عن الدعاء الترفي الذي لا يزيد ولا ينقص ، ومحاولة الابتعاد عن خداع الله - جلّت أسماؤه -؛ قال أمير المؤمنين علي (ع) : « إن رسول الله (ص) أبصر رجلاً دبرت جبهته ، فقال : من يغالب الله يغلبه ، ومن يخدع الله يخدعه ، فهلا تجافيت بجبهتك عن الأرض ولم تشوّه خلقك؟ »^(١) .

وقال أيضاً (ع) : « إن أبغض الخلائق إلى الله رجلان : رجل وكله الله إلى نفسه ، فهو جائر عن قصد السبيل ، مشغوف بكلام بدعة ، ودعاء ضلالة ، فهو فتنة لمن افتتن به ، ضالٌّ عن هدى من كان قبله . . . »^(٢) .

فمن كان قلبه مليئاً بالخطايا حتى كأنه أحد مضاجع الشيطان ، لا يتأني له أن يفرغ مكاناً للرحمن في قلبه ؛ فقد يدعو الإنسان وهو آثم قلبه فلا يستجاب دعاؤه لامتلائه بالمعاصي التي تمنع نزول الرحمة عليه ، أما ذلك القلب الذي أفرغ ما فيه إلا لأوامر الرحمن ، يتأني له أن يقول : ليبيك وهو مدرك لها ، ليسعد بدخول نور الله إليه .

وأضرب لكم هنا مثلاً ليكون حديثنا أكثر وضوحاً ؛ ولورمي أحدكم إناءً في البحر لشاهد فورتيه امتلائه بالماء ، ولكن لو أغلق الإناء هذا بغطاءً محكم ورماه فارغاً في البحر لشاهد عدم امتلاء الإناء ، أو عدم دخول قطرة ماء إليه ، ولو مر عليه عام كامل ؛ فهل تعتقد أن السبب في عدم دخول الماء إلى الإناء هو

(١) بحار الأنوار/ ج ٧١ ، ص ٣٤٤ .

(٢) نهج البلاغة/ الخطبة رقم ١٧ .

بُخْلِ البحر بمائه أم السبب هو الغطاء المحكم الذي منع دخول الماء إلى قلب الإناء ؟ .

وكذا الأمر في دخولك إلى حجرة لا يوجد فيها منفذٌ إلاّ باب تدخل منه إلى الحجرة ، ثم تغلق الباب خلفك ، بعد ذلك ترى أنك جالس في ظلمة حالكة ، فهل لك أن تلوم الشمس لعدم دخول أشعتها إليك ؟ .
إذن عليك أن تفتح باب الحجرة ، وتجعل لها منفذاً ، فسوف ترى دخول الأشعة الشمسية إليك .

فالتقصير منا نحن وليس من الحجرة ، أو من البحر ؛ فالقلب الذي لا يعرف الطهارة يكون بمنزلة الإناء الذي أحكم غطاؤه ، أو الحجرة الفارقة للمنافذ ؛ ويمكن أن يكون الحسد هو أحد المسائل التي تحجب الدعاء .

فالحسد هو أحد مفسدات القلب لكونه رأس الرذائل وثمرته شقاء الدنيا والآخرة ، ومن تسلط الحسد على قلبه منعه الله من رحمته ومن استجابة دعائه ؛ قال أمير المؤمنين علي (ع) : « الحسد دأب السُّفل وأعداء الدول ، والحسد منقصة إبليس الكبرى ، والحسد حبس الروح ، وأنه شرُّ الأمراض ، وهو عيبٌ فاضح ، وشجىٌ فادح ، لا يشفي صاحبه إلا ببلوغ أمله فيمن يحسده »^(١) .

لقد تعرض الكثير من روايات أهل بيت النبي (ص) إلى أن الإنسان الكذاب حينما يكذب تخرج ريح من فمه تنتنه تطلع إلى السماء ، فتأذى الملائكة من تلك الريح فيلعنون صاحبها ؛ فهل يمكن لهذا إنسان استجابة من دعاء ؛ على العكس من ذلك الصائم الذي قد لا تُطيق خلوف فمه والذي يكون عطرأ رائعاً في عالم الملكوت ، فإن دعاءه مقبول ومستجاب لخلو قلبه من المعاصي ، ولالتزام ما جاء في كتاب الله - جلّت أسماؤه - وسنة أوليائه - سلام الله عليهم أجمعين - .

والجدير بالذكر أنّ انقيام للدعاء ، وإبداء المحاولة في هذا المجال لا تخلو من الآثار النفسية الإيجابية ، والأجر المعنوي حتى مع عدم استجابة

(١) شرح نهج البلاغة/ ج ١ ، ص ٣١٦ .

الدعاء ، لأن كلمات الدعاء بشكل إجمالي ترقق القلب وتساوم في إدراك المسلم للكلمات والعبارات التي يمكن أن يطلقها حين الدعاء ، ناهيك عن الاستشعار الذي يحصل بأوحديّة الله ، ومعرفة تفرّده بمقاليد الأمور وتديبيرها .

قال الإمام جعفر بن محمد الصادق (ع) عن جده رسول الله (ص) : « إني لأحبُّ للرجل منكم المؤمن إذا قام في صلاة فريضة أن يقبل بقلبه على الله ، ولا يشغل قلبه بأمر الدنيا ، فليس من مؤمن يقبل بقلبه في صلاته على الله ، إلا أقبل الله عليه بوجهه ، وأقبل بقلوب المؤمنين عليه بالمحبة له بعد حبِّ الله عزَّ وجلَّ إياه »^(١) .

اللهم ارزقنا توفيق الطاعة ، وبُعد المعصية ، واستجابة الدعاء وأقبل علينا بوجهك الكريم واحجب عنا سطوات البلاء ، ونجِّنا من مفاجأة النقم ، وأجرنا من زوال النعم ، ومن زلل القدم ، واكشف عنا كرب الدهر ، واصرف عنا عوائق الأمور ، وأوردنا حياض السلامة واحملنا على مطايا الكرامة ، وجُدِّ علينا ياربُّ بالآثك ، واكشف بلائك يا أرحم الراحمين بحقِّ محمد وأهل بيته الطاهرين .

(١) ثواب الأعمال/ص ٢٦٠ ، الصلاة : « مثل ما في المتن معنى » .

التوسل بأهل بيت الرسول (ص)

إن بحثنا هذا يشمل الجميع وبالخصوص أولئك المثقفين من الرجال والنساء ، وعلى ما أظن سيكون مفيداً ونافعاً لهم ، ويشتمل على التوسل بأهل بيت الرسول (ص) حيث يمكن اعتبار هذه المسألة من الشرائط الأساسية للدعاء ؛ وقليلة هي الأدعية التي لم يتعرض فيها كتاب مفاتيح الجنان للمحدث القمي إلى حالة التوسل بأهل بيت الرسول (ص) .

وقد ذكر المرحوم الحر العاملي في «وسائل الشيعة» قرابة (٧٠) رواية في باب التوسل ، تجمع تقريباً على اعتبار التوسل شرطاً أساسياً في استجابة الدعاء .

وبهذا الصدد يشير القرآن الكريم إلى استعمال الوسيلة في الدعاء :
﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ ﴾^(١) .

« عن ابن شهر آشوب قال : قال أمير المؤمنين (ع) في قوله تعالى :
﴿ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ ﴾ أنا وسيلته »^(٢) ؛ وقال الباري في محكم كتابه :
﴿ وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا ﴾^(٣) ؛ قال الإمام الصادق جعفر بن محمد (ع) : « نحن والله الأسماء الحسنی »^(٤) ، أي أن الأسماء الحسنی التي

(١) [المائدة/٣٥] .

(٢) الميزان/ج ٥ ، ص ٣٣٣ .

(٣) [الأعراف/١٨٠] .

(٤) الميزان/ج ٨ ، ص ٣٨ نقلًا عن الكافي .

جاءت في كتاب الله المجيد نحن ، فادعوه بها ؛ فعليكم أن تقسموا على الله بنا كي يستجاب دعاؤكم ، أو بعبارة أخرى : توسلوا إلى الله بنا .

لذا يكون التوسل بأهل بيت النبي محمد (ص) بنظر القرآن الكريم والروايات المعتمدة مسألة أساسية مؤكدة .

وهذا ما تمسناه من النبي الأكرم (ص) والأئمة الأطهار - عليهم السلام - من خلال استعراضنا لسيرة حياتهم الشريفة ؛ ويمكن اعتبار التوسل بأرواح العلماء الكبار ممن ساروا على نهج الرسول والأئمة من بعده شيئاً مسلماً به .

وحيد البهبهاني - عليه الرحمة - كان أحد العلماء الإسلاميين العظام ، ولمنزلة الجليلة كان يُدعى في عالم الرجال « بالشيخ » ؛ كان يصِرُّ هذا العالم الفاضل في « الفوائد الحاثرية » على طلبته بالتوسل بأرواح الأئمة والعلماء الكبار الأجلاء الذين كان لهم الأثر الفعال في نشر الأخلاق الإسلامية الفاضلة وتعاليم الإسلام السامية ، ناهيك عن توصيته بعدم التعرض لأولئك العلماء بما يُسيء إليهم ، ويؤكد أن النفور من العلماء يجزّ الإنسان إلى الجهل المطبق ، فيقول بثبات ذلك بالتجارب التي شاهدها ولمسها في مجمل حياته .

ويقول المرحوم « الملاً صدرا » - عليه الرحمة - الذي كان يسكن مدينة شيراز : كنت أذهب إلى قم المقدسة لانتهل وأستمد العون من روح السيدة المعصومة بنت الإمام موسى بن جعفر الكاظم (ع) كيما أتمكّن من حل بعض الشبهات الفلسفية التي كانت تعرض لي في أثناء عملي ؛ ولا يخفى على أحد سيرة الملاً صدرا الذي كان مختصاً بالفلسفة الإسلامية وفي تفسير روايات أهل بيت الرسول (ص) ناهيك عن طرحه للحكمة المتعالية بدل فلسفة المشائين وفلسفة الإشراق .

لقد تمكّن « الملاً صدرا » من طرح الفلسفة المشوبة بالعرفان ليقدمها إلى المجتمعات التي تحظى بالفلسفة لديها بأهمية خاصة .

وكذا كان الأمر بالنسبة لابن سينا حيث قال فيه قائد الثورة الإسلامية : لقد كان ابن سينا شفاءً بنفسه ؛ وإن كتابه « الشفاء » وهو كتاب فلسفي من الكتب المعقّدة ، وفيه قوله : إن في استعداداً خاصاً حبانته الله ، فعندما أكون تلميذاً

في علم معين عند أحد الأساتذة أتمكن من أن أكون أستاذاً لأستاذي بعد مرور ثلاثة أيام من طرحه لذلك العلم .

ويذكرني في كتاب الشفاء فيقول : لم أكن أعرف من الهندسة إلا التزوير ، وبعد تلمّذي على يد أستاذ الهندسة لمدة ثلاثة أيام تمكنت من طرح مسائل صار فيها أستاذي تلميذاً عندي ، ولكن الحق يقال في أنني كنت أطلع في بعض الأوقات عدة مسائل في العلم الإلهي - يعني الفلسفة - وأكرر ما أطلعه (٤٠) مرة ولا أستطيع حلّ شبهة فلسفية إلا بعد أن أتوسل بعالم الملكوت من خلال قسمي عليه بالأئمة الأطهار من آل بيت محمد (ع) لأصل عن هذا الطريق إلى ما يشفي الغليل .

يقول الملا سليمان وهو أحد تلاميذ ابن سينا والذي كتب حاشيةً على كتاب الشفاء : كنت أرى ابن سينا يدخل مسجده الذي هو في بيته ليصلي من أجل حل شبهة علمية أو فلسفية .

فكلما تعمّق الإنسان في العبادة كلما سمت روح تعبه ، وكلما تهاوت روح تعبه في أحد العلوم دُلّ ذلك الأمر على تهاوة معلوماته وغروره في كسبه لذلك العلم ، لكون العلم لا يجلب إلاّ التواضع بعيداً عن التكبر والعجب والغرور .

يقول المرحوم مصطفى وهو الابن الأكبر لقائد الثورة الإسلامية : « كان والدي قد اعتاد على الذهاب إلى حرم الإمام علي (ع) في كل ليلة ليقرأ الزيارة الجامعة ثم يقفل راجعاً إلى بيته ؛ وفي إحدى الليالي كان الجو بارداً وممطراً شاهدت والدي قد استعد للذهاب إلى الحرم ، فبسمت وقلت له : والدي العزيز ، يمكن لك قراءة الزيارة الجامعة هنا في بيتك بدون أن تتكلّف عناء الذهاب في هذا الجو البارد ، والزيارة في البيت لا تقلّ ثوابها عن تلك التي في الحرم بشكل عام .

فأجابني بكلام قيم جداً ، يليق به كأستاذ وقائد : ولدي مصطفى لا تسلب منّا روح العوام ! .

هنيئاً لأولئك الرجال والنساء الأجلّاء من الذين يتمتعون بروح العبادة من

خلال التزامهم بطريقة أهل البيت الكرام - صلوات الله وسلامه عليهم - إنهم لا يخلقون الشبهات ولا يعترضون على ما في القرآن من آيات ، ولا يحاولون التبجح بما يسمى بالثقافة الحديثة أو المدنية العصرية ؛ وأن الذي يفعل ذلك مسلوب الإرادة ، ضعيف العقيدة ، بعيد عن روح العبادة والطاعة للواحد الأحد جلّت صفاته ؛ وقد نرى أمثال هؤلاء في مجمل حياتنا لتتعرف على منافذ الشيطان الرجيم الذي يحاول أن يتسلط على الروح الإنسانية من خلال تشجيعه لهكذا أمور كيما يضحى البشر متكبّراً ومعجباً بنفسه من غير دليل ولا سند .

يتعرض قائد الثورة الإسلامية إلى جملة في « كشف الأسرار » يمكن احتسابها إحدى الطوائف العصرية فيقول : في طريقنا إلى مكة نزع أحدهم خاتمه من أصبعه وقال : ما فائدة هذا الحجر ؟ وما الذي يمكن أن يستفيدة البشر من مثل هذه الأحجار ؟ .

فتبسمت في وجهه ، وقلت : إلى أين تذهب يا هذا ؟ ألا تعرف أنك ذاهب إلى الطواف حول حجر لا يضّر ولا ينفع ؟! وتريد لمس الحجر الأسود الذي قد لا ينفعك في شيء ؟ وإذا نفعك في شيء فإن الطواف حول الكعبة سوف ينفعك أيضاً ، وإذا كان كذلك فزيارة قبر الرسول نافعة أيضاً .

وكذا الأمر بالنسبة لقبور أهل بيته - سلام الله عليهم - .

ألا تعرف أن الله أماكن يحب أن يذكر فيها اسمه ، وأن السنن التي قال بها الرسول (ص) من مثل التختم يحظى بأهمية بالغة ، وأن زيارة الأطهار من أولياء الله وأصحاب الأئمة تجعل الفرد المسلم وجيهاً عند الله ؟ .

إن لتتوسل بقبور الصالحين وأولياء الله المقربين وكما علمتنا التجارب لها الأثر الفاعل في قبول الدعاء واستجابته ، ولا أظن أن هناك من ينكر ذلك إلا من نزع الله من قلبه روح العبادة ؛ وقد أتفق أن ذهب في يوم من الأيام إلى المقام الذي دفن فيه الحرّ الرياحي الذي قاتل المنافقين إلى جنب الإمام الحسين بن علي (ع) ، فشاهدت إحدى النساء وهي تلتصق بشباك الضريح وتقول : « يا كاشف الكرب عن وجهه الحسين (ع) اكشف كربى بحق مولاك الحسين (ع) » ، وما إن رددت ذلك القول ثلاثاً حتى شاهدتها تخرج من المكان

الذي فيه القبر الشريف متمسماً فرحةً ؛ فتقدمت صوب القبر ، وكان بي ألم شديد وحمى مزمنة عجز الأطباء عن إزالتها عني ، تقدمت وقلت بمثل ما قالت تلك المرأة الصادقة للهجة ، بعد ذلك رجعت إلى البيت لأرى نفسي معافى سالماً ، ولم أشك من تلك الحمى إلى وقتي هذا .

تقول زوجة أحد رجال العلم : كنت مريضة بمرضٍ خبيثٍ أقعدني في البيت ، وعجز الأطباء عن مداواتي بعد أن نصحوني بإجراء عملية لي لاستئصال الجزء الخبيث ، وكان يوم العملية يقترب من ساعته المحددة ، فطلعت إلى سطح الدار بعد أن أخذ مني المرض مأخذه وعلى سطح داري الذي في قم ، توجهت صوب ضريح السيدة معصومة بنت الإمام موسى بن جعفر الكاظم (ع) لأقول لها : يا ابنة الأحرار ، يا ابنة الأئمة الأطهار أنتم أهل بيت رسول الله (ص) لا تردون من لجا إليكم ، وأنا زوجة أحد طلاب علمكم الذي نشرتم لواءه في مشارق الأرض ومغاربها ، أتوسل إلى الله بك لأن تكوني وسيلة عند الباري ليرفع عني ما أنا فيه من بلاء وأن ينجيني من هذا المرض الخبيث ؛ وما أن أكملت دعائي الذي شابه التبتل والخشوع حتى شعرت بتوقف الألم ، وانطمار الغدة التي كانت أصل المرض الخبيث .

وإذا أردت أن أستعرض نظير هذه الحوادث ، لتمكنت من رواية (٥٠) أو أكثر مما يشابهها من القضايا التي لا تخفى على من جاور قبور الأولياء والصالحين ، وفي مثل هذه القضايا حار الذين لا يعتقدون بالتوسل بقبور أهل بيت الرسالة وأصحابهم ، فما كان لديهم غير القبول ؛ لرؤية البعض منهم ذلك بأم عينيه بعيداً عن السماع من الآخرين .

إن رب العالمين ، عالم حكيم ، وقادر مقتدر ، ومن أحكم علائقه معه تمكن من الصعب المستصعب ، فكلما كانت العلاقة قوية تمكن الإنسان من تسيير أموره على أفضل وجه .

وهذه المسألة لها جذور قرآنية لا يمكن التغافل عنها .

لقد عرض القرآن المجيد قصة سليمان في سورة النمل بشكل يبعث على الدهشة ، فاستعرض قضية إخبار الهدهد لسليمان عن امرأة في اليمن قائلاً :

﴿ إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴾ (١) .

وبعد سرد عدة حوادث جاء حديث سليمان (ع) : ﴿ قَالَ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ
أَيْكُمْ يَا تُبْنِي بَعْرِشِهَا قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ﴾ (٢) .

فاستعرض أحدهم ما لديه ثم قال : ﴿ قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ أَنَا
آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ﴾ (٣) .

ويذكر تفسير شبّر أن الذي عنده علم من الكتاب هو آصف بن برخيا وهو
وزير سليمان ، أو الخضر ، أو جبرائيل (ع) ، وما فعله من نقل لعرش بلقيس
جزء يسير من العلوم التي يتمتع بها أهل بيت الرسول الأكرم (ص) ، ولقد كانت
علاقة هذا الشخص الناقل للعرش مع البارئ تعالى محكمة بحيث يتمكن من
إنجاز عمل جبار كهذا ، وأن ما يقوم به الأئمة من أهل بيت الرسول (ص) من
شفاء للمرضى ، أو رواء لحوائج الطالبين ليس شيئاً كبيراً أو عظيماً إذا قيسَ
بأعمالهم العظام التي هي أكبر من أعمال ذلك الناقل لعرش بلقيس ، ولا عجب
في ذلك لكونهم يرتبطون بالله ارتباطاً وثيقاً يمكنهم من فعل ذلك بعلم من الله
الحكيم العزيز ، وهذا ما يُدلل على أن التوسُّل بهم له جنود قرآنية .

وعليه فليفتخر المسلمون بأن لهم إمام مثل الحسين (ع) يتوسلون به في
محضر البارئ تعالى ، وهنياً لهم عباداتهم عند قبر السيدة زينب (ع) وتوسُّلهم
بها ليتقربوا زلفى إلى الله العزيز الحكيم .

وعجبٌ لأولئك الذين نسوا أن لهم إمام زمان هو المهدي المنتظر (ع)
فراحوا يتوسلون بغيره من البشر ، على الرغم من ارتباطه الوثيق بالمولى تعالى
وقربه منه .

يحكى أن أحد الأجلَاء فَقَدَ وَلَدَيْهِ فِي زَمَنِ حَكْمِ الشَّاهِ لِإِيرَانَ ، فَوَصَلَ
حَالِ زَوْجَتِهِ مِنْ شِدَّةِ الْجُزَعِ وَالْفَزَعِ إِلَى إِصَابَتِهَا بِدَاءِ الْفَالِجِ ، وَخَبَا نُورُ عَيْنَيْهَا
فَلَمْ تَعُدْ تَرَى شَيْئاً غَيْرَ بَصِيصٍ مِنْ نُورٍ ، وَحِينَهَا قَرَّرَ الْأَطْبَاءُ مَعَالَجَتَهَا بِعَمَلِيَّةٍ عَلَى

(١) [النمل/٢٣] .

(٢) [النمل/٣٨] .

(٣) [النمل/٤٠] .

أن تنقل إلى المستشفى لتُخلف وراءها أطفالاً صغاراً في البيت بدون من يرعاهم ، وصار الزوج يجري هنا وهناك ليرتب أوضاع زوجته ناهيك عن إصابته بالكآبة من جراء ما وصلت إليه زوجته من حال ، وفي ذلك الوقت العصيب توجه الزوج إلى الباربي بقلب صادق ليقول : إلهي أسألك بحق الإمام المهدي (ع) إلا فرجت عن زوجتي ورحمتها مما هي فيه .

وفي المساء وعندما كان مضطجعاً سمع ضجّة في الدار ، خرج على أثرها من حجرته ليرى بأوم عينيه فرح الأطفال بشفاء أمهم من مرضها ، ورجوع النور إلى عينيها حيث كانت تقول : إن شفائي كان بفضل التوسّل بالإمام المهدي (ع) .

للجيش رياضة صباحية يقومون بها بعمل بعض الحركات الرياضية ولكل الجيوش في العالم رياضات صباحية ترافقها أناشيد وطنية ، ولا بأس لو بدلت تلك الأناشيد بقراءات في الزيارة الجامعة ، لأنها تعرّف الأئمة من أهل بيت الرسول الأكرم (ص) لمن لا يعرفهم وتذكر بهم من يعرفهم وأن ذلك العمل لا يستغرق من الوقت إلا خمس عشرة دقيقة لا غير .

يقول العلامة المجلسي - عليه الرحمة - : إن الزيارة الجامعة لها سند قوي ودلائل تؤكد أنها أفضل الزيارات لجمعها بين الأئمة (ع) والرسول الأكرم (ص) ، واطلاع القاريء لها على مقام الأئمة من أهل البيت السامي وآثار أعمالهم في نفوس البشر ناهيك عن التوسّل بهم لأن يكونوا شفعاء ، لكونهم أمناء الله على سره ، لأنهم المسترعون في أمر خلقه ، وأن الباربي قرن طاعتهم بطاعته ، وعصيائهم بعصيانه .

إن الزيارة الجامعة تعمل على إنارة القلب ، وتساهم في تمكين الانسان من السيطرة على نفسه الأثارة بالسوء ؛ والمهم في قراءة الزيارة الجامعة هو التوسّل بأهل بيت محمد (ص) ، وتوطيد العلاقة بهم ، بعد إحكام الارتباط بالله الواحد كيما تتزايد سعة الإنسان الوجودية ، وكلّما وثقنا علاقتنا مع الأئمة الأطهار (ع) ازدادت سعتنا الوجودية .

إن المتدبّر في معاني الزيارة الجامعة يشعر بلذة خاصة بهذه الزيارة

خصوصاً إذا كان الحب والودّ الذي يملأ قلب الإنسان المسلم لأهل بيت الرسول الأكرم (ص) عميقاً عندها سيطيل النظر في رفعة وسمو أهل البيت - عليهم السّلام - ومظلوميّتهم التي صنعها لهم أعداء الله على مختلف العهود والأزمان .

يقول العلامة المجلسي : ذهبت إلى مدينة النجف في العراق ، وعند وصولي أردت الذهاب إلى ضريح الإمام علي (ع) ، ولكنني استحييت من ذلك ، وقلت في نفسي : إنني ما أزال غير عارف بوضعي ، فكيف أذهب إلى زيارة ضريح الإمام علي (ع) بدون أن تكون لي علاقة قوية تشدني إليه ويقبلني كزائر ، فرابطت في الدار وفي المسجد ، وفي وادي السلام الذي هو مكان القبور ، أتعبّد وأتوجّد وأتوسّل إلى الله أن يعرفني على صاحب ذلك المقام . وبعد ذلك توجهت إلى زيارة قبر الإمام علي (ع) لأشّرع بقراءة الزيارة الجامعة ولأنعم بصفو البال وراحة النفس ، وما أن شاهدني أحد العلماء الأجلاء بادرنى إلى القول : نَعَمْ الزيارة هذه .

« السلام عليكم يا أهل بيت النبوة ، وموضع الرسالة ، ومختلف الملائكة ، ومهبط الوحي ، ومعدن الرحمة ، وخزّان العلم ، ومنتهى الحلم وأصول الكرم ، وقادة الأمم ، وأولياء النعم ، وعناصر الأبرار ، ودعائم الأخيار ، وساسة العباد ، وأركان البلاد ، وأبواب الإيمان ، وأمناء الرحمن ، وسلالة النبيين ، وصفوة المرسلين ، وعتره خيرة ربّ العالمين ورحمة الله وبركاته » .

وقد قال العلامة المجلسي بصدّد هذه الزيارة : إنها أصحُّ سنداً ومضموناً .

ويحضرنني هنا أن أذكر أن الدنيا فرص ، فلا بأس باستغلالها وتوظيفها لتأديب وتشذيب النفس البشرية ، وأن قراءة الزيارة الجامعة فرصة لا ينبغي التفريط بها بسهولة إلا إذا حالت الظروف القاهرة بينها وبين الإنسان المسلم :

جاء في مفاتيح الجنان للمحدّث القميّ : أن أحد العلماء رأى في منامه

ظالماً كان قد مات منذ مدة زمنية ليست بالقصيرة في وضع جيد ، فسأله عن سبب ذلك ؟ .

فأجابه : بأن امرأة الحداد توفأها الباربي ليلة البارحة ، ودفنت في نفس المقبرة التي هو فيها وأن الحسين (ع) زارها ثلاث مرات ؛ ومن أجل الحسين (ع) رفع الله العذاب عن تلك المقبرة بشكل مؤقت .

فاق العالم من نومه ، وذهب إلى الحداد ليسأله عن صحة وفاة زوجته ، فأجابه الحداد بأن زوجته قد توفأها الباربي تعالى قبل ليلتين ؛ فقال العالم للحداد : ماذا كانت تفعل امرأتك في النهار ؟ .

هل كانت تعمل شيئاً خاصاً لله سبحانه وتعالى ؟ قال : لا ، ولكنها كانت لا تستغني عن زيارة الإمام الحسين (ع) في كل يوم .

أعزائي القراء ، لا ينبغي لأحد منا أن يتخلى عن زيارة الرسول الأكرم (ص) وأهل بيته الأطهار ، لكي يتمكن من إيجاد علاقة ورابطة قوية بهذه العترة الطاهرة ، ليكونوا شفعاء له بعد أن يتوفأه الله - جلّت أسماؤه - واطلبوا من الله سبحانه وتعالى أن يرزقنا وإياكم توفيق الطاعة وبعد المعصية لكي نحظى بروح التعبّد التي ستؤول بنا إن شاء الله إلى صلاح الدنيا والأخرة .

ذکر اللہ

إن إطلاق كلمة الموت لا يختص بها موت الجسم ، بل يتعدى إلى موت الإنسانية أيضاً ، وقد أشار القرآن إلى الشخص الفاقد للإنسانية فمثله بالحيوان ، بل أدنى من الحيوان ؛ ولقد تعرضنا في ما سلف إلى القوى المساعدة في حربنا الداخلية أو حرب الخير والشر في نفوسنا وإلى إمكان الاستعانة بهذه القوى لنخرج منتصرين على أنفسنا في ما سماه الرسول الأكرم (ص) الجهاد الأكبر .

أما الآن فتعرض إلى القوة المساعدة التاسعة وهي : « ذكر الله » باللسان وبالقلب ، قال الباري تعالى في محكم كتابه : ﴿ إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ﴾ ، ولذكرُ الله أكبرُ ﴿^(١)﴾ ، وعبارة : ﴿ ولذكرُ الله أكبرُ ﴾ دليل على أن الصلاة يشملها الذكر ، وأن الفرائض من صلاة وزكاة وحج وأمر بمعروف كلها تكون من أجل هذا الذكر : ﴿ إني أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدني وأقم الصلاة لذكري ﴾ ﴿^(٢)﴾ ، أي لا يوجد إله مؤثرٌ غيري في عالم الوجود ، وعليه يجب عليكم أن تعبدوني من أجل الذكر الذي هو أكبر من الفريضة .

قال عز وجل في سورة المزمّل : ﴿ إنا سنلقي عليك قولاً ثقيلاً ، إنّ ناشئة الليل هي أشدُّ وطأً وأقومُ قيلاً ، إنّ لك في النهارِ سبْحاً طويلاً ، واذكُرْ اسمَ ربِّك وتبتل إليه تبتيلاً ﴾ ﴿^(٣)﴾ .

(١) سورة العنكبوت، الآية ٤٥ .

(٢) سورة طه، الآية ١٤ .

(٣) سورة المزمّل، الآيات ٥ - ٨ .

أي أن الذكر أسمى وأرفع من ذلك القول الثقيل الذي ألقاه الباري على رسوله المصطفى (ص) ، وقد يكون الذكر في القلب أو باللسان ، وقد يرافقه التبتل ، وقد لا يرافقه .

قال الباري في محكم كتابه : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴾ (١) ، أي عليكم بذكر الباري بكثرة وعلى كل حال ، وبكل ما هو أهله ، إضافة إلى تسيحه في أول النهار وآخره ؛ ومن هنا نفهم أن القرآن الكريم يؤكد هذه الوظيفة الكبرى التي ينبغي لنا أن نتحملها لكي نستمد العون بها من الله في تسهيل أمورنا الدنيوية في الأقل ، وسيُيب الباري الذاكرين في عالم الآخرة ، لأن أمره مقرون دائماً بالأجر والثواب .

نقل لنا صاحب الوسائل - عليه الرحمة - في مؤلفه النفيس أكثر من (٢٠٠) رواية تؤكد أهمية الذكر ، وأنها سيرة النبي الأكرم (ص) والأئمة من أهل بيته - سلام الله عليهم أجمعين - .

ولقد وصف الرسول الأكرم (ص) علياً (ع) بدائم الذكر (٢) ، وأنه كان كالأسد في الحروب والغزوات ولسانه دائم الذكر لاسم الله العزيز المتعالي .

وكذا كان الحال بالنسبة للإمام الحسين (ع) ، حيث لم تمنعه الحرب عن ذكر الله وإقامته لصلاة الليل ، وهذا ما كانت تفعله العقيلة زينب بنت علي بن أبي طالب - عليهما السلام - فقد ذكر المؤرخون إقامتها لصلاة الليل في الثالث من استشهاد أخيها الحسين (ع) في ظهر الكوفة جلوساً .

ولم يأل الأئمة الأطهار من آل محمد (ص) جهداً في إقامة صلاة الليل ، والاشتغال بالاذكار التي أصبحت لهم سنة حسنة ، وقد تعرض المحدث القمي في كتابه « مفاتيح الجنان » إلى أذكار الأئمة الأطهار بأحسن وجه وخصص بهم أبواباً تحت عنوان أذكار الأئمة الطاهرين (ع) ؛ فكتب في ذكر الرسول (ص) ، وذكر الإمام علي (ع) وذكر الأئمة الأطهار من بعده حتى خواتمهم - صلوات الله

(١) سورة الأحزاب، الآيات ٤١ - ٤٢ .

(٢) تاريخ دمشق/لابن عساکر ، ج ٢ ، ص ٤٣٩ .

عليهم - لم تخل من ذكر الله تعالى .

وعليه ينبغي لنا نحن المسلمون أن نتأسى بما كان يعمل النبي الأكرم والأئمة الإثنا عشر من بعده ، وأن نلهج باسم الله أبداً قلباً ولساناً امتثالاً لما جاء في كتاب الله الحكيم : ﴿ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً ﴾ (١) .

فمن أراد الانتصار على نفسه ، عليه أن يختار ذكراً يلهج به يومياً ، وفي كل لحظة لا يشغل بها عن ذلك الذكر ، فقد يتخب البعض ذكراً فيرده دائماً : « لا إله إلا الله » .

وقد يردد آخر : « لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم » .

وقد يلهج أحدهم بآية من القرآن الكريم وهكذا . ولنعلم أن هذه الأذكار تغلق الأبواب في وجوه الشياطين من الإنس والجن وتخرج الذائر من حالة الوسواس والتخيلات واضطراب الخواطر التي قد تصيب الناس في هذه الدنيا الدنية : وأفضل الذكر « لا إله إلا الله » لأن كلمة الله تعني : « هو الذي يتأله إليه عند الحوائج والشدائد كل مخلوق عند انقطاع الرجاء من كل من دونه » (٢) .

وقد يستفيد الإنسان من المسافة التي يقطعها بين المنزل والعمل فيستمرها بالذكر النافع من مثل « لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم » أو ما شابه ذلك من الأذكار ، لأن الأخبار تقول قد يخرج الشاب من منزله متوجهاً إلى عمله وهو متدين ليرجع في المساء إلى حيث داره وهو كافر ، وهذا ما حصل للكثير من الشباب من جراء ما سمعوا من الشبهات التي تصطبغ بصبغة الحق على الرغم من أنها باطل محض ، فيضطرب السامع لها ، وتشاركه في ذلك ضعف عقيدته ، وقلة معلوماته فينقلب على عقبيه وعندها لن يضر الله شيئاً ، إنما يكون هو مركز الضرر ؛ وقد يحرف رفيق السوء صاحبه إلى ما لا تحمد عقباه وهذا ما حصل للنجاشي الشاعر الخاص بأمر المؤمنين علي (ع) . وفي شهر رمضان المبارك حيث تمكن منه أحدهم ليجره إلى الإفطار وما إلى ذلك من المعاصي العظام ؛ لذا أذكر نفسي وإخواني القراء الكرام بضرورة الابتعاد عن

(١) سورة الأحزاب، الآية ٤٣ .

(٢) توحيد المنفلد/ص ٢٣١ .

الوساوس التي قد يخلقها رقيق السوء بالرغم من أننا في غنى عنها لوجود الذكر الذي حبانا الله به ، وجعل منه هدية عظيمة لعباده الملتزمين .

وقد ينتفع أحدهم من أحد الأذكار ، فينقلب إلى مؤمن مخلص يسمو بمنزلته ويضاهي ملائكة السموات والأرض ، وقد تحرك كلمة لا إله إلا الله الصادرة عن فم مخلص لله جبلاً عتيداً ؛ فالأذكار لها طعم خاص ، ومنزلة خاصة لكونها تساهم في تغيير الأفكار والقلوب والأعمال إلى مآل صالح .

الذكر قسمان : الأول : باللسان ؛ والثاني : بالقلب .

وقد قال علماء النفس بتأثير الذكر اللساني بشكل مؤثر في الروح البشرية .

وقال القرآن الكريم والروايات بتأثيره الإيجابي .

وكذا قال علماء الاخلاق والعرفاء الذين كان يلتزمون الذكر أكثر من غيرهم من الذين لا يتتهجون منهج العارفين .

فالذكر باللسان يدخل ضمن التلقين وهو أحد أنواعه ، فذكر لا إله إلا الله ألف مرة قد تعتاده وتردده بدون أن تدرك معناه الحقيقي ، ولكن قد تفتن فجأة إلى أثره في القلب ، ويمكن تمثيل ذلك بالنار والفحم ، فالفحم في وسط النار ، ولا تؤثر فيه النار إلا رويداً رويداً ليشتعل فجأة ويتبدل جميعه إلى نار .

ولو قيل لك بقراءة القرآن ، وأنت تسير في الشارع هادئاً وفي أوقات فراغك في المدرسة أو الجامعة أو أي زمان يتيح لك ذلك ، فلا تتوانى وافعل بما قيل لك ، لأنك سوف تشاهد أثر تلك القراءة على قلبك بعد مدة من خلال رسوخ بعض الكلمات أو العبارات .

ومن رسخ القرآن في قلبه سيصل حتماً إلى رضا الباري تعالى وهكذا يفعل فعله تسيح الزهراء (ع) الذي يُعمل به بعد الانتهاء من الصلاة الواجبة ، وهو ذكر « الله أكبر » (٣٤) مرة ، و « الحمد لله » (٣٣) مرة ، و « سبحان الله » (٣٣) مرة ، وقد لا تعتقد بأهمية ذكر « الله أكبر » (٣٤) مرة ولكن التجربة أثبتت أهمية ذلك وأثره في قلب المسلم .

يقول علماء النحر بأن « الكلمة » جاءت من « الجرح » لما لها من تأثير على السامع والشخص الذي جرت على لسانه ، وقد تعرض لها علماء النحر بهذا الشكل كنايةً عن أثرها في قلب ونفس الإنسان .

فالسبب أو المزاح المحلل يترك أثره سلباً أو إيجاباً على القلب ، فقد يوجب قساوته وقد يوجب غير ذلك ، وكذا الذكر في تركه للأثر على القلب الأدمي حيث يدخل النور في القلب ، وقد أولى الإسلام أهمية خاصة للذكر اللفظي تفوق على أهمية الفرائض ، وقد يكون ذلك من أجل تذكير القلب دائماً بالله العزيز القدير .

وكم هي رائعة تلك الآية الشريفة التي تقول : ﴿ رجالاً لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله ﴾^(١) فهي لتبين لنا أهمية الذكر العظيمة وتأثيره الشديد في النفس البشرية ، للوصول بها إلى حيث يريد الله تعالى .

وقد يصل الذائر إلى حالة ، يكون فيها كل شيء في حياته ذكر الله ، فهو في البيت ذاكر لله ، وفي طريقه إلى عمله كذلك ، وعندما يكون مشغولاً بتناول طعامه ، حيث يذكره الطعام بنعمة الله الذي يجب أن يذكره ما بقي في هذه الدنيا .

وقد يصل إلى أسمى من ذلك أيضاً فيذكر الله محبوه حتى في منامه ؛ فهنياً للذاكرين .

وعلى علمي أن هناك أفراداً ينامون ، ولكنهم يعيشون مع قلوب تحيا مع ذكر الله ، وإذا حصل ذلك ، لن يكون بعدها ضياع أبداً حتى يأذن الله له بمغادرة هذه الحياة الفانية .

يقول عز وجل في محكم كتابه : ﴿ ألا بذكر الله تطمئنُّ القلوب ﴾^(٢) .

وجاءت « ألا » هنا للتأكيد ، وتقدم الجار والمجرور للتأكيد أيضاً لتضحى هذه الآية بهذا الشكل : بلا شك في أنه بذكر الله تطمئنُّ القلوب ، فلا

(١) سورة النور، الآية ٣٧ .

(٢) سورة الرعد، الآية ٢٨ .

اضطراب ، ولا اكتئاب ، ولا شيء يرى غير الله تعالى .

أمعنت النظر في الصحراء فرأيتك

وغصت في أعماق البحار ورأيتك

وكلما شاهدت الجبل والسهل والوادي

عرفت أنها دلالة على جميل وجهك .

قال المولى تعالى : ﴿ سُرِّيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ

أَنَّهُ الْحَقُّ ﴾ (١) .

وفي هذه الآية المباركة أيضاً جاء تأكيد لتأكيد ، ليبيّن الباري تعالى أن هذه الآيات التي في الأفاق قائمة لكي يدرك الإنسان عالم الذر ، ويدرك أن لا وجود لمعين أو لخالق غير الله - تعالت أسماؤه - وأن كل من ادعى ذلك باطل وفارغ ولا قيمة له ؛ ولا يخفى على اللبيب أن الوصول إلى رؤية آيات الله في الأفاق وفي النفوس لا يمكن بلوغها إلا بالأذكار اللفظية ؛ لذا ، علينا أن نرى ونمعن النظر في آيات الله التي لا عدُّ لها ولا حصر كيما نعرف أن وجودها يعني وجود خالقها فلا نعصيه ؛ إلهي وفقنا للذكر اللفظي والقلبي بحق لا إله إلا أنت ، وصلى الله على رسوله محمد وآله الطيبين الطاهرين .

(١) سورة فصلت، الآية ٥٣ .

التوكل على الله

إن التوكل على الله يمكن احتسابه القوة المعينة العاشرة للفوز في معركتنا مع النفس الأمارة بالسوء، وبالتوكل على الله يمكن استخدام النفس الأمارة كبراق للمعبور بها إلى عالم الملكوت ، ومن ثم الخروج منه إلى أسمى من ذلك حيث الوصول إلى عالم الجبروت .

قال عز وجل في محكم كتابه : ﴿ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا ﴾ (١) .

وهذه الآية المباركة جاءت بعد التعرض للقول : ﴿ إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ﴾ (٢) ، وإذا أردت أن تصل إلى الهدف المعين لك عليك أن تتخذ الباري تعالى وكيلاً ، أي تتوكل عليه كيما تنتصر في هذا المجال .

التوكل : هو الاعتماد ، وكلّ إليه الأمر : سلّمه ، وفوضه إليه ، واكنفى به ؛ واتكل على الله : استسلم إليه ، وتوكل : قبل الوكالة ، وتوكل على الله : وثق بما عند الله ، ولم يعول على ما في أيدي الناس .

والوكيل : الذي يسعى في عمل غيره وينوب عنه فيه .

قال المولى تعالى في محكم كتابه : ﴿ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ

(١) سورة المزمل ، الآية ٩ .

(٢) سورة المزمل ، الآية ٥ .

حسبُهُ ﴿١﴾ ، أي هو الذي يكفيه فيما إذا تَوَكَّلَ عليه واعتمد ، ومن أراد إنجاز مهمة أو أمر ضروري ، فليَتَوَكَّلْ عليه تعالى في مهامه وأموره ، ولا يعتمد كل الاعتماد على قدرته وفطنته ، بل يسعى للأمر بكل جهده ، ولكنه يبقى يرجو الله في إنجاز ذلك العمل ، لأن الذي يتوكل على الله ، يكفيه الله ذلك العمل ويتمه له إن شاء .

فإذا أتكى الإنسان واعتمد عليه تعالى في هذه الدنيا ، رأى بنفسه عدم تأثير غيره في ما لو اعتمد عليه (أي على الشخص) لأن الباري تعالى هو أهل ذلك التوكل والاعتماد ، وليس الناس أهلاً لذلك .

ولو علم الله اعتماد عبده عليه دون غيره لنصره فيما يريد ، ولو كان الناس كلهم عليه يسند بعضهم بعضاً لما استطاعوا أن يضروه ولو بمثل جناح بعوضة ؛ لكون الباري يقف خلفه ويحميه .

وإذا رفع الباري يده عن أحدهم هوى إلى الحضيض والذلِّ والمهانة .

﴿ قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ ، تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ ، وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ ، وَتَعَزُّ مَنْ تَشَاءُ ، وَتَذُلُّ مَنْ تَشَاءُ ، بِيَدِكَ الْخَيْرُ ، إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (٢) .

إن هذه الآية المباركة تتساوى في معناها مع معنى التوكل الذي أشرنا إليه ؛ والدليل على ذلك هو : لو اجتهد الإنسان في دروسه يكون بلحاظ الأخلاق إنساناً جيداً ، وعندها يمكن أن يفيد من علمه الذي اكتسبه ، ويمكن له من خلال علمه أن يختلط بالمجتمع ، وعندئذ يضحى عزيزاً من قبل مجتمعه أراد ذلك أم أبى ، ولكن من يمنح هذه العزّة؟ فالعزة ليست بيد أحد من الناس ! .

إن العزة بيد الله وهو الذي يجب أن يعطيها لا غيره ؛ ولا يتأتى لغيره أن يسوق العزة لأحد .

(١) سورة الطلاق، الآية ٣.

(٢) سورة آل عمران، الآية ٢٦.

وعلى العكس من ذلك ، فالإنسان الغارق في الصفات الرذيلة ، سوف تتردد صفاته تلك في يوم من الأيام ، ولا معنى لمنحه العزة من قبل الله تعالى ، لأنه سيكون غير لائق لتلك العزة وعندما لا يمنح البارئ العزة له ، لا يمكن للناس أن يمنحوها له ، ولا يستطيع هو جلب العزة صوبه ، وبالتالي سيكون ذليلاً ومطروداً .

وعليه ينبغي لنا رويداً رويداً - لصعوبة الأمر - أن نرتب لأنفسنا وضماً عند الله ليكون وكيلنا في كل أمورنا ؛ علينا أن نعتمد على الله ونتوكل عليه بعد أن نسمع له ونطيع .

وحالة الوكالة ليست حالة غير طبيعية ، فخذ مثلاً أحدهم يريد القيام بعمل ما ، ولكنه لا يجد إلى ذلك سبيلاً ، إلا بتوكيل أحد الخيرين .

وما يفعل ذلك حتى تراه مطمئناً البال ، ينعم بنوم عميق في ليله ، ولا يفكر في ذلك الأمر ، وإذا سأله عن ذلك ؟ يقول لك : لقد وكّلت فلاناً ، إنه إنسان خيرٌ ومتدينٌ ، وإنه سينجز ذلك العمل لي بالشكل الصحيح .

أما ذلك الذي لا يجد لإنجاز أعماله وكياً ، وهو لا يستطيع أن يرتب تلك الأعمال ، تراه مضطرباً ، مشغول البال ، لا يهدأ ، ولا يغمض له جفن ، حاله الذي لا يتوكل على الله ولا يعتمد ، تلفُّه الحيرة في كل الأوقات ، عصبي المزاج ، لا يعرف ماذا يقول ، ويهتزُّ لأبسط الاستفزازات .

ولكن إذا عرفنا ﴿ إِنَّ رَحْمَةَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ ﴾^(١) وعلمنا برحمته التي وسعت كل شيء ، توكلنا عليه وركنا إليه تعالى في كل أمورنا ؛ قال رسول الله (ص) : « لو تعلمون قدر رحمة الله تعالى لا تكلمتم عليها »^(٢) .

وقال أيضاً (ص) : « إن الله تعالى خلق مئة رحمة ، فرحمة بين خلقه يتراحمون بها ، وادخر لأوليائه تسعاً وتسعين »^(٣) .

(١) سورة الأعراف، الآية ٥٦ .

(٢) كنز العمال/خ/١٠٣٨٧ .

(٣) كنز العمال/خ/٥٦٦٨ .

« ونقرأ في الدعاء » : « يا من هو أبُّي من الوالد الشفيق ، وأقرب إلي من الصاحب اللزيق ، أنت موضع أنسي في الخلوة إذا أوحشني المكان ، ولفظتني الأوطان ... » (١) .

وقال تعالى في جليل خطابه : ﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَاعْتَصَمُوا بِهِ فَسُيِّدْهُمْ فِي رَحْمَةِ اللَّهِ ﴾ (٢) .

وقال أيضاً : ﴿ وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ . . ﴾ (٣) .

ولا يخفى على أحد أن أولياء الله هم الذين يدركون رحمة الباري تعالى فيعتمدون عليه ، ويتوكلون ، فيرفع الله عنهم بتوكلهم ذلك الخوف والحزن : ﴿ أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفَ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ (٤) .

نقل لنا أحد الأجلء حكاية جاء فيها : جلسنا في الطائرة ، فتحرت بنا من مطار طهران متجهة إلى مطار بغداد ، ولم تمض ساعة ، حتى قال لنا المضيف بعدم إمكانية هبوط الطائرة بشكل طبيعي ، لأن عجلاتها أصيبت بخلل يمنعها من الانفتاح ؛ وعندها بدا الخوف على وجوه المسافرين ، وبعد دقائق عاد المضيف ليقول : بأن الطيار اتصل بمطار طهران فقبل له بالرجوع إليه ، وعليه تلقى الطيار الأوامر بالتحليق لمدة زمنية طويلة لينفذ وقود الطائرة حتى تتمكن من الهبوط الاضطراري في مطار طهران ثانية .

بدأ الجميع بالتأمل والثرثرة المتأتمية من الخوف المشوب بالحزن والجزع ، ولكنني - والحديث للراوي - لم أحرك ساكناً ، وجلست مطمئناً راضياً بقدر الله ، لأنني توكلت عليه وحده .

وفجأةً خاطبني من هو جالس إلى جنبي : أيها الشيخ : ألا تسمع ما يقولون ؟ .

(١) بحار الأنوار/ج ٩٤ ، ص ١٥٧ .

(٢) سورة النساء، الآية ١٧٥ .

(٣) سورة الأنعام، الآية ٥٤ .

(٤) سورة يونس، الآية ٦٢ .

فقلت : نعم ، سمعت وأسمع .
فانفجر الرجل بوجهي قائلاً : ولكن لا يبدو عليك أنك خائف مما
سيجري بالرغم من أن الطائرة ستسقط بعد ساعة ؛ فأجبت : اسمع يا رجل ،
عندما طلعت إلى الطائرة قلت : ﴿ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ﴾ (١) ،
وقرأت بعد ذلك آية الكرسي ليحفظني الله من البلايا ، فإذا جاء الأجل لن يمنعه
أحد عني ، وإذا عتراني الخوف ، فلن يكون خوفي ذلك مانعاً لأجلي .
أما إذا قدر الله لي أن لا أموت ، وهو من اعتمدت وتوكلت عليه ، فلن
يحصل ذلك ، ولو هوت الطائرة إلى الأرض .

فهذا الرجل قليلاً ، ثم كتب وصيته وقدمها لي ؛ فقلت له : إذا كتب الله
النجاة لهذه الطائرة ، فالجميع سوف ينجون ، وإذا قدر لها غير ذلك فالكل إلى
ممات ، فلماذا جئتني بوصيتك وأنا معك على نفس المركب .

ولما رأى الجميع الرجل يكتب وصيته بدأ البكاء والوعويل ، فجاءتني امرأة
مسنة تقول لي : أيها الشيخ إن منزلي في المكان الفلاني وفي الحارة الفلانية
أرجوك أن تذهب إليه لتقول لابني كذا وكذا .

وجاءني آخر ليقول مثل قولها ، وهناك هبطت الطائرة بعض الشيء تريد
الهبوط الاضطراري في مطار بغداد بعد أن نفذ الوقود إذ لم يرجع الطيار بطائرته
إلى طهران ، وحينها بدأ المسافرون ينظرون من شبابيك الطائرة ، ليروا بأنفسهم
سيارات الإسعاف والأطباء والممرضات وقد اصطفوا وهم على أهبة الاستعداد
لقبول الحالة الاضطرارية .

بدأ المضيّقون بإخبار المسافرين بضرورة شد الأحزمة ، وامثل الجميع
لذلك غير أنني لاحظت أحدهم لم يقوَ على شد حزامه من شدة الهلع
والخوف ، فتركت مكاني لأذهب إليه وأشد له حزامه وفجأة هبطت الطائرة إلى
الأرض بدون وقود بعد أن سيطر عليها طيارها لتحط على أرض المطار بدون أن
يصاب أحد بأذى يذكر .

(١) سورة الطلاق، الآية ٣.

قمت من مكاني وسارعت إلى باب الطائرة ، فتعجّب الأطباء ومساعدوهم وظنوا أنني فاقد للسمع ولا أدري ما الذي حصل ، على خلاف بقية المسافرين الذي لم تساعدهم أرجلهم على النهوض من أماكنهم من شدة الرعب والهلع ، والطريف في الأمر أن بعض المسافرين اقتيدوا لينزلوا من الطائرة ، وليوضعوا داخل سيارات الإسعاف لعدم تمكنهم من السيطرة على أنفسهم ولعدم اعتمادهم وتوكلهم على الحي الذي لا يموت .

فنعندما يعتمد الإنسان على الله سبحانه وتعالى ويتوكل يطيب خاطره ويطمئن قلبه على العكس من ذلك الجبان الذي لا يطبق زيارة القبور ، وإذ ذهب لوحده شاهد خروج الموتى من قبورهم أو لاحظ تحرك ميت في لحدّه ، أو رأى أن ميتاً لحق به أو أمسك به وعندها يقع مغشياً عليه ، وحقيقة الأمر ليس كذلك إذ لا خروج لميت ولا حركة ولا تعقيب فيه لأحد ، وإنما هي حالة التخيل الناتجة عن الخوف والمنعكسة على العين التي يمكن أن تصاب بالخيالات ؛ ولو تأتّى أن يرافق شجاع ذلك الجبان لرأيت الجبان يذهب هنا وهناك وسط القبور بدون اضطراب أو خوف .

إن جميع الاضطرابات والمخاوف في هذه الدنيا هي نتيجة طبيعية لعدم الاعتماد على الله ، ومن توكل على الله ، واعتمد بدا للناس بطلاً شجاعاً لكون المتوكل على الله لا يعرف الاضطراب ولا القلق ، فتراه دائم النشاط والعمل من أجل الدنيا والآخرة وتوكله واعتماده يساعده على الخروج من المآزق والشدائد بسهولة بعكس ذلك المضطرب الذي إذا عصفت به نفسه الأمانة بالسوء أمسكت به غريزته الجنسية لتهوي به في واد سحيق .

لقد ذكر العلامة الطباطبائي صاحب الميزان (٢٤) عاملاً مساعداً لأن يرتكب يوسف (ع) معصية في وجود زليخا منها: أنها كانت فائقة الجمال ، شابة ، ملكة مصر ، تتكلم معه بشهوة ، كانت تتوسل إليه وترجاه ، هيأت له كل متطلبات الفجور ، ولكنه لم يفعل إلا ما يرضي الله العزيز القدير بالرغم من تهديدها له ، بالجلد ، والطرْد ، والسجن ﴿ ولقد همّتُ به ، وهمَّ بها لولا أن

رأى برهاناً ربّياً ﴿١﴾ ؛ لقد اعتمد يوسف وتوكل على الله ، فأخذ الله بيده إلى حيث النجاة من الهلكة والعذاب .

سأل أحدهم المرجع الكبير « المقدّس الأردبيلي » - رحمة الله عليه - فقال : لو تأتّى أن تختلي بامرأة شابة جميلة في مكان أمين ، فماذا تفعل ؟ قال : ألتجئ إلى الله حصني وأتوكل عليه وأفوض الأمر إليه ولا أفعل ما يفضبه .

حقاً ، إن وضع كهذا لا ينجو منه إلا من عرف ربه ، وأيقن بيوم الحساب ، وخاف أهوال يوم القيامة ؛ أعاذنا الله وإياكم مثل تلك المواقف المحرّجة .

والجدير بالذكر أن كل الرغبات تكون على تلك الشاكلة ، ومن جملتها الرغبات والغرائز التي نمارسها كل يوم من مثل الرغبة في الغذاء أو الماء ؛ وقد يفعل الجوع فعلته بالإنسان فيضطره إلى أكل الميتة أو قتل من هو مثله من الأدميين ؛ وكذا الغريزة الجنسية والتي اعتبرها فرويد « أصل الشهوة » فقال بأنها مركز الرغبات والغرائز ، وهذا ما عدّ جنابة ؛ وقد أبطل تلاميذه فرضيته تلك على الرغم من أن الغرب ما يزال يعيش في متدنيات الشهوة بسبب تلك الفرضية .

يقول فرويد : إن أصل جميع الغرائز يرجع بالأساس إلى الغريزة الجنسية ، وإن امتصاص الطفل لحلمة ثدي أمه يدخل ضمن نطاق الغريزة الجنسية ، فيجبه أحد تلاميذه بالقول : إنك لم تشعر بالجوع لحد الآن ، ولو صرت إلى ذلك ، لرفضت أن تمارس الجنس مع فتاة جميلة وفضّلت أن تكون لك طعاماً يسدّ جوعتك بعيداً عن التفكير في الجنس .

وحقاً ما قال تلميذ فرويد ، وقد لاحظنا أكل الناس للكلب والقطعة في زمن المجاعة ، وهذا ما حصل في روسيا في هذه الأيام حيث الغلاء الفاحش الذي اضطر الناس لأكل الكلاب والقطط والجيوف ؛ وإن الوضع الذي نعيشه الآن مع

(١) سورة يوسف، الآية ٢٤ .

الظروف الاقتصادية لم يضطرونا إلى مثل ذلك فاحمدوا الله واشكروه على نعمائه .

أما غريزة حب الرئاسة ، فهي الأخرى تهوي بالإنسان إلى الحضيض إذا استعرت نيرانها في جنات الإنسان الذي لا يعرف التوكل ولا الاعتماد على الله .

لقد قلع نادر شاه عيني ابنه الشاب بعد أن سمع بطلبه للرئاسة ، وقد حاول قلع عيون أخرى ، ولكن الله لم يمهله إلى أن يفعل ذلك ، فقتله عامة الناس بعد أن هجموا عليه وهو في خيمة ليقطعوه إرباً إرباً .

قال المأمون العباسي : كنت أجالس أبي هارون في مجلسه ، فدخل علينا الإمام موسى بن جعفر الكاظم (ع) ، وكنت حينها لا أعرفه ولكنني شاهدت اضطراب أبي حين دخوله وقيامه من مكانه ، ليأخذ الإمام (ع) بكل احترام إلى حجرتة الخاصة ، وبعد مرور ساعة خرج أبي هارون يرافقه الإمام الكاظم (ع) وعندها احتضن هارون الإمام الكاظم (ع) وقبّله وقال لي ولأخي ولبقية الحاشية أوصلوا موسى بكل احترام إلى منزله ، ففعلنا ذلك ورجعنا .

وعندما رأيت ذهاب الجميع من مجلس هارون قلت له : قل لي يا والدي ، من ذلك الرجل ؟ فقال هارون : إنه الأعلم والأليق بالخلافة ، إنه الرجل الذي ينبغي أن يجلس على كرسي خلافة رسول الله (ص) ، إنه أحد أولاد الرسول محمد (ص) .

فقلت له : ولماذا لا تسلّمها له يا والدي ؟ فالتفت إليّ بشدة وقد تغير لونه وقال : لو علمت بمنافستك لي فيه لأخذت الذي فيه عينك .

ثم سحب سيفه من غمده ورفعته عالياً وقال : الملك عقيم .

كان هارون الرشيد يعرف الإمام موسى بن جعفر (ع) حقّ المعرفة ، ولكنه بالرغم من ذلك حبسه (١٤) عاماً وعذبه أشد أنواع التعذيب في سجنه له ، وفي نهاية الأمر قتله وهو يعلم أنه ابن بنت رسول الله (ص) ، ويعلم أنه سيذهب إلى جهنم بقتله للإمام الكاظم (ع) ، ولكنه لم يتخلّ عن الحكم والسلطة .

ينبغي للإنسان المسلم أن يتوكل على الله الذي هو حسيبه وكفايته حينما يشعر بطغيان إحدى غرائزه ، ليقف دون إرادة تلك الغريزة ﴿ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ﴾ (١) .

فهنيئاً لأولئك الذين تمكنوا من الوقوف بوجه النزوات والشهوات من خلال توكلهم عليه سبحانه .

(١) سورة الطلاق، الآية ٣ .

مراحل التوحيد والتوكل

كتب الفلاسفة بحوثاً في إثبات وجود وصفات الله العالم المتعالي ؛ وقد جاء في القرآن الكريم أدلة وإثباتات على وجود الله ، وقد اعتبر الإسلام بشكل عام والقرآن الكريم بشكل خاص ضرورة إثبات وجود الله .

إن المشهور بين المسلمين أن أصول الدين خمسة أولها التوحيد ولا نقول إنها ستة أولها إثبات وجود الله ، وثانيها التوحيد ، ولذا ينبغي تعليم الأبناء أن أول أصل من أصول الدين هو التوحيد ، والذي يعني فردية الله تعالى .

وعلى قول بعض الطلبة : إن مسألة وجود الله مفروغ منها .

يعترض البعض ويقول : لماذا تكون أصول الدين خمسة لا ستة ؟ .

ويأتي الجواب : ﴿ أفى اللّٰه شكُّ فاطرِ السمواتِ والأرضِ ﴾^(١) .

ومن هو ذلك الذي يمكن أن يشكك في وجود الله سبحانه ؟ .

وإذا كان الماركسيون وأمثالهم ينكرون وجود الله فالخطأ في المصداق ! .

أما بالنسبة للدهرية الذين قالوا : إن الدهر هو الذي خلقنا ، وناقشهم الإمام جعفر بن محمد الصادق (ع) وأفهمهم أن المسلمين يسمون الخالق « اللّٰه » وأنتم تسمونه « الدهر » ولا فرق في ذلك ، فالخالق واحد مهما كثرت الأسماء والتعوت .

(١) سورة إبراهيم، الآية ١٠ .

وقد قال الإمام الصادق (ع) لمن سبَّ الدهر والدهريين : « لا تسبَّ الدهر فإن الله هو الله »^(١) .

إن الأدلة على وجود الله - إذا فرضنا أنها ضرورية كثيرة جداً ومن جملتها دليان يمكن الاستفادة منهما على مستوى المجتمع ، وإن جميع العقول يمكن أن تتقبَّل هذين الدليلين ، فالأول منهما هو الدليل الفطري ، والدليل الثاني هو النظم الموجود في هذا العالم .

والجدير بالذكر أن هذين الدليلين لا يحتاجان إلى مقدمات لأنهما سطحيان ، ولكنهما يفيان بالغرض .

والمراد من الدليل الفطري هو أنه إذا ابتعد الإنسان عن الأوهام والخرافات والوساوس أدرك فطرته وجود مدبر حكيم هو الخالق والحاكم . ولأن الناس في العادة تكون أذهانهم مشغولة وأفكارهم تخالطها الشوائب ، ولا تحوي صدورهم قلباً تطلب الآخرة ، فتراهم يبتعدون عن العوالم الإلهية ، ولكنهم يرجعون إلى فطرتهم التي فطرهم الله عليها حينما تشتد عليهم النوائب ؛ عندها تسمعهم يقولون : « يا الله » .

﴿ فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفَلَكِ دَعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ، فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴾^(٢) .

والفطرة هي الخلقة التي يكون عليها كل موجود أول خلقه ؛ والفطرة هي الطبيعة السليمة لم تشب بعبث ؛ وهي استعداد لإصابة الحكم والتمييز بين الحق والباطل .

قال لي أحد الأصحاب : تعرفت أحد منكري الله تعالى ، وصممت أن أضعه في موقفه أثبت له وجود الله فيه ، وقد كان هذا الشخص يترك في مدينة أخرى زوجة وأولاداً صغاراً وكان قد فارقهم منذ فترة طويلة .

دعوته إلى منزلي ، وبدأت أتحدث إليه عاطفياً بشكل يحرك إحساسه ،

(١) تفسير نور الثقلين/ج ٥ ، ص ٤ .

(٢) سورة العنكبوت، الآية ٦٥ .

فقلت له : إن قلبي يحترق على ما أنت فيه من وضع لأنك لم تر زوجتك منذ مدة ، ولم تر أطفالك أيضاً ، فأين هم الآن ؟ وماذا يفعلون ؟ هل جلسوا في الدار مجتمعين أو هم الآن يغطون في نوم عميق ؟ .

وقد يكون ولدك الصغير بكى اليوم كثيراً وهو يصرخ ويقول : بابا ، بابا لينام على صدى هذه الكلمة ، واستمر حديثي معه على هذا المنوال ليصل إلى وضع أخرج معه منديله ليمسح عن عينيه الدموع ، ولتقترن كلمات إلهي ، وسيدي ، وربِّي ساعدني ؛ مع تلك الدموع المتساقطة ؛ وعندئذ قلت له : من هو هذا الذي تناديه ؟ .

وهل هناك أحد بهذا الاسم ؟ فبالأمس كنت تتنكر له وتنفي وجوده وتستدل على ذلك بفكرك وعقلك ، أما الآن وبعد أن وصلت إلى طريق مسدود دعوتَه مخلصاً لكي يفرج عنك ! .

ينقل لنا أحد الفضلاء حكايةً جاء فيها : كان أحد الأطباء منكباً لوجود الله تعالى ، وكان له طفل عليل يحتاج إلى عملية جراحية وما إن ذهبوا بابنه إلى غرفة العمليات حتى بدأ بالبكاء والتوسل بالله العلي القدير وشرح بمناجاته ، وعندها تقدمت نحوه لأقول له : إنك لم تكن تعتقد قبل اليوم بوجود الله العزيز القدير فما الذي حدا بك للاعتقاد به اليوم ؟ .

فأجاب : اتركني لحالي ، ودعني أتوسل بالله ، لأنه الوحيد الذي يمكن أن يرد عليّ ولدي .

إن الإنسان يمكن له أن يجد الله ، إذا راجع سجلات فطرته ، وهذا ليس علماً كالعلوم المعهودة ، بل هو شهود كالإنسان الظامئ الذي يستشعر العطش .

فالفطرة الإنسانية إذا ابتعدت عن الخرافات ، والعناد والعصية ، تمكن الإنسان من التعرف على ربِّ السموات والأرض . وهذا ما يسمَّى الدليل الفطري .

أما الدليل الآخر في إثبات وجود الله تعالى وهو أفضل من الدليل الفطري وهو ما أطلقنا عليه اسم « برهان النظم » الذي يقول فيه القرآن المجيد : ﴿ إن

في خلقِ السمواتِ والأرضِ واختلافِ الليلِ والنهارِ لاياتٍ لأولي
الألبابِ ﴿١﴾ .

فالدقة في خلق السموات والأرض ، والدقة في نظمها ، في حركتها ،
وحركة المنظومات والمجرات ، ودقة تعاقب الليل والنهار ، والدقة في طول
النهار وقصر الليل ثم قصر النهار وطول الليل لا يمكن أن تجري وتكون بدون
مدبر حكيم قادر جبار حاكم على كل هذه الأنظمة الدقيقة ؛ وحاكم على الأنظمة
التي هي في داخل الأجساد البشرية والحيوانية والنباتية .

إن العلماء والفلاسفة أطلوا الأحاديث في برهان النظم ، وقد كتب (ع)
عالم كتاباً عنوانه « إثبات وجود الله » تطرّق فيه إلى دليل واحد وهو « برهان
النظم » مستدلاً على وجود الله فيه بالأنظمة الحاكمة في السموات والأرض
واختلاف الليل والنهار والأقمار والنجوم والشموس وما إلى ذلك من خلق الله
العظيم .

ولكون بحثنا هذا ، لا يتعلق بالبحوث الأيديولوجية أضرب لكم مثلاً
واحداً ، ليتضح برهان النظم .

كان لنيوتن علاقة خاصة بالمنظومة الشمسية ، ولذا صنع في محل عمله
العلمي منظومة شمسية مصغرة تتحرك بالطاقة الكهربائية ؛ وعند ضغطه زراً
خاصاً تبدأ تلك المنظومة بالعمل ، مثلما تعمل المنظومة الشمسية الأصلية فترى
الكرة الأرضية وجريانها الانتقالي والوضعي المشابه لحركة عجلة الحافلة .

وبحضرنا أن نذكر هنا أن العلماء أثبتوا (١٦) حركة للأرض إلى الآن .

كان لنيوتن رفيق منكر لوجود الله تعالى ، ودائم المناقشة لنيوتن بصدد
مسألة وجود الله أو عدمه ولم يتمكن نيوتن من إقناعه إلا بحادثة قام بها نيوتن
ليلفت نظر رفيقه ذاك إلى وجود الله من خلال صنعه العظيم .

جلس نيوتن في مختبره العلمي ليطالع كتاباً يتعلق بالفيزياء ، فجاء رفيقه

(١) سورة آل عمران ، الآية ١٩٠ .

المنكر لوجود الله ليجلس إلى جانبه ، وبدون أن يشعر رفيقه بالأمر ضغط نيوتن الزر الذي يحرك منظومته الشمسية المصغرة التي صنعها بيده ، وكانت مثيرة جدا ، فتعجب صاحبه وقال له : من ذا الذي صنع لك هذه المنظومة ؟ .

فأجاب نيوتن : لم يصنعها لي أحد ، هي صنعت نفسها .

ثم رجع نيوتن إلى كتابه يقبّل صفحاته بدون أن يهتم لسؤال رفيقه ، فانزعج رفيقه من جوابه ذلك ، وكرر السؤال عليه ، فأجابه نيوتن بمثل ما أجابه سابقاً ، فامتعض رفيقه وغضب لذلك الجواب ، وسأله للمرة الثالثة عن صانع تلك المنظومة المصغرة وقال : لست أحمق حتى أصدق أنها صنعت ذاتها بذاتها ، وأنتك لتسخر مني بجوابك هذا ؛ ثم أردف قائلاً : إن من صنعها عالم بالفيزياء والكيمياء مقتدر في هذين العلمين ، متخصص في علم الفلك ؛ وعندها رفع نيوتن رأسه من كتابه الذي بين يديه ليقول لرفيقه : كيف تكون إذن هذه المنظومة الشمسية التي يشهدها العالم ويشهد مجراتها وحركة الأرض الانتقالية ونظامها الدقيق الذاتي الخلفة ؟ ولو تأتى اضطراب منظومتي هذه التي صنعتها بيدي بعض الشيء لآلت إلى اضمحلال وتلف ؛ فكيف تنظر أنت إلى المنظومة الشمسية الكبرى ، وعدم اصطكاك أجزائها على أنها صنعت ذاتها بذاتها بدون أن يكون لها مدبر وحكيم وقادر يشرف عليها ؟ .

يقول مترلينك : لو كان لبعوضة جناح إضافي أو جناح واحد فقط لاضطربت خلقتها ولآل أمرها إلى الاضمحلال ، وكذا الأمر بالنسبة لمجمل القوانين الحاكمة في هذا الكون الواسع .

إن النظام الدقيق المسيطر على هذا العالم لا يمكن أن يعمل ذاتياً وبدون مدبر ومشرف ومقدر لحركاته وسكناته ، وإن الزيادة في سرعة المنظومة الشمسية أو المجرات المتناثرة في الفضاء أو قلته يبعث على اضمحلال وتلف عالم الخلفة العظيم ويؤول به إلى زوال ، حيث يمكن من خلال هاتين الحالتين تطاير أجزاء من بعض الكرات في الفضاء الخارجي مما يؤدي إلى قيام حالة غير طبيعية تعود بالضرر على جميع المخلوقات الأرضية والسماوية ؛ فكيف يمكن أن يفكر البعض بأن المادة تفتقر إلى الشعور ، أو أنها وجدت من غير علم ، أو من غير

قدرة ؛ لذا يكون أصل وجود الله ضرورياً جداً ولازم في هذه الحياة التي نعيش فيها ومعها .

يقول العلامة الطباطبائي -رحمة الله عليه - : إن القرآن الكريم لم يتعرض إلى أصل وجود الله ، ولم يأت بدليل على ذلك ، بل أشار إلى تلك المسألة ضمناً ، وما جاء من أدلة على مسائل أخرى تضمنت إثبات أصل وجود الله لهو تأكيد أن القرآن الكريم لا يتحدث عن أمر يستحيل الشك به إلا ضمناً ، إذ ليس من المعقول التطرق إلى أن لهذا العالم خالقاً ، أو ليس له خالق ، لوضوح الأمر من خلال خلق السموات والأرض وما فيهن وما بينهن وما إلى ذلك من مخلوقات كثيرة ومتنوعة : ﴿ أَفَبِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾^(١) ؛ وقد توصل رفيق نيوتن إلى الاقتناع بأحاديث نيوتن بعد أن تنكّر لها أكثر من عام ، وكان وصوله إلى تلك القناعة من خلال « برهان النظم » .

لو أمعنا النظر في كتاب « إثبات وجود الله » لشاهدنا أن جميع المقالات التي يحتويها الكتاب تحدث عن وجود الخالق المتعالي بدليل النظم الدقيق لما في السموات والأرض ، ولو نظرنا نظرةً سطحيةً في نفس المقالات ، لفهمنا أن من كتبها ليس شخصاً واحداً بل مجموعة من الأشخاص لاختلاف أساليب المقالات ، ولكننا لو دققنا في الخلقة لفهمنا أن الخالق واحد لتشابه أساليب الخلقة الدقيقة واتصال التدبير ، لكون المنظومات العالمية تحتوي على ترابط واتصال عجيب فيما بينها حيث اكتشف العلماء حتى الآن (٣١٠) منظومة ترتبط فيما بينها .

وهذا الارتباط يدل على وحدانية الصانع أو الخالق لها ، فعالم الملكوت مرتبط بعالم الناسوت أي أن « المعنى » يرتبط بالمادة ؛ ونلاحظ أيضاً التنسيق في عالم الذرات الإنسانية والحيوانية والنباتية والسكونية ثم نعبر منها إلى المجرات والمنظومات وما إلى ذلك التي تكون جميعها على نسق واحد .

فهل تعلم عزيزي القارئ الكريم بأن ذرة واحدة في هذا العالم لا تختلف في خلقتها ولا تتضارب مع مجمل عالم الذرات ، وأن النجوم تدور حول

(١) سورة إبراهيم، الآية ١٠ .

المنظومة الشمسية من اليمين إلى اليسار وفق تنظيم دقيق وهذا ما نشاهده جلياً في الذرة الواحدة وحركة الالكترونات التي تدور حول المحور من اليمين إلى اليسار ، وقد اعتبرنا البروتون هنا هو المحور الذي يدور حوله الإلكترون عكس عقارب الساعة بشكل محير للعقول ؛ فذرة واحدة تشبه في عملها منظومة واحدة ، ومنظومة واحدة تشبه في عملها مجرة واحدة ؛ وهذا أكبر دليل على أن الخالق واحد فقط .

قال الباربي تعالى في محكم كتابه المجيد : ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلَهُةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا ﴾ (١) .

قال الإمام علي (ع) : « . . . وما الذي نرى من خلقك ، ونعجب له من قدرتك ، ونصفه من عظيم سلطانك ، وما تغيب عنا منه ، وقصرت أبصارنا عنه ، وانتهت عقولنا دونه ، وحالت ستور الغيوب بيننا وبينه أعظم ؛ فمن فرغ قلبه ، وأعمل فكره ، ليعلم كيف أقمّت عرشك ، وكيف ذرأت خلقك ، وكيف علقت في الهواء سمواتك ، وكيف مددت على مور الماء أرضك ، رجع طرفه حسيراً ، وعقله مبهوراً ، وسمعه والهياً ، وفكره حائراً » (٢) .

جاء في القرآن الشريف إطلاق كلمة « أحد » على ربّ العالمين في الآية الشريفة : ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾ .

وجاء أيضاً كلمة « واحد » في ﴿ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴾ (٣) .

والفرق بين الكلمتين هو أن كلمة « أحد » ترتبط بالتوحيد الذاتي ، أي : لا يوجد إله في هذا العالم غير الله - جلّت أسماؤه - .

وأن كلمة « الواحد » ترتبط بالتوحيد الصفاتي وهي ما يطلق عليها العرفاء بـ « واحدية الذات » فيقولون بأن جميع صفات الله هي نفسها ذات الله تعالى .

ولكننا أنا وأنت لسنا هكذا ، فأنت حامل للعلم ، ولكن علمك لن يكون

(١) سورة الأنبياء، الآية ٢٢ .

(٢) نهج البلاغة/صبيحي الصالح ، ص ٢٢٥ .

(٣) سورة الزمر، الآية ٤ .

ذاتك ، لكونك تحتاج إلى علمك ، وكنتم في يوم من الأيام جاهلاً ، وأصبحت اليوم عالماً ، لشيخ بعد ذلك وتموت ويؤول علمك إلى زوال ، وقد نشاهد شخصاً حصل على بكالوريوس أو ماجستير أو دكتوراه في العلم الفلاني ، ولعدم ممارسته عملاً له علاقة بمؤهله ذلك ، يضمحل علمه شيئاً فشيئاً ليصل إلى مرحلة الضمور في أحد الأيام ، ويسمى علمه ذلك العلم الحصولي .

فالعلم الحصولي لا يكون عين ذات الشخص ، ناهيك عن احتياج الشخص إليه ، فالقدرة التي نمتلكها الآن ، لم تكن فينا عندما كنا أطفالاً ، وستلاشى هذه القدرة بمرور الزمن لتنتهي عند انتقالنا من هذه الدنيا إلى عالم آخر ، ولكن فصل الرطوبة عن الماء لا معنى له ، وفصل الملوحة عن الملح لا معنى له أيضاً ، وهذا ما يسمى « عين الذات » وقد يكون هذا المثال بعيداً بعض الشيء ولكنه يبقى مفيداً من أجل تقريب الأذهان إلى ما نريد .

فالمرتبة الثانية من التوحيد التي يطلق عليها اسم « التوحيد الصفاتي » تعرض لها أمير المؤمنين (ع) فقال : « . . . وكمال التصديق به توحيده ، وكمال توحيده الإخلاص له ، وكمال الإخلاص له نفي الصفات عنه ، شهادة كل صفة أنها غير الموصوف ، وشهادة كل موصوف أنها غير الصفة : فمن وصف الله سبحانه وتعالى فقد قرنه ، ومن قرنه فقد ثناه ، ومن ثناه فقد جزأه ، ومن جزأه فقد جهله ، ومن جهله فقد أشار إليه ، ومن أشار إليه فقد حدّه ، ومن حدّه فقد عدّه . . . » (١) .

ولكن ابن تيمية يقول : مثلما أنزل من منبري إليكم فإن الله ينزل من عرشه يوم الاثنين ليتحدث إلى عباده : وهنا فقد عدّ ابن تيمية صفات الله مثل صفات البشر ، أي زيادتها على الذات وهذا هو الكفر بعينه .

أما المسلمون بشكل عام بعيداً عن ابن تيمية وما شابهه من المدّعين بالعلم ، فيقولون : صفات الله عين ذاته ، وإذا لم تكن ذلك سنكون قد قلنا مثل قولنا بأن الرطوبة موجودة مع انعدام الماء ، وهنا يحتاج الأمر إلى صفة ، على العكس من عدم احتياج الله إلى ذلك ، لكونه غنياً على الإطلاق ، فلا يحتاج

(١) نهج البلاغة/صحي الصالح ، ص ٣٩ - ٤٠ .

لشيء ولا يحتاج لأحد بالرغم من أن الجميع يحتاجون إليه ، ولا يستغنون عنه ولو للحظة واحدة .

وإذا كان البارئ تعالى مثلنا يحتاج إلى علمه ، وإلى قدرته وإلى عطفه ، فلماذا يكون هو الله ولا نكون نحن كذلك ؟ ١٩ .

ولماذا أسجد له ، ولا يسجد هو لأحد ؟ .

والسبب في ذلك أنه رحيم ، ولكنه لا يحتاج إلى رحمته ، وعالم ولا يحتاج إلى علمه وغني ولا يحتاج إلى غناه ، لأن علمه ورحمته وغناه وقدرته لا تضره ولا تنفعه .

وعلى العكس من ذلك عباده ومخلوقاته ، فهم يحتاجون إلى علمهم ، ورحمتهم ، وعطفهم على الآخرين وما إلى ذلك ، ولإثبات ذلك لا يتطلب الأمر بحثاً كثيراً ، وقبوله أيضاً لا يتطلب كثيراً من التفكير .

أما التوحيد العبادي ، فيمكن عدّه بالمرتبة الثالثة بعد التوحيد الذاتي والتوحيد الصفاتي ، وفيه يكون الإنسان معتقداً بعبادة الله فقط وبحكومته على ما في الكون ، بعيداً عن عبادة الهوى وعبادة الشيطان وعبادة الأصنام والأوثان ليصل إلى مرحلة « الموحّدين » وإذا كان غير الله في قلبه لا يمكن إطلاق كلمة « موحّد » عليه ، بل ينعت بعباده من يعبد من صنم أو شخص أو شيطان أو ما شابه ذلك .

وقد يكون الإنسان في بعض الأحيان ، عابداً للطاغوت إضافة إلى عدم عبادته الله - جلّت قدرته - وعندها يمكن احتسابه كافراً ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أُولَئِكَ هُمُ الطَّاغُوتُ ﴾ (١) على العكس من ذلك الموحّد الذي يكون قلبه عرشاً للرحمان .

ومن أراد أن يكون موحّداً ينبغي له إخراج كل شيء من قلبه ، وفسح المجال لربّ العالمين وصاحب الدارين من النزول في قلبه ، وإلا فإنّ الهوى يسارع إلى القلوب ليعشعش فيها وكذا الشيطان ، ومثل ذلك يفعل حب الأهل والأولاد والدنيا وحب الرئاسة والاضطراب والقلق فيأخذ كل واحد من هذه الأشياء زاوية

(١) سورة البقرة، الآية ٢٥٧ .

في القلب ، وحينئذ يضحى القلب بعيداً عن التوحيد ، ويضحى الهري إلهاً له من دون الله يضلّه عن السبيل السوي : ﴿ أفرأيت من اتخذ إلهه هواه ، وأضله الله على علم ﴾ (١) ، ﴿ ألم أعهد إليكم يا بني آدم أن لا تعبدوا الشيطان إنه لكم عدو مبين ﴾ (٢) .

من هو عابد الشيطان ؟ إنه من يمثل لأوامره ونواهيه ويتبعه في قوله وفعله ، فيؤول إلى الخسران المبين لإشراكه في عبادته لله ، وعندئذ يذهب به الشيطان إلى مواطن الهلكة والضلال ، ليكون مشركاً بالله العزيز المتعالي .

إن المرتبة الثالثة من التوحيد هي مرتبة مهمة جداً ، وعلينا أن نكون فيها من الدقة بحيث لا يبقى مكان في قلوبنا لغير الله - تعالت أسماؤه - إضافة إلى قبولنا لربوبية الله التكوينية والتشريعية والامثال لأوامره ونواهيه .

إن جميع الأنبياء والرسل جاؤا من أجل إفهام الناس أن « لا إله إلا الله » .

ولا يعني أن تكون عبارة « لا إله إلا الله » وجود الله في هذا العالم ، أو أنه واحد وليس اثنين ، بل تعني لا تشرك به شيئاً ؛ وأن عبادة الأصنام والأوثان لم يكونوا منكرين لوجود الله ، بل كانوا يقولون بأن أصنامهم تقربهم زلفى من الله ﴿ يقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله ﴾ (٣) .

فلا ينبغي لك أيها الإنسان أن تكون مشركاً بالله ، وأن تكون لعبة بأيدي شياطين الإنس والجن ؛ إن هذا الشيطان الرجيم طرده الباري تعالى لعدم سجوده لك بالرغم من سجود الملائكة فلا تتبع خطوات الشيطان فتحسر خسراً مبيئاً .

إنك خليفة الله في أرضه ، ومقصود الملائكة ، وإنهم ليفتخرون بسجودهم ذاك لآدم الذي هو أبو البشر الذي أنت منهم .

إن الله طرد الشيطان ، لأنه لم يسجد لك وقال له : ﴿ فإنتك رجيم ﴾ (٤) ،

(١) سورة الجاثية، الآية ٢٣ .

(٢) سورة يس، الآية ٦٠ .

(٣) سورة يونس، الآية ١٨ .

(٤) سورة الحجر، الآية ٣٤ .

وبعد طرده من أجلك اتخذته ولياً لك ؟ إنها الحطة والتدني بعينه ، فانتبه لما أنت فاعل !؟ .

المرتبة الرابعة هي : مرتبة « التوحيد الفعلي » أي لا مؤثر في الوجود إلا الله ، وقد يعتقد البعض أن الله هو المؤثر الوحيد في الوجود ، ولكنه لا يعمل بذلك ، على الرغم من علمه بأن كل شيء في عالم الأسباب هذا وسيلة ، وأن الله هو الذي يسببه ، وأنه وحده مقلب القلوب والأبصار ، ومسبب الأسباب ، ولا تأثير لأحد في هذا العالم إلا بإذن الله ، وبغير هذا الإذن لا يتأتى لأحد أن يعمل شيئاً أو يقوم بشيء : ﴿ فسبحانَ الذي بيدهِ ملكوتُ كلِّ شيءٍ ﴾ (١) .

﴿ قل اللهم مالك الملك تُؤتي الملك من تشاء ، وتنزعُ الملك ممن تشاء ، وتعزُّ من تشاء ، وتذلُّ من تشاء ، بيدك الخيرُ ، إنك على كلِّ شيءٍ قديرٌ ﴾ (٢) .

قال عز وجل في محكم كتابه : ﴿ وما يؤمنُ أكثرهمُ باللَّهِ إلا وهمُ مشركونَ ﴾ (٣) .

وتعني أنهم يؤمنون بالله ويعترفون بآلهيته وربوبيته ، ويشركون بعبادته غيره ، أو يجحدون القرآن ونبوة محمد (ص) ، أو يطيعون الشيطان في المعاصي ، أو بنحو قولهم : لولا فلان لهلكت ، وهذا ما اصطلاح عليه شرك طاعة لا شرك عبادة .

قال تعالى في كتابه المجيد : ﴿ ربُّ المشرقِ والمغربِ لا إلهَ إلا هو فاتخذهُ وكيلاً ﴾ (١) ، أي أنّ الربوبية لله فقط ، ولا يستطيع غير الله أن يروي حاجتك ، ولا يستطيع غيره تعالى في هذا العالم تدبير ما في السموات والأرض ، وإذا كان هناك أسباب ووسائل فسيبها الأساس هو وحده لا شريك له ، لكونه خالق السبب ؛ وأن « فا » في « فاتخذهُ » « تفرّيع » أي لا ينبغي

(١) سورة يس ، الآية ٨٣ .

(٢) سورة آل عمران ، الآية ٢٦ .

(٣) سورة يوسف ، الآية ١٠٦ .

(٤) سورة المزمل ، الآية ٩ .

الاعتماد إلا عليه فقط ﴿ ومن يتوكل على الله فهو حسبه ﴾ .

إن المتوكل على الله يكتبه الله في كل الأمور فينصره في صراعه مع نفسه ، وينصره في صراعه مع ما هو خارج نفسه وبذلك يصل الإنسان إلى مقام اللقاء ، مقام الجوار إلى جنب الله ، فيكون عندها متصراً بمعادته بعيداً عن القلق والاضطراب والخوف واليأس ﴿ إلا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون ﴾ (١) .

وقد يقول الإنسان : ما العمل لكي أخرج من البلاء الفلاني أو المصيبة الفلانية أو قلة الرزق ؟ فيجيبه القرآن : ﴿ ومن يتق الله يجعل له مخرجاً ويرزقهُ من حيث لا يحتسب . ومن يتوكل على الله فهو حسبه ﴾ (٢) .

أما المداهن في ما أنزل الله ، فقد قال فيه الرسول الأكرم (ص) :
المداهن في حدود الله ، والراكب حدود الله عز وجله . والأمر بها والشاغي عنها ، كمثل قوم استهموا على سفينة من سفن البحر ، فأصاب بعضهم مؤخر السفينة ، وأبعدها عن المرفق ، وكانوا سفهاء ، فكانوا إذا أتوا على رحال القوم أذوهم ، فقالوا : نحن أقرب أهل السفينة من المرفق وأبعدها من الماء ، وبيتنا وبين المرفق أن نخرق السفينة ثم نسده إذا استقينا منه ، فقال ضرباًؤه من السفهاء : فادخل .

فدخل فأهوى إلى فأس يضرب به عرض السفينة ، فأشرف عليه رجل منهم ونشده ما تصنع؟ قال : نحن أقربكم إلى المرفق وأبعدكم منه ، أخرج دفت هذه السفينة ، فإذا استقينا سددها .

قال : لا تفعل ، فإنك إذا تهلك وتهلك (٣) .

التوكل على الله يلزمه التوحيد في الأفعال ، والتوحيد في الأفعال يلزمه توحيد عبادي ، والعبادي يلزمه توحيد صفاتي ، وتوحيد ذاتي ، وهذان الأخيران

(١) سورة يونس - الآية ٦٢ .

(٢) سورة الطلاق - الآيات ٢ و ٣ .

(٣) كنز العمال / خ ٥٥٩٧ .

يلزمهما أصل إثبات وجود الله والذي بصحته يصح التوكل على الله تعالى وعندما يكون التوكل سليماً وصحيحاً يكون النصر والغلبة لنا لا محالة .

« الحمد لله الذي بطنَ خفيات الأمور ، ودلت عليه أعلام الظهور ، وامتنع على عين البصير ، فلا عين من لم يره تنكره ، ولا قلب من أثبتته يبصره : سبق في العلوُ فلا شيء أعلى منه ، وقرب في الدنوُ فلا شيء أقرب منه ، فلا استعلاؤه باعده عن شيء من خلقه ، ولا قربه ساواهم في المكان به ؛ لم يطلع العقول على تحديد صفته ، ولم يحجبها عن واجب معرفته ، فهو الذي تشهد له أعلام الوجود ، على إقرار قلب ذي الجحود ، تعالى الله عما يقوله المشبهون به والجاحدون له علواً كبيراً » (١) .

يا نور يا قدوس يا أول الأولين ويا آخر الآخرين ، صلِّ على محمد وآله الطاهرين واغفر لي الذنوب التي تغير النعم ، واغفر لي الذنوب التي تحلّ النقم ، واغفر لي الذنوب التي تهتك العصم برحمتك يا أرحم الراحمين وصلِّ اللهم على محمد وآله الطاهرين .

(١) نهج البلاغة/صحي الصالح ، ص ٨٧- ٨٨ ، الخبطة رقم ٤٩ .

جهاد النفس
الجزء الثالث

حسين مظاهري

الجزء الثالث

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي أنعم علينا بنعمة الولاية ، وأعادَ علينا سراج الإمامة الوضوء في ظل الجمهورية الإسلامية المباركة ، وجاد علينا بنفس التربية التي استخدمها إبراهيم حيث وفقه الباري لتحطيم الأوثان والأصنام ؛ ولقد نزل علينا موسى من طور سيناء ، وعاد المسيح ثانية من السماء ، ونادي يوسف من سجنه المشحون بالهجر والعذاب بالنداء المحمدي : « قولوا لا إله إلا الله تفلحوا » ، وذهب الحسين إلى مذبح الشهادة ليقدم نفسه وابنه وصاحبه قرباناً وفداءً للحبيب كما يخلص دين رسول الله (ص) من شر البدع ، بعد أن نزع يديه من العالم ليمدها إلى المعشوق ، ويبعد عن الغريب لتتناغم روحه مع حديث الحبيب ، وليخرج من أعماق الجسد ليتذوق طعم الوصال ، ولينفصل عن الكرة الأرضية ليحلق صوب المواسي بعد أن قطعت أوصاله في مسلخ العشق ، ولم يمثل للظلم ولم يرتكن له ، فعلمنا كيف لانركن إلا لله الواحد القهار .

الحمد لله الذي أعاننا بالطفاه لتقديم الجزء الثالث من كتاب « جهاد النفس » ليستفيد منه عشاق طريق الحق والعدل ؛ ولا يسعنا هنا وضمن تقديرنا لما بذله الأستاذ الجليل حسين مظاهري من جهود إلا أن نتقدم بالشكر الجزيل لجميع الأعزاء من الذين ساهموا في طباعة هذا الأثر المفيد ، وبالخصوص أولئك الذين يعدون من أصحاب الإمام المهدي (عج) ، في داخل وخارج البلاد حيث شجعونا على المضي قدماً في إخراج هذا الكتاب بالشكل الذي تروونه بين أياديكم الكريمة .

أملنا أن تكون هذه القطرات الزلال من بحر الولاية الصافي خطوة نحو
الرواء الكامل لعشاق الولاية الظامئين ، وهدية متواضعة إلى سالكي طريق
النجاة ، ومرآة تعكس جميع ما في السموات والأرض ليشهد العرفاء أعماق
الذات .

الجمعية الإسلامية لمعلمي قم
١٩٨٧ ميلادي

﴿ أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ، بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ . رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي ، وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي ، وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي ، يَفْقَهُوا قَوْلِي ﴾^(١) .

أمر الله سبحانه وتعالى أغلب الأنبياء - بحسب ما جاء في القرآن الكريم - بعدم سؤال الناس أجراً لقاء تبليغهم لرسائلهم ؛ وأن أجروهم على الله جلَّ وعلا : ﴿ وَيَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالاً إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ . . ﴾^(٢) ، ﴿ قُلْ مَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ ، إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ ﴾^(٣) ، ﴿ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَنْ شَاءَ أَنْ يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا ﴾^(٤) .

أما بالنسبة للرسول الأكرم محمد (ص) ، فقد جاء فيه بصدد هذه القضية في كتاب الله العزيز : ﴿ ... قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً ، إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى ﴾^(٥) .

والقربى تعني الذُّنُو في النسب ، يقال : هم ذُوو قرابتي ، وذُوو قرابة مني . وقرابة الشيء : ما قارب قدره ؛ لذا تكون هذه الآية الشريفة خلافاً

(١) سورة طه/ الآيات ٢٥ - ٢٨ .

(٢) سورة هود/ ٢٩ .

(٣) سورة سبأ، الآية ٤٧ .

(٤) سورة الفرقان، الآية ٥٧ .

(٥) سورة الشورى، الآية ٢٣ .

للآيات التي جاءت بحق الأنبياء الآخرين التي نطقت عنهم .

يفهم من هذه الآية المباركة أن تولي قرابة الرسول الأكرم (ص) والتبرؤ من أعدائهم مسألة مهمة أوجبها الإسلام العظيم وعدّها من فروع الدين ؛ وقد حدّد لنا الرسول الأكرم (ص) قرابته وحصرهم في عترته ، ونعنهم بالثقل الذي يتساوى مع كتاب الله الذي هو الثقل الآخر، فقال في حديث الثقلين المسند بخمسة سند وبعدهُ من بديهيات التاريخ : «إني تارك فيكم الثقلين، كتاب الله وعترتي ما إن تمسكتم بهما لن تضلوا بعدي أبداً ، وأنهما لن يفترقا حتى يردا عليّ الحوض» (١) .

والعتره : نسل الرجل ورهطه وعشيرته وأهل بيته .

وعليه يكون التمسك بكتاب الله العزيز ، وعتره رسوله الكريم (ص) ابتعاداً عن الضلال وقرّباً من الهداية ، فمن أراد الوصول إلى المقامات العلى والسعادة الأبدية سلك الطريق الذي رسمه القرآن الكريم وانقاد لعتره رسول الله (ص) لكونهم الأدلاء على ما في القرآن المجيد ، والباب المفتوح إلى فهمه ، وبغير هذا ينكفيء الإنسان في تيه وضلال .

لقد بيّن لنا الرسول الأكرم (ص) مقام أهل بيته - عليهم السّلام - من خلال أحاديثه المتواترة فعدهم سبيل النجاة ، وأبواب السلم ، وأنوار الهداية ، فأوجب مودتهم والزمنا الامتثال لهم .

قال رسول الله (ص) : « إنما مثل أهل بيتي فيكم كمثل سفينة نوح من دخلها نجا ، ومن تخلف عنها غرق » (٢) .

وقال أيضاً (ص) : « من دان بديني ، وسلك منهاجي ، واتبع ستي فليدن بتفضيل الأئمة من أهل بيتي على جميع أمتي ، فإن مثلهم في هذه الأمة مثل باب حطة في بني إسرائيل » (٣) .

(١) كنز العمال/خ/ ٣٢٩٧٨ .

(٢) بحار الأنوار/ج ٢٣ ، ص ١٢٠ ، أمالي الصدوق .

(٣) بحار الأنوار/ج ٢٣ ، ص ١١٩ .

« عن أبي ذرّ أنه قال : سمعت رسول الله (ص) يقول : اجعلوا أهل بيتي منكم مكان الرأس من الجسد، ومكان العينين من الرأس، فإن الجسد لا يهتدي إلا بالرأس ، ولا يهتدي الرأس إلا بالعينين »^(١) .

مما لا شك فيه أن لكل عمل طريقاً خاصاً به ، والطريق إلى السعادة في الدنيا والآخرة هم أهل بيت الرسول (ص) ابتداءً من أمير المؤمنين علي (ع) حتى آخر شخص في سلسلة الأئمة الطاهرين ، خلفاء الرسول الأمين ، فمن لم يسلك هذه الطريق ، ضلّ وانحرف .

والجدير بالذكر أن مودة ذوي قربي الرسول (ص) الذين اصطلح عليهم بأهل بيته تعود بالنفع والخير الكثير على الممارس لها ، وقد اعتبر الرسول (ص) هذه المودة أجراً لرسالته المبعوث بها من قبل الباري تعالى : ﴿ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى ﴾^(٢) ؛ والمودة تعني المحبة ؛ وما جاء في هذه الآية المباركة ليس مودةً اعتيادية بل مودةً تؤدي بالإنسان إلى مقام القرب الإلهي ، والتمكن من ولوج باب السعادة الأبدي .

فمن أراد ذلك ، فليأت السعادة من بابها ، ولا يكن كأولئك الذين كانوا يأتون البيوت من ظهورها ، فخاطبهم الباري تعالى في محكم كتابه بقوله : ﴿ لَيْسَ الْبِرُّ أَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا ﴾^(٣) .

ومن أراد دخول مدينة العلم ، فليأتها من بابها ؛ قال رسول الله (ص) : « أنا مدينة العلم وعليّ بابها »^(٤) .

فيكون الحال بالشكل التالي : من أراد السعادة فليسلك طريق ونهج الأئمة الأطهار من بعد رسول الله (ص) الذين هم باب العلم والحبل المتصل بين الأرض والسماء ، والجادة الصواب التي تؤدي بالبشر إلى النجاة والسلامة . يقول أحد الفضلاء النوايج : « رأيت فيما يرى النائم أنني أريد سلوك طريق

(١) بحار الأنوار/ج ٢٣ ، ص ١٢١ .

(٢) سورة الشورى، الآية ٢٣ .

(٣) سورة البقرة، الآية ١٨٩ .

(٤) كنز العمال/خ/ ٣٢٩٧٨ .

غير الطريق الذي رسمه الرسول الأكرم (ص) - أي غير طريق أهل البيت (ع) - وشاهدت أحدهم يقيدني بسلاسل ويلقي بي في قعر جهنم الحامية ، فاستيقظت فرعاً من النوم واستعدت بالله من الشيطان الرجيم وراجعت نفسي فأيقنت أنه لا حياة دون التمسك بكتاب الله وعترة نبيه الكريم (ص) ؛ ولا أريد أن أقول هنا : إن حلمي ذاك حجة دامغة على « التمسك » هذا ، بل أريد القول بأن الفطرة الكامنة في الروح الإنسانية تعمل عملها إذا تطلّب الأمر إلى ذلك ؛ ناهيك عن مشاهداتنا الكثيرة للأفراد الذين أرادوا المضيّ قدماً دون مودة أهل البيت (ع) ، فكان نصيبهم التعثر والانزلاق في مهاوي الرذيلة والانحطاط ، فقد كانوا يخطنون في تفسيرهم للقرآن الكريم ، ويسلكون سبل الضلال في بيان أحكامه دون أن يدركوا ذلك .

ولا بأس هنا باستعراض حكاية توضح ما نريد الوصول إليه .

قال أحد العلماء من التابعين لأهل بيت النبي الأكرم (ص) : كنت ماراً في إحدى الطرق فرأيت شخصاً وقد اجتمع الناس حوله ، وقد بان عليهم الولاء له ؛ يطرح بعض الأسئلة ثم يجيب عنها ، وما إن رأيته حتى قام من مجلسه ، وذهب فتبعته كي أتحدث إليه ، فرأيت أنه يدخل دكاناً لبائع خضراوات وفواكه ، وبدأ يتحدث إلى صاحب الدكان بحديث شغله به عن بضاعته ، وما إن رأى تلك الغفلة من صاحب الدكان حتى سرق رمانتين وذهب لحاله ، بعد ذلك دخل إلى محل بائع الخبز ، ففعل مثل فعلته الأولى ، وسرق قرصين من الخبز وخرج ، ثم رأى في طريقه مسكيناً فتصدق عليه بالرمانتين ، وتصدق بقرصي الخبز على مسكين آخر ، وعندها ، أمسكت به وقلت له : ماذا تفعل أيها الزاهد العابد ؟ .

ولم تلك السرقات وكنت قبلها قد جمعت الناس لترد عن مسائلهم الشرعية ؟ .

فأجابني بسؤال قاتلاً : من أنت يا هذا ؟ .

فقلت : أنا من أصحاب أهل البيت النبوي الشريف .

فقال : أنت من أصحاب أهل بيت محمد (ص) ، ولا تعرف القرآن ؟ .

فقلت : وكيف ذاك يا رجل ؟ .

فقال : يقول الله في محكم كتابه : ﴿ مِنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ، وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا ﴾ (١) .

وإن ما فعلته أربع معاصٍ اثنتان منها للسرقة الرماتين واثنتان لسرقة قرصي الخبز ، وتصدقت بالرماتين لأحصل على عشرين حسنة ، وبالقرصين لأحصل على عشرين حسنة أخرى ، فيكون الأمر أربع معاصٍ مقابل ست وثلاثين حسنة .

فقلت له : إنك لم تحصل على ثواب بالمرة إضافةً إلى ممارستك لثمانٍ معاصٍ ! أربع منها لكونك سرقت أموال الناس ، وأربع أخرى بسبب تصرفك في أموالهم دون إذن منهم .

إذا انحرف البشر عن جادة الضوابط ، وكان جاهلاً بسنة الرسول الأكرم (ص) وتفسيره لما جاء في كتاب الله المجيد عميل وفق ما تمليه عليه إرادته التي لا تستند إلى المنطق ؛ ومن لم يتبع أهل بيت النبوة ، ولم يعمل ضمن ما جاء عنهم - عليهم السلام - في تفسيرهم للقرآن المجيد ، يقع في هكذا مطبات ، وكان الجهل المركب حاكماً عليه ، فتراه يسيء ويعصي الله ، ويعتقد أنه سيحصل على الأجر والثواب .

إن نظير هذا الشخص في مجتمعاتنا المعاصرة كثيرة . يمكن رؤيتهم حتى بين العلماء والفضلاء ، وإذا تنكرنا للعمل خارج نطاق الولاية سنصل نحن كذلك إلى مثل ما وصل إليه ذلك الزاهد العابد الجاهل .

قال أحد الوعاظ من على منبره حكايةً طريفةً مضمونها أن شخصاً جاء إلى ذلك الواعظ وقال له بعد أن مد رجليه أمامه : معذرة يا سيدي ، لقد تعبت كثيراً في الأيام الثلاثة الأخيرة ، فقد عملت جهدي في إقامة مراسم العباس (ع) - أخي الإمام الحسين (ع) لآبيه - فكننت في تلك الأيام أقدم الطعام للمشاركين في تلك المراسم حتى بلغ بي الأمر إلى درجة لم أتمكن معها من خلع حذائي على طول تلك الأيام ! .

(١) سورة الأنعام، الآية ١٦٠ .

وعندها قال له الواعظ : وكيف إذا كنت تتوضأ لإقامة الصلاة ؟ .

فالتفت إليه وقال : إذا كان العباس (ع) لا يتمكن من دفع تلك المعصية عني ، فلن أكون معتقداً به بعد اليوم ! .

إنه الجهل بعينه ، لقد ترك ذلك الرجل الأمر الواجب ليقوم بالمستحب وإن الكثير منا يسقطون في حبال المعصية من جراء إنجازهم لأعمال مستحبة بعيدين عن انتهاج الطريقة التي كان يقوم بها أهل بيت الرسول محمد (ص) ، ولو تأتت لنا التزام نهج الرسول (ص) لما وصلنا إلى هذه الحالة المزرية .

جاء في تفسير ﴿ إهدنا الصراط المستقيم ﴾^(١) : ربنا أدم لنا توفيقك الذي أظعنك به قبل ، حتى نطيعك بعده والهداية والرشاد والتثبيت والصراط كلها تعني : الجادة المستقيمة أي طريق الحق ، طريق أهل البيت النبوي الشريف ، فتكون هذه الآية بالشكل التالي : طلب السير على نهج أهل بيت محمد (ص) في إطار الولاية ، وقال آخرون : إن عبارة ﴿ الصراط المستقيم ﴾ تعني أهل البيت - عليهم السلام - .

إن العمل ضمن الولاية ليس بالأمر الهين ، لأن ذلك يجرد الإنسان من الاستبداد في الرأي ، ومن حب الظهور والعجب وهذا ما يحتاج لجهاد دائم ، ومن لم يتمكن أن يفوز في هذا الجهاد ، فقد ضلّ وانحرف عن الصراط المستقيم ؛ وأن الصراط المعني في هذه الآية المباركة أدق من الشعرة ، وأحد من السيف ، وأشدُّ اشتعالاً من النار . ونموذج ذلك في هذه الدنيا الدنيّة من خلال طيّ مراحل الطريق ضمن إطار الولاية ، والابتعاد عن الاستبداد بالرأي ، والعجب . وهذا ما يحتاج إلى صبر ومعاناة ومجاهدة للنفس حيث تعدّد هذه المسائل غير هيّنة على النفس البشرية .

كان أبان بن تغلب أحد المجتهدين ، وقد أذن له الإمام جعفر بن محمد الصادق (ع) بالإفتاء ، فجاء يوماً إلى الإمام (ع) وقال له : يا ابن رسول الله (ص) ! مادية من قطع لها إصبع ؟ فقال الإمام : عشرة إبل .

(١) سورة الفاتحة، الآية ٦ .

- فقال أبان : وإذا قطع لها إصبعان ؟ .
 فأجاب الإمام (ع) : عشرون من الإبل .
 فقال أبان : وثلاث ؟ .
 فأجاب الإمام (ع) : ثلاثون من الإبل .
 فقال : وأربع ؟ .
 فأجاب الإمام (ع) : عشرون من الإبل .

فتعجب أبان ، وقال : يا ابن رسول الله (ص)! كان يقال ذلك في الكوفة نقلاً عنك وكنت أقول : هذا حكم شيطاني ، وإن الإمام (ع) لم يقل بذلك ! .

فقال الإمام الصادق (ع) : مهلاً مهلاً يا أبان . . ما كان لك لتسبق أهل البيت (ع) فالسنة إذا قيست محق الدين ^(١) .

قد نلاحظ البعض من الناس يكتب كتاباً في تفسير القرآن ، ولا يرجو من ذلك إلا طلب الشهرة بعيداً عن الامثال لنهج أئمة أهل بيت الرسول (ص) ، يريد إصابة شيء ما ، ولكن من دون الرجوع إلى مرجع تقليد أو من هم أعلم منه في هذا العلم الحساس ، فتراه يفسر القرآن الكريم تفسيراً ينسجم مع آرائه وأهوائه ويشرع بإنكاره للغيب الذي أبعد الإنسان عن صفات الرذيلة وحدا به إلى صلاة الليل ، فيقول مثلاً : إن الإيمان بالغيب يعني حرب الشوارع ، حرب المخاتلة ، وكيفية خداع العدو ، وإن الإنسان ينبغي له أن يلتزم مثل هذا النضال ، ثم يقسم ذلك النضال المزعوم . قسامين : نضالاً مسلحاً سياسياً وعسكرياً ، ونضالاً خفياً يلتزم حرب الشوارع . وإن الإيمان بالغيب لا يتعدى حدود ذلك ، فالقرآن الكريم أمرنا بذلك .

ثم يمضي ليصل في تفسيره إلى سورة الفيل - وهي إحدى معاجز القرآن الكبرى - فقد كانت فيها طيور السنونو الحاملة بمناقيرها وأرجلها للسجيل ترمي جيش إبرة الحبشي لتجعل من فيلته وأفراده كعصف مأكول .

إن سورة الفيل نزلت بعد تلك الحادثة بأربعين سنة ، وهذا خير دليل على

(١) كتر العمال/ج ١ ، ص ١٧٢ ، ٢٦٣ .

أنها لم تكن شيئاً خرافياً ، وإنما كانت دليلاً على التوحيد ، والنبوة ، وقدرة الله العظيمة ، ولكن صاحبنا المفسر يقول في معنى السورة : إن فيلأ هجم على الكعبة يريد خرابها ، فهجم أهل مكة عليه ، وكانوا في هجومهم كهجوم الصقر على فريسته فقصوا عليه .

لماذا هذا التفسير أيها العالم الجليل ؟ .

وبماذا يمكن أن نفسر نحن تفسيرك لهذه الآية المباركة ؟ .

لا يسعنا إلا أن نقول : إنه استبداد في الرأي ، وجلب أذهان الناس إلى أفكارك التي ما أنزل الله بها من سلطان ، بل هو تنكر لتفسير أهل البيت المحمدي الشريف ، وإنكار لرواية الثقلين التي تؤكد أن أهل بيت محمد (ص) هم ثقل الكتاب المحكم ، وإدبار عن العمل بآية المودة التي عرضنا لها .

قال أمير المؤمنين علي (ع) : « كفى بالمرء غروراً ، أن يثق بكل ما تسول له نفسه » (١) .

إن في حياتنا كثيراً من هذه النماذج ، ولو فكر الأفراد قليلاً في مجمل حياتهم وراجعوا ماضيهم ، لعلموا وفهموا أن الاتكاء على الأفكار الذاتية لا يؤدي بهم إلا إلى ما لا تحمد عقباه ؛ وما المصائب والبلايا التي ما يزال البعض يشن منها إلا نتيجة لذلك الاتكاء الخاطيء الذي اعتمده البعض في مسيرة حياته ، وقد سبب قفز بعض الأشخاص لسلاسل الثورة الإسلامية مشاكل متفاقمة للقائد والمسؤولين والعلماء الأجلاء ، فاحتاروا فيما يفعلون ، وما كان منهم إلا إبداء النصح لأولئك المنافقين الذين لم تسمح لهم نفوسهم بالامثال لتلك النصائح .

قال قائد الثورة الإسلامية ومؤسس جمهوريتها : كنت وقتها في مدينة النجف الأشرف حين كان يأتي البعض إليّ ، ليقروا عليّ مقاطع من نهج البلاغة دون أن يدرك معاني تلك المقاطع العظيمة ، فطرق ذهني حينها حكاية ذلك اليهودي الذي أسلم على يد أحد العلماء ، وبعد فترة من الزمن أضحى وكأنه

(١) غرر الحكم/ ٢٤٣ .

صاحب الرسالة ، دائم الحضور في حرم الإمام علي (ع) ، يصلي صلاة الليل ، تاركاً عمله جارياً خلف هذا وذاك يسدي لهم النصح والوعظ فشك ذلك العالم في الأمر وقال : عجباً لهذا المسلم الحديث الإسلام ، إنه ينصح ويعظ وقبل أيام كان يهودياً ؟ .

وفي أحد الأيام أمسك العالم بذلك المسلم (اليهودي سابقاً) ليقول له : كيف أصبحت على وجه السرعة بالشكل الذي أراك عليه ؟ تنصح وتعلم وتتقد وتذم وتمدح ، بالرغم من أنه لا يحق لك التقدم على من سبقك ! وهنا أيقن اليهودي أنه لا معيشة له فيما يفعله لانتضاح أمره وحيلته ففرَّ إلى حيث لا رجعة .

فالإنسان الذي يريد تجاوز الآخرين ، ومصادرة سبقهم في الإسلام والإيمان دون التزام الولاية والقرآن الكريم يكون ضرره أكثر من نفعه ، لكون محبة أهل البيت ومودتهم - عليهم السلام - تستدعي أن يتحرك الفرد خطوة خطوة على نهجهم ، وإذا ما تعذَّر عليه وجب أن يسأل من هم يعدُّون متخصصين في هذا النهج الإلهي .

قد نرى فرداً يروم الذهاب إلى مدينة مشهد لزيارة ضريح الإمام علي بن موسى الرضا (ع) ، ولكنه لا يتزل من الحافلة لإقامة الصلاة الواجبة ؛ لا يمكن أن أنسى ذلك الموقف حينما رجعت مع والذي قبل سنوات من مدينة مشهد ، لنصل إلى إحدى مدن محافظة (مازندران) وكان الوقت متأخراً بعض الشيء ، فلم يكن هناك مسجد يستقبل أحداً ، والفندق الذي نزلنا فيه لا يحتوي إلا على غرفة واحدة فقط ، وكان أبي - رحمه الله - متقيداً جداً بوقت الصلاة ، فلم يرض حينها تناول العشاء إلا بعد أن يقيم صلاته ، فطرق باب أحد المساجد ، ليأتيه الجواب أن عليك بالصلاة خارجه ، وأن وقت الصلاة قد مضى وانتهى .

ولم يكن هنالك ماء للوضوء ، وكانت لدينا قينة ماء لشربنا ، فاستخدمناها للوضوء ووقفنا ثلاثتنا للصلاة على الرصيف المحاذي للشارع ، وعندها وقف إلى الصلاة معنا رجل مسنٌ وامرأة عجوز ؛ وبينما نحن نصلي تحركت حافلتنا لتركنا في منتصف الطريق .

إن تلك الحافلة كانت تحمل (٤٠) مسافراً لم يكن فيها إلا ستة أشخاص أقاموا الصلاة ، على الرغم من أنها كانت قادمة من مدينة مشهد المقدسة ، وركابها كانوا من زائري مرقد الإمام علي بن موسى الرضا (ع) (*) .

وحادثة أخرى أحبُّ أن أذكرها هنا وهي : كنت مع أحد الفضلاء في سفر إلى مدينة مشهد ، وقرابة الوصول إلى مدينة « محمّد آباد » في منتصف الطريق انخرف السائق بنا عن الجادة الأصلية ليقتصد بنا مساراً لا نعرفه ولم تمض دقائق حتى جاء المضيّف ليقول لنا : إن أغلب الذين يشاركونا السفر يريدون التعرّيج على ساحل البحر ، وإنهم قد دفعوا مبلغاً إضافياً لذلك ، وقد دفعوا عنكما ما كان يخصكما من مبلغ إضافي - وكنت وصاحبي لم نذهب إلى حيثما يريدون قبل ذلك - فقبلنا الأمر .

وبعد ساعة توقفت الحافلة في أحد شوارع المدينة الساحلية لتتربّل منها ، ونسأل أحد رجال الشرطة المرابطين هناك - وكان على ما يبدو متديّناً - عن ساحل البحر ، فبادرنا بدل الإجابة بسؤال : هل تريدون الذهاب إلى البحر ؟ فأجبنا : بنعم ، وعندها نادى أحد سائقي السيارات ليقول له : أوصل السادة إلى ساحل البحر ، وعند بلوغ المأرب شاهدنا ما يبعث على الحياء ، فقد كان الجميع عراة إلا ما يستر العورة رجالاً ونساءً شبّاناً وشيوخاً ، وحينئذ قلنا لسائق السيارة : ارجع بنا ولا تتوقف !! فرجع بنا إلى حيث وقوف ذلك الشرطي ليتقدم نحونا ويقول : لم أكن أجزؤ على القول عما يحدث هناك ، ناهيك عن رؤيتي لشوقكما للذهاب إلى الساحل ، فتركت الأمر والكلام ، وقلت : ليذهبا ويريا وسعودان إلى هنا مسرعين .

كان الجو شديد الحرارة ، ولم يكن في الوسع التوقف في الشارع ، ففضّلنا الجلوس في الحافلة ننظر رجوع الزائرين الكرام من فسحتهم الشائنة .

وبعد انتظار طويل رجع الرجال والنساء بملابسهم الجبلة بماء البحر مدللين على ما انتهكوا من حرّامات لترافقهم إلى زيارة الإمام علي بن موسى الرضا (ع) .

(*) زمن هذه الحوادث هو قبل قيام الثورة الإسلامية المباركة في إيران .

فمن لم يلتزم الآية الشريفة : ﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾ (١) ، ولم يعمل بما حدّده أهل بيت الرسول الأكرم (ص) يركل بقدميه كل ثواب الدنيا في مقابل معصية واحدة لم تسعفه نفسه التي بين جنبيه بتجاوزها .

أتم مقلّدون ترجعون في أحكام دينكم إلى الفقهاء ، والفقهاء يقولون : إذا التحقت بصلاة الجماعة والإمام في حال الركوع وقلت : « الله أكبر » ، وفي أثناء الالتحاق بركوع الإمام ، رفع الإمام رأسه من ركوعه ، فلم تصل إليه ، ينبغي لك أن تتم صلاتك فرادى ، أي تكمل صلاتك لوحده ولا تعدّ جماعة لك .

يقول البعض : ولماذا أقيم الصلاة منفرداً مع إمكان قطع الصلاة والالتحاق بالإمام في الركعة الثانية لأحظى بثواب الجماعة الذي لا يتأتى لأحد إحصاء ثوابه إلا الله تعالى في حال وقوف عشرة أشخاص لصلاة الجماعة ضمنهم الإمام .

والإسلام يقول : قطع الصلاة غير جائز .

صحیح ، أنه ليس من كبائر الذنوب وهو من صغائرها ، ولكن الله تعالى لا يرضى أن يعمل الإنسان معصيةً من أجل أن يحظى بكلّ ذلك الثواب ، لأن كل أجر وثواب الدنيا في جهة ومعصية واحدة في جهة أخرى .

كم هي جميلة تلك العبارة التي كتبها أحد طلاب الإعدادية في دفتر مذكراته وجاء فيها : « كان يوماً أسود ونقطة سلبية في حياتي ذلك اليوم الذي صحوت فيه من منامي صباحاً لأرى بزوغ الشمس ، وكون صلاتي قضاءً » .

إنه لم يرتكب جرماً ، ولن يعدّ له معصية ولكن الأمر أعمق من ذلك ، إذ قد تكون أرباح الدنيا بجميعها لا تعدل صلاة صبح واحدة يقيمها الفرد أداءً ؛ وقد تعرضت سلفاً إلى حكاية ذلك الرجل الذي جاء للإمام الصادق (ع) ليستخير الله في سفره ، فاستخار له الإمام (ع) ثم قال له : ترك السفر أفضل ؛ ولكن

(١) سورة الشورى، الآية ٢٣ .

الرجل ذاك لم يلتزم ما قاله الصادق (ع) فذهب مسافراً ، وعند رجوعه جاء ثانية إلى الإمام (ع) ليقول له : يا ابن رسول الله ، ذهبت للسفر وكانت رحلتي موفقة جداً ، فقد فتح الله عليّ باباً لأرباح كثيرة ، فتبسم الإمام الصادق (ع) ، وقال : ألا تذكر اليوم الفلاني الذي رجعت فيه إلى منزلك متعباً لتغطّ في نوم عميق ، ثم تفيق في اليوم الثاني وقد علت الشمس في كبد السماء ، فتصير صلاة صبحك إلى قضاء ؟ ثم أردف الإمام (ع) قائلاً : « إن صلاة الصبح التي فاتتك لا تعدلها كل أرباح تجارتك » (١) ! .

(١) وسائل الشيعة/ج ١٢ ، ص ٤٩٦ ، باب ١٤ : استحباب مبادرة التاجر إلى الصلاة في أول وقتها .

محبة أهل بيت الرسول محمد (ص)

جاء في كتاب وسائل الشيعة على وجه الدقة في الجزء الأول أكثر من ثلاثين روايةً عن أئمة أهل بيت محمد (ص) بالمضمون الآتي : « بُنِيَ الإسلام على خمس : الصلاة والصوم والحج والزكاة والولاية ، وما نودي بشيء بمثل ما نودي بالولاية »^(١) .

وقد لا توجد رواية بين جميع روايات أهل البيت (ع) بهذا التوكيد .

والولاية هنا لا تعني الإمامة التي يعتبرها المسلمون الأصل الرابع من أصول الدين ، بل تعني المحبة والمودة التي عدّها القرآن الكريم أجر الرسالة : ﴿ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى ﴾^(٢) ، أما الإمامة ، فهي أحد أصول الدين الخمسة وهي عبارة عن : « التوحيد ، العدل ، النبوة ، الإمامة ، والمعاد » .

عقيدتنا في هذا الأمر هي : أن خلفاء رسول الله (ص) من بعده اثنا عشر إماماً وأنهم يقومون مقام الرسول الأكرم (ص) في توجيهه للأمة الإسلامية ؛ قال رسول الله (ص) : « إن هذا الأمر لا ينقضي حتى يمضي فيهم اثنا عشر خليفة »^(٣) ؛ ويذهبي أن الاعتقاد بالإمامة من أصول الدين ، وليس من فروعها

(١) أمالي المفيد/ص ٢٠٩ ، والكافي ص ٣٣٢ وص ٣٧٦ ، وبحار الأنوار/ج ٦٨ ، ص ٣٣٠ ،

٣٣١ ، ٣٣٤ ، ٣٨٧ .

(٢) سورة الشورى، الآية ٢٢ .

(٣) صحيح مسلم/ج ٣ ، ص ١٤٥٢ . الظاهر أن الأخبار في هذا المعنى كثيرة ، راجع صحيح

مسلم ج ٣ ، كنز العمال/ج ١٢ ، ص ٣٢ .

التي هي : الصلاة ، الصوم ، الخمس ، الزكاة ، الحج ، الجهاد ، الأمر بالمعروف ، النهي عن المنكر ، التوَلَّى ، والتبرِّي ؛ وهنا التوَلَّى والتبرِّي معدودة من جملة فروع الدين .

إن أصل الإسلام شيء ، وفروعه شيء آخر .

وإن الولاية عمدة الإسلام ، وقد عدها الله كذلك فقال لبيبه الكريم (ص) : ﴿ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ ، وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَغْتَ رِسَالَتَهُ .. ﴾ (١) .

« جاء عن ابن عباس وجابر عن أهل البيت (ع) : إن الله أوحى إلى نبيه أن يستخلف علياً ، فكان يخاف أن يشق ذلك على جماعة من أصحابه ، فنزلت هذه الآية التي تقول : ﴿ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ ﴾ بتبليغ ﴿ ما أنزل إليك من ربك ﴾ ، ﴿ فما بلغت رسالته ﴾ أي أن كل عملك الذي مارسته من أجل تبليغ الرسالة باطل إن لم تبلغ أو تخبر عن الولاية ، وبذلك تكون الولاية في مقابل كل الرسالة (٢) وعندها قال (ص) : « ألسنت أولى بكم من أنفسكم ؟

قالوا : بلى .

قال : من كنت مولاه ، فعلي مولاه (٣) .

لقد أسهبت الروايات المتواترة في مسألة الولاية ، ولم تعدّها في مصاف الصلاة بل عدتها أكثر من ذلك ؛ « عن عيسى بن السري قال : قلت لأبي عبد الله الصادق (ع) أخبرني بدعائم الإسلام الذي بنى الله عليه الدين لا يسع أحداً التقصير في شيء منها .. فقال : نعم شهادة لا إله إلا الله ، والإيمان برسوله (ص) ، والإقرار بما جاء من عند الله ، وحق من أموال الزكاة ، والولاية التي أمر الله بها - ولاية آل محمد - (٤) .

أما الولاية التي جاءت بمصاف الصلاة فهي لا تعني الإمامة ، بل تعني

(١) سورة المائدة، الآية ٦٧ .

(٢) تفسير شير/ص ١٤٣ .

(٣) تاريخ دمشق لابن عسكرا/ج ١ ، ص ٣٦٦ - ج ٢ ، ص ٩٠ ؛ « طريق حديث الغدير » .

(٤) بحار الأنوار/ج ٦٨ ، ص ٣٨٧ .

المحبة والمودة لأهل بيت رسول الله (ص) والتي يؤكدُها القرآن لتترسَّخ في القلوب البشرية ، حتى يتمكن البشر من الامتثال لهم .

فإذا كانوا لا يحملون لهم محبةً ولا مودةً ، لا يمكن أن يسمعو لهم ويطيعوا .

ولكن بحث الولاية الذي يعني الإمامة ، ولا يرتبط حالياً ببحثنا هذا ، هو بحث عقيدتي يرتبط بأصول الدين .

قال المرحوم « شاه آبادي » وهو أستاذ قائد الثورة الإسلامية : إن رواية « بني الإسلام على خمس » ترتبط بقضية المودة والمحبة لأهل البيت (ع) ولا علاقة لها بقضية الزعامة والإمامة ، لكون الإمامة بالنسبة للإسلام كالصورة بالنسبة للهيولى فإذا عدت الصورة لم تكن المادة شيئاً يذكر ، لأن الحقيقة تكمن في الصورة ، ولا تكمن في المادة ، وإن المادة والهوى دون صورة شيء أجوف .

وعليه تكون الإمامة بالنسبة للإسلام كالصورة للمادة والهوى ؛ فالإسلام دون ولاية (بمعنى الإمامة) ليس إسلاماً .

وإذا كان الإنسان مجرداً عن حقيقة الإنسانية لا يمكن أن نطلق عليه كلمة إنسان ؛ وهذا ما استفاده المرحوم « شاه آبادي » من القرآن الكريم .

فالآية : ﴿ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَغْتَ رِسَالَتَهُ . . ﴾^(١) نزلت على الرسول قبل تنصيب علي (ع) خليفة للمسلمين وأن الآية : ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيْتُ لَكُمْ الْإِسْلَامَ دِينًا ﴾^(٢) نزلت بعد تنصيب الرسول الأكرم (ص) علياً (ع) خليفة للمسلمين ، أي أن الدين اكتمل بولاية علي (ع) ، وبغير هذا الولي لا يكتمل الدين ، وأن الباري تعالى انتخبه للولاية وأمر رسوله الكريم ، أن يقول ذلك للناس ، والرسول (ص) لا ينطق عن الهوى ، إنما يأتى بما يجره

(١) سورة المائدة، الآية ٦٧ .

(٢) سورة المائدة، الآية ٣ .

الباري تعالى على لسان الوحي .

وبناءً على هذا ينبغي لنا أن نفعل شيئاً من أجل ترسيخ حبّ وودّ أهل البيت (ع) في قلوبنا ، وإن إيجاد هكذا حالة أشد أهمية من الصلاة الواجبة ومن الصوم والحج والزكاة التي أوجبها الباري على عباده : « وما نودي بشيء مثل ما نودي بالولاية »^(١) .

المودة والمحبة أمران قهريّان ، فمن أحب شخصاً لا يتأتى له أن يبغضه وعليه يكون البغض أيضاً امرأً قهرياً .

فما العمل إذن لتصل إلى هذا الأمر القهري ، أي محبة أهل بيت الرسول الأكرم (ص) والذي أكدّه القرآن الكريم ، مما يدلّ على أن مقدمات تلك المحبة بأيدينا نحن ، وإلاّ ، فلا معنى لذلك التأكيد لأمر قهريّ بهذا الشكل . فمن هو الذي يمكن ادعاء أن محبة أهل بيت الرسول (ص) في قلبه ؟ .

إنه ذاك الممثل لأوامرهم ونواهيهم ، فمن تبعهم أحبهم ، ومن لم يتمكن من اتباعهم لا يتمكن من حبهم ، فالحب مرتبط بالاتباع .

وهذا ما أشار إليه القرآن المجيد : ﴿ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي .. ﴾^(٢) .

فالمحبة إذاً يلزمها مظهر خاص بها ، وهو متابعة الحبيب ، فالالتزام بسيرة أئمة أهل بيت الرسول (ص) ، والافتداء بأخلاقهم السامية الرفيعة يعمّق جذور الحب في قلوبنا ، وهذا ما يمكن أن نعلّمه للأجيال القادمة ، ولأبنائنا ليحفظوا بذلك الودّ والحب الذي أمرنا الله به .

إن حب آل محمد (ص) نعمة وفضل من الله على عباده ، لكون هذا الحب يوصلنا إلى الدرجات العلى مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين من خلال الالتزام لسيرتهم ونهجهم الذي ما حاد يوماً عن نهج رسول الله (ص) .

(١) تاريخ دمشق لابن عسّاك/ج ٢ ، ص ٩٠ - وأمالى المفيد/ص ٢٠٩ .

(٢) سورة آل عمران ، الآية ٣١ .

قال رسول الله (ص): « من رزقه الله حب الأئمة من أهل بيتي ، فقد أصاب خير الدنيا والآخرة ، فلا يشكّن أنه في الجنة ، وأن في حبّ أهل بيتي عشرين خصلة ، عشرًا في الدنيا ، وعشرًا في الآخرة .. » (١) .

وقال أيضاً (ص) : « من أحبنا أهل البيت فليحمد الله على أول النعم ، قيل : وما أول النعم ؟ .

قال : طيب الولادة ، ولا يحبنا إلا من طابت ولادته » (٢) .

وقال كذلك (ص) : « لا يؤمن عبدٌ حتى أكون أحبُّ إليه من نفسه ، ويكون عترتي أحبَّ إليه من عترته ، ويكون أهلي أحب إليه من أهله ، ويكون ذاتي أحبَّ إليه من ذاته » (٣) .

إن جذور محبة أهل بيت الرسول (ص) موجودة في جميع النفوس ، وعلينا أن نتعرف هذه الجذور التي ورثناها عن الآباء والأجداد ، ويجب علينا أن نوليها عنايةً خاصة ، ونرعاهما لتمتد في نفوس الأجيال القادمة .

إنها الأمانة الإلهية التي ينبغي لنا أن نصونها ونحفظها ، لكي يديم الباري هذا اللطف والنعمة الكبرى علينا وعلى من سيلينا في هذه الحياة الدنيا .

فالمعلم ينبغي له تعليم طلابه وتلاميذه محبة أهل البيت (ع) ، عليه أن يفهمهم أن إقامة العزاء في مناسبات وفيات أهل البيت عمل حسن ، بعيداً عن عكس الإحساسات التي تبعث على قتل تلك الجذور في نفوس الأطفال والشباب ؛ فقد يقول بعض المعلمين لتلاميذهم : إن مراسم إقامة العزاء لأبي عبد الله الحسين بن علي (ع) لا فائدة منها ! .

هذه العبارة قد تعمل عملها السليبي في نفس الطفل ، فتقتضي على جذور حبه للحسين بن علي (ع) .

والبعض يقول : إن اجتماعات النساء من أجل العزاء الحسيني لا يقيّد

(١) مشكاة الأنوار/ص ٨١ .

(٢) مشكاة الأنوار/ص ٨١ .

(٣) بحار الأنوار/ج ٢٧ ، ص ١٣ ، وكتر العمال/خ ٩٣ .

بالمرة ! وما إلى ذلك من الأحاديث التي يلقيها الشيطان على أفواه الحمقى والخاسرين من مثل : من لبس السواد رجعي ! ولا يعرف التمدن والحضارة ، أو من بكى أو تباكى على مصائب أهل البيت يعيش في العصر الحجري .

إنه العشق الحقيقي الذي غمر القلوب والنفوس الخاضعة لأوامر الله تعالى التي أجزاها على لسان رسوله الكريم (ص) وأهل بيته الطاهرين - سلام الله عليهم أجمعين - .

قال أمير المؤمنين علي (ع) : « انظروا أهل بيت نبيكم ، فالزموا سمتهم ، واتبعوا أثرهم ، فلن يخرجوكم من هدى ، ولن يعيدوكم في ردى ، فإن لبدا فالبدا ، وإن نهضوا فانهضوا »^(١) .

وقال أيضاً : « ألا إن مثل آل محمد (ص) كمثل نجوم السماء ، إذا خوى نجم طلع نجم ، فكانكم قد تكاملت من الله فيكم الصنائع ، وأراكم ما كنتم تأملون »^(٢) .

على أية حال : لا نريد أن نقول بمعصية من لا يوجد في نفسه جذور محبة أهل البيت - عليهم السلام - لأن بحثنا هذا يمتلك صورة عقلية ، وأن محبة ومودة أهل بيت الرسول الأكرم (ص) ينبغي أن تكون متكاملة بجميع أبعادها العاطفية والعقلية ، إضافة إلى الأبعاد الذوقية والعرفانية ، وقد عرض القرآن الكريم البعد العقلي فجاء فيه : ﴿ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ ﴾^(٣) .

جاء في كتاب الله المجيد آية أتبعها أحد المفسرين برواية عن الإمام الصادق (ع) ، تهز الإنسان من الأعماق عندما يقرأها ، فأرجو من الإخوة القراء أن يحفظوها في أذهانهم دائماً ، ويُطيلون التفكير في معانيها وهي : ﴿ وضربت عليهم الدلة والمسكنة ، وبأؤا بغضب من الله ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات

(١) شرح ابن أبي الحديد/ج ٧ ، ص ٧٦ .

(٢) شرح ابن أبي الحديد/ج ٧ ، ص ٨٤ .

(٣) سورة آل عمران ، الآية ٣١ .

اللَّهُ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيَّ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿١﴾ . أما الحديث الذي جاء تبعاً لهذه الآية المباركة ، فهو :

قال الإمام جعفر بن محمد الصادق (ع) : « والله ما ضربوهم وما قتلوهم ولكن سمعوا أحاديثهم فأضاعوها »^(١) .

وبناءً على حديث الإمام الهمام الصادق (ع) يكون تضييع الأحاديث - أي عدم العمل بها - قتلاً وضرباً لصاحب الحديث ، أي أن المعصية التي ترتب على إضاعة الحديث وعدم الالتزام به كمعصية القتل والضرب ظمناً وعدواناً .

فالذي يجب الحسين بن علي (ع) ولا يلتزم الهدف الذي قام من أجله يكون كالمقاتل له في صحراء كربلاء .

إن الإمام الحسين (ع) ، قام من أجل إحياء دين الله ، من أجل إحياء الصلاة والزكاة وباقي الواجبات التي أمرنا الله تعالى بها ، فمن أقام له العزاء وبكى لمصيبته ، وحزن لما جرى عليه وعلى أهل بيته - عليهم السلام - حباً وكرامةً ولم يلتزم بنهجه السامي الرفيع في تنكره للظلم والفساد يكون كقاتله ؛ فهو - أي المقيم للعزاء - يجب الحسين عاطفياً ، ولكنه لا يفعل ذلك عملياً ، وهذا ما لا يقبله العقل ولا المنطق ، فالمحِبُّ عليه أن يتابع محبوه في أعماله وسلوكه ونهجه ويلتزم بتلك الأعمال والأفعال .

فالمقيم لعزاء الإمام الحسين على أفضل وأكمل وجه مصيب في عمله ، وينظر العاطفة والعرفان مقبول ؛ ولكن الأمر يتعدى هذه الدائرة إلى دائرة العقل الذي يطلب منك الالتزام بسيرة الحسين (ع) فإن قدرت على ذلك لم تشملك الآية التي عرضنا لها ، وإن لم تفعل شملتك الآية إياها وكن من القاتلين الذين عصوا وكانوا يعتدون ؛ ومن الذين سمعوا أحاديث الحسين (ع) فأضاعوها .

عزيزي القارئ الكريم : جميل هو وقوفك بين يسدي الإمام الحسين (ع) ، ومخاطبتك له : « أشهد أنك أقمت الصلاة ، وآتيت الزكاة ،

(١) سورة البقرة، الآية ٦١ .

(٢) تفسير نور الثقلين/ج ٢ ، ص ١٩١ - وكذا جاء في تفسير العياشي .

وأمرت بالمعروف ، ونهيت عن المنكر » .

إنها دلالات على محبتك ومودتك للإمام الحسين الذي هو أحد أهل بيت محمد (ص) ، والذي كان مؤتماً بأوامر رسول الله (ص) جده ، ومنقداً لها دون أن تأخذه في الله لومة لائم ؛ وما محبتك تلك إلا محبة فطرية ، محبة في القلب ، محبة تؤدي بك إن شاء الله إلى رضا الباري وشفاعة رسوله (ص) .

هذا فيما إذا كنت متبعاً لنهج الرسول (ص) ونهج أهل بيته الأطهار - سلام الله عليهم - عملياً من خلال التزام الواجبات والفرائض التي أجزاها الباري تعالى على لسان رسوله الكريم (ص) ، وأهل بيته من بعده - عليهم السلام - .

عن حسين بن خالد ، قال : قلت لعلي بن موسى الرضا (ع) : « يا ابن رسول الله فما معنى قول الله عز وجل : ﴿ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنْ ارْتَضَى ﴾ (١) » قال : لا يشفعون إلا لمن ارتضى الله دينه (٢) .

إلهي اجعلنا من الملتزمين بمودة أهل بيت محمد (ص) ، فهم من بين حلالك وحرامك ، وفرائضك وفضائلك ، وهم من فسّر كتابك ونور لنا الطريق إلى رضاك ، واحشرنا معهم في جنتك إنك أنت العزيز القدير .

(١) الأنبياء آية ٢٦ .

(٢) بحار الأنوار/ج ٨ ، ص ٣٤ ، وكذا في عيون الأخبار

محبة أهل بيت محمد (ص)

إن محور بحثنا هذا يدور حول كيفية الوصول إلى محبة أهل بيت الرسول الأكرم (ص) ، والطرق المؤدية لهذه المحبة أو المودة والعمل لترسيخ تلك المودة في قلوبنا ، لتتفعنا في ليلة القبر الأولى ، وفي يوم الجزاء .

للوصول إلى محبة أهل بيت الرسول (ص) طريقان : الأول عملي ، والثاني علمي .

فالطريق العملي يعني : إن الإنسان يتمكن من بلوغ محبة أهل البيت (ع) من خلال محاولاته الجادة عملياً . أما الطريق العلمي ، فهو التعرف على أهل البيت ، من هم ؟ وأبناء من يكونون ؟ وماذا كان هدفهم ؟

بديهي أن الطريق العملي أفضل وأهم من الطريق العلمي إضافة إلى آثاره التي هي أبلغ في النفوس من الطريق العلمي ، وهو على قسمين :
 أ - إيجاد علاقة وارتباط وثيق مع أهل البيت (ع) .
 ب - التقرب إلى الله سبحانه .

أ - من كان له ذهاب وإياب مع حبيب له ، وقيام وقعود ، توثقت علاقته على مر الأيام والدهور ، ومن خفف من ذلك ، خفت علاقته وآلت على مر الأيام إلى زوال .

وهكذا الأمر بالنسبة لمحبة أهل البيت (ع) ، فمن واطب على قراءة زياراتهم ، وزارهم في مراقدهم ، وفكر في أعمالهم التي ما حادت يوماً عن

النهج الصحيح ، أحبههم وزادت رغبته في توثيق علاقته معهم .
يقول علماء النفس : إن أفضل طريق لتوطيد المحبة بين الأحباب هو
التزاور والتحاور ، وما إلى ذلك .

وقد أوصى الإسلام العظيم بضرورة التزاور بين المسلمين ، وعبادة
المريض ، وتبادل الهدايا ، والسير خلف جنازة الموتي من المسلمين وبين
الثواب والأجر الجزيل الذي يحصل عليه المسلم من جراء ذلك العمل الفاضل
والسامي .

ومن أجل توثيق العلاقات بين المسلمين ، وإحكام روابط المحبة والألفة
والمودة سعى الإسلام لتجيب هكذا أعمال تسمو بالمجتمع الإسلامي إلى
أفضل الدرجات وتشيع بينهم الحب والود والرحمة ، وعليه يتمكن الفرد المسلم
من خلق روح المودة والمحبة في نفسه لأهل بيت الرسول (ص) من خلال التردد
على مراقدهم الشريفة وقراءة زياراتهم من بعيد أو قريب ليكون ذلك موجباً
وباعثاً لإيجاد ارتباط يكون سبباً إلى محبتهم .

ويقال : إن العامل الرئيسي لوجود خاص وعام ومتشابه ومجمل في القرآن
الكريم هو : وجود الأئمة الأطهار الذين يرجع إليهم الناس في تفسير ذلك
لإيجاد علاقة ورابطة بين الناس وبينهم ، لكونهم عدل القرآن الكريم ونقله .

إن المسلم المحب يتمكن من توثيق علاقته مع الأئمة الأطهار من خلال
ممارسته لقراءة الزيارة الجامعة في كل صباح ، وما يفعل ذلك لبضعة أيام حتى
يشعر بانجذاب قلبه وروحه ونفسه إلى تلك الأرواح الشريفة ، تلك النفوس التي
نذرت كل شيء كان عندها لله الواحد القهار لتشييع الفضيلة والمثل السامية .

إن الذي يمارس قراءة الزيارة الجامعة علماً واحداً يشعر بعد ذلك بود
خاص لأهل بيت الرسول الأكرم (ص) ، وسيلمس الجذبات العرفانية التي
تؤجج في نفسه حب الأئمة الذين بذلوا مهجهم وأبناءهم وما كان لديهم في سبيل
نصرة هذا الدين الحنيف .

قالت عائشة : دخل الإمام الحسين (ع) إلى الدار عندما كان

الرسول (ص) نائماً ، وما إن جلس حتى قال الرسول الأكرم (ص) : يا عائشة إن الحسين هذا سيقتل في كربلاء ، فمن زاره أو سعى بقدم إليه كان له ثواب حج وعمره .

فقلت : يا رسول الله ثواب حجة واحدة وعمره واحدة ؟ فقال : ثواب حجتين وعمرتين ، وكنت كلما تعجبت زاد الرسول (ص) في الثواب حتى بلغ به الأمر أن يقول تسعين حجة وتسعين عمرة^(١) .

يقول أحد العلماء الأجلاء بصدد تلك الزيادة في الثواب لقدم واحدة صوب زيارة أبي عبد الله الحسين (ع) : إن كل ذلك الثواب وكل ذلك الترغيب من أجل أن يزيد المسلمون في علاقتهم وروابطهم بأئمتهم لكي تضطرم في قلوبهم المحبة والمودة لآل بيت محمد (ص) .

وما الجلسات والمجالس الحسينية والمآتم التي تقام على أرواح الأئمة الطاهرين - سلام الله عليهم - إلا لهذا الغرض ، حيث يتوقف العقل عن العمل لتمارس العواطف سيرها إلى عالم العشق وعالم الملكوت .

وهذا ما لا يتأتى لأولئك الماديون حتى ولو كانت اختصاصاتهم في علم الفيزياء أو الكيمياء ونحوها ، فالمادي محدود التفكير ، ولا يمكن لفكره أن يتعدى عالم المادة المغلق على العكس من أولئك المحيين للحسين وأصحاب الحسين ، فهم يخلقون بأرواحهم دون أجسادهم إلى عوالم أبعد من هذه المنظورة .

ومن أجل صفاء الروح وارتباطها بأوليائها من أئمة أهل البيت (ع) أعد الباري ثواباً جزيلاً وأجرأً وفيراً لذلك الذي تمكنت منه محبة أهل البيت فأحاله إلى إنسان فضفاض تسيطر عليه مناهج أهل البيت النبوي وأخلاقهم السامية ، وأفعالهم التي بها يشفون لمواليهم بإذن الله تعالى .

إن الذي يرتبط بأهل البيت (ع) من خلال زيارته الكثيرة لهم، يتنهج في أيام ولاداتهم ، ويحزن في أيام شهاداتهم لشعور بأنه يعيش معهم في مثلهم

(١) ثواب الاعمال/باب زيارة الحسين (ع) .

وأخلاقهم وسلوكهم ، فيكي عليهم عندما يتذكر الطرق اللثيمة التي قتلوا بها ، ويحزن عندما يتذكر الظلم الذي مورس بحقهم حقداً وحسداً .

يقول الإمام علي بن موسى الرضا (ع) : « من بكى ، أو أبكى ، أو تباكى على الحسين (ع) وجبت له الجنة »^(١) .

لِمَ هذا الثواب الجزيل ؟ إنه من أجل أن يرتبط المسلم بأئمة الكرام ؛ وإذا ارتبط المسلم حاول التشبُّه بهم وتقليدهم ، وعند ذلك يحصل الانجذاب إليهم ، والامثال لأوامرهم ونواهيهم التي هي أوامر الله ونواهيهِ .

إن مثل الإنسان في حمله لجذور المودة لأهل بيت النبي (ص) ، كمثل الجبل الحاوي على مناجم الذهب في قلبه .

واخراج الذهب من قلب الجبل يحتاج إلى حرارة عالية تصنعها نيران شديدة ليتمكن الإنسان من استخراج الذهب من تلك المناجم التي تكمن في قلب الجبل ؛ وحب أهل البيت في قلب الإنسان يحتاج هو الآخر إلى عامل مساعد لكي يؤجَّجه ويخرجه من مكنه الساكن إلى عالم الحركة .

وإذا طالعنا صفحات التاريخ لشاهدنا كيف كان الإمام جعفر بن محمد الصادق (ع) يثير حماسة الشعراء من أمثال « الكميت » و « دعبل الخزاعي » لكي يقولوا شعراً بحب أهل البيت - عليهم السَّلام - فيتخذهُ سبيلاً لتشكيل المجالس الحسينية التي كانت وما زالت مدارس عشق وودِّ آل محمد (ص) .

وبناءً على ما تقدم ، فإن أفضل السبل ، لأن يكون الإنسان محباً لأهل بيت الرسول (ص) هو المواظبة على زيارتهم ، لكي يقوِّي أواصر الروابط معهم ، فلا تتريب على الإنسان إذا قرأ الزيارة الجامعة على سبيل المثال كل صباح قبل خروجه من منزله ، أو فعل ذلك ليلاً قبل الهجوع إلى فراش النوم ولا يتصور أحدكم أن هذه خرافة ، لا ، فإنها والله لتشدُّ المسلم إلى أهل بيت نبيه - عليهم السَّلام - وتؤجج فيه روح المثل والأخلاق الفاضلة التي كان يلتزمها أهل

(١) ميزان الحكمة/باب ٢٧٣٧ : « إن كنت باكياً لشيء .. » .

البيت النبوي الشريف ، ليتجرد من المعاني المتدنية والوضيعة التي تنكّر لها هؤلاء الأال الكرام .

إن البعض - مع الأسف - يرى في تقبيل قبر النبي شركاً وضياًعاً ، ولا يعلم أن هذا التقبيل له جذور في النفوس المحبة لحملة راية الإسلام العظيم حيث لاحظنا ذلك من خلال زيارتنا لقبر الرسول الكريم (ص) .

إنهم تركوا مذهب أهل البيت النبوي الشريف ، وأداروا له ظهورهم ليمسكوا بأل ابن تيمية الذي قال بشرك من يسجد على تربة أبي عبد الله الحسين (ع) الطاهرة حين يقوم لله في صلاة واجبة أو مستحبة إنه لم يعرف قدر الإمامة ومحلها من الأمة .

إن الله جلّ وعلا لم يقبض نبيّه (ص) حتى أكمل له الدين ، وأمر الإمامة من تمام الدين ، ولم يمض (ص) حتى بين لأمته معالم دينهم ، وأوضح لهم سبيلهم وأقام لهم علياً (ع) علماً وإماماً .

إن الإمامة أجلُّ قدرأ ، وأعظم شأنأ ، وأعلى مكانأ ، وأبعد من أن يبلغها الناس بعقولهم ، أو ينالوها بأرائهم ، أو يقيموا إمامأ باختيارهم ، إنها خلافة الله وخلافة الرسول (ص) ومقام أمير المؤمنين علي (ع) وميراث الحسن والحسين - عليهم السّلام - والأئمة التسعة من ولد الحسين - سلام الله عليهم أجمعين - .

فأئمة أهل بيت محمد (ص) هم أمناء الله في خلقه ، وحججه على عباده ، وخلفاؤه في بلاده ، والدعاة إلى الله ، والذابون عن حرم الله ، فهم مطهرون من الذنوب ، مبرؤون من العيوب ، إنهم نظام الدين ، وعزّ المسلمين ، فمن أراد عزّاً فليتبعمهم ، ومن أراد ذلاً فليتنخّ عنهم .

أما بالنسبة للطريق العلمي الموصل إلى محبة أهل البيت - عليهم السّلام - فيمكننا أن نقول فيه : إن العلم إجمالاً يرتبط بالعقل ، أي إذا صدق العقل مسألةً سكن ، ولكنه لا يتأني له أن يقنع القلب ليسكن هو الآخر ، وهذا ما يصطلح عليه بالإيمان (العلمي) أو (البرهاني) .

إن القلب البشري صدّق بوجود الله تعالى واقتنع .

ومن هنا توصل إلى أن الله يراه دائماً ويحصى عليه أنفاسه .

وإذا أردنا أن نفرغ هذه العبارة في قالب عرفاني نقول : إن اقتناع القلب بوجود الباري تعالى في كل مكان وفي كل زمان يتشابه مع قلب ذلك الإنسان الذي روى بعد أن كان ظامئاً ، فأدرك بعد ذلك قيمة الرواء ؛ وكذا القلب إذا ارتوى صار يرى الله ويدرك وجوده .

إن للإمام الحسين (ع) جملةً قالها في دعاء عرفة ، وهي عينها ما قاله الإمام علي (ع) ، وقد نقلها البعض عن العديد من الأئمة الطاهرين وهي : « عميت عين لا تراك » أي خست فطرةً ماتت ولم تدرك الله تعالى .

إن الإمام الحسين (ع) يدلُّ بهذه الجملة على أن الإيمان العاطفي يتناغم مع الإدراك الفطري . وهذا ما لا يرتبط بالعلم ، أي أن برهان النظم لا يمكن أن يوجد حالةً في الإنسان هكذا ، وأن أسفار ملاً صدرا وفصوص الحكم لا يتأتى لها أيضاً إيجاد حالة مثل هذه ، وكذا الأمر بالنسبة للكتب العقيدية القديمة والحديثة .

فما الشيء الذي يمكن أن يعطي الإنسان تلك الحالة ؟ .

إنه الارتباط بالله فقط .

إنها صلاة الليل ، والصلاة في أوقاتها ، فعندما يمر الوقت على الفريضة ويشعر الإنسان بتلاطم باطنه ، خوفاً من عدم تأدية واجبه الملقي على عاتقه ، تظهر تلك الحالة جليةً واضحةً ، وهو ما نراه في الذكر ، ذكر الله في الأدعية وفي أعماق الليل .

يقول القرآن الكريم : إن هذه الحالة ، أي الإيمان العاطفي ، والإدراك الفطري ، أو الوعي الفطري ، مرهون بالارتباط بالله ﴿ألا بذكرِ اللَّهِ تطمئنُّ القلوبُ﴾^(١) .

فمن أراد أن يصدِّق قلبه ويطمئن ، فعليه أن يذكر الله كثيراً .

(١) سورة الأنبياء، الآية ٢٦ .

إن الكتب الفلسفية والعرفانية ، وكتب الأصول والفقه وما إلى ذلك لا يمكنها أن تعطي الإنسان ذلك الاطمئنان والتصديق .

إن أصل هذه العبارة هو « ألا تطمئنُّ القلوب بذكر الله » ؛ ولكن ما حصل هو « تقدم ما حقه التأخير ، وذلك يفيد الحصر » .

ومن هذا نفهم وجود توكيدين يفيدان الحصر : الأول : « ألا » ، والثاني تقدم الجار والمجرور « بذكر الله » .

ومثل ذلك ينطبق أيضاً على مسألة الإمامة ، فمن أراد لقلبه الاطمئنان في مسألة الإمامة ، فعليه أن يجد في توطيد علاقته مع البارئ تعالى فكلما أحكم الفرد علاقته مع الله زاد إيمانه .

ومن أراد لقلبه نوراً حقيقياً يستطيع به رؤية عوالم غير التي تراها العيون أحكم روابطه مع البارئ تعالى لأن القلب مكان الله .

وما جاء في الحديث القدسي يؤكد ذلك : « لا يسعني أرضي ولا سمائي ولكن يسعني قلب عبدي المؤمن »^(١) ، « قلب المؤمن عرش الله »^(٢) ، أي أن على المؤمن أن يعمل شيئاً يشعر بحكم الله على قلبه ، يشعر بولاية الله على ما بين جوانحه ﴿ اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ﴾^(٣) .

أما الذين تنصلوا من الارتباط بالله سبحانه وتعالى فقد فسحوا المجال لأن يحكم الطاغوت قلوبهم ، ويكون بذلك ولياً لهم ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أُولِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ ﴾^(٤) .

وعند خروج النور من القلب تخرج معه حالة الاطمئنان والسكون ، والتصديق ، لتدخل مكانها حالة الريبة والاضطراب وحب الذات والأموال ، وكلها حالات غير طبيعية ، بل خارجة عن الاعتدال ، وحينما خرجت عن

(١) المحاسن/ص ٢٤٢ .

(٢) تفسير العياشي/ج ١ ، ص ٥ .

(٣) سورة الرعد، الآية ٢٨ .

(٤) سورة البقرة، الآية ٢٥٧ .

الاعتدال أصابت بخروجها العقل الإنساني في الصميم فمنعته من إدراك واقعيات الحياة .

إن انحطاط الأفراد ورقبهم يرتبط بمكانتهم الروحية وأخلاقيتهم ارتباطاً مباشراً ، فالقلوب التي خلت من الاطمئنان وامتلات بالظلمة لا يمكن أن تصدق شيئاً ولو قطعت إرباً إرباً ﴿ لا يزال بانيانهم الذي بنوا ريبة في قلوبهم إلا أن تقطع قلوبهم ﴾ (١) ، فالذي يرغب في أن يكون قلبه مطمئناً لوجود الله ووجود الرسول (ص) ، ينبغي له أن يمعن النظر في كتاب الله العزيز وسيرى بنفسه المنطق الخاص لهذا الكتاب السماوي ، وسيدرك بنفسه - من خلال الحوادث الموجودة فيه - إعجازه .

وعند ذلك سيتعلق به شيئاً فشيئاً ﴿ قد جاءكم من الله نورٌ وكتابٌ مبينٌ ، يهدي به الله من أتبع رضوانه سبيلَ السلام ﴾ (٢) .

وبالإدراك الذي يحصل بعد أن يطمئن القلب البشري ستحصل محبة الرسول الأكرم (ص) والذي جاء بهذا الكتاب العظيم بعد أن أنزله الباري عليه وما إن يطمئن القلب ، إلى أن هذا القرآن هو من عند الله حتى لكأنك لا ترى لعين هذا الإنسان المالك لذلك القلب أغماً ولو للحظة واحدة ما دام القرآن المجيد معه في حجرة واحدة ؛ وهذا ما حصل فعلاً لأحد الأجلء ، حين نزل ضيفاً على رفيق له ، فأنزله في حجرة فيها قرآن كريم ، فلم يغمض له جفن حتى الصباح حياةً من كتاب الله ، وبات ليلته تلك جالساً جلسة العبيد إزاء الكتاب . وقد يصل الإنسان إلى أكثر من ذلك ، فيقول البروجردى - رحمة الله عليه - نقلاً عن المرحوم ميرزا عبد المعالي - أحد فقهاء أصفهان - إنه قال : لو أن حجرة من الحجرات كان فيها قلم كتبت فيه رواية من روايات أهل بيت محمد (ص) لمنعني ذلك القلم من النوم في تلك الحجرة خجلاً وحياةً .

إنه حب أهل بيت رسول الله (ص) هو الذي يمنع ، لا القلم ، فمن أحبَّ

(١) سورة التوبة، الآية ١١٠ .

(٢) سورة المائدة، الآيتان ١٥ و ١٦ .

أهل البيت لا يتأتى له أن يفتاب أحداً ، ومن أحب أمير المؤمنين (ع) ترك سماع الغيبة التي يمكن أن تسمى أحد أصحاب الإمام علي (ع) ، ومن لا يعرف حب أمير المؤمنين (ع) أنهم أصحابه وأحبابه ومريديه بأتفه التهم ، ومن أحب الإمام الحسين (ع) ابتعد عن المعاصي ، وإلا لم يعد ذلك حباً ، فالمحب يتبع أخلاق حبيبه .

ومن أحب الحسين أحب مردييه ، ومحبيه ، وزواره .

ومن أحب إمام العصر والزمان المهدي المنتظر (عج) ترك الغش والاحتكار ، ولا معنى أن يحب أحدهم الإمام المهدي (ع) ولا يلتزم ما يأمر به ، إنها المخاتلة وخدعة ونفاق .

فالإسلام الذي يقره الأئمة الأطهار ويعترفون به هو ذلك الذي يقول إن المسلم ينبغي له التسليم ، وأن يسلم الناس من يده ولسانه ، بعيداً عن الازدواجية . وقد يكون أحدهم مسلماً بنظر العقل لتمكنه من إثبات وجود الله سبحانه وتعالى وصحة الرسالة والرسول ، بالرغم من عدم انسجامه مع المسلمين الحقيقيين ، ولكنه لا يعد مؤمناً يستحق جنة المأوى لكونه يدعي الإسلام ولا يلتزم ما جاء به من أوامر ونواه تسمو بالفرد إلى حيث لا يدرك ذلك إلا الله تعالى .

إن من عرف الأئمة الظاهرين من أهل بيت رسول الله (ص) ، ابتعد كثيراً عن مسارات الضلالة والانحراف ، لأن هذه المعرفة تشدّه إلى الارتباط بالله الواحد الأحد بشكل يجعله لا يتجاوز على الأحكام الإلهية ما عاش في هذه الدنيا الدنيّة .

ومعرفة الأئمة لا تعني بالضرورة تعرف علم الأئمة ، بل تعرف ما كان يقوم به الأئمة من أعمال وأفعال ترقى بهم إلى أعلى مراتب الجنان .

ومن لم يتعرف أئمة أهل البيت ضلّ عن دينه إلى مسار غير المسار الذي أرادته الباري لعباده ، وإلى طريق غير طريق الرسول (ص) السويّ .

وهذا ما نعرفه من الدعاء الذي يقرأ في زمان الغيبة :

« اللهم عرفني نفسك ، فإنك إن لم تعرفني نفسك لم أعرف رسولك .
اللهم عرفني رسولك ، فإنك إن لم تعرفني رسولك ، لم أعرف حجتك ،
اللهم عرفني حجتك فإنك إن لم تعرفني حجتك ، ضللت عن ديني » .

إن المعاني السامية والدقيقة التي يحملها هذا الدعاء العجيب يتطرق إلى
مسألة طبيعية جداً ، لأن الإنسان إذا لم يتعرف الإمامة التي هي امتداد للنبوة
والنبوة التي بدورها خلافة الله تعالى ضل عن دينه وهوى في مستنقع الانحراف
والانحطاط ؛ فمن لا إمامة له ، لا دين له .

والجدير بالذكر أن ما جاء في هذا الدعاء : « اللهم عرفني نفسك » ولم
يقُل « اللهم علمني نفسك » بالرغم من أن كسب علم الأئمة والنبوة والقرآن
يحيل الإنسان إلى عالم بالله ، وهذا هو الطريق الطبيعي لعلم الله ؛ ولكن كلمة
« عرفني » تجرنا إلى سؤال هو : ما هو طريق المعرفة ؟ .

إنه طريق الإيمان الوجداني الذي يؤدي إلى تصديق القلب .

فالمعرفة تؤدي إلى الارتباط بالله ، وإلى دخول نوره في القلب .

وعندما يستقر نوره تعالى في القلب البشري يتأتمى لصاحب هذا القلب أن
يدرك النبوة ، ويدرك القرآن ونوره الذي يجلو العمى عن العيون : ﴿ ألم ، ذلك
الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين ﴾ (١) .

لقد أعطى النبي الأكرم (ص) معرفة النفس أهمية فائقة ، وجعلها سبيل
معرفة الله فقال : « من عرف نفسه فقد عرف ربه » (٢) ، وقد نقلت روايات كثيرة
عن أمير المؤمنين (ع) بهذا الصدد ، نقل منها المرحوم (الأمدي) حوالي
(٣٠) رواية في كتابه « غرر الحكم » ومنها هذه الكلمات القصار :

معرفة النفس أنفع المعارف .

عجبت لمن ينشد ضالته وقد أضل نفسه فلا يطلبها .

عجبت لمن يجهل نفسه كيف يعرف ربه .

(١) سورة البقرة، الآية ١ .

(٢) مستدرك الوسائل / ج ٢ ، ص ٣١٠ .

غاية المعرفة أن يعرف المرء نفسه .

الفوز الأكبر من ظفر بمعرفة النفس .

فالذي يريد تعرف ربه ، عليه أولاً أن يتعرف نفسه ، ثم يحكم ارتباطه بالله ، هذا فيما إذا أراد المرء أن يوجد محبة الله في نفسه ، وكذا الأمر بالنسبة لذلك الذي يريد معرفة القرآن والنبى الأكرم (ص) عليه تحكيم روابطه مع الله باجتناّب المعاصي لتخرج محبة الأوثان من قلبه .

وبخروج الأوثان من القلوب تأتي محبة الله لتستقر مكان تلك الأوثان المطرودة .

فاجتنب المعاصي والانتهاء عنها ، يقرب المرء من محبة الرسول (ص) ومحبة أهل بيته - عليهم السّلام - ومن توغّل في المعاصي تنكّر لمحبة الرسول الأكرم (ص) وتنكر لمحبة أهل بيته - عليهم السّلام - وذلك لعدم انسجام المعاصي والمآثم مع المحبة التي يمكن أن تستقر في القلب ، فإن طهر القلب من الإدراّن والمعاصي ، تمكنت المحبة من دخوله .

وهذا لا يتأتى إلا إذا انتهى المرء عن ممارسة المعاصي ، وأحكم المرء علاقاته وروابطه مع بارئه وخالفه حينها يستطيع إيراد المحبة إلى قلبه ، محبة القرآن ، محبة الطاعات ، محبة الخير ، محبة أهل البيت (ع) والذين هم أساس كل خير في هذه الدنيا .

محبة أهل البيت عليهم السلام

إن ما استفدناه من البحوث السابقة هو : وجوب محبة أهل بيت رسول الله (ص) : ﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾ .

هذا ما جاء به القرآن الكريم .

أما الروايات المتواترة ، فقد عدت الولاية من أهم الواجبات التي أمرنا بها المولى الكريم جل وعلا .

وقد أسلفنا وقلنا : ما العمل للوصول إلى محبة أهل بيت الرسول (ص) ؟ لكون محبتهم أمراً قهرياً ، وأجبنا عن ذلك بالقول : من كان مرتبطاً بفرد يتحدث إليه كل يوم ، ويتذكر أعماله وأفعاله الجميلة سيؤول يوماً إلى محبته شاء أم أبى .

إن المحبة والود صفة إنسانية محمودة ، نراها في البعض ، ويفتقدها البعض ، فإذا رغبتنا في وجود المحبة سعينا إلى مقدماتها ، وإن لمحبة أهل البيت طريقتين ؛ الأولى : تحكيم الروابط مع الباري تعالى من خلال الاهتمام بالواجبات والفرائض ، والامتناع عن المعاصي والآنم ، إضافة إلى العمل بالمستحبات بشكل لا يؤثر سلباً في أعمالنا ؛ وقد كان أمير المؤمنين علي (ع) لنا قدوةً وأسوةً في هذا الأمر ، فقد استطاع تحكيم روابطه مع بارئه وخالقه إضافة إلى علاقته ومحبته مع رسول الله (ص) حتى بلغت تلك المحبة لله وللرسول (ص) درجة جعلته يقول : « والله لأن أبيت على حسك السعدان مسهداً ، أو أجر في الأغلال مصفداً ، أحب إليّ من أن ألقى الله ورسوله يوم

القيامه ظالمًا لبعض العباد ، وغاصباً لشيء من الحطام ، وكيف أظلم أحداً
لنفسه يسرع إلى البلى قفولها ، ويطول في الثرى حولها؟! (١)

فالمحبة والمودة لله ولرسوله ولأهل بيت الرسول (ص) تمنع الإنسان عن
ممارسة المعاصي وتحيله إلى إنسان ملتزم بأوامر الله ورسوله (ص) .

أما بالنسبة للطريق الثاني الذي عرضنا له فيما سبق فهو زيارة أهل
البيت (ع) لأنها توجد في قلب الزائر عناصر جاذبة إليهم تنبعث من قراءة
الزيارات التي وردتنا عنهم - عليهم السّلام - .

إن هذين الطريقتين هما من الطرق العرفانية ، ويمكن احتسابهما طرقاً
عملية للحظوة بمحبة أهل بيت الرسول (ص) ، وقد يأتي العمل بالإيمان
الوجداني حيناً ، وحيناً آخر يأتي بالإيمان القلبي .

إن أفضل الطرق لإقناع القلب بوجود الله والمعاد هو الطريق العملي ،
وليس العلمي ، وإن العمل يدلنا أيضاً على طرق العرفان .

وبالطريق العملي نتمكن من لف القلب بمحبة أهل البيت (ع) إضافةً إلى
ترسيخ الاعتقاد بهم - عليهم السّلام - .

أما بالنسبة للطريق العلمي ، فهو الآخر له طريقان حاله حال العقائد التي
تمتلك هي الأخرى طريقتين .

ومن خلال هذين الطريقتين يحصل الاعتقاد بالله وبالمعاد وبالنبوة وبالإمامة
وبالصفات الربوبية .

وإن أحد هذين الطريقتين علمي - أي ما يسهله برهان الحدوث وبرهان
الصدّيقين ، وبرهان النظم لإثبات وجود الله تعالى أو يمكن إثبات ذلك بطريق
البرهان أو الفلسفة (الحركة الجوهرية للملأ صدرًا) التي استخدمها لإثبات
المعاد .

إن هذا الطريق يرتبط بالعقل ، ويمكن له أن يسكت العقل ويقنعه ، مع

(١) نهج البلاغة/ صبحي الصالح ، ص ٣٤٦ .

احتمال عدم إمكانية إقناع القلب ، أو تصديق القلب لذلك .

هذا ما اصطلحنا عليه بالطريق العلمي .

أما العملي ، فهو الذي يمكن أن يوصلنا إلى ما نريد بطريق الالتزام بممارسة صلاة الليل التي توصلنا بدورها إلى العرفان بالله تعالى .

إن قراءة القرآن والتمعن في آياته ، والتوسل بالله بواسطة الأدعية المأثورة ، وخدمة خلق الله يمكن أن يوصلنا إلى العرفان ، وعندها يصدق القلب ويقتنع بوجود الله تعالى وبوجود المعاد الذي لا بد منه .

إن بحثنا بشكل إجمالي يدور حول محور المحبة ، وكيفية ترسيخها في القلب ، وقد عرضنا إلى طريقة العمل التي تتشعب إلى طريقتين ، وسنعرض للطريق الآخر ، وهو الطريق العلمي في ما سيأتي من سطور .

وللطريق العلمي شعبتان أيضاً أو طريقتان ؛ الطريق الأول : مطالعة الكتب التي تعرض لسيرة أهل البيت (ع) وسلوكهم وتعاملهم مع الآخرين ، فهذه المطالعة ستجرتنا حتماً إلى محبتهم - عليهم السلام - شئنا ذلك أم أبينا ، وقد نرى حبَّ البعض لأهل البيت على الرغم من أنه يظهر العداوة والبغضاء لهم ، وما إظهاره ذلك لهم إلا لعناد فيه أو عصبية أو طلب سلطة ورئاسة .

وينقل لنا التاريخ حديث معاوية الذي كان محارباً لأمير المؤمنين (ع) حين نقل إليه خبر شهادة أمير المؤمنين علي (ع) فقام وقعد وأخرى دون أن يشعر بذلك مردداً الله أكبر ، الله أكبر ليقول بعد ذلك : مات ذلك الأسد الذي كانت الميادين استراحة له ، فشاء معاوية أم أبي ، فإن الدرُّ الوجودي لعلي (ع) موجود في كوامنه ، ومن وجد فيه ذلك أحب علياً رغباً عنه .

جاء إلى معاوية أحد البسطاء ليقول له : جئت من أبخل الناس إليك يا أكرم الخلق كما أتزود بزاد الحياة الدنيا .

فسأله معاوية : من هو أبخل الناس يا هذا ؟ .

فقال : علي ا .

فقال معاوية : قل شيئاً يمكن أن يكون مقبولاً ؛ ولو كان لعليّ جبلان

أحدهما من تبر والآخر من تبن ، لأنفق الذي كان من تبر قبل حلول المساء في سبيل الله ليعود على ذلك الذي هو من تبن فلا يبقي عليه .

قال عبد الله بن الأزرق الشيباني بعد دفن الإمام علي (ع) بليلة ، ذهبت إلى معاوية لأنزل عليه ضيفاً ، وكان الوقت عشاءً ، وما إن جلست حتى قدم معاوية طعامه الخاص إليّ قائلاً : إنني أتناول من هذا الطعام كل ليلة ، وأما الليلة فهو لك .

قال ابن الأزرق : تناولت لقمة منه ، ولشدة لذتها لم أتمكن من تمريرها إلى معدتي لأنني لم أعود طعاماً لذيداً ، مثل ما قدمه لي ، فبكيت .

فسألني معاوية : لِمَ بكأوك هذا ؟ .

فقلت : تذكرت ما يبعضني على البكاء ! كنت في أحد الأيام في دار الإمارة عند أمير المؤمنين علي (ع) ، وكان الوقت قد قارب على الإفطار ، فمدت لي مائدة لأجالس عليها أمير المؤمنين (ع) ، فوضع مقداراً من الخبز واللبن ، ووضع بين يدي أمير المؤمنين (ع) صحن فيه ماء ، وجيء بكيس فتحه ليخرج منه كسراً من خبز شعير بعث إليه من حاصل أرضه التي زرعها شعيراً بنفسه ، وكان الخبز ذاك يابساً كيما لا يتلف .

أما ما أراه الآن ، فهو طعام معاوية الذي عجن بالجوز واللوز ، وبأدمغة الخراف وما شابه ذلك .

يا معاوية : إذا كان عليّ ذاك خليفةً لرسول الله ، فمن تكون أنت ؟ وإذا كنت أنت الخليفة ، فمن يكون عليّ ذاك ؟ .

قال ابن الأزرق : شرع معاوية بالبكاء ، وقال : إنك ذكرت من لم تلد أمة مثله ، ومن لم يأت مثله إلى الدنيا ولن يأتي .

كثيرة هي الحكايات والروايات التي تحدثت عن بكاء أعداء علي (ع) وإطرائهم عليه في حواشيهم أو خواصهم . فمن عرف ذلك الدرّ الثمين ، لا يتأتى له أن يقف حائلاً دون توغل محبته في قلبه ، حتى لو شوهده من ذلك الشخص عناد وحسد وغائلة لشخص علي (ع) .

فمطالعة الكتب - كتب السيرة بالخصوص - التي تعنى بسيرة أهل بيت محمد (ص) تجعل المطالع يشاهد بألم عينه فضائل ومناقب هذه العترة الطاهرة ، وسيرى قلبه يميل بكله إليهم ، لأنهم أهل لذلك ، ولأن الرسول (ص) أوصى بذلك ، ولأن الله أوصى رسوله الأمين بذلك ، قال رسول الله (ص) : « الزموا مودتنا أهل البيت ، فإنه من لقي الله وهو يحبنا دخل الجنة بشفاعتنا ، والذي نفسي بيده لا يتفجع عبد بعمله إلا بمعرفتنا » (١) .

قال رسول الله (ص) : « ما بال أقوام من أمتي إذا ذكر عندهم إبراهيم وآل إبراهيم استبشرت قلوبهم ، وتهللت وجوههم ، وإذا ذكرت وأهل بيتي اشمازت قلوبهم وكلحت وجوههم ؟ » .

والذي بعثني بالحق نبياً لو أن رجلاً لقي الله بعمل سبعين نبياً ثم لم يأت بولاية وليّ الأمر من أهل البيت (ع) ما قبل الله منه صرفاً ولا عدلاً » (٢) .

جاء عن رسول الله (ص) أنه قال : « والذي نفسي بيده لا يبغضنا أهل البيت أحد إلا أكبه الله على وجهه في نار جهنم » (٣) .

لقد جاء في القرآن الكريم (٣٠٠) آية بحق أهل بيت رسول الله (ص) فمن قرأ تفسيرها رقى قلبه وجفا عن قسوته ، وطمع في محبة أهل بيته - صلوات الله عليه - ومن أمعن النظر في حالات أمير المؤمنين الكثيرة والمتراصة في كتب العدو والصديق لامتلاً قلبه بالود والحب والإجلال لهذا الرجل الذي بذل عمره في سبيل إعلاء كلمة الله ، وفي سبيل خدمة رسول الله (ص) وخدمة خلق الله سبحانه وتعالى .

وقد يرى البعض منا إجلالاً وإكباراً ومحبةً من غير المسلمين لأهل البيت النبوي الشريف .

إن ذلك الحبّ والودّ والإجلال هو نتيجة لمتابعة المثقفين منهم لسيرة أهل

(١) أمالي الشيخ المفيد/ص ٣٥ .

(٢) أمالي الشيخ المفيد/ص ٧٥ .

(٣) أمالي الشيخ المفيد/ص ١٣٤ .

البيت (ع) ولما تبهم ، وفضائلهم ، من خلال مطالعة الكتب التي تهتم وتعنى بتلك السيرة السوية .

قال جرداق بصدد أمير المؤمنين (ع) في كتابه الموسوم بـ « صوت العدالة الإنسانية » : إذا أردت تحريك ماء في حوض صغير تمكنت من ذلك بمد يدك فيه لكي يتلاطم الماء ، وذلك لا يكون فيما إذا كان الماء محصوراً في حوض سباحة .

ويمكن ذلك إذا رميت بحجر متوسط الحجم في ذلك الحوض .

ولكن الأمر يختلف مع بحيرة صغيرة إذ لا يمكن جعل مائها متلاطماً إلا إذا رميت فيها جبلاً ، ولا يكون ذلك مع المحيط إلا إذا رميت فيه إحدى كرات المنظومة الشمسية ، وخالصة القول : إن في هذا العالم مياهاً كثيرة يمكن أن نجعلها متلاطمة ، ولكنني أعرف بحراً لا يمكن فعل ذلك معه إلا بشيء واحد ، بـ « آه المظلوم » يمكن تحريكه وتهيججه ؛ إنه أمير المؤمنين علي (ع) ، لم تتمكن منه الغرائز ، ولم تستطع الرغبات تحريكه ، ولكن تأوه فتاة يهودية لجأت إلى الإسلام ، وظلمها بعضهم جعل من نفس علي (ع) كالأمواج المستفحلة ، ولجج البحر الزاخرة ، تلتطم أواذي أمواجها ، وترغو زبداً كالفحول عند هياجها ، وحينها قال : « ولقد بلغني أن الرجل منهم كان يدخل على المرأة المسلمة ، والأخرى المعاهدة فينتزع حجلها ، وقلبها وقلاندها ورعثها ، ما تمتنع منه إلا بالاسترجاع والاسترحام .. »^(١) .

هناك أشياء أخرى لم يتعرض لها الأستاذ جرداق بحق علي (ع) وهي : أن حب الرئاسة ، وحب الأكل والشراب لم يتمكننا من علي (ع) ولم تتمكن أي رغبة أو غريزة من إيجاد تلاطم في تلك النفس التي هي أكبر وأسمى من أن تهزها جبال الذهب .

فكيف بها وهي ترى الرغبات والشهوات تنزلاً وتساقلاً ؟ .

إن الخوف من الله وحده جعل علياً يتململ كتلملم السليم يقول : « آه

(١) نهج البلاغة/صحي الصالح ، ص ٦٩ .

من قلة الزاد . وبعد السفر ، ووحشة الطريق ،^(١) .

جاء في أول كتاب جرداق عدة أبيات شعرية في منح علي (ع) قائلاً في حق أحد البيات ، والجدير بالذكر أن البيات الشاعر ذاك كتب يقول :

« لو سألني البعض عن سبب مدحي لأمر المؤمنين (ع) لأجبت بآتي عاشق للفضيلة ، ومن كانت له فضائل سأقول فيه شعراً . ولقد تحريت هنا وهناك بحثاً عن الفضيلة فاهتديت إلى نبعها الصافي الذي هو علي (ع) . فكل فضيلة أبحث عنها فيه . ولذا عشقت علياً ، وقلت فيه شعراً .

حينما يكون النصراني جرداق عاشقاً لعلي (ع) ، وكذا ابن أبي الحديد المعتزلي من خلال مطالعتهما لسيرة ذلك الفحل الذي اجتمعت فيه الأضداد ، ستكون أنت كذلك محباً وعاشقاً لعلي (ع) ومتهجياً لتهجه - سلام الله عليه - بمطالعتك لسيرته التي حازت بها العقول . وتاهت في زواياها القلوب ، وكلما اطلع الفرد على سجيبة خفية من سجايا علي (ع) ازداد له حباً وإعجاباً .

روي عن الإمام جعفر بن محمد الصادق (ع) ، أنه سئل عن قوله عز وجل : ﴿لِلَّهِ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ ، مثل نوره كمشكاة فيها مصباح^(٢) فقال : هو مثل ضربه الله لنا ، فالنبي (ص) والأئمة - صلوات الله عليهم أجمعين - من دلالات الله ، وآياته التي يُعتمد بها إلى التوحيد ومصالح الدين ، وشرائع الإسلام ، والقرائن والسنن^(٣) .

وعن الإمام الباقر (ع) في تفسير الآية قال : فالمشكاة صدر نبي الله (ص) فيه المصباح ، والمصباح هو العلم في الزجاجية . والزجاجية أمير المؤمنين (ع) . وعلم النبي عنده^(٤) .

وجاء في تفسير العياشي عن الإمام الصادق أنه قال في تفسير قوله تعالى :

(١) نهج البلاغة/مبهي الصبح . ص ٤٨٠ - حكم ١٧٧ .

(٢) سورة النور . الآية ٣٦ .

(٣) التوحيد/ص ١٥٧ .

(٤) التوحيد/ص ١٥٧ .

﴿ كشجرة طيبة ﴾^(١) : رسول الله (ص) أصلها ، وأمير المؤمنين (ع) فرعها ، والأئمة من ذريتهما أغصانها ، وعلم الأئمة ثمرتها . . .^(٢) .

وجاء عن زرارة وحمران عن أبي جعفر ، وأبي عبد الله الإمام الباقر ، والإمام الصادق - عليهما السلام - في قول الله : ﴿ ضربَ اللهُ كلمة طيبة . . ﴾ قال : يعني النبي (ص) والأئمة من بعده هم الأصل الثابت والفرع والولاية لمن دخل فيها ،^(٣) .

إن أحد الطرق العلمية للمحظوة بمحبة أهل البيت (ع) هو قراءة الأدعية ومن خلال الدعاء نرى ولاية الأئمة التكوينية ، والمقام العلمي ، والمقام الملكوتي بالإضافة إلى كلماتهم التي تزجج جذوة الحب الفطري لهم - سلام الله عليهم - .

إن بعض الروايات التي يمكن أن نشاهدها في بطون الكتب التي تتعلق بسيرة الأئمة الأظهرار - عليهم السلام - يمكن التعليق عليها بعشرات المجلدات ، فقد تكون الرواية مختصرة جداً ، ولكن مع كونها مختصرة تكون فيأضة بعلم وعرفان قد يسع الدنيا بسمائها وأرضها .

فلو طالعنا وصية الإمام الحسن (ع) ، وهو يكاد أن يجب ربُّه إلى جنة المأوى ، وقد يكون قد فارق الدنيا ليلتحق بالحبيب بعد ساعة من حديثه هذا الذي سستطرق إليه :

يقول جنادة : دخلت على أبي محمد الحسن بن علي - عليهما السلام - وهو ينازع في الروح ، فقلت له : أوصني يا ابن رسول الله (ص) .

وعند سماعه (ع) لهذه الكلمة تلالاً وجهه كالقمر الزاهر يريد التحدث إليّ .

ويذكر جنادة هذه القضية يريد القول بأن الإمام الحسن (ع) كان طبعه

(١) سورة إبراهيم ، الآية ٢٤ .

(٢) تفسير العياشي / ج ٢ ، ص ٢٢٤ ، مع اختلاف بسير في اللفظ .

(٣) تفسير العياشي / ج ٢ ، ص ٢٢٤ . تفسير العيان / ج ١٢ ، ص ٦٣ .

النُصح ، وإبداء ما يذكرُ بالله العزيز المتعالي حتى وإن كان على فراش الموت .
يقول الميرزا الشيرازي - عليه الرحمة - : «كان من حوله يرغبون في أن
يقول الإمام الحسن (ع) شيئاً وهو يوشك أن يكون مفارقهم ، أسبل عينه لأمر
الباري تعالى ، ولم يكن بعد قد فارق الحياة ، فحاول أصحابه أن يقول لهم
شيئاً ، ولكنه لم يتقوه بكلمة ، فجاء أحدهم وقال : سأجعل الإمام (ع) يتحدث
إليكم .

فقال : يا ابن رسول الله (ص) ما حكم من أكل ما احترق من الطعام ؟
ففتح الإمام (ع) عينه وقال : لا ضرر في ذلك ، والضرر يكمن فيما تنجس
وفيما خبث ، فشرب الدم حرام لنجاسته ، ولخبثه ، وإن الطبع البشري ليتنفر
منه . . . (١) .

إن الكثير من العلماء والأفاضل لا يتحدثون بشيء ، إلا إذا سألتهم مسألة
علمية ، وعند ذلك فقد تتمكن من جرهم إلى حديث ، لكون العلماء في الأعم
الأغلب عشاقاً للفضيلة وللعلم والمتعلمين ، فهم لا يتحدثون بشيء إلا إذا كان
محوره علماً ، ولا أعني هنا كل علم ، بل أعني علم رسول الله (ص) وأئمة أهل
بيته - سلام الله عليهم أجمعين - .

كم هو جميل جواب الإمام الحسن (ع) لجنادة حينما استنصحه فنصح له
بكلام قليل ، كثيرة معانيه « يا جنادة استعد لسفرك وحصل زادك قبل حلول
أجلك » (٢) .

إن عبارة الإمام الحسن (ع) هذه تحمل في طياتها بعدين :

الأول : هو الاستعداد للأخرة من خلال استحصال الحسنات قبل حلول
الأجل ، حينها لا يتأتى له تحصيل شيء من ذلك .

والبعد الثاني : يكمن في أن الإنسان ينبغي له أن يفكر في آخرته وكأنما

(١) كنز العمال/ج ١٣ ، ص ٦٤٦ ، ٦٥٤ .

(٢) كنز العمال/ج ١٣ ، ص ٦٥٢ .

الموت ملاقيه غداً ، ناهيك عن تحصيل معاشه في هذه الدنيا وكانما سيعيش أبداً .

إن التفكير في أن الحياة مستمرة يمنع الإنسان من التسامح في بعض الأمور ، مما يؤدي إلى خلق اختلافات ومشاكل اجتماعية أو أسرية ؛ فعلى سبيل المثال : المعاصي التي يتماذى بها الإنسان ظناً منه بأنه سيخلد ، ومن ظن ذلك نسي الموت ، ومن نسي الموت ذهب عن فكره يوم القيامة وأمواله وكرباته .

إن الأئمة الطاهرين (ع) يشعرون المستمع إليهم حين يتحدثون - وهو الواقع - أن جملاتهم لا تتضارب مع آيات القرآن الكريم ، بل تتناغم معها وتتنجم ولا نقول : إن بعض الجمل من أحاديثهم تكون على هذه الكيفية ، بل نقول : إن كل جملاتهم وأحاديثهم ، فكلها مأخوذة من القرآن الكريم ، لكون آياته تجري في عروقهم ، فهم عدله ، وكفوّه ، وثقله .

يقول الإمام الحسن (ع) في جملة الثالثة من وصيته لجنادة : « يا جنادة من أراد عزاً بلا عشيرة ، وهيبة بلا سلطان ، فليخرج من ذل معصية الله إلى عز طاعته »^(١) ؛ فالعزة والهيبة أمران يرغب الكثير من الناس فيهما ، فترى مثلاً إحدى أمنيات الزوجة أن تكون حاكمة على قلب زوجها ، والرجل يتمنى أن يحظى بأبنة وهيبة في منزله ، وفي قلب وعين زوجته .

وبشكل عام يتمنى الإنسان أن يكون شخصية اجتماعية مرموقة يحسب لها العدو حساباً خاصاً وتجعل الصديق يتمسك بحبه لها .

وخلاصة القول : شخصية حاكمة على قلوب العدو والصديق والبعيد والقريب .

وهذا هو أحد المفاهيم النفسية التي ركز عليها الأئمة الأطهار ابتداءً من أمير المؤمنين حتى آخرهم - سلام الله عليهم - .

فمن أراد بلوغ العزة والهيبة ، فعليه أن يتجنب المعاصي والآثام ليدخل في

(١) كتر العمال/ج ١٣ ، ص ٦٥٢ .

عز طاعة العزيز القدير . فكلما وثق الإنسان علاقته وروابطه بالله تعالى تمكن من جلب قلوب الناس إليه ، وبذلك يحظى على مقام اجتماعي مرموق بينهم ، فهو عزيز ما دام مطيعاً لله ، وهذا ما أثبتته التجارب العملية المعاشة .

وكذا الأمر بالنسبة للفهم الموضوع على الجمر تراه يكتسب منه ليضحى هو الآخر جبراً فاناراً مضيئة ، والمصباح المتصل بالنور يكتسب منه نوراً ؛ فمن أحكم ارتباطه بالله تعالى شغ نور الله في قلبه ، ليكون نورانياً بين الناس من خلال إشعاع نور الله في قلبه ، فترى الناس يعزونه ، ويهابونه ، ويحبونه وما تلك إلا من عز الله وجلاله ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا ﴾ (١) .

إن هذه الجمل الثلاث التي قالها الإمام الحسن (ع) وهو على فراش الموت تشمل كل ما في هذه الحياة ، بالإضافة إلى شمولها جزءاً كبيراً من الحياة الأخرى ، ومن تعمق في معانيها اشتعلت في صدره نار المحبة لذلك الإمام الهمام (ع) .

ومن هو ذلك الذي يقرأ سيرة ونهج وطريقة الإمام الحسن (ع) ولا يحبه ؟ .

جاء رجل شامي إلى المدينة ، وكان في قلبه بغض لأهل بيت الرسول (ص) وعند مرور الإمام الحسن (ع) من أمام عينيه ، بدأ بالسب والشتم ، وما إن سار الإمام الحسن (ع) ثانية قليلاً حتى كرر الشامي سبابه وشتمه ، وهناك دعا الإمام الحسن (ع) ذلك الشامي إلى منزله ، ليكرمه ويطعمه ويقدم إليه حصاناً هدية منه .

وعندها اعتراه الخجل والحياء وخرج من المدينة والحسن (ع) أحب الناس إليه بعد أن دخلها وهو كاره له .

خلاصة بحثنا هي :

١ - تحكيم الارتباط بالله تعالى .

(١) سورة مريم ، الآية ٩٦ .

- ٢ - التردد على مزارات الأئمة الأطهار من أهل بيت الرسول (ص) ، والتوسل بهم عند الله تعالى ليحظى المرء بهم القرب إلى محبتهم وودّهم .
- ٣ - البحث والتنقيب عن آثارهم وأحاديثهم المدللة على نهجهم وسلوكهم .
- ٤ - التفاعل مع كلمات وأحاديث الأئمة الأطهار (ع) .

وأخيراً أوصي نفسي وإخواني بمطالعة كتاب « أصول الكافي » بجزئيه ، والحق يقال : إن هذا الكتاب مفيد جداً في تعود ما جاء في أحاديث أهل البيت النبوي الشريف ، فأحاديثهم نوعٌ من أنواع النور الإلهي الذي يخترق الحجب ليصل إلى القلوب فيهديها إلى سبل الصلاح ، ويجلو عنها ما علق بها من الأدران والأحزان والاضطراب والقلق ، بالإضافة إلى إدخال الودّ والمحبة والصفاء إليها .

إلهي نور قلوبنا بأحاديث أوليائك وعبادك أئمة الهدى وآل بيت المصطفى ، لنستمر في رغبتنا إليك ، ونجاهد في الوصول إليك . اللهم إليك أفضت القلوب ، ومدت الأعناق ، وشخصت الأبصار .

اللهم إنا نشكو إليك غيبة نبينا ، وكثرة عدونا وتشتت أهواننا ، ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق وأنت خير الفاتحين .

[١] سير إلى الله

إن للإنسان في هذا العالم سيراً إلى الله تبارك وتعالى وقد تطرق القرآن الكريم لهذا السير لعالم الوجود ، فقال عز وجل : ﴿ أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ ﴾ (١) ، ﴿ وَإِنِّ إِلَيَّ الْمُنْتَهَى ﴾ (٢) ، ﴿ فَإِنَّ إِلَى رَبِّكَ الرَّجْعَى ﴾ (٣) ، ﴿ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴾ (٤) ، ﴿ يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ ﴾ (٥) .

إن هذه الآيات المباركات تغنياً عن البحوث الفلسفية والعرفانية لكون القرآن الكريم قد عرض بوضوح لمسألة سير وحركة هذا الإنسان الذي سيتهي في مسيرته إلى حيث الحق تعالى .

إن الإنسان في سيره إلى الله يمكن تصنيفه إلى ثلاثة أصناف الأول منها : صنف من البشر انتخب طريقاً موسوماً بالصراط المستقيم ، وسار به إلى الله ، وهذا الطريق هو أفضل الطرق وأقومها وأسهلها ، ويوصل الإنسان بسرعة إلى مقصده وهدفه .

وإن بعثة جميع الأنبياء من أجل تبيان هذا الطريق للبشر : ﴿ إِنَّ هَذَا

(١) سورة الشورى، الآية ٥٣ .

(٢) سورة النجم، الآية ٤٢ .

(٣) سورة العلق، الآية ٨ .

(٤) سورة البقرة، الآية ١٥٦ .

(٥) سورة الانشقاق، الآية ٦ .

صراطِي مستقيماً فاتبعوه ولا تتبعوا السبلَ فتفرقَ بكم عن سبيلي ﴿١﴾ .

لقد أنزل الرحمن جميع الكتب السماوية للبشر من أجل أن يعلموا أن السبيل إليه ، وهو سبيل النجاة والسعادة مستقيماً ولا يحتاج الإنسان في سيره إلى ربه أن يسلك غير هذا السبيل ، لأن من سلك غيره ضل وانحرف عن الجادة الصواب ، وبذلك سيلقى عذاباً أليماً .

فيا أيها الناس ، إنكم في هذا العالم تمتلكون سيراً وحركةً استكماليةً ، ستتهي بكم إلى الله ، وسيكون اللقاء به وحده تعالى هذا ، فإذا كنتم ترومون السعادة ، فاسلكوا الطريق المستقيم إليه .

إن العديد من الأمم قد اهدت إلى هذا السبيل المستقيم ، فساروا عليه ، وسيره في المستقبل أيضاً أمم أخرى ، ولكن الأمم بشكل إجمالي تختلف في سرعة سيرها ، فالبعض منهم يتسابق في حركته صوب المحبوب تعالى فترى سرعته أكثر من سرعة غيره .

وهذا ما أطلق عليه القرآن الكريم « بالسابق » ، فقال تعالى :
﴿ وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ ﴾ (٢) .

وعلاوة على السابقين توجد مجموعة أخرى من البشر سلكت السبيل نفسه وهم من أطلق عليهم القرآن اسم أصحاب اليمين ﴿ وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ فِي سِدْرٍ مَخضُودٍ . . ﴾ (٣) .

إن كلمة اليمين ترجع في أصلها إلى اليمن والبركة ، ويقول الفلاسفة : إن أصحاب اليمين هم خليط ممن أسرع في سيره ، وتباطأ ؛ ولكنهم كانوا جميعاً في حركة دائبة على صراط مستقيم ، يشتركون في هدف واحد ألا وهو لقاء الله - تعالت أسماؤه - .

تقول الروايات الواصلة إلينا عن طريق أهل البيت (ع) : « إن على جهنم

(١) سورة الأنعام، الآية ١٥٣ .

(٢) سورة الواقعة، الآية ١٠ .

(٣) سورة الواقعة، الأيتان ٢٧ و ٢٨ .

جسراً أدق من الشعر وأحد من السيف هو ذا الصراط » وإن « الناس يمرون على الصراط طبقات . . . فمنهم من يمر مر البرق ، ومنهم من يمر مثل عدو القرس ، ومنهم من يمر جبواً ، ومنهم من يمر مشياً ، ومنهم من يمر متعلقاً قد تأخذ النار منه شيئاً وتترك شيئاً »^(١) .

« والصراط المستقيم في حقيقته صراطان : صراط في الدنيا ، وصراط في الآخرة .

فأما الصراط المستقيم الذي هو في الدنيا ، فهو ما قصر عن الغلو ، وارتفع عن التقصير ، واستقام فلم يعدل إلى شيء من الباطل .

وأما الطريق الأخرس ، فهو طريق المؤمنين إلى الجنة الذي هو مستقيم »^(٢) .

وقد يقول البعض إن الصراط المستقيم له ظاهر وباطن ، فظاهره الدنيا ، وباطنه الآخرة .

ولو أردنا إدراك الصراط وفهم السير عليه إلى الجنة لوجب علينا أن ننظر إلى الحالة التي نحن عليها في هذه الدنيا .

فما كانت عليه حركتنا في هذه الدنيا الدنيّة سنرى حقيقته وواقعه يوم القيامة في الحياة الأخرى .

فمن كان سيره في الدنيا سريعاً وملكوياً ، كان سيره في الآخرة سريعاً أيضاً وملكوياً .

ومن كان سيره هنا بطيئاً ، كان سيره هناك بطيئاً أيضاً .

وإذا تعثر الإنسان في سيره في الحياة الدنيا سيتعثر أيضاً في سيره في الحياة الآخرة فمثلما ترى الناس هنا في سيرهم مختلفين ستراهم هناك كذلك .

إن السقوط في الحياة الدنيا ، وانتخاب السبل المختلفة سيؤدي بالإنسان

(١) بحار الأنوار/ج ٨ ، ص ٦٥ .

(٢) بحار الأنوار/ج ٢٤ ، ص ٩ .

حتماً إلى أن يسقط في الحياة الآخرة ، ولا يتمكن من سلوك الصراط المستقيم
أو قد يرى متعلقاً بيد أو مستمسكاً بقدم وما إلى ذلك .

وهذا ما أخبرتنا به الروايات المتواترة ؛ قال رسول الله (ص) : « ...
والناس على الصراط فمتعلق بيد ، وتزول قدم ، ويستمسك بقدم »^(١) .

وجاء أيضاً عن (ص) : « ... ومنهم من يمضي عليه كمرّ الريح ،
ومنهم من يعطي نوراً إلى موضع قدميه ، ومنهم من يجبو حبواً ، وتأخذ النار منه
بذنوب أصابها ... »^(٢) .

فالسقوط هنا سقوط هناك أيضاً ، والحركة هنا حركة هناك أيضاً .

فمن كانت حركته في المسار المستقيم ، كانت حركته هناك مستقيمة
أيضاً ، ومن كانت حركته هنا غير مستقيمة وغير سوية ، هوى هناك في جهنم
وبشّ المصير .

وقد جاء في تفسير قول الله عزّ وجلّ : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ لِبِالْمِرْصَادِ ﴾^(٣) قال :
« قنطرة على الصراط لا يجوزها عبداً بمظلمة »^(٤) .

وجاء أيضاً في تفسير ﴿ إِهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾ يقول : أدم لنا توفيقك
الذي به أطعناك في ماضي أيامنا حتى نطيعك كذلك في مستقبل أعمارنا ،
والصراط المستقيم هو صراطان : صراط في الدنيا ، وصراط في الآخرة^(٥) .

وذكر الصادق في قوله تعالى : ﴿ إِهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾ يقول :
أرشدنا الصراط المستقيم ، أرشدنا للزوم الطريق المؤدي إلى محبتك ، والمبلغ
إلى جنتك من أن نتبع أهواءنا فنعطب^(٦) .

(١) بحار الأنوار/ج ٨ ، ص ٦٥ .

(٢) كنز العمال/خ ٣٩٠٣٦ .

(٣) سورة الفجر، الآية ١٤ .

(٤) بحار الأنوار/ج ٨ ، ص ٦٦ .

(٥) بحار الأنوار/ج ٢٤ ، ص ٩ .

(٦) معاني الأخبار/ص ٢٩ .

وإهدنا الصراط المستقيم تعني : إلهي تَلَطَّف علينا ووقفنا لأن نسير بسلام على نهجك القويم ، وهو ما يصطلح عليه «إيصال إلى المطلوب» ، أي دُلْنَا على الطريق الذي نلتك في آخره وأن رسولك قال : ﴿ إِنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ ﴾^(١) وقد فعلنا ذلك ، ولكن يبقى أن نأخذ أنت بأيدينا لنصل إلى قُربك وجوارك ، فأبدِ علينا عنايتك ورحمتك ورضوانك حتى نصل إلى المطلوب .

وخلاصة البحث : إننا نسعى للوصول إلى المطلوب من خلال الطريق المستقيم وهذا الطريق مستمر وله نهاية ، وعند النهاية يكون اللقاء بالله العزيز المتعالي ورحمته التي وسعت كل شيء .

إن هذا الطريق هو جسر الصراط ، وجسر الصراط أدق من الشعرة ، وأحد من السيف ، وإن ظاهره هنا ، وحقيقته هناك ، فمن لم يدرك دقته وحدته ضلَّ وانحرف عن سواء السبيل ، وهوى في نار جهنم الحامية في تلك الدار الآخرة .

إن الحفاظ على استقامة السير في هذه الدنيا صعب جداً ، واستقامة السير أعني بها المحافظة على الالتزام بالدين القويم والشرع السليم ، فالقابض على دينه في يومنا هذا كالقابض على جمرة من نار ، وقد يأتي جيلٌ بعدنا سيُعاني أكثر مما نعاني في وقتنا الحاضر .

قد ينحرف الإنسان في بعض الأحيان عن الطريق المستقيم تحت مسّميات متعددة مثل : ثوري ومكافح ومناضل ومجاهد ، وما إلى ذلك من التسميات التي تحمل ظاهراً جميلاً وحسناً ومقبولاً لدى كل الأوساط الاجتماعية .

وقد تحرف بعض الجُمَل إنساناً عن الطريق المستقيم لتسقطه في الهاوية ، وما إن ينتبه لذلك ويريد الرجوع إلى طريقه المستقيم حتى يرى الوقت قد فات عليه ، والرجوع إلى الوضع الأول صعباً إن لم يكن مستحيلاً ؛ وبعض الجُمَل التي يتفوه بها الإنسان قد تؤدي بدين الفرد إلى نصفين ، ولذا ينبغي لنا أن نكون حذرين وفطنين وواعين لما نقول وإلا فالسقوط في انتظار من يغفل عن

(١) سورة الأنعام، الآية ١٥٣ .

ذلك ، فيكثرون الذين سقطوا سنين متتالية من جراء جملة قالوها في غير محلها .

وإن النملة التي حملت حبة الخنطة بفتحها لتطلع صخرة عالية ، بعد تعب شديد وعناء ، تهوى بحبتها تلك إلى أسفل الصحراء من جراء غفلة أصابتها ، وهذا ما يصيب الإنسان في بعض ساعاته .

جاء عن أمير المؤمنين علي (ع) أنه قال في ﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا ﴾^(١) : وقد قلتُم : ﴿ رَبُّنَا اللَّهُ ﴾ فاستقيموا على كتابه ، وعلى منهاج أمره وعلى الطريقة الصالحة من عبادته . . واجعلوا اللسان واحداً ، وليخزن الرجل لسانه ، فإن هذا اللسان جموح بصاحبه ؛ والله ما أرى عبداً يتقي تقوى تنفعه حتى يخزن لسانه . . ﴿^(٢)

وقال رسول الله (ص) : « لا يستقيم إيمان عبد حتى يستقيم قلبه ، ولا يستقيم قلبه حتى يستقيم لسانه . . . »^(٣) .

فاللسان الأحمر اللون يخضّر حين يطلق عنانه للاغتياب ، والنهمة ، والشائعة ، وكشف العيب المستور ، وهذا بحد ذاته يجرُّ الإنسان إلى مواقع الحضيض .

وقد يفعل مثل ذلك الطعام المحرم ، فيهوي الإنسان ويسقط في طرق الانحراف ، وحين يريد الرجوع عن تلك الطرق يرى الأمر صعباً مستصعباً .

إن الصراط المستقيم ، طريق ضيق ودقيق ، وإن اجتيازه أمر غير هين ، ولكنه يهون على أولئك الذين يعلمون ما يفعلون ، ويدركون ما يعملون ، ويفهمون مواقعهم في الحياة الدنيا وفي الآخرة ، ويعرفون لماذا جاءوا ؟ وإلى أين يذهبون ؟ وما هو سيرهم ؟ وكيف يتأتى لهم المسير ؟ .

إنه سهل على أولئك الذين عرفوا أن الله يراهم ولو كانوا هم لا يرونه ،

(١) سورة فصلت/ ٣٠ .

(٢) نهج البلاغة/ صبحي الصالح ، ص ٢٥٣ .

(٣) نهج البلاغة/ صبحي الصالح ، ص ٢٥٣ .

فهو أن الله حاضر في السر والعلن ، في الليل والنهار ، وأنه يرى ويتابع ويحصى ، ويسجل ﴿ يعلمُ خائنةَ الأعينِ وما تخفي الصدور ﴾^(١) ، ﴿ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾^(٢) .

إن من الطاف الله على عباده ، إرساله الأنبياء أدلاءً على صراطه المستقيم ، أدلاءً رحماء بمن جاءوا إليهم ، لقد تحمّلوا المصائب والبلايا بصدر رحب كيما يهدوا البشر إلى السير السليم ، وإلى صواب الطريق .

وقد ورد في الأخبار المتكاثرة من لمرق العامة والخاصة « أن زكريا (ع) دعا قومه ليلاً ونهاراً لكي يستقيموا على الطريق القويم والصراط المستقيم ولكنهم قصدوه بالقتل ، فهرب منهم والتجأ إلى شجرة ، فانفجرت له ، فدخل جوفها ، ثم التأمّت ، فدلّهم الشيطان عليه ، وأمرهم أن ينشروا الشجرة بالمنشار ، ففعلوا وقطعوه نصفين ، فقتل (ع) عند ذلك »^(٣) .

فأرسل الباري تعالى رسولاً من بعده ، ومن بعد ذلك أرسل رسلاً آخرين حتى بلغوا (١٢٤) ألف رسول لطفاً منه ورحمةً وإتماماً للحجة على العالمين .

وعلاوة على إرسال الباري تعالى لكل أولئك الرسل ، وقفنا أن تكون خلفاً لسلف عرفوا طريقه المستقيم ، وصراطه القويم ، والحمد له وحده على هذا الأمر .

ولو لم يكن هناك نبيّ أو رسول أو وليّ ، لما اهتدينا إلى نهجه وجادّته السويّة ، فعلينا أن نحذر الغفلة التي تبعث على السقوط والانحراف عن تلك الجادة من خلال حديث في غير محله ، أو اغتياح مسلم ، أو انتهاك حرمة ، وما إلى ذلك من القضايا التي توجب السقوط في مهاوي الرذيلة في الدنيا ، وفي نار جهنم الحامية في الآخرة .

لقد اهتدى البعض إلى هذا الطريق الذي هو السير إلى الله ، وعرفه حق

(١) سورة غافر، الآية ١٩ .

(٢) سورة آل عمران، الآية ١١٩ .

(٣) الميزان/ج ١٤ ، ص ٢٥ ، ٢٦ .

المعرفة ولكنهم انحرفوا عنه لعناد فيهم ، فدُلِّهم عنادهم على طرق أخرى غير
سويّة على الرغم من معرفتهم للطريق السويّ ، فراحوا يتتكرّرون للحقّ ويتمادون
في الظلم .

وعند لقاء الله سيؤول بهم الأمر إلى أسفل السافلين على العكس من
أولئك الذين اهدتوا إلى الطريق القويم واستمروا عليه في سيرهم الذي وجدوا
فيه رحمةً من الله واسعة ، وكان الحكم في كلا المسارين لله جلّت قدرته ؛ فكان
لقاء الصالحين رحمةً من الله خلاف لقاء الطالحين الذي سيكون نقمة عليهم
﴿ إِنَّ الْحُكْمَ لِلَّهِ ﴾^(١) .

إن الذين يعاندون ، وينحرفون عن الطريق المستقيم بعد هدايتهم كثر .

وما كان من انحراف وضلال ، فيما كسبت أيديهم ، لتحكيم الشيطان
على قلوبهم على الرغم من أنه كان ينبغي لهم تحكيم الله عليا : ﴿ أفرأيت من
اتخذ إلهه هواه وأضله الله على علم ﴾^(٢) .

إن القرآن المجيد نقل لنا الكثير من الحوادث والنقص التي تدلل على
معرفة المنحرفين بالطريق السوي ، ولكنهم أبو إلا الضلال ، ومثال ذلك
ابن نوح (ع) الذي اتخذ إلهه هواه ، فلم يمثل لأمر النبي نوح (ع) وهو أبو
الذي يعرفه حقّ اليقين .

إن نوحاً (ع) صنع سفينةً وقال لقومه اركبوا فيها ومنهم ابنة ، وأفهمهم أن
لا ملجأ من الله إلا إليه ، وكان القوم يعرفون عليه طائفة بعد طائفة فيسخرّون منه
وهو يقول لهم (ع) : ﴿ إِنَّ تَسْحُرُونَا مِنَّا فإِنَّا نَسْحَرُكُمْ كَمَا تَسْحُرُونَ فسوف
تعلمون من يأتيه عذابٌ يخزيه ، ويحلّ عليه عذابٌ مقيم ﴾^(٣) .

﴿ حتّى إذا جاء أمرنا وفارّ التنور ، قلنا احمل فيها من كلّ زوجين اثنين
وأهلك إلا من سبق عليه القول ومن آمن وما آمن معه إلا قليل ﴾^(٤) ، ﴿ ونادى

(١) سورة الأنعام ، الآية ٥٧ .

(٢) سورة الجاثية ، الآية ٢٣ .

(٣) سورة هود ، الأيتان ٣٧ و ٣٨ .

(٤) سورة هود ، الآية ٤٠ .

نوحُ ابْنُهُ وَكَانَ فِي مَعزِلٍ : يَا بَنِيَّ ارْكَبْ مَعَنَا وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ ، قَالَ سَأُوبِي
إِلَى جَبَلٍ يَعْصَمُنِي مِنَ الْمَاءِ ، قَالَ : لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَجِمَ ،
وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرِقِينَ ﴿١﴾ .

إن الله - تعالى اسمه - حدثنا في كتابه الشريف عن كثير من العلماء
والأغنياء والحكّام الذين كانوا يعلمون بالطرق السويّة ، ولكنهم ولعناد فيهم أبو
إلّا ركوب الطرق المنحرفة الملتوية ؛ ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ
مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ﴾ ﴿١﴾ ، فلا تظنّ عزيز القاريء الكريم ، أن
أولئك المترفين كانوا جهلة أو حمقى .

لا ، وألف لا ، ولكن عنادهم وكبريائهم واستعلاءهم منعتهم من أن
يمثلوا للرسل الذين جاءوا برسالات الحق والهداية ؛ وما نراه اليوم في البعض
لا يخفى على البصير .

إن الذين تصدوا للأنبيا والرسل ولرسالاتهم الإلهية كانوا في الأعم
الأغلب من الشخصيات العلمية ، أو السياسية ، أو من الذين كانت منافعهم
المادية لا تتسجم والأهداف التي جاء بها الأنبياء ، ولو تأتي لنا البحث في من
كذب (١٢٤) ألف نبي لشاهدنا ذلك جلياً وواضحاً ، وفي مقابل ذلك نرى أن
أغلب التابعين أو الذين صدقوا الرسل حين مجيئهم كانوا من الحفاة ، من سكان
الأكواخ ، من المعدمين ؛ ولا أريد أن أعتبر ذلك دليلاً على عدم معاندين بين
الفقراء والمساكين والمستضعفين ، ولكن يمكّني القول بأن عنادهم
وعداوتهم ، وعدم امتثالهم أقل من تلك التي نشاهدها في الطبقات الثرية ، أو
المتسلطة .

إن هذه الثورة التي قامت في إيران ، جاء بها الحفاة والمستضعفون ، وإن
أغلب مخالفيها كانوا من الأثرياء والمترفين .

ومن هنا نفهم أن مثل هذا الأمر حصل منذ زمان آدم (ع) وسيبقى إلى يوم

(١) سورة هود، الآيات ٤٢ و٤٤ .

(٢) سورة سبأ، الآية ٣٤ .

القيامة على هذه الشاكلة .

نقل لنا أحدهم عن أحد الفلاسفة المعاصرين لزمان عيسى (ع) حيث كان يقول لعيسى (ع) : « أنا لا أعرف مدى صحة رسالتك ، ولكنني أعلم أنك رسول من ربِّ العالمين ، رسول للمستضعفين والمعدمين ، وأن رسالتك لا يمكن أن تشملني لعقلي في كبير ، ولعلم عندي عظيم .

لقد كان ذلك الفيلسوف متكبراً وعوداً تستعزُّ في نفسه شعل نيران حب الذات ، والخوف على منافع ومصالحه .

وقد نشاهد مثل ذلك الفيلسوف بين أبنائنا ، فما يحصل على شهادة البكلوريوس حتى يبدأ بتغيير لحن حديثه ظناً منه أنه وصل القمة في علمه ، فلا يسمع لوالده ولا لوالدته .

وإذا حصل على الدكتوراه تعالى على أبناء جلدته ، فلا يحضر مجلساً أو اجتماعاً فيه من هم أقل مستوى منه في شهاداتهم أو تحصيلاتهم ، رغبةً منه في حضور يضم من هم في مستواه الدراسي .

عجباً لهذا البشر ! عجباً له وهو يمثل الصفات الرذيلة ! .

هل أن من يحصل على العلم يصبح متكبراً أو حسوداً ؟ .

إن هذه الصفات تنحرف به رويداً رويداً إلى المعاصي والآثام ظناً منه أنه أسمى وأرقى من أولئك الذين يسلكون سلوك الأنبياء والرسل ، فيتنكر للحق : ﴿ وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنَّ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَاباً مِنَ السَّمَاءِ أَوْ اثْبِتْنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ (١) .

يقال : إن بلالاً الحبشي طلع سطح المسجد وقال : « الله أكبر » .

وإذ رآه أحدهم قال : « ليتني متُّ قبل أن أرى هذا الغراب فوق سطح المسجد » .

لم يستطع رؤية عبد مسلم يشاركه دين الإسلام لظنه برقيه وسموه على

(١) سورة الأنفال، الآية ٣٢ .

ذلك المخلص لدين الله ورسوله (ص) ؛ والجدير بالذكر أنه كان من رؤساء القبائل من المترفين الذين كانوا يقولون : ﴿ إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ﴾ (١) .

ومثل على العناد ذلك الذي نزلت فيه الآية المباركة : ﴿ إِنَّ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ . . . أَوْ آتَيْنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ ونزلت هذه الآية بعد تنصيب النبي الأكرم محمد بن عبد الله (ص) علياً خليفة للمسلمين ، بعدما قام أحدهم ليقول للنبي (ص) : يا رسول الله ! هل كان تنصيبه للخلافة من عندك أو من عند الله ؟ .

فإن كان من عندك ، رفضنا ذلك ، وإن كان من عند الله فحرياً بالله أن يمطر علينا حجارةً من السماء ، أو يعذبنا بعذاب اليم .

لا تعجبوا لذلك اللثيم ، ولا تعجبوا للنبي الأكرم (ص) المؤتمر بأوامر الله تعالى حين رفع يد عليٍّ إلى السماء ، وقال : « من كنت مولاه ، فهذا عليٌّ مولاه ، اللهم والي من والاه وعادي من عاداه ، وانصر من نصره ، واخذل من خذله » (٢) ؛ وما إن أنزل الرسول (ص) يد علي (ع) حتى اجتمع حوله كبار القوم وسادتهم ليقولوه : « بخ بخ لك يا أمير المؤمنين » .

كان ذلك اليوم هو السابع عشر من شهر ذي الحجة ، وكان يوم التحاق الرسول (ص) بالرفيق الأعلى هو الثامن والعشرين من شهر صفر . وما رحل الحبيب (ص) حتى شكّل القوم ترتيب سقيفة بني ساعدة لينصبوا أحدهم خليفة للمسلمين بعد رسول الله (ص) بدلاً من أمير المؤمنين علي (ع) ، وليحرقوا في اليوم الثاني باب دار علي (ع) ، وليكسر أحدهم ضلع الزهراء البتول - عليها السلام - ومن ثم يكرهوا علياً على دخول المسجد ، ولا عجب في ذلك ! .

إذا استعرت نار الحسد والحقد وحب الذات في قلب فرد ، وصل به الأمر إلى نكران أمر الله ورسوله الكريم (ص) .

يقول المؤرخون : كان مالك بن نويرة أحد أصحاب الرسول (ص)

(١) سورة سبأ، الآية ٣٤ .

(٢) تاريخ دمشق لابن عسكرا/ج ١ ، ص ٣٦٦ .

الخاصين قد أتى بعد وفاة الرسول (ص) من البادية لسماعه برحيله إلى الحق تعالى وما إن دخل المسجد حتى رأى جمعاً غفيراً من الناس حول أحدهم ، ولا يوجد فيهم عليّ (ع) فسأل عنه ، فقالوا له : وما تريد منه ؟ .

قال : ألم ينصّب الله ورسوله عليكم خليفة ؟ .

فقالوا : دعك من هذا ، واجلس في مكانك .

فقال : جئت مسجد رسول الله (ص) قبل عدة شهور لأقول للرسول (ص) : أنا زعيم قبيلة ، فعلمني الدين ؛ فقال (ص) : الدين شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله . وأن تدين بالولاء لهذا - وأشار لعليّ بن أبي طالب (ع) - وقال : « إن هذا أخي ووصيي وخليفتي فيكم فاسمعوا له وأطيعوا »^(١) ثم علمني بقية الدين لأرجع إلى البادية .

عندما كان يتحدث مالك بن نويرة في القوم في المسجد اجتمع حوله الضعفاء والمحبون ومن كان حاضراً زمن الرسول (ص) عندما جاءه مالك بن نويرة ، فخاف بعضهم حدوث ما لا تحمد عقباه ، فأخرجوه من المسجد كرهاً وأضمرؤا له العداوة والبغضاء .

وما إن رجع مالك إلى عشيرته حتى قصّ عليهم القصص ، فبدأت تلك الحادثة تنتشر بين القبائل ؛ فخرج خالد بن الوليد - الذي كان بالأمس قد أحرق باب منزل أمير المؤمنين علي (ع) - إلى البادية يرافقه (٥٠) شخصاً من المسلمين وكانت هذه المجموعة قد ذهبت إلى قبيلة مالك بن نويرة تحت عنوان جباية الزكاة ، وحين وصولهم إليه قال مالك : سأعطيكم الزكاة كي لا تقع الأمة الإسلامية في اختلافات تؤدي بها إلى الضعف والانهيار ؛ فذبح لهم في تلك الليلة جملاً وخرافاً لعشائهم أملاً في ذهابهم صباحاً إلى حيث يريدون .

وفي المساء ، وبعد أن هجع القوم إلى النوم قام خالد مع ثلثة من حراسه إلى الهجوم على خيمة مالك بن نويرة صاحب رسول الله (ص) ليذبحه وهو في فراشه وفي حضور امرأته التي اغتصبها خالد في تلك الليلة بعد أن قتل الكثير

(١) كنز العمال/خ/ ٣٦٤٢٠ .

من شباب وشيوخ ونساء وأطفال تلك القبيلة المسلمة المسالمة ، وسرق ما عندهم من أموال ويرجع إلى من أمره بذلك .

ولما سمع الإمام علي (ع) بتلك الحادثة حتى رفع يديه إلى السماء قائلاً : « اللهم إني أبرأ إليك مما فعل خالد » .

ويقال : إن عبارة أمير المؤمنين تلك كانت تختلف عما نقله بعضهم ، إذ قالوا : إن الإمام علياً (ع) قال : « اللهم إني أبرأ إليك من خالد »^(١) .

يقول المؤرخون الشيعة والسنة على السواء : إن خالداً في تلك الليلة أمر أصحابه بالطعام للمرة الثانية ، ليضع رأس مالك بن نويرة في وسط قدر مليء بالرز والماء ، كان موضوعاً على نار شديدة ، ويجمع المؤرخون على أن الرأس لم يحترق - إن الرأس الذي اشتاق للجنة لن يحترق - وعلى الرغم من رؤية خالد لهذه القضية اغتصب زوجة الصحابي مالك بكل وقاحة !! .

إن هذه القضايا ليست من مبهمات التاريخ ، وإن الجميع يعرفون ذلك ولكن ﴿ قل سيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المجرمين ﴾^(٢) ، و ﴿ كيف كان عاقبة المكذبين ﴾^(٣) .

أعزائي القراء احذروا الترف وخصوصاً في مسائل الدين ، فلا يستولي عليكم الحسد والكبر والعجب والغرور ، لأنه لا يؤدي بالإنسان إلا إلى المهالك ، ولا يغرنكم ما تعرفون من مسائل علمية فينعكس ذلك سلباً على سلوككم .

يقول نيوتن - وكم هو جميل قوله - : إن ما لدي ليس علماً ، فعلمي مقابل جهلي ، قطرة من ماء مقابل بحر متلاطم ، وعندما أستعمل التلسكوب الذي صنعته بيدي أرى عوالم مجهولة أشعر كأن التلسكوب ذاك يقول لي : إنك قطرة في بحر .

(١) انظر تاريخ دمشق لابن عسكرا/ج ٣ ، خ ١٠٢١ ، ١٠٢٦ ، وشرح ابن أبي الحديد/ج ١ ، ص ١٣ ، ١٤٠ ، ١٤٣ .

(٢) سورة النمل ، الآية ٦٩ .

(٣) سورة النحل ، الآية ٣٦ .

إن الكرة الأرضية في مجموعها قد تكون قطرة في بحر العالم ، فمن تكون أنت أيها الإنسان الضعيف ؟ وما هو علمك الذي تدّعي ؟ ويقول بعض العلماء : إن الكرة الأرضية إذا قيست مع باقي الكرات الموجودة في هذا العالم عدت حصية في صحراء متمادية الأطراف ، هذه هي الكرة الأرضية ، فمن أكون أنا ؟ وأين تكون أنت ؟ وما هو علمي وعلمك ، وأين يكون موقعه من العلم ؟ .

فمعرفة عدة قوانين رياضية لا ينبغي أن تجلب عليك كل هذا الغرور ، وحل عدة مسائل فقهية لا غرور فيه .

ولكن الإنسان أقل مما يجب أن يحتوي واستعداده لهذه المسائل قليل ، وقليل جداً ، فلا يفرنك أيها المعلم أن تصير غداً مديراً لمدرستك ، وإن فعلت ذلك سيؤول بك الأمر إلى الانحراف عن الصراط المستقيم الذي بيّنه لنا الرسول الأكرم (ص) وأهل بيته الأطهار المنتجبون .

اللهم أنت أهل الوصف الجميل ، والتعداد الكثير ، إن تؤمّل فخير مأمول ، وإن تُرَجَّح فخير مرجو .

اللهم وقد بسطت لي فيما لا أمدح به غيرك ، ولا أثني به على أحد سواك ، ولا أوجهه إلى معادن الخيبة ومواضع الريبة ، وعدلت بلساني عن مدائح آدميين ؛ والثناء على المربوبين المخلوقين ، صلّ على محمد وآله الطاهرين وهب لنا في هذا المقام رضاك ، وأغننا عن مد الأيدي إلى سواك بحق محمد وآله الطاهرين .

[٢]

سيرٌ إلى الله

قال رسول الله (ص): « كنت جالساً إلى جبرئيل ... فسمعت صوتاً مهيباً .. وسألته ماذا كان ذلك ؟ فقال : رُمي بحجر قبل (٧٠) سنة إلى جهنم ووصل للتو إلى قعرها »^(١) .

وقد فسّر قائد الثورة الإسلامية ذلك الحديث قائلاً : « انحرف شخص (٧٠) عاماً عن الصراط المستقيم ، وسار إلى جهنم في ما طواه من مسيرة ، وكان ينحط يوماً بعد يوم إلى أن قبض الله روحه ، فلم يستقر في الدرك السابع ، بل تعدّاه إلى بئر ليستقر فيها ، وعندما استقرّ أفاق من غفلته ، وفي مثل ذلك قال رسول الله (ص) : « الناس نيام فإذا ماتوا انتبهوا »^(٢) .

إن حياتنا التي نحياما موت ، وإن بداية الحياة الحقيقية تكون بعد الموت ، أي بعد عبور قنطرة الموت الفاصلة بين الحياة الدنيا والحياة الآخرة ﴿ وإن الدار الآخرة لهي الحيوان ﴾^(٣) .

فالحياة هناك ، ولهذا يشهد الإنسان تكلم جهنم معه وهي تحرقه ، ويشهد تكلم الأفاعي والعقارب وتجريحهم له في التحدث إليه ، ناهيك عن طيّه لمسافات درجات جهنم الحامية ليستقر في نابوت في بئر تقع في الدرك الأسفل

(١) كنز العمال/ج ١٥ ، ص ٥٤٢ - ٧٥٨ كتاب الموت وأحوال تقع بعده .

(٢) علل الشرائع/ص ٤ ، كنز العمال/ج ١٥ ، ص ٥٤٢ .

(٣) سورة العنكبوت، الآية ٦٤ .

من تلك النار التي سجّرها الخالق الجبار ، وما سقوط الإنسان في تلك البئر ،
وتسافله وانحطاطه في مسيره من الدرك الأول إلى الدرك السابع إلا تشابه في
انحطاطه وتسافله في هذه الحياة الدنيا .

فالذي يريد أن يتعرف موضعه في الآخرة ، فليُنظر إلى ما هو عليه في
الحياة الدنيا ، ولا يبتعد الإنسان عن تلك الظنون الشيطانية التي يظنها أنه سوف
ينجو من تلك النار ، أو أنه لا ينتهي إلى رب السموات والأرض : ﴿ إِنَّ إِلَى
رَبِّكَ الْمُنْتَهَى ﴾^(١) ، ﴿ إِنَّ إِلَى رَبِّكَ الرَّجْعَى ﴾^(٢) ، فالمسيرة البشرية لا بد لها
من الرجوع إلى خالقها ؛ ومن غفل عن ذلك ، فهو ما يزال في نوم عميق ،
وحين يموت يصحو من غفلته ، وعندها لا تنفعه شفاعة الشافعين . وقد أخبرتنا
الروايات المتواترة أن البعض يقطعون الصراط وكأنه عدة كيلومترات ، وأن
قطعهم لتلك المسافات يعد فسحة نادرة إذا قيس بما بعدها من الأهوال .

وتخبرنا الروايات أيضاً أن البعض ممن يحسبون تحت لواء الحمد الذي
هو بيد أمير المؤمنين (ع) يتهلون من حوض الكوثر ، ويمتعون أنظارهم بمناظر
الحشر .

ومن المؤكد أن ذلك أفضل لهم من الجنة نفسها لكونهم يرضون تحت
لواء علي بن طالب (ع) ، فباطن هذه الدنيا هو الآخرة ، والآخرة ليست ما وراء
هذه الدنيا ، وهذه هي حقيقة الدنيا ، فهنا الظاهر ، وهناك الباطن وعندها يدعو
الباري كل قوم بإمامهم ﴿ يَوْمَ نَدْعُو كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ ﴾^(٣) ؛ فمن كان إمامه
معاوية انضوى تحت رايته ، ومن كان إمامه أمير المؤمنين علي (ع) ظلته راية
علي (ع) وجاء معه .

ومن عاش تحت لواء صدام ، حشر معه ، فانظر عزيزي القاريء إلى
واقعك المعاش ، وتحت أي لواء تحيا اليوم ؛ فما أنت عليه اليوم ستره غداً ،
ومن كان إمامك اليوم فهو في الغد إمامك ، وما تعيشه الآن مجرد فيلم وستري

(١) سورة النجم، الآية ٤٢ .

(٢) سورة العلق، الآية ٨ .

(٣) سورة الإسراء، الآية ٧١ .

حقيقته غداً عندما ترجع إلى الواحد القهار في عرصات يوم القيامة المهيب .
فالسقوط والانحطاط هكذا ، فإذا ما رأيت حالك يقترب من الرذائل فاعلم
أنك تنحدر إلى أسفل ، والنار هي الحضيض .

أما من رأى نفسه يقترب من الله - ولا يمكن معرفة ذلك إلا من خلال أئمة
أهل البيت النبوي - سلام الله عليهم - أو من ينوب عنهم من العلماء الذين يشهد
الفضلاء والأجلاء لهم بالعلم والتقوى والورع والعدل - فليعلم أنه في سير
صعودي ، والجنة عالية وسامية .

فالمُعاند هنا ، سيرد جهنم هناك ، والمنحرف الضال هنا ، سيؤول الأمر
به إلى غضب من الله هناك ، وقد يصطلح البعض على هكذا أفراد بأنهم
« يهود » على الرغم من أنهم يشهدون الشهادتين لأن اليهود مصداق للانحراف
والضلالة .

وقد حكى لي أحدهم حكاية لا بأس بالإتيان بها هنا يقول : أقام أحدهم
تعزيةً ، وأراد تمثيل تلك التعزية بأفراد ، فحضر جميع من يريد تمثيل تلك
التعزية ، ولم يبق إلا من يمثل دور الذي كان يحول دون الوصول إلى شط
الفرات ، فبحثوا هنا وهناك ، فلم يعثروا إلا على أحد الأرامنة ، فعرضوا عليه
الأمر فوافق عليه ، وحينئذ بدأ العزاء فجاء العباس ، فمنعه من ورود الماء .
وجاء علي الأكبر ، فمنعه أيضاً ثم جاء القاسم فحال بينه وبين ماء الفرات .

بعد ذلك سمع الأرمني صوت أطفال الحسين وهم يصرخون « العطش ،
العطش » وعندها صرخ الأرمني ، وقال : قسماً بذات الله ، لقد تقطعت نياط
قلبي لكم ، ورغبتني إلى إعطائكم الماء شديدة ، ولكن هؤلاء المسلمين
لا يجيزون لي ذلك ! وعليه أقول . إن فينا نحن المسلمين من هو أسوأ من
اليهود ، وأسوأ من الكفرة .

إن هذه الحكاية التي تقول بانحطاط اليهود ، مصداقها هو : أن اليهود
كانوا ولا يزالون جرثومة الفساد والعناد منذ زمن موسى (ع) حتى وقتنا الحاضر .
وعجباً لهؤلاء اليهود ، فقد كانوا يريدون لموسى (ع) ولكنهم - وكما أخبرنا

القرآن الكريم بذلك - يقولون له : ﴿ فاذهب أنت وربك فقائلاً إنا ها هنا قاعدون ﴾ (١) .

ويطلبون بصلاً وثوماً بالرغم من أن غذائهم يأتي من السماء ، يقول لهم موسى (ع) : « إن طعامكم يأتي من عالم الملكوت ، فكلوا واحمدوا الله على ذلك ، فيقولون : لا نريد إلا بصلاً وثوماً وقرعاً وعدساً ﴿ وإذ قلتُم يا موسى لن نصبر على طعام واحد ، فادع لنا ربك يخرج لنا ممّا تنبت الأرض من بقلها وثبائها وثومها وعدسها وبصلها . قال : أتستبدلون الذي هو أدنى بالذي هو خير ﴾ (٢) ؛ إنهم كانوا معاندين ، ولجوجين ، بل إنهم مرضى .

لقد كان اليهود أظلم من عليها في زمن الرسول الأكرم (ص) ، وقد وصل ظلمهم إلى درجة أمر معها الله نبيه (ص) بقطع رؤوس (٧٠) منهم ، لكونهم وصلوا إلى حدّ كانوا يريدون فيه قتل الرسول وكل من كان في المدينة فكشف الله ذلك لرسوله وقضى عليهم وعلى مؤامراتهم اللثيمة .

إن رؤساء أمريكا هم من اليهود ، وإن بريطانية تعتمد في سياستها على أحزاب صهيونية ، وإن ماركس كان يهودياً معقداً ، مريضاً نفسياً ، وإن المذاهب التي جاءت بعده كانت تحت نظر الصهيونية من مثل مذهب « فرويد » ذلك المذهب الذي يبعث على حياة الأحياء ، إنه المذهب الذي يعتبر كل الغرائز ترجع في أصلها إلى الغريزة الجنسية .

وكان « دور كيم » يهودياً أيضاً ، وهو صاحب مذهب أو مدرسة ، وكان يقول بالرغم من أنه يعدُّ عالماً : ينبغي أن يكون الإنسان مستغلاً ، وإن على القوي أن يستغل الضعيف ويمتصّ دمه كالعلاقة التي تمتص الدماء لتحيا ، وإن الرحمة والعطف والرفقة من الضعف ، فمن ضعف بانث عليه الرحمة والرفقة والعطف ، ولا ينبغي للإنسان أن يكون رؤوفاً رحيماً ! عليه أن يكون مثل ريفان وصادام ! .

كان ماركس يهودياً ومنتصياً للحزب الصهيوني ، وقد يكون فرويد ،

(١) سورة المائدة، الآية ٢٤ .

(٢) سورة البقرة، الآية ٦١ .

ودوركيم ، ونيتشه غير معقدين ، ولكن ماركس كان كذلك ، لكونه كان فقيراً ومعدماً ، يذهب في أغلب الأحيان إلى المدرسة حافياً ، وقد أصيب بصداع مزمن لعدم تمكنه من تناول إقطار على طول السنين التي كان فيها في الجامعة فاستغلَّ « إنكلز » وضعه المادي المتردي ذاك ليلقي في عنقه غلَّ ذلك المذهب الذي التزمه فيما بعد .

وخلاصة الأمر : هي أن كل المصائب التي عانت وتعاني منها الإنسانية منذ زمان موسى (ع) حتى زماننا الحاضر ، كان وما زال أصلها اليهود ، إنهم معاندون ولكنهم في الأعم الأغلب أذكاء ، ولجوجين ولكنهم يخططون لما يريدون إنجازَه .

قال عزَّ وجلَّ في محكم كتابه الشريف : ﴿ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذُّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَأُؤُوا بغَضِبِ مِنَ اللَّهِ ﴾^(١) .
لماذا كان ذلك ؟ .

﴿ ذَلِكَ بأنهم كانوا يكفرون بآياتِ اللَّهِ ويقتلون النبیینَ بغيرِ الحقِّ ذلكَ بما عصوا وكانوا يعتدون ﴾^(٢) .

يقول الإمام الهمام جعفر بن محمد الصادق (ع) بصدد هذه الآية : « واللَّهِ ما ضربُهم وما قتلُهم ، ولكن سمِعوا أحاديثَهُم فأضاعوها »^(٣) ، فالقصد من القتل في هذه الآية الشريفة هو : قتل الهدف الذي جاء من أجله الأنبياء - سلام الله عليهم - ومن قتل هدفاً لشخص كانت المصيبة أعظم مما لو قتل الشخص نفسه .

وقد نعت القرآن الكريم اليهود ، فقال فيهم : ﴿ المغضوبِ عليهم ﴾ ، لماذا ؟ لعنادهم ولجأجتهم .

وإن من بين المسلمين ما يتَّصف بصفات اليهود في عناده وكبريائه وعجبه

(١) سورة البقرة، الآية ١٦ .

(٢) سورة البقرة، الآية ٦١ .

(٣) تفسير نور الثقلين/ج ٢ ، ص ١٩١ - وكذا جاء في تفسير العياشي .

وإصراره ، وقد نرى الكثير من النزاعات الأسرية ترجع في الأساس إلى العناد ، فترى المرأة أو الزوجة تمتنع عن إطاعة ولي أمرها ، وهي تعلم أن رب الأسرة هو الرجل بالرغم من أنها أدركت ذلك بالفطرة ، فترى البعض منهن مستعدة لأن يسرح ويمرح أطفالها في الشوارع ولا تنتهي عن طلبها للطلاق وهكذا نساء : ﴿ مفضوبٌ عليهنَّ ﴾ ويحشرهن الباري يهوديات يوم القيامة ، وعندما يحشر الباري إحدى النساء المسلمات على أنها يهودية تسأل عن ذلك ، فيقال لها : لقد كان سيرك في الحياة الدنيا سير ﴿ الضالِّين ﴾ ولم يكن سير ﴿ الصراطِ المستقيم ﴾ بل كان سير ﴿ المفضوبِ عليهم ﴾ سير العناد والإلحاح واللجاجة والإصرار ، سير عدم الامتثال للطاعة سير تخريب المحيط الأسري؟! .

وانتم أيها الرجال الأعزاء : لا ينبغي لكم أن تستخدموا التجريح بالعبارات ، فتحرقوا قلوب زوجاتكم ، فمن كان سلوكه جهنمياً ، كان سيره إلى جهنم أقرب ، وإن التجريح ليُجسَّد للرجل يوم القيامة بشكل حيوان قبيح يؤدي به إلى أسفل جهنم بضعة آلاف من السنين . وعندما يريد الصعود ثانية سيحتاج إلى بضعة سنين أخرى ، فيقال له : هذا ما جرّه عليك تجريحك للآخرين ! ففي الدنيا تجريح وفي الآخرة يصير حيواناً قبيحاً ، فهنا الظاهر ، وهناك الباطن ﴿ يومٌ تجدُ كلُّ نفسٍ ما عملتُ منْ خيرٍ محضراً ، وما عملتُ منْ سوءٍ تودُّ لو أنْ بينها وبينه أمدأ بعيداً ، ويحذركُمُ اللهُ نفسه ﴾ (١) .

فالتهمة والغيبة والكذب والتجني كلها تنقلب غداً على صاحبها ناراً حامية : ﴿ يا أيُّها الذين آمنوا قُوا أنفسكم وأهليكم نارا وقودها الناس والحجارة ﴾ (٢) .

قال رسول الله (ص) في قوله : ﴿ وسقى من ماءٍ صديدٍ ﴾ (٣) قال : يقرب إليه فيكرهه ، فإذا أدنى منه ، شوى وجهه ووقع فروة رأسه ، فإذا شرب منه قطع أمعاءه حتى يخرج من دبره ؛ يقول الله : ﴿ وسقوا ماء حميماً مقطَّعاً

(١) سورة آل عمران، الآية ٣٠ .

(٢) سورة التحريم، الآية ٦ .

(٣) سورة إبراهيم، الآية ١٦ .

أمعاءهُم ﴿١﴾ ويقول : ﴿ وَإِنْ يَسْتَفِئُوا يُغَائِسُوا بِمَاءِ كَالْمَهْلِ يَشْوِي
الوجوه ﴾ (٢) ﴿ (٣) .

إن ذلك الماء الكريه الرائحة هو انعكاس لسوء الخلق الذي يمارسه الزوج
مع زوجته أو الفرد مع صاحبه في المجتمع ، وأنه يشوي الوجوه ، فلأن ذلك
الذي يشوي وجهه ، أراق ماء وجه صاحبه الذي ائتمنه على سره ؛ وأن
يستغيث في الآخرة فيُغاث بماء كالمهل ، جزاءً بما فعله بفلان من الناس حينما
استغاثه ولكنه لم يرد لهفته بل سخر منه ، وتخلّى عنه .

إن ما فعله اليوم ستره حقاً غداً عند ملكٍ مقتدر ، وعندئذ ستفني من
غفلتك ونومتك التي لم تتجاوز اللحظات ، وقد حسبتها أنت سنين طوالاً ،
﴿ فكشفنا عنك غطائك فبصرك اليوم حديد ﴾ (٤) .

قال الباري في محكم كتابه : ﴿ يوم تجد كل نفس ما عملت من خير
مُحضراً وما عملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمداً بعيداً ﴾ (٥) .

وتعني هذه الآية المباركة : أن الأعمال الصالحة في زمن الدنيا تتحول
إلى أنيس وصاحب ورفيق حسن يوم القيامة ، والأعمال السيئة تتحول إلى
حيوانات مفترسة وعقارب مؤذية فيتمنى المسيء حينها أن تكون المسافة بينه
وبين تلك الحيوانات بعيدة .

« اللهم إنك أنس الأنسين لأولائك ، واحضرهم بالكفاية للمتوكلين
عليك ، تشاهدهم في سرائرهم ، وتطلع عليهم في ضمائهم ، وتعلم مبلغ
بصائرهم . . إن أوحشتهم الغربة آنسهم ذكرك ، وإن صبّت عليهم المصائب
لجأوا إلى الاستجارة بك ، علماً بأن أزمة الأمور بيدك ومصادرها عن
قضائك » .

(١) سورة محمد، الآية ١٥ .

(٢) سورة الكهف، الآية ٢٩ .

(٣) بحار الأنوار/ج ٨ ، ص ٢٤٤ .

(٤) سورة ق، الآية ٢٢ .

(٥) سورة آل عمران، الآية ٣٠ .

ولادة الرسول الأكرم (ص)

كانت مكة غارقةً في ظلام وسكون ثقلين ولا يطالع الناظر إليها مظاهر للحياة والنشاط ، اللهم إلا ذلك القمر الدؤوب الذي بدا كعادته كل يوم يتحرر من خلف تلك الجبال الجرداء المنودة ، ويرتفع في الأفاق رويداً رويداً لينشر أشعته الفضية الهادئة على تلك البيوت البسيطة الغريبة عن تعقيدات المدينة وتجملاتها .

الجميع كانوا في نومهم العميق إلا آمنة ، فقد كانت يقظةً وبدأت تحس بالألم الذي كانت تنتظره ، وفجأةً رأت في غرفتها عدة نساء تلعوهن المهابة ويجللهن النور ، وتفوح منهن روائح زكية لم تمهدها آمنة من قبل ، وتَحَيَّرت آمنة في شأن هؤلاء النسوة المجهولات ، وكيف استطعن الدخول من الباب الموصد! (١) .

ولم يطل تحيُّرها إذ جاء إلى الدنيا وليدها الحبيب ، وبهذا قرَّت عينها بعد شهر من الانتظار بوليدها الذي أطلَّ على الدنيا في سحر اليوم السابع عشر من ربيع الأول (٢) ، وفرح الجميع بهذا المولود الحبيب الذي أنارت طلعتة بيت آمنة التي كانت قد افتقدت زوجها الذي لم تمهله يد الموت ليتسنى له رؤية الوليد المبارك ، إذ اختطفته حين رجوعه من الشام ، فتوفي في يثرب ودفن هناك ،

(١) بحار الأنوار/ج ١٥ ، ص ٣٢٥ .

(٢) بحار الأنوار/ج ١٥ ، ص ٢٥٠ .

وترك آمنة وحيدة مع جنينها الذي كان يؤنس وحشتها القاتلة^(١) .

صاحبت ولادة الرسول الأكرم (ص) حوادث مختلفة في السماء والأرض ، وجاءت تلك الحوادث وكأنها تريد أن تؤدي دور وكالات الأنباء السريعة في عصرنا هذا لتنبئ عن وقوع حادث خطير ؛ ومن الحوادث أن إيوان كسرى أنوشيروان الذي كانت الأنظار مشدودة إليه وإلى صاحبه اضطرب في تلك الليلة ومادت به الأرض فسقطت أربع عشرة شرفة من شرفاته .

وخبت نار فارس لأول مرة منذ ألف سنة^(٢) ، وهكذا تبَّه سذنة معابد النار والكهان الذين منعتهم عصبيتهم وتقليدهم الأعمى عن التفكير في آيات الله في الكون وفي أنفسهم ، هؤلاء تنبَّهوا إلى أن للسماء خبراً ، وإن لهذا اليوم شأنًا خطيراً .

وكان لجفاف بحيرة ساوة اثر في تنبيه منطقة أخرى لحقيقة ما يجري على وجه الأرض^(٣) .

ولد الرسول الأكرم (ص) في عام الفيل ، وقد عرض القرآن الكريم لهذه الحادثة وأفرد لها سورةً سميت سورة الفيل ؛ وأصحاب الفيل هم الذين قصدوا تخريب الكعبة المشرفة بقيادة أبرهة الحبشي ، وقادوا معهم فيل الهدمة ، فضيَّع الله كيدهم بأن أهلكتهم وعصم الكعبة بإرساله تعالى عليهم جماعات من الطيور صغيرة الجنة رمتهم بحجارة من سجَّيل أي من طير متحجر ، وقيل من أسجله وإذا أرسله ، كان في منقار كل طير حجران أكبر من العدسة وأصغر من الحمصة فيرمى الرجل بحجر في رأسه فيخرج من دبره ، فجعلهم كورق زرع أكلته الدواب ، ورائته أوداد .

في الوقت الذي كان عامة الناس يتجهون صوب الأصنام ، كان محمد (ص) الذي لم يتلقَّ درساً من أحد يتجه وحده صوب غار « حراء » وهناك يقف خاشعاً متضرعاً وهو يتأمل في الكون وما أبدع فيه الخالق عزَّ وجلَّ من روائع

(١) بحار الأنوار/ج ١٥ ، ص ١٢٥ .

(٢) بحار الأنوار/ج ١٥ ، ص ٢٥٨ .

(٣) بحار الأنوار/ج ١٥ ، ص ٢٦٣ .

تتجلى فيها عظمته وقدرته .

وقد كانت طهارته وعفته (ص) حديث الناس في المجامع والمجالس الخاصة منها والعامه ، كما منحه صدقه وأمانته وإخلاصه لقب « الأمين » الذي لازمه واشتهر به ، ولقد كانت هذه الصفة المحيية هي التي دعت خديجة رضي الله عنها أن تختاره ليُتجر بأموالها .

إن أخلاق محمد (ص) وسلوكه وتعامله مع الناس بلغت حداً من الرفعة والسمو بحيث استطاع بها أن يدخل قلوب الناس ويجتذبهم إليه ؛ فعن عمّار بن ياسر أنه قال : كنت راعياً مع محمد (ص) قبل البعثة ، فاقترحت عليه يوماً أن نذهب بأغنمانا في اليوم التالي إلى مرعي « فُخ » فوافق على ذلك ، ولما كان من الغد ذهب إلى « فُخ » فوجدت محمداً (ص) قد سبقني إلى المرعي ، إلا أنه كان يمنع أغنامه من الرعي ، ولما سألته : لماذا تمنعها عن الرعي ؟ أجاب (ص) : « إني كنت واعدتك ، فكرهت أن أرعى قبلك » (١) .

كان محمد (ص) في الخامسة والثلاثين من عمره الشريف حين اجتمعت قريش لبناء الكعبة وترميم بنائها السابق ، ولما كانت قبائل قريش المتعددة تريد اقتسام هذا الفخر ببناء الكعبة ، ولذا جزأته وجعلت لكل قبيلة قسماً منه .

وقد بدأ الوليد بن المغيرة بالهدم وهو يقول : اللهم إنا لا نريد إلا الخير ثم تبعه الناس وأعانوه ، حتى انتهى الهدم بهم إلى الأساس الذي بناه إبراهيم (ع) .

وهنا بدأت كل قبيلة ببناء قسم من البيت حتى بلغ البنيان موضع « الحجر الأسود » ، فاختصموا فيه ، تريد كل قبيلة أن ترفعه إلى موضعه دون الأخرى لتفتخر بذلك على سائر القبائل ، وقد استمر الخلاف والخصام بينهم أربع ليالٍ أو خمساً ، ثم اجتمعوا في المسجد وتشاوروا فقال لهم أبو أمية بن المغيرة : وكان أكبر قريش سناً « يا معشر قريش اجعلوا بينكم أول من يدخل من باب هذا المسجد ليقتضي في الأمر ، فكان أول داخل عليهم هو رسول الله (ص) ، وما

(١) بحار الأنوار/ج ١٦ ، ص ٢٢٤ .

أن رأوه حتى قالوا : هذا الأمين » .

فلما وصل إليهم وأخبروه الخبر ، قال (ص) : هلمَّ إليَّ ثوباً ، فأُتي به ، فأخذ الركن (الحجر الأسود) فوضعه فيه بيده ، ثم قال (ص) : لتأخذ كل قبيلة بناحية من الثوب ، وبذلك رفعوه جميعاً حتى إذا بلغوا به موضعه أخذوه ووضعه بيده المباركة ثم بُنيَ عليه^(١) .

أصابت قريش في إحدى السنين بأزمة قحط شديدة ، وكان أبو طالب ذا عيال كثير ، ومال قليل ، مما دعا النبي (ص) إلى أن يأخذ علياً (ع) إلى بيته ليخفف بذلك عن عمه أبي طالب^(٢) ؛ ومنذ ذلك الوقت والنبيُّ (ص) كالأب الحاني المحب يحرص على تربيته وتنشئته بأحسن وجه .

لأن علياً (ع) كان يعيش في بيت الرسول (ص) ، فقد كان أكثر من غيره ترفناً لخصوصيات النبيِّ (ص) الأخلاقية ، وفضائله ، وصدقه ، ولذا سارع إلى الإيمان بنبوّة محمد (ص) عن بصيرة كاملة في أمره وهو في العاشرة من عمره ، وبهذا حاز هو الآخر قصب النبق من الرجال ، فكان أول رجل آمن بالله ورسوله^(٣) .

بعد أن دخل النبي (ص) المدينة المنورة ، وبنى المسجد الذي هو في الواقع مركز الدعوة ، وجّه عنايته الشريفة إلى البنية الاجتماعية للمسلمين فأرسل دعائم الأخوة بينهم .

كان عامل الأخوة هذا يُنسي المهاجرين مرارة الهجران ، ويقدم لهم الدليل على أنهم وإن كانوا قد خسروا أهلهم ووطنهم إلا أنهم ربحوا إخواناً أوفياء أوداءً ، ولذا لم يكتفِ النبي (ص) بالأخوة العامة التي تربط بين المسلمين بل تعدّها إلى الإخاء بين كل اثنين منهم بعقد خاص .

وكان أن اختار لنفسه علياً (ع) أخاً وقال : هذا أخي^(٤) .

(١) سيرة ابن هشام/ج ١ ، ص ١٩٢-١٩٨ ط ، مصر .

(٢) نفس المصدر/ج ١ ، ص ٤٦ ، وبحار الأنوار/ج ١٨ ، ص ٢٠٨ .

(٣) الغدير/ج ٣ ، ص ٢١٩ .

(٤) سيرة ابن هشام/ج ٢ ، ص ٥٠٤ .

قال الإمام الصادق (ع) : « من حق المؤمن على أخيه المؤمن أن يشبع جوعته ، ويواري عورته ، ويفرّج عن كربته ، ويقضي دينه ، فإذا مات خلفه في أهله وولده » (١) .

وفي السنة العاشرة للهجرة ، وفي صحراء الحجاز وهي تشهد جمعاً غفيراً من الحجيج ، وكلهم يسيرون بشعار واحد نحو هدف واحد ؛ تلك السنة تميّز الحج بحرارة خاصة ، والمسلمون يقطعون المسافات ويجتازون المنازل بسرعة وشوق .

صوت التلبية يتعالى في صحراء مكة ، وهذه القوافل تقترّب من أمّ القرى الواحدة بعد الأخرى ، والحجاج بثياب الإحرام ذات اللون الواحد . . علاهـم غبار الطريق ، جاءوا ليلقوا بأنفسهم في أحضان بيت الله الحرام طائفين حوله . . ذلك البيت المقدس الذي شيّد على يد أبي الأنبياء خليل الله إبراهيم (ع) . . والذي جعله الله سبحانه أمناً لعباده في الأرض .

وترى وجه النبي (ص) حينها تعلوه أمارات السرور والارتياح على هذه النعمة ، فلقد استطاع أن يؤدي الرسالة على أكمل وجه ، ولكن بالرغم من ذلك نرى في وجهه (ص) هالةً من الحزن والأسى العميق تطفئ على بشاشته وسروره ، ويتقضي موسم الحج . . ويتفرّق الناس . . كلُّ باتجاه بلده وأهله . . وفي الصحراء حدثت مفاجأة . . منادى النبي (ص) يدعون المسلمين للرجوع إليه . . فماذا حدث ؟ .

إنه الأمين جبرائيل يرد على رسول الله (ص) ويبلغه قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الرُّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ ، وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ ، وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ ، إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴾ (٢) .

ولم يكن الناس يعلمون لماذا صدر إليهم هذا الأمر وأي موضوع مهم استجده .

(١) الكافي / ج ٢ ، ص ١٦٩ .

(٢) سورة المائدة ، الآية ٦٧ .

وسرعان ما يعلن الرسول الصلاة جامعةً وبعد أداء فرض الظهر صعد النبي الأكرم (ص) الذي كان قد أعدّ من أقتاب الإبل ليقول : « . . . أيها الناس قد نبأني اللطيف الخبير أنه لم يعمر نبيّ إلا مثل نصف عمر الذي قبله ، وإنّي أوشك أن ادعى فأجيب ، وأنتم مسؤولون فماذا أنتم قائلون ؟ .

قالوا : نشهد أنك قد بلّغت ونصحت وجاهدت فجزاك الله خيراً .

فقال : ألستم تشهدون أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، وأن جنّته حق ، وناره حق ، وأن الموت حق ، وأن الساعة آتية لا ريب فيها ، وأن الله يبعث من في القبور ؟ .

قالوا : بلى ، نشهد بذلك .

قال : اللهم اشهد . . إلى أن قال (ص) بعد أن أخذ بيد عليّ فرفعها حتى بانّ بياض إبطيهما : « أيها الناس ، من أولى الناس بالمؤمنين من أنفسهم ؟ .

قالوا : الله ورسوله أعلم .

قال : إن الله مولاي ، وأنا مولى المؤمنين ، وأنا أولى بهم من أنفسهم ، فمن كنت مولاه فعليّ مولاه . (قالها ثلاث ، وقال ابن حنبل قالها أربع مرّات) .

ثم قال : اللهم وال من والاه ، وعاد من عاداه ، وأحب من أحبّه ، وأبغض من أبغضه ، وانصر من نصره ، واخذل من خذله ، وأدر الحق معه حيث دار . ألا فليبلغ الشاهد الغائب ثم لم يتفرقوا حتى نزل أمين الله بقوله : ﴿ اليوم أكملت لكم دينكم ، وأتممت عليكم نعمتي ، ورضيت لكم الإسلام ديناً ﴾ (١) .

فقال رسول الله (ص) : « الله أكبر على إكمال الدين ، وإتمام النعمة ، ورضي الربُّ برسالتى والولاية لعليّ من بعدي ؛ ثم طفق القوم يهتفون أمير المؤمنين (ع) وممن هناك في مقدم الصحابة الشيخان أبو بكر وعمر كل يقول :

(١) سورة المائدة، الآية ٣.

بخ، يخ لك يا بن أبي طالب أصبحت وأمسيت مولاي ومولى كل مؤمن ومؤمنة»^(١) .

ينبغي للبصير من المسلمين أن يقسم بالنبى الأكرم (ص) على الله لأمر مهم من مثل التوفيق للعبادة ، ومساعدة الضعفاء والمساكين ، أو إنجاز عمل يدرُّ عليه رزقاً كثيراً يحفظ به نفسه وعياله من السؤال .

ولا يجدر به أن يقسم على الله بدعوات تافهة وهو جالس في داره فاغر فمه ، من مثل الدعوات التي يطلب فيها طعاماً شهياً ، أو امرأةً حسناء وما إلى ذلك ، بل يجب عليه أن يدعو بدعاء معقول ، فالقسم بالنبى (ص) وآله الأطهار (ع) أمر مهم ، لذا لا ينبغي أن يكون من أجل رئاسة أو تسلط في الدنيا على عباد الله ، لكون الدنيا بمجمليها لا تساوي قيمة جناح بعوضة .

ولا أريد التقليل هنا من قيمة الدعاء ، وأن الله أمر موسى (ع) أن يدعو حتى على تهيئة ملحه ، لكون الدعاء يقرب الإنسان زلفى من الله ويجعله دائم الذكر والاتصال بالخالق البارئ .

ولكن لا يجدر بالمرء أن تكون الدنيا كل أمره ، ومن كان كذلك شئت الله أمره ، ومن كانت الآخرة همُّه الأساسى أصلح الله ديناه وآخرته .

أما بالنسبة لزواج الرسول من خديجة فلا بأس أن نتعرض هنا وبالذات في هذا الفصل الذي خصصناه بالرسول الكريم (ص) في مختصر مفيد :

كانت خديجة (ع) امرأةً ثريةً ، وقد قام الإسلام بثروتها وبسيف عليّ ، فتكون بذلك قد فدت نفسها وثروتها من أجل أن يشيع النهج الإلهي الحنيف ليشمل العالم بأسره ، وقد تحملت خديجة مشقة كبرى في أثناء الحصار الذي قام به الكفرة للمسلمين ، في شعب أبي طالب ، فحملت الطعام مراراً وتكراراً إليهم وبذلت الغالي والنفيس من أجل الرسالة والرسول (ص) ، وقد استغل بعض اليهود ذلك الرضع ، فاقترحوا على خديجة شراء قرية ومزرعة منها. مقابل

(١) النص مأخوذ من الغدير/ج ١ ، ص ١٠ - ١١ .

حمل من تمر ، فقبلت اقتراحهم ذلك ، وكلفت صهرها لنقل التمر إلى شعب أبي طالب .

لقد طالت أيام الحصار لتصل إلى ثلاث سنين ، فيموت فيها الكثير من الرجال والنساء والأطفال ، ناهيك عن وفاة أبي طالب وخديجة في العام الأخير ، فيقطع بين بذلك جناحي الرسول الأكرم (ص) ليسي ذلك العام بعام الحزن .

كتب الحلبي وابن هشام في سيرتهما : دخل الرسول يوماً إلى منزله فاستقبلته ابنته الزهراء - سلام الله عليها - وما إن لاحظت الدماء تسيل من قدميه ، والتراب يعلو وجهه ورأسه حتى أجهشت بالبكاء ، وخرجت إلى خارج الدار ، وقالت : لو كان أبو طالب حيّاً لما تجرّأ أحد على فعل ذلك .

ولقد استعمل المشركون وأتباعهم كل الأساليب اللاإنسانية من تهمة رخيصة ، وسبّ مقذع وحصار اقتصادي ومالي وتعذيب نفسي للرسول الأكرم (ص) وأتباعه المسلمين ، وقد روي عن جابر أن رسول الله (ص) مرّ بعمار وأهله يعذبون في الله ، فقال : « أبشروا آل ياسر ، فإن موعدكم الجنة »^(١) ، يقول ابن الأثير : كان المشركون يعذبون عماراً وأباه وأمه أشد العذاب ، وذلك بإخراجهم إلى الأبطح إذا حميت الرمضاء - الأرض - يعذبونهم بحرّ الشمس الملتهية ؛ وكانت سمية - رضوان الله عليها - أول شهيدة في الإسلام بعد أن ضربها أبو جهل بحربة وقتلها ؛ كما قتل ياسر هو الآخر تحت التعذيب الوحشي .

وشدّدوا العذاب على عمار نفسه بالحر تارة وبوضع الصخرة على صدره أخرى وهم يريدون أن يسبّ محمداً (ص) ويظهر الكفر وهو يمتنع عن ذلك حتى أجابهم إلى ما يريدون تقيّة منهم ، وكان قلبه مطمئناً بالإيمان كما تقول الآية المباركة التي عرضت لهذا الأمر وبذلك نجا من الموت الذي كان ينتظره على أيديهم^(٢) .

(١) أعلام الوري/ص ٤٨ .

(٢) الكامل لابن الأثير/ط. بيروت، ج ٢ ، ص ٦٧ .

ومن جملة من عذب (بلال) الحبشي ، وكان عبداً قد أسلم على يد رسول الله (ص) وكان مولاه إذا حميت الشمس وقت الظهيرة يلقى في الرمضاء على صدره ويقول له : لا تزال هكذا حتى تموت أو تكفر بمحمد وتعبد اللات والعزى ، وكان صابراً على تحمل كل ذلك العذاب والتهديد ولا يجب إلا بكلمة واحدة يكررها ويقول : أحد أحد^(١) .

لقد تمكن الرسول الأكرم (ص) من السيطرة الكاملة على الحجاز بعد مرور (١٠) سنوات على بداية دعوته . وإن أيامه التي يمكن أن تعد سعيدة كانت في المدينة المنورة على الرغم من إكراهه على القتال في (٧٤) غزوة وواقعة .

لقد كانت أغلب تلك الغزوات تدار بيد يهودية ، ويمكن القول : إن الجميع من مشركين ومنافقين يعدون ضمن اليهود الذين قال الله فيهم : ﴿ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّنَّ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴾^(٢) .

قال رسول الله (ص) : « . . . أما بعد أيها الناس فما تنكرون من موت نبيكم ، ألم أنع إليكم ، وتنع إليكم أنفسكم ، لو خلد أحد قبلي ثم بعث إليه لخلدت فيكم ، ألا إني لاحق بربي وقد تركت فيكم ما إن تمسكنم به لن تضلوا كتاب الله تعالى بين أظهركم تقرؤنه صباحاً ومساءً ، فلا تنافسوا ولا تحاسدوا ولا تباغضوا وكونوا إخواناً كما أمر الله ، وقد خلقت فيكم عترتي أهل بيتي وأنا أوصيكم بهم . . »^(٣) .

وقال (ص) أيضاً : « إني تارك فيكم الثقلين ، ما إن تمسكنم بهما لن تضلوا بعدي وأحدهما أكبر من الآخر ، كتاب الله جمل ممدود بين الأرض والسماء ، وعترتي أهل بيتي ، ألا وإنهما لن يفترقا حتى يردا عليّ الحوض »^(٤) .

(١) نفس المصدر/ص ٦٦ .

(٢) سورة البقرة، الآية ٦١ .

(٣) أمالي الشيخ المفيد/ص ٣٧ .

(٤) كنز العمال/ج ١ ، ص ١٧٢ .

قال رسول الله (ص): « من قرأ القرآن ، فظن أن أحداً أعطي أفضل مما أعطي ، فقد حقر ما عظم الله ، وعظم ما حقر الله »^(١) .

قال الإمام الصادق (ع) : لقد تجلّى الله لخلقه في كلامه ، ولكنهم لا يبصرون^(٢) .

قال رسول الله (ص) : « إن أئمتكم قادتكم إلى الله فانظروا بمن تقتدون في دينكم وصلاتكم »^(٣) .

وقال أمير المؤمنين (ع) فيما أجاب به طلحة : « ... إن أخذتم بما فيه نجوتم من النار ، ودخلتم الجنة ، فإن فيه حجتنا ، وبيان حقنا ، وفرض طاعتنا ... »^(٤) .

اللهم إنا نشكو إليك غيبة نبيّنا ، وكثرة عدوّننا ، وتشتت أهوائنا فاحملنا على عفوك ، ولا تحملنا على عدلك بحق محمد وآله الطاهرين .

(١) وسائل الشيعة/ج ٤ ، ص ٨٢٧ .

(٢) بحار الأنوار/ج ٩٢ ، ص ١٠٧ .

(٣) بحار الأنوار/ج ٨٨ ، ص ٩٩ .

(٤) الاحتجاج/ج ١ ، ص ٢٢٥ .

سير إلى الله

إن عالم الوجود في حركة دائبة ، وإنه لا بد أن ينتهي إلى الحق تعالى ، وإن الإنسان سلك ثلاثة طرق ، فكان بذلك ثلاثة مجموعات أو أقسام :

١ - القسم الأول : الأفراد الذين عرفوا واهتدوا إلى الجادة الصواب ، فساروا عليها ، وكانت تلك الجادة هي نفسها التي سار عليها الأنبياء والرسل والأئمة والصالحون والشهداء : ﴿ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصَّادِقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا ﴾ (١) .

وقد عرضنا في الصفحات السابقة إلى الصراط المستقيم وكيف أن الناس يختلفون في عبورهم عليه ، فمنهم من يمرُّ عليه كمرِّ الريح ؛ ومنهم من يمرُّ عليه مرًّا السحاب ، ومرًّا الخيل وما إلى ذلك .

وإن انتهى هذا السير في الدنيا قد يؤول إلى رحمة الله والفوز برضوانه من خلال الابتعاد عن المعاصي وتجنب الآثام وما يغضب الله - جلَّت أسماؤه - بعيداً عن هوى النفس وأوهامها التي تؤدي بالإنسان إلى الانحطاط والتدنّي والسقوط في الهاوية بعد الاضطراب الذي قد يحدث في السير على الصراط المستقيم .

وقد حدثتنا الروايات المتواترة : أن الإنسان قد يسقط في جهنم ، ولكنه يتمكن من الخروج ، وهي كناية عن سقوط الإنسان في الرذيلة في الحياة

(١) سورة النساء، الآية ٦٩ .

الدنيا ، وتمكنه من الخروج على تلك الحالة ليصير إلى سلوك الجادة الصواب التي بيّنها لنا الله تعالى في كتابه الكريم وترجمها لنا رسوله (ص) في مجمل أحاديثه .

وقد يشعر البعض من خلال سيره على الطريق القويم بأن نفسه مطمئنة للقاء الباري تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّفْسُ الْمَطْمَئِنَّةُ ارجعي إلى ربك راضيةً مرضيةً ﴾ (١) .

ونقرأ في الروايات عن بعض الأفراد الذين يردون الجنة مذهولين كالعاشق الواله ولا يوجد في قلوبهم إلا الله تعالى فلا يرون غيره ، ولا يسمعون كلاماً إلا كلامه ، ليقون في ذهولهم وحيرتهم عدة آلاف من السنين حتى لكان الحور العين تشكو إلى الله منهم لعدم اهتمامهم واعتنائهم بما حولهم ، كأنهم غارقون في مقام الألوهية ولا شيء غير ذلك .

هكذا أفراد اهتموا إلى الصواب في الحياة الدنيا ، وساروا على الطريق المستقيم ، طريق الإسلام الحنيف ، فاستمعوا إلى رسول الله (ص) وامتثلوا لأوامره ، وأوامر الأئمة الأطهار من بعده ، وهم من سُمّاهم القرآن الكريم بـ « أصحاب اليمين » .

أما الذين سبقوا أصحاب اليمين إلى مراتب ودرجات أسمى ، وسمهم القرآن الكريم بـ « السابقين » .

٢ - القسم الثاني : أصحاب الشمال وينقسمون قسمين :

أ - قسم عرف الطريق الصواب ، ولكنهم لبسوا العناد واللجاجة ، فانحرفوا عن ذلك الطريق « وسَمُوا باسم المنافقين » .

ب - وقسم لم يهتد إلى جادة الصواب بسبب قصوره أو تقصيره ، ولكنهم لبسوا من العناد في شيء وهم « الضالون » .

وقد سُمّي القرآن الكريم هذين القسمين من الناس بـ « أصحاب

(١) سورة الفجر، الأيتان ٢٧ و ٢٨ .

الشمال ، ، وإن لهم لمراتب مختلفة فقد يكون انحراف البعض منهم أقل من صاحبه ، ولكن يبقى القسمان غير مباركين ، وإن طبقات النار السبعة تنتظر قوافلهم ﴿ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ ﴾ (١) .

٣ - القسم الثالث : هم ﴿ المغضوب عليهم ﴾ والذين أو ﴿ وضربت عليهم الذلَّة والمسكنة وباءوا بغضبٍ من اللّهِ ﴾ (٢) .

هؤلاء يموتون والشك والشبهة تعتمر في قلوبهم فيدخلون جهنم مع قلوبهم واضطرابهم ﴿ لا يزالُ بنيانهم الذي بنوا ريبةً في قلوبهم إلا أن تقطع قلوبهم ﴾ (٣) .

وبهذا يدخلون مداخل الشك من خلال ذلك الاضطراب الذي لازمهم . والشك الذي كان أوضح سماتهم ﴿ ومن يُشرك بالله فكأنما خرَّ من السماء فتخطفه الطير ، أو تهوي به الريحُ في مكانٍ سحيقٍ ﴾ (٤) .

إن هؤلاء الذين عدناهم من القسم الثالث ، ضعفاء القلوب تسلطت الأوثان والأصنام على قلوبهم ، فحب الدنيا والتكبر والغرور والعجب والأمانى والحسد كلها أصنام متمثلة في صفات رذيلة .

فتراهم دائمي القلق والاضطراب لا يهدأ لهم خاطر ، وفجأة ينتقلون إلى العالم الآخر ، فينتبهون إلى ما كانوا فيه ؛ ولكن الوقت ، قد قطعهم ولا مجال للرجوع إلى الحياة الدنيا ليصلحوا ما كان في قلوبهم المترددة المضطربة ، وقد كان اضطرابهم راجعاً إلى تعدد آلهتهم التي ذكرنا (الحسد ، الكبر ، الطمع ...) .

فلو كان الإنسان يعبد إلهاً واحداً فرداً صمداً ، لن يرى إلا سائراً على صراط مستقيم وقلب مطمئن ، لأنه تعالى يمنح الذي يركن إليه ارتياحاً خاصاً

(١) سورة النساء، الآية ١٤٥ .

(٢) سورة البقرة، الآية ٦١ .

(٣) سورة التوبة، الآية ١١٠ .

(٤) سورة الحج، الآية ٣١ .

بعيداً عن القلق والاضطراب .

قال الله تعالى في محكم كتابه : ﴿ لا يزال الذين كفروا تصيهم بما صنّوا قارعاً ﴾ (١) أي أن الذين كفروا دائماً يصابون بالدواهي التي تدخل الاضطرابات النفسية والأمراض العصبية ضمنها ، ناهيك عن إصابة أبنائهم وأزواجهم أو من هم أقرباؤهم الذين يرتضون لهم أعمالهم الكافرة .

فالذي يكون مصاباً بالقلق والاضطراب والشك في هذه الدنيا سيكون في الآخرة أيضاً على ما هو عليه الآن من الشك والضلالة .

وإن المضطرب في الحياة الدنيا لا يمكن أن يميز بين الحق والباطل ، أو لا يتمكن من التمييز بين الظلمة والنور مثله كمثل الأعمى الذي لا يفرق بين الليل والنهار .

وهذه الحالة جاءت من الإعراض عن ذكر الله تعالى : ﴿ ومن أعرض عن ذكرّي فإنّ له معيشةً ضنكاً ونحشره يوم القيامة أعمى ﴾ (٢) ، ﴿ ومن كان في هذه أعمى فهو في الآخرة أعمى وأضل سبيلاً ﴾ (٣) .

ومصاديق الإعراض عن الذكر عدم الصلاة ، أو عدم إتيانها في أوقاتها ، أو الاستخفاف بها وهذا ما يجرّ على الإنسان قوارع ومصائب ومعيشةً ضنكاً ؛ ومن وصل إلى هذه الحالة ضلّ وانحرف وسقط في مهاوي الرذيلة ؛ فتراه دائم القلق والاضطراب بعيداً عن راحة البال والهدوء النفسي .

أما ذلك الإنسان الذي سلك الطريق المستقيم بعيداً عن الرذائل والمعاصي تراه سعيداً مطمئن البال والخاطر بسبب ركونه إلى خالقه تعالى الذي سخّر له ما في السموات والأرض ، وعندها لا يهتم إلا للرباطه مع البارئ تعالى بعيداً عن الملوك للسلطين والرؤساء وما إلى ذلك .

يقال إن أحد الفلاسفة كان ينزل منزلاً من خمير الخلّ ؛ وحينما قدم

(١) سورة الرعد، الآية ٣١ .

(٢) سورة طه، الآية ١٢٤ .

(٣) سورة الإسراء، الآية ٢ - ٧ .

الإسكندر المقدونيّ إلى تلك الولاية ذهب الناس جميعاً لزيارته إلا ذلك الفيلسوف فقال الإسكندر : سأذهب أنا لرؤيته ، وفي الوقت الذي أراد الفيلسوف إخراج رأسه من خمير الخَلِّ ليصيب بعض أشعة الشمس حضر الإسكندر لزيارته فأصاب ظلُّه رأس الفيلسوف . وبعد أن تحدث الإسكندر إليه ، طلب منه أن يقول حاجته فقال : إن حاجتي تكمن في إبعاد ظلك الظليل عن رأسي لآتمتع قليلاً بأشعة الشمس !؟ .

يقال : إن أحد العرفاء كان له دكاناً في سوق بغداد ، فجاء إليه أحدهم في أحد الأيام ليقول له : احترق سوق بغداد كله إلا دكانك لم تصبه النار بالمرة ، فقال : ﴿ الحمد لله رب العالمين ﴾ .

وبعد ساعة انبه إلى أن قوله ﴿ الحمد لله رب العالمين ﴾ يعني الحمد لله لعدم احتراق دكاني ، والحمد لله على احتراق دكاكين الآخرين ، فانزعج كثيراً ، وظل يستغفر الله على مدى (٣٠) سنة وهو يقول : إلهي أتوب إليك من تلك ﴿ الحمد لله رب العالمين ﴾ .

يقول البعض : « إذا متُّ عطشاناً فلا نزل القطر » .

ولو قال ذلك العارف هذه الجملة لمات من ساعته ، وحينها لن يتأتى له قول إلهي أسأت ، وتبت إليك .

ولو فتحت في قلوبنا فتحة لشاهدنا قول : ليغطي الماء تمام المعمورة ، وليفرقها شريطة أن لا يصيب بيتي ما يمكن أن يضر بي ! وهذا هو عين الانحراف الحاكم على قلوبنا ، والأمر لنا ، بالرغم من ادعائاتنا التي يفهم منها بأننا على الصراط المستقيم سائرون .

جلس رجل أعمى البصيرة في مجلس الرسول (ص) وجاء آخر لكنه أعمى البصر ، ليجلس في ذلك المجلس إلى جنب أعمى البصيرة ، فابتعد بعض الشيء - وكان رجلاً متمولاً ثرياً - فانتعض الرسول الأكرم (ص) من ذلك الفعل وقال لأعمى البصيرة : لِمَ فعلت ذلك ؟ أتخاف أن يسري إليك فقرُّ هذا الأعمى أم تخاف أن يسري شيء من ثروتك إليه ؟ فقال : أنا منتعد للتنازل عن

نصف ثروتي لهذا الفقير كيما ترضى عني ! فالتفت الرسول (ص) إلى ذلك الفقير الأعمى البصر ، وقال له : هل تريد نصف ثروة هذا الرجل ؟ .
فقال : لا .

فقال (ص) : ولم؟ .

فأجاب : أخاف على نفسي الاغترار بشروتي ، فأصبح مثل صاحبنا وبذلك أكون أعمى البصيرة ، إضافة إلى عمى بصري^(١) .

قيل لأحد قادة جيش (ص) : عندما تذهب إلى قتال العدو عليك أن تتزيّن بعض الشيء وتلبس لباساً جديداً ، وتركب أحسن وأفضل الخيل ليهايك العدو ، وما إن فعل ذلك وسار عدة خطوات حتى صرخ ونزل عن دابته قائلاً : إن فعلي ذاك أشعرنى بالكبر والعجب والزهو .

وترى في أيامنا هذه بعض الأفراد يتكبرون ويصيرون جهنمين بسبب حصولهم على ماجستير في علم الحيوان أو دكتوراه في علم الفلك ، وما إلى ذلك ؛ فالماجستير الذي يوصل الإنسان إلى هكذا حالة ، لا يمكن أن يسمح لصاحبه بطاعة الأبوين ، والإنسان الذي نال شهادة الدكتوراه ورأى نفسه قريباً من القمر والنجوم لا يتأتى له إلا أن ينعت أباه بالرجعية والتخلف ؛ وعجباً لهم ولعلمهم الذي يؤدي بهم إلى الانحراف والضلالة ، على الرغم من سماعنا إلى أن العلم يرقى بالإنسان ويسمو إلى حيث الدرجات العلى ، إذن ما كان لدى هؤلاء المتكبرين ليس علماً ، بل ضياعاً وانحرافاً وسقوطاً وتساقلاً في أسفل جهنم الحاملة .

لذا يجب علينا أن نشفق على أنفسنا ونترحم ونبحث عن الطريق المستقيم ، طريق محمد (ص) وأهل بيته الأطهار - سلام الله عليهم - .

يقول علماء الأخلاق : على الإنسان أن يكون مثل ذلك الذي يرافق الفيل ؛ ومن يرافق الفيل شخص بيده مطرقة يستعملها دائماً في ضرب رأس الفيل ، فإذا غفل عن ضربة واحدة ، ألقى الفيل بنفسه وبصاحبه في أتعس

(١) كحل البصر/ص ٦٨ .

المطبّات ، وعليه ينبغي للإنسان أن يراقب نفسه الأثارة بالسوء ويدمّر ردها
وصدعها كيما لا تنحرف عن الصراط المستقيم والطريق القويم الذي سلكه ويُنه
لنا أهل بيت الرسالة النبوية الشريفة .

إن النفس البشرية إذا لم تراقب طغت أبعادها الحيوانية على أبعادها
الإنسانية ، وحينما يكون الأمر كذلك تنحرف عن جادة الصواب إلى جادة
الضلال ، وحينها تنعت بالنفس الغافلة .

وإذا غفلت النفس هان عليها اللغو والاستماع له ، وتساهلت في أمر الغيبة
والنميمة وما إلى ذلك من القضايا التي أمرنا الله باجتنابها وتركها والابتعاد عنها .
وتأتي كثرة الكلام واللغو في الحديث من التوغل في الشبهات بعيداً عن
ذكر الله - جلّت أسماؤه - .

إن القاعدة الأولى التي يلتزمها العرفاء يعلمونها لمريديهم هي : « إِيَّاكَ
إِيَّاكَ من التوغل في المشتبهات ، وإِيَّاكَ إِيَّاكَ من كثرة الكلام ، وعليك عليك
بذكر الله بذكر الله » .

إن التكرار في مجمل العبارات إحدى القواعد العرفانية .

وقد لاحظنا هذه المسألة في مجمل آيات القرآن المجيد الذي هو
كالمعمل الذي يصنع البشر ، وكالكتاب الأخلاقي الذي يمتاز بالتكرار في
المسائل المهمة والخطيرة .

ويصدد التكرار الذي جاء في آيات القرآن المجيد اختلفت النظريات ،
فترى البعض يقول بعدم تكرار فيه .

وقد يكون السبب في مقولته : الابتعاد عن المتاعب التي قد ترتب على
تلك المقولة ، ونرى بعضاً آخر قضى ساعات وأياماً وشهوراً طوالاً ولم يتوصل
لتوجيه لذلك التكرار .

ويقول قائد الثورة الإسلامية ومؤسس جمهوريتها: إذا لم يكن هنالك تكرار
أحتسب الأمر ناقصاً - والعياذ بالله - فلا بدّ من التكرار في آيات القرآن ، لكونه
كتاباً أخلاقياً محضاً ، والمسائل الأخلاقية تحتاج إلى تكرار دائم كيما تأخذ

القيم والمثل موقعها الصحيح من النفس البشرية .

ونقول : « الدرس حرف ، والتكرار ألف » أي أن الدرس الذي يلقي علينا أو نلقيه على الآخرين يجب أن يكرره السامع ويتذكره مع أصحابه ليتأكد في أعماق النفس ويقول العرفاء : إن درساً أخلاقياً واحداً في الأسبوع كاف جداً بشرط أن يكرر السامع ذلك الدرس على نفسه عدة مرات من خلال التمارين والمذكرات .

وإذا كان الشيخ الأنصاري - عليه الرحمة - الذي كتب كتباً تعدُّ دوائر معارف للمجتهدين والمراجع يستمع أسبوعياً إلى محاضرة أخلاقية يلقيها أحد تلامذته ، ثم يعقب على تلك المحاضرات بقوله : إن قلوبنا علاها الصدا وما علينا إلا أن نحضر محاضرة الأخوند الهمداني في الأسبوع القادم - هذا على سبيل المثال - كيما تتمكن من جلي الصدا عن قلوبنا .

ويقول أيضاً : إن محاضرة واحدة في الأسبوع كافية ، مشروطة بتكرار المحاضر والسامع لها ، كي تأخذ العبارات الأخلاقية مساراً في النفس البشرية ، فتحيلها إلى نفس ملتزمة مطيعة عاملة ، ولا يقف الأمر عند هذا ، بل يتعداه إلى العمل بما كرر من معان أخلاقية ، ولا بأس أن يحدد الإنسان ساعة في كل (٢٤) ساعة لهذا التكرار الأخلاقي .

يقول أحد العلماء الكبار : « لا أعرف السبب في احتياج الفقه والأصول والفلسفة والعلوم الطبيعية وعلم الجفر إلى أساتذة ، ولا يحتاج علم الأخلاق بظرافته ولطافته ودقته إلى أستاذ ؟ ! » .

أقول لكم : إنكم ترومون شهادات ، ونيل الشهادة الدراسية يتطلب رؤية الأساتذة ، وعمل التمارين ، وتكرارها ؛ ولكن هل علم الأخلاق أقل من تلك العلوم في نظركم ، حتى لا يحتاج إلى متابعة وتكرار وأستاذ ؟ .

إننا - مع الأسف - نهتمُّ بجميع الأمور باستثناء تلك التي هي لازمة لحياة سعيدة ! .

إن في آيات القرآن الكريم تكراراً واضحاً ، وينبغي أن يكون كذلك ،

وإذا انعدم ذلك فيه عدُّ ناقصاً - والعياذ بالله - ، وقد تستمعون إلى تكرار بعض الجمل مني ، ولا تظنّون بأنها مكررة ، ولا يعلق على ذلك بشيء .

أما بالنسبة لآيات القرآن الكريم ، فليس بهذا الشكل مطلقاً ؛ فقد يطول البحث في آية قرآنية واحدة عاملاً واحداً دون أن تكون تلك الآية مكررة .

وما التكرار الموجود في آيات القرآن الكريم ، إلا من أجل التمعن والتفكير في آية من الآيات على مدار أسبوع واحد في الأقل .

ومن هنا نفهم أن التمرين من مستلزمات الرسوخ ، وما التكرار إلا للتمرين والتوكيد .

قديمًا ذهب أحد العلماء إلى عيادة أحد الأطباء في أصفهان ولم يكن في كل أصفهان حينها غير طبيين لا يراجعهم أحد ، فيجلسان لقراءة القرآن الكريم كما يراجعهم أحد على عكس ما نراه اليوم من زحام على عيادات الأطباء الذي قد يطول زمانه على أحدهم ساعات وساعات ، وهذا هو من هدايا تمدن اليوم وحضارته .

على آية حال : جلسَ ذلك العالم في عيادة الطبيب حيث كانت قبله امرأة قروية تسعى لفهم مسألة من الطبيب ؛ وتقول : أيها الطبيب لقد وضعت النسخة التي كتبتها لي في الماء بعد أن سخّنته جيداً ، ثم شربت ذلك الماء ، ولم أر تغييراً يذكر على حالتي فما السبب في ذلك ؟ .

اغتاظ الطبيب وصاح بها : لقد قلت لك بتسخين الدواء الذي كتبتك لك على تلك النسخة ، والذي كان المفروض بك أن تشتريه من الصيدلية ، ولم أقل لك بتسخين النسخة في الماء !؟ .

إنك بعملك هذا تحرمين على نفسك لقمة الخبز التي يتعب بها زوجك من أجلك! أنه أعطاك الخبز لتأكله ولم يعلمك كيفية العيش ! .

فضحك من كان في العيادة وسخروا منها . وبعد ذلك نديم على فعلته وكتبَ نسخةً جديدةً وقال لها : أختاه هذه هي نسختك فاذهبي إلى الصيدلية الواقعة في المكان الفلاني ، واشتري هذا الدواء الذي كتبتك لك ، وحين تتناوليه

تشفين بإذن الله تعالى .

وجاءت نوبة العالم ليدخل على ذلك الطيب ويقول له : ما الذي فعلته
أيها الطيب المحترم ؟ .

فأجاب : بما الذي فعلت ؟ .

فقال العالم : لقد كان فعلك مع تلك المرأة القروية المظلومة سقوطاً ،
بل تساقلاً ، لأنك أهنّت امرأة مسلمة ، وأن الإمام الصادق (ع) يقول : « من
أهان ولياً فقد بارزني بالمحاربة »^(١) .

والمسألة الثانية أنك سخرت منها واستهزأت بها ، وأن الفرد لا يخرج من
الدنيا حتى يرى عاقبة أمره ذلك ، أو يتوب ويستغفر ؛ وقد قال الله تعالى في
محكم كتابه : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّنْ قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا
مِّنْهُمْ .. ﴾^(٢) .

أما السقوط الثالث الذي سقطته ، فهو قولك لها : « إنك بعملك هذا
تحرّمين على نفسك لقمة العيش التي يتعب بها زوجك من أجلك » وهذا كذب
محض ، وعلى العكس من ذلك ، فهي امرأة شيطنة تهتمُّ ببيتها وزوجها
وأولادها ، ولو تأتى لزوجها أن يتلف من أجلها كل مال الدنيا ، فهو قليل
بحقها ، لإخلاص فيها ، ورحمة على أولاده .

وعليه ينبغي للإنسان التحفظ فيما يقول ، فقد يؤدي به حديث أو جملة
واحدة إلى عدة منحدرات من قبيل التهمة والغيبة والكذب وما إلى ذلك من
العبارات النابية التي يراد منها إهانة خلق الله وعباده .

ومن خلال مطالعتنا لبعض الروايات عرفنا أن البعض من الناس يسعى
نورهم بين أيديهم يوم القيامة ؛ فمن الظلم أن يتلف الإنسان ذلك النور بكذبة أو
اتهام أو غيبة أو سخرية يريد بها دفع التعب عن كاهله ، فيسخر ويضحك
ويستهزئ بالآخرين . وإن الإنسان ليظلم نفسه عندما يؤتى به على هيئة كلب أو

(١) بحار الأنوار/ج ٧٥ - ص ١٤٢ - باب ٥٦ .

(٢) سورة الحجرات، الآية ١١ .

خترير أو نص . إنها جنايته على نفسه ، وليس لأحد في ذلك الأمر يد . فهو
الذي اتهم فلان . فأحاله إليّ في يوم القيامة إلى فرد أو خترير . وهو الذي سب
زيداً نصير إلى كلب في يوم كشف السرائر وولاتها .

لقد قال لي أحد العلماء - رحمه الله عليه - إن التذكير بدأ سيؤد إليه
الكاذب والسحر والمسحزي وما إلى ذلك يقصم انظهر . فتعالوا تسجد جميعاً
عن تلك الرغائب بعيداً عما يمكن أن نصير إليه .

اللهم اغفرني ما أنت أعلم به مني ، فإن عدت فعد عليّ بالمغفرة .

اللهم اغفرني ما وأيت من نفسي . ونم تجذبه وقلة عنتي .

اللهم اغفرني ما تقربت به إليك بلساتي ، ثم خالفه قلبي .

اللهم اغفرني رمزات الألفاظ . ومقتضات الألفاظ وشبهات الجسد .

وهفتات الناس .

سير إلى الله

موضوعنا هذا يدور حول أولئك الذين اهتدوا إلى الصراط المستقيم والطريق القويم .

والأخطار المحدقة بهم في سيرهم هذا ، أخطار خارجية وأخطار داخلية ، أخطار باطنية وأخطار يمكن أن تواجههم في مجتمعاتهم .

إن تلك الأخطار الخارجية والداخلية تحاصر الإنسان لتحرفه عن الجادة الصواب والطريق المستقيم .

وكما قلنا إن الطريقَ ذاك الذي سَمَّيناهُ الصراطَ المستقيمَ هو أدقُّ من الشعرة ، وأحدُّ من السيف ، وإن الغفلة لتحرفنا عن ذلك الصراط الدقيق ، فنصير حينها إلى ما لا تحمد عقباه .

فالفغلة خطر حقيقي يؤدي بالمرء في بعض أحيانه إلى الكفر .

وبناءً على ذلك ينبغي للإنسان أن يتنبه إلى ما هو فاعل وإلى ما هو قاتل كي يبقى سويًا في سيره إلى خالقه .

فما أكثر الذين أعرفهم من المقدّسين عند أغلب الناس وهم علماء ومثقفون آلت عاقبتهم إلى سوء من جراء انحرافهم الذي صاروا إليه لعدم التزامهم بعض الفرائض ، أو لإيغالهم في المعاصي والآثام ! .

إن العدوَّ الأول للإنسان ، وهو ما يمكن احتسابه عدوًّا باطنياً هو :

« الغفلة » ، فلو غفل الإنسان عن بعض الفرص الدنيوية لخسر ، وكانت خسارته مادية (دنيوية) ، أو قد تكون الخسارة معنوية .

فلو تغافل الإنسان أو غفل عن بعض الأعمال الخيرية خسر نفحةً من نفحات الله - جلَّت أسماؤه - .

قال (ص) : « اطلبوا الخير دهركم كله ، وتعرضوا لنفحات الله ، فإن الله نفحات من رحمته يصيب بها من يشاء من عباده »^(١) .

وقال أيضاً (ص) : « تعرَّضوا لرحمة الله بما أمركم من طاعته »^(٢) .

لقد شاهدنا في مجمل حياتنا الكثير من الرجال والنساء الغافلين الذين أذهبوا دنياهم سُدى ، وكذا الآخرة وما فيها من نعيم تُسدُّ أبوابها في وجوههم إذا غفلوا عن الخير .

وقد شبَّه القرآن الكريم الغافل عما يدور حوله من عظمة الله ونفحة خير له بأقل من الحيوان فقال : ﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا ، وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا ، وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا ، أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴾^(٣) .

فإذا استفدنا من هكذا آياتٍ ، وجعلناها على رأس أعمالنا نصل إلى ما نريد ، ولو تأتَّى لنا فعل ذلك من قبل لما وصلنا إلى ما نحن عليه الآن من مصائب وبلايا ولا بأس بقراءة هذه الآية يوماً لكي يخرج الإنسان من غفلته ، بعد أن يفكر في الوضع الذي سيؤول إليه يوم القيامة بغفلة ، فقد يضحي حماراً ليس إلا ، ويأتي إلى صفوف الحشر ليشاهده الناس على حقيقته التي جرَّته إليها الغفلة والتغافل .

إنها ألدُّ أعداء الإنسان ولو استولت عليه - لا قدر الله - آل البشر إلى ذلة ما بعدها ذلَّة .

(١) كثر العمال/خ ٢١٣٢٥ .

(٢) تنبيه الخواطر/ص ٣٦٠ .

(٣) سورة الاعراف، الآية ١٧٩ .

إن أغلب البشر ضاعوا في متاهات هذه الحياة الدنيا ، فتغافلوا وغفلوا عن الدين والمسائل المعنوية والأخلاقية ، بل إن الكثير منا لا يطور ذهنه وفكره المسائل المعنوية ، وعلى سبيل المثال ، يصلي ويصوم ويؤتي من أجل أن لا يدخل جهنم ولكنه لا يعرف شيئاً عن القضايا الأخلاقية أو المعنوية .

وإن ٩٠٪ من الناس لا يلتفتون إلى هكذا مسائل .

وهذه المسائل هي التي ستؤدي بالإنسان إلى أن يتحسر ويتأوه ويعض على بنانه عند الموت ، وفي حالة الاحتضار .

فهل فكر أحدنا بالتكبر الذي فينا ، وإلى أين سيؤدي بنا ؟ .

هل سأل أحدنا نفسه ما مصيرنا لو وصل الأمر أن تكون الصفات الرذيلة هي الحاكمة على أخلاقنا من قبيل الحسد والكذب والمنة ؟ .

هذه هي عين الغفلة !! .

نوم ما بعده نوم ، وغفلة ما بعدها غفلة ؛ الويل لنا من هذه الغفلة .

يقول رسول الله (ص) : « الناس نيامٌ فإذا ماتوا انتبهوا » (١) .

وعند ذلك لا يحتاج المرء إلى ديبلوم وبكلوريوس وماجستير ، لأن الجميع هناك يقظون متنبهون غير غافلين ولا نائمين ، فلا يحتاج أحد حينئذ إلى العلم لكون الجميع يرون بعضهم البعض ، بلا ستر ولا حجاب ، فيتعرفون أعمال بعضهم البعض وتسقط الخدود حياءً وخجلاً من رسول الله (ص) الذي سيكون حاضراً عندما يحاسب الباري أمته ؛ وهناك : ﴿ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا ، وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا وَيَحَدَّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ ﴾ (٢) .

قال أمير المؤمنين وسيد الوصيين علي (ع) : « الغفلة والغرور أشد سكرًا

(١) كنز العمال/ج ١٥ ، ص ٥٤٢ - ٥٥٨ ، كتاب الموات وأحوال تقع بعده .

(٢) سورة آل عمران ، الآية ٣٠ .

من الخمر»^(١) ، وقال الإمام الصادق (ع) : « إِيَّاكُمْ وَالْغَفْلَةَ ! فَإِنَّهُ مِنْ غَفْلٍ فَإِنَّمَا يَغْفَلُ عَنْ نَفْسِهِ ، وَإِيَّاكُمْ وَالتَّهْلُوكَ بِأَمْرِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فَإِنَّهُ مِنْ تَهْلُوكَ بِأَمْرِ اللَّهِ أَهَانَهُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ »^(٢) .

إن الروايات المتواترة تخبرنا بوضع الغافل عندما يطرق بابه ملك الموت بعد أن قضى عمراً طويلاً في الضلالة والانحراف ، قضى عشرات السنين مثله كمثل الأنعام بل كان أضلُّ منها ، يصحو صباحاً ليذهب إلى المدرسة أو الجامعة أو الدائرة وفي الليل يأكل غذاءه لينام ، أو ليقوم ثانية في اليوم التالي ليمارس نفس الأعمال التي مارسها بالأمس دون الالتفات إلى ما يريد الله منه ، وعند الاحتضار يقول : ﴿ رَبُّ اجْمَعُونِ لِعَلِّيْ أَعْمَلُ صَالِحاً فِيمَا تَرَكْتُ ، كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمَنْ وَرِثَهُمْ يَبْرَزْهُ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾^(٣) وعند ذلك يسأل عن شبابه فيمُ أبلاه ، وعن عمره فيما أفناه فلا يتاح له أن يجيب .

وبماذا يجيب ؟ .

إنه لم يعمل خيراً ، وإذا كان قد عمل خيراً ، فبِمَنَّةٍ وضعها في رقبة ذلك الرجل الذي قَبِلَ الخير منه .

إن الإنسان موجود مركب من بُعدين : بعد مادي ، وبعد معنوي ، وليس من الأنعام في شيء ، ولكنه يضحي كذلك حينما يغفل عن أمر الله تعالى ، ويجري خلف الماديات دون المعنويات ، ومن هنا تبدأ البليَّة والرزية ، فحال حال ذلك الذي يذهبون به إلى المحكمة ، وقبل بلوغ طاولَةِ المحاكمة بكرهونه على كتابة كل أعماله ويقرونه عليها ، ويشتون ذلك في ملفه الأسود ؛ هكذا يأتي المسيء إلى ساحة الحشر التي أعدها الجبار المتكبر .

وعند ذلك يطلب من البشر عرض أعمالهم ، فمن كان له عمل من أجل الآخرة نجا ، واخضرت بسايتيه ؛ ومن جاء بلا عمل إلا السيء منه غاب في ظلمات كبحر ليجي .

(١) غرر الحكم/ص ١٤ ، ص ٧٢ .

(٢) ثواب الاعمال/ص ٢٤٢ .

(٣) سورة المؤمنون ، الآية ١٠٠

﴿ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَإِلهِي الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾ (١) .

كان لقمان الحكيم غلاماً لأحد الناس ، وكان مولاه إنساناً جيداً ، ومن المعتقدين بالله - تعالت أسماؤه - ولكنه كان مغروراً ، وعند المساء نام الجميع وهدأت الأجساد ، ولم تمض إلا سويعات حتى فاق لقمان لصلاة الليل ، ولكنه لم ير أثراً لمولاه الذي يدعي الاعتقاد بالله ، فتعجب للأمر وذهب إليه وقال له : سيدي الجليل أفق من نومك لتصلي معاً صلاة الليل ، فقاظلة المصلين لم تغفل عن الأجر والثواب ، وهمسات سبح قدوس قد ملأت أرجاء الكون ، فانفض للصلاة يا سيدي ! .

فأجابه : ما أزال أحتاج إلى النوم ، فدعني ساعة ، وسأقوم بعدها وإن الله أرحم الراحمين . وصار الوقت إلى أول أذان الصبح ، فذهب إليه ثانية ، وقال له : قم لصلاة الصبح أول وقتها ، فأجابه : دعني أنام قليلاً وسأقوم بعد ذلك ، فإن الله أرحم الراحمين . وقرابة طلوع الشمس جاءه لقمان للمرة الثالثة ليقول له : انهض يا سيدي ، فالصبح قد لاح ، والديك قد صاح ولم يبق على الشروق إلا مسافة رمح واحد ، فأجابه : دعني يا هذا ! فإن الله أرحم الراحمين .

بزغت الشمس ، وصاحبنا غافل عنها يغط في نوم عميق ، ولم يفق من نومه تلك إلا عندما أحرقت أشعة الشمس ساقيه اللتين خرجتا من تحت غطائه . وفي الصباح أعطى لقمان حفنة من القمح وقال له : اذهب إلى المزرعة الفلانية وابذر هذه الحبوب هناك .

ومن أجل أن يعطي لقمان مولاه درساً ذهب إلى هناك وبذر حبوباً من « الدخن » ورجع ليخبره بذلك ، فقال له مولاه : هل جنت بفعلك هذا ؟ .

فقال لقمان : إن الله أرحم الراحمين ، وقد رأيت أن القمح ثمين والدخن غير ذلك فآثرت زراعة الأخير علناً نحظى بالقمح وإن الله أرحم الراحمين . فقال له مولاه : من أين تعلمت ذلك ؟ .

(١) سورة العنكبوت، الآية ٦٤ .

قال : منك يا مولاي لكونك تنام الليل كله ولا تصحو لصلاة الصبح
وتقول إن الله أرحم الراحمين ترجو بذلك الفوز بالجنة والرضوان وحوار العين
ونور يعلو وجهك في محشر يوم القيامة !! .

بل إن ما زرعته سوف تحصده ، فمن زرع قمحاً حصداً قمحاً ، ومن زرع
دخناً حصده والدنيا مزرعة الآخرة .

قال عزّ من قائل في محكم كتابه : ﴿ . . يَوْمَ الْمَجْرَمِ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابِ
يَوْمئذٍ بَيْنِهِ ، وَصَاحِبِيهِ وَأَخِيهِ ، وَفَصِيلَتِهِ الَّتِي تُأْوِيهِ ، وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً
ثُمَّ يَنْجِيهِ ، كَلَّا إِنَّهَا لَلظَى ، نَزَاعَةٌ لِلشَّوَى ﴾ (١) .

وهنا تبدو الحسرة والندامة على الغافلين حينما يرون المجموعات وقوافل
الشهداء والصالحين ومن حسنت رفقته مشغولين بالورود إلى جنة المأوى ،
يسعى نورهم بين أيديهم ؛ ﴿ يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ
أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ،
ذَلِكَ النُّورُ الْعَظِيمُ ﴾ (٢) .

إنهم لم يحظوا بذلك اعتباطاً ، بل لأنهم كانوا مؤمنين ، أقاموا الصلاة
وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ، وصدقوا وعفوا أفواههم
وبطونهم وفروجهم عن الحرام فجعل لهم - تعالت أسماؤه - نوراً يسعى بين
أيديهم وبأيمانهم ، وبشّرههم بجنات تجري من تحتها الأنهار ؛ إنهم كانوا
مكابدين ومجاهدين وعاملين على علم ، فأرضاهم الباري بأن جباهم فوزاً
وسعادةً وخلوداً .

أما الذين لم يعملوا خيراً في حياتهم فتراهم يلتمسون الفائزين ﴿ يَوْمَ
يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ ، قِيلَ
ارْجِعُوا وَرَائِكُمْ فَالْتَمِسُوا نُوراً ، فَضُرِبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ لَهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ
وظَاهَرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ ، يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ ، قَالُوا بلى ولكنكم فتنتم

(١) سورة الماعز ، الآيات ١١ - ١٦ .

(٢) سورة الحديد ، الآية ١٢ .

أَنْفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ حَتَّى جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُمْ بِاللَّهِ
الْغُرُورُ ﴿١﴾ .

يوم يقول المنافقون والمنافقات للذين آمنوا انظرونا ، أي انظروا إلينا ،
فإذا نظروا إليهم استصاؤا بنورهم ، أو انتظرونا لأنهم يمضون كالبرق الخاطف
إلى الجنة (وقرىء بهمزة وكسر الظاء) أي أهملونا (نقبس) نأخذ قبساً (من
نوركم) فقليل لهم تهكماً بهم (ارجعوا وراءكم) إلى المحشر حيث أعطينا النور
(فالتمسوا نوراً) أو إلى الدنيا فاطلبوه بالإيمان والطاعة (فضرب بينهم) بين
الفريقين (بسور) بحائط (له باب باطنه) باطن السور أو الباب (فيه الرحمة)
بالجنة للمؤمنين (وظاهره من قبله) من جهته (العذاب) بالنار للمنافقين
(ينادونهم ألم نكن معكم) أي أننا كنا موافقين لكم ظاهرياً (قالوا بلى ولكنكم
فنتم أنفسكم) بالنفاق (وتربصتم) بالمؤمنين الدوائر (واتبتم) وشككتم في
الدين (وغررتكم الأمانى) الآمال الطوال (حتى جاء أمر الله) بالموت (وغرركم
بالله الغرور) أي الشيطان أو الدنيا .

لقد ذكرنا في بحثنا الأول أن الندامة تبدأ من ساعة الاحتضار لتستمر إلى
يوم القيامة ، وعندما يبأس الجهنميون من رحمة أو برد أو سلام يشرعون
بالاصطراخ (وهم يصطرخون فيها) ، أي يستغيثون بصراخ أي صياح قائلين :
﴿ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحاً غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلْ ﴾ ونحسبه صالحاً وقد تحقق
الآن لنا خلافه فيقال لهم توبيحاً ﴿ أَوْلَمْ نَعْمَرِكُمْ ﴾ عمراً ﴿ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مِنْ
تَذَكَّرٍ ﴾ روي أنها ستون ، وقيل : أربعون ، وقيل : ثماني عشر ﴿ وَجَاءَكُمْ
النذير ﴾ الرسول أو الكتاب أو الشيب أو العقل أو موت الأهل ﴿ فَذُوقُوا فَمَا
لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ ﴾ لا يوجد من يدفع العذاب عنهم ﴿ إِنَّ اللَّهَ عَالِمُ غَيْبِ
السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ ولا يخفى عليه شيء (١) .

إن أعلى مراتب الظلم تتمثل في عدم معرفة الإنسان لنفسه ، لا يعرف أين
هو ؟ ومن أجل أي شيء جاء ؟ وإلى أين يتجه في سيره ؟ .

(١) سورة الحديد، الأيتان ١٣ و ١٤ .

(٢) سورة فاطر، الآية ٣٨ .

لذا يتطرق القرآن المجيد إلى تبيان مقام الإنسان السامي وحمله للأمانة الإلهية .

﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾ (١) .

و ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ ﴾ أي عرضنا الطاعة المعلق بها الفوز فإنها واجبة الأداء كالأمانة ﴿ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلَهَا ﴾ أي هي لعظمتها بحيث لو عرضت على هذه العظام وكان لها شعور لأبين حملها ﴿ وَأَشْفَقْنَ ﴾ خفن ﴿ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ ﴾ مع ضعفه ، أي جنسه باعتبار الغالب ﴿ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا ﴾ حيث لم يؤدّها ﴿ جَهُولًا ﴾ بعظمة شأنها أو أريد بالأمانة ما يعمّ الطاعة الطبيعية والاختيارية .

قال أمير المؤمنين علي (ع) : « كفى بالمرء جهلاً ألا يعرف قدره » (٢) ؛ فمن جهل قدر نفسه ضلّ وانحرف وعمل على وفق ما تمليه عليه نفسه الأمانة بالسوء ؛ على العكس من ذلك الذي عرف قدر نفسه ، فكان حذراً في قوله ، حذراً في فعله وفي كلِّ حركاته وسكناته ، ولا بأس بالمرء أن يفكر في هذا الأمر المهم ولا يغفل عنه ، لكون الغفلة تؤدي بالإنسان إلى ممارسة المعاصي ؛ قال رسول الله (ص) : « تفكر ساعة خير من عبادة سبعين سنة » (٣) .

وقال أمير المؤمنين (ع) في وصيته لابنه الحسن (ع) : « أي بني ! الفكرة تورث نوراً ، والغفلة ظلمة . . . » (٤) .

وقال - سلام الله عليه - أيضاً : « التفكر يدعو إلى البر والعمل به » (٥) .

(١) سورة الأحزاب ، الآية ٧٢ .

(٢) نهج البلاغة/صبحي الصالح ، ص ١٤٩ .

(٣) بحار الأنوار/ج ٧١ ، ص ٣٢٦ .

(٤) تحف العقول/ص ٦٥ .

(٥) الكافي/ج ٢ ، ص ٥٥ .

« اللهم صُنْ وجهي باليسار ، ولا تبذل جاهي بالإقتار ، فاسترزق طالبي
رزقك ، واستعطف شرار خلقك ، وابتلي بحمد من أعطاني ، وافتن بدم من
منعني ، وأنت من وراء ذلك كله وليُّ الإعطاء والمنع إنك على كل شيء
قدير » .

سير إلى الله

تعرضنا في بحثنا السابق إلى موضوع العدو الأول الذي هو الغفلة ،
ونعرض في هذا البحث إلى موضوع العدو الثاني الذي هو أيضاً عدوَّ مهمٍّ
وخطير ينبغي لنا أن نحاربه ونجاهد من أجل دفعه مثلما نريد دفع الغفلة عنا التي
تريد أن تحرفنا عن الطريق القويم حالها حال العدو الثاني الذي يلتزم الغاية
نفسها .

والعدو الثاني هو : التخيُّلات الوسواس ، الأمانى والرغبات .

فالتخيُّل والتَمَنِّي هما أساس وجذور الكبر والتكبر ، فنرى الإنسان المخيَّل
يتصور نفسه أفهم وأعلم من الآخرين بعد حصوله على شهادة الماجستير مثلاً
فتراه يتكبر على من هم أقل منه مراحل دراسية فيصدر عن التكبر مسألة التفاخر .

فالتفاخر موجود بشدة عند الغالبية العظمى من النساء ، وكذا عند أهل
العلم والمثقفين ، فتراهم مثلاً يستخدمون كلمة « أنا » بإسهاب يتصورون أنهم
يمتلكون علم الأولين والآخرين ولا يعرفون أن علمهم لا يساوي قطرةً في بحر !
﴿ وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً ﴾^(١) .

هل فكَّر أحد هؤلاء المدَّعين للعلم والأعلمية بالمكان الذي جاء منه
العلم ؟ أو الشخص الذي أعطاه ؟ .

(١) سورة الإسراء ، الآية ٨٥ .

وهل هو ملك لذلك الذي يقول « أنا » و« أنا » ، فلو كان العلم في أصله لك ، فلا بأس أن تتفاخر ، ولكنك تعرف جيداً أنك مكتسب للعلم ليس إلا .
ولكن التخيل والتوهم هو الذي جعلك تتصور معرفتك لكل الأمور ، وأنت تعلم السر وما يخفى .

هذا لكونك تعلمت عدة اصطلاحات أدبية؟! أو بضعة قوانين رياضية؟! .
ومن خلال تلك المعلومات التي هي ضائعة في مقابل العلم والعلماء تتفاخر على الصغار والكبار؟! .

قد يتخيل المرء أن المال شيء والرياسة شيء ، والرياسة أمر اعتيادي ، وامتلاك الأموال أمر اعتيادي ، وعلى الرغم من أن الأمر اعتيادي تراه يتخيل بأنه أصبح شيئاً مهماً ، وأنه بامتلاكه لتلك الأموال والرياسة خالد ولا يعرف الموت إليه طريقاً .

﴿ ويلٌ لكلُّ همزةٍ لمزةٍ ، الذي جمع مالا وعدده ، يحسب أن ماله أخلده ﴾^(١) إنه الخيال ولا شيء غيره .

لقد تخيل صاحبنا أنه سيخلد في الدنيا فاشتد حرصه على ماله ، أو قد يكون طال أمه فأغفله عن الموت وحسب أنه مخلد ؛ قال رسول الله (ص) :
« إن أخوف ما أخاف عليكم خصلتان : اتباع الهوى ، وطول الأمل ؛ أما اتباع الهوى ، فيصد عن الحق ، وأما طول الأمل فينسي الآخرة »^(٢) .

هذا ناهيك عن أن جمع الأموال وطلب الرئاسة والحكم تدخل ضمن حب الدنيا ؛ قال رسول الله (ص) : « حبُّ الدنيا رأس كل خطيئة »^(٣) .

وقال أمير المؤمنين (ع) : « ... فإن حب الدنيا يعمي ويصم ويكتم ويذل الرقاب »^(٤) .

(١) سورة الهمزة، الآيات ١-٣ .

(٢) كنز العمال/خ/٤٣٧٦٤ ، بحار الأنوار/ج ٧٣ ، ص ١٦٢ .

(٣) تنبيه الخواطر/ص ٣٦٢ .

(٤) الكافي/ج ٢ ، ص ١٣٦ .

وخلاصة الأمر : هي أن حب الدنيا وحب المال يجبر إلى التخيل والتوهم ، والعاقل لا يمكن أن يقع في الخيال والتوهم الذي يوقع الإنسان في الافتخار على الآخرين بلا مبرر حقيقي .

فإذا قال : أنا عالم ، فالعلم الذي عنده مكتسب ، والعالم هو الله وحده وهو الذي يجب أن يفخر بعلمه ، ولذا لا يرضى الله أن ينازعه من هودونه في صفاته وعليه يقول : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴾ (١) .

فالآمال والتمنيات وكذا الحرص من التخيل والتوهم ، وكلها تؤدي إلى اتباع الهوى الذي يصد عن الحق فينسى المرء آخرته ، ويتركز تفكيره في ما عنده من أموال وسلطة وإمكانية .

إن التخيل والتوهم أقوى وأمضى من الغفلة ، لكون التخيل يصور لك وجود شيء غير موجود ؛ فعلى سبيل المثال : لو ذهب أحد الجبناء إلى مقبرة تراه يتخيل أن أحد الموتى يتبعه فيترتب على ذلك هروبه وفراره من ذلك الميت الذي لا أساس لوجوده أو لمتابعته ، وقد يشعر الأكثر جُبناً بأن الميت أمسك بتلاببه فيغشى عليه على الرغم من أن ذلك الميت المسكين تحت التراب لا يقوى على التنفس فكيف بالجراك !! .

وعليه فالتخيل والتوهم كانا باعثين على رؤية الجبان لميت يجري خلفه ناهيك عن الإمساك به ! .

وإن بعض الأحلام والتمنات تستقي من هذا المنبع ، فيرى بعضهم أن رجلاً يلهب ظهره بالسوط ، وعندما يفيق من نومه يرى متعرقاً وخاملاً يبدو عليه التعب والنصب .

إن التخيل يترك آثاره على الجسم أيضاً ؛ فبالرغم من عدم شخص حقيقي ضربه بسوط ، تراه متعباً خاملاً وكأنه تلقى ضربات سوط من أحدهم ، ويقال إن تخيله هو الذي ضربه بسوط غير مرئي ولا محسوس إلا في كوامن ذلك النائم ! وكذا الأمر بالنسبة للإيحاء ؛ ولا بأس بإيراد مثال على ذلك :

(١) سورة لقمان، الآية ١٨ .

كان أحد العلماء جاداً في عمله ، وكان له مدرسة لا تغلق أبوابها ولو يوماً واحداً في السنة ؛ فأراد تلامذته معاكسته بعض الشيء ليتمكنوا من الحصول على عطلة لعدة أيام ، فاتفقوا على الأمر وتنفيذه من صباح اليوم التالي ؛ وما أن بزغت شمس اليوم التالي حتى جاء أحدهم صباحاً وسلم على الأستاذ ، فرد عليه السلام .

وقال التلميذ : عذراً يا سيدي ماذا أصابك ؟ وجهك أصفر ، فما الذي حدث ؟ .

فقال الأستاذ : اذهب واجلس مكانك إن وجهي ليس بأصفر ! ! .

فحضر التلميذ الثاني ليقول مثل صاحبه الأول ، فأجابه الأستاذ بما أجاب صاحبه .

وجاء الثالث والرابع والخامس ليقولوا مثل ما قال الأوائل ، فاصفر وجه الأستاذ فعلاً ، وما إن توالى عليه السادس والسابع والثامن حتى علت درجة حرارته وأصيب بالحمى ، وعندها جاء التاسع والعاشر من التلاميذ ، ليقولوا له بمثل ما قال أصحابهم ، وإذا بالأستاذ يسقط على الأرض فينقله التلميذ إلى غرفة نومه للاستراحة ، وبذلك تمكّنوا من تعطيل الدراسة .

وهذا ما نراه جلياً في عمل أطباء علم النفس ، إذ يتمكن البعض منهم من تنزيل حرارة المريض من (٤٠) درجة مئوية إلى (٣٧) درجة مئوية ، وكثير هم الذين تمكنوا من الشفاء بالإيحاء إليهم وتلقينهم ؛ فنرى مثلاً سقوط أحدهم وعدم إمكانيته من القيام ، ولكن علماء وأطباء النفس يتمكنون من مساعدته بالقيام والخروج على حالته تلك بالإيحاء إليه وإدخاله في حالة خيالية ووهمية غير حقيقية فينهض وكان الأمر لم يكن .

لذا ، يمكن اعتبار الخيال والوهم والأمال والمعنى من المسائل والقضايا التي يمكن معها خروج المرء عن جادة الصواب .

وعليه ينبغي له أن يلتجئ إلى الله من شر هذه التخيلات والأوهام التي تؤدي بالبشر إلى مهاوي الضلالة والانحراف .

إن آخر سورة في القرآن الكريم تبين لنا بكل دقة، الانتهاء عن التخيلات والوساوس التي قد تبتعد بنا عن طريقه المستقيم وصراطه القويم .

﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ، قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ، مَلِكِ النَّاسِ ، إِلَهِ النَّاسِ ، مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ ، الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ ، مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ ﴾ (١) .

أي إلهي إني أتجئ إليك من شر الذين يوسوسون وسوسة سيئة وباطلة بشكل حسن وهيئة حق ؛ وقد يكون الإنسان في بعض الأحيان أسوأ من شياطين الإنس والجن ، فيكون هناك وسوسة من عنده إلى نفسه وذلك بالضرب في الخيال الأمامي والرغبات .

وهذا النوع لا دخل فيه للشيطان أصلاً .

رأى أحدهم في منامه أحد الشياطين وقد أمسك بحبالٍ مختلفة ، فسأله صاحبنا عن سبب إمساكه بتلك الحبال ؟ .

فأجابه الشيطان : بهذه أُقيد الناس وأذهب بهم إلى جهنم ! .

فقال الرجل : وأيهم حيلي ؟ فأجابه الشيطان : أنت وأمثالك لا تحتاجون إلى حبال ، لأنكم تآتون بأرجلكم ! .

قال تعالى في محكم كتابه : ﴿ وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقِيضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ ، وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ ﴾ (٢) .

« اللهم إني أعوذ بدرعك الحصينة من درك الشقاء ، ومن شماتة الأعداء ، وأعوذ بك من الفقر والوقر ، وأعوذ بك من سوء المنظر في الأهل والمال والولد ، وصلى الله على محمد وآله الطاهرين » .

(١) سورة الناس، الآيات ١ - ٦ .

(٢) سورة الزخرف، الآيات ٣٦ و٣٧ .

سير إلى الله

إن الخيال والضرب فيه ، وسبر أغواره هو أساس التكبر .

ومن أراد أن يتعد عن التكبر فليمعن النظر في هذه الآية المباركة ؛ قال تعالى في محكم كتابه : ﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ تَرَابٍ ثُمَّ مِنْ نَظْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عِلْقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ، ثُمَّ لَتَكُونُوا شِيوخاً .. ﴾ (١) .

خلق الإنسان من مكونات التراب ، ثم من نقطة نجسة ليصير في آخر عمره إلى جيفة تنته فليم التكبر ؟ .

بأي شيء من هذه الأشياء يتكبر ؟ أبالنظفة التي صار منها ؟ أم بالجيفة التي سيصير عما قريب إليها ؟ .

فلو فكر الإنسان في وضعه هذا لما تكبر ولما اغتر بنفسه ، ولتواضع أشد التواضع ، لأنه بلا هذا التفكير ، يمكن أن يسرح في الخيال ويتصور نفسه شخصاً مهماً ، وعالماً فحلاً وأن الناس يجلبونه لذلك .

فيمشي مختالاً فخوراً معجباً بنفسه .

إن الخيالات التي قد يعيش المرء في وسطها ، تحمل الإنسان على إلقاء نفسه في المهالك دون أن يشعر فيصير كدودة القز التي تلتف حولها خيوط الحرير ، لتختنق بعد ذلك من جرأ ذلك اللف . وكذا الهائم في بحر الخيال تراه يلف خيوط الخيال ويجعل منها نسيجاً يصنع منه ما تريد نفسه ورغباته .

(١) سورة غافر، الآية ٦٧ .

وكلما زاد في نسيجه ، ضعفت إرادته الإنسانية وضعفت أعصابه .

وكلما ابتعد عن الوسوس والخيالات بدا إنساناً سوياً سليماً .

كان أحد الدراويش يحمل فوق رأسه إناءً خزفياً مليئاً بالزيت ، وكان الوقت ليلاً ، وكان جالساً لوحده ففكر في كيفية بيع تلك الزيوت ليشتري بدلها حملاً ، فإذا صار لديه ثلاثة أو أربعة خراف ، حتى تتضاعف وتكون قطعاً من الغنم ليبيع قسماً منه ويشتري بشمه قسراً ، ثم يتزوج ويأتي بخادمة لزوجه ، وإذا توانت الخادمة في بعض أعمالها يضربها - وكانت في يده عصاً غليظة - فرفع عصاه وضرب الأرض وكأنما يضرب تلك الخادمة الخارجة على طاعته وعندها يسقط إناء الزيت الخزفي على الأرض وانكسر وساح زيته ! .

إن الآمال والتمنيات تمكنت من ذلك الدراويش المسكين فضيَّع إناءه الخزفي وزيته الذي لا يملك في الدنيا شيئاً غيره ، وبذلك ضاعت آماله وأمنيته علاوةً على تضييع زيته فبات يائساً لا يقوى على شيء ومن هنا تتبع أصول الانحرافات .

« إن أخوف ما أخاف عليكم اثنان : اتباع الهوى ، وطول الأمل فأمَّا اتباع الهوى ، فيصدُّ عن الحق ، وأما طول الأمل ، فيُنسي الآخرة »^(١) .

وخلصة الحديث : ينبغي لنا الابتعاد عن الولوغ في الخيال والأمني ، لأن ذلك لا يجربنا إلا إلى الابتعاد عن العمل الحقيقي ، وبذلك يصبح الإنسان ضائعاً تائهاً تتقاذفه تيارات الضلالة والانحراف والتردي من سيء إلى أسوأ منه ، ولولا فضل الله على عباده لما نجا منهم أحد من تلك الأهواء والخيالات والتمنيات ، ولغرق البشر في بحر التكبر والحسد والحقد والضعينة وما إلى ذلك من الصفات الرذيلة .

إن الخروج من زوبعة الضرب في الخيال تحتاج إلى إرادة - ولا نريد أن تكبر الأمر كثيراً - إلى إرادة متواضعة ؛ فعندما تترأى لنمرء الآمال والتمنيات والوسوس والتخيلات عليه أن يقطع على شيطانه تلك القضايا بشكل مفاجيء ،

(١) كنز العمال/خ/ ٤٣٦٦٤ .

ليشعرَ بالتححرر من ذلك الأسر الذليل ، ولا يسمح لتلك الخيالات بالسيطرة عليه ، بل ينبغي له أن يكون هو مسلطاً عليها .

قد تكون هذه المعالجة صعبة بعض الشيء في بداية الأمر ، ولكن الأمر لا يعود كذلك بعد مدة من التمرن والتدريب عليها ، فترى أنها قد أصبحت ملكة وأضحى الخيال في عالم النسيان .

ويمكن أن تعالج هذه الحالة أيضاً : بتذكير الإنسان لنفسه : بأنه أحد عباد الله تعالى ولا ينبغي لعباد الله الصالحين أن يتدنى مستواهم إلى هذا الحد ، فيراه الناس كالمجنون سارحاً في الخيال والأمانى والوساوس ! .

إن بعض الأشخاص من الذين يعتبرون أنفسهم مقدسين يذهب دنياه وآخوته بهذه القضايا ، فيستخدم الدين لتطبيب وساوسه وخیالاته ، فهو يتوضأ عدة مرات ، وفي كل مرة يتصور أن وضوءه باطل ، وأن بعض النجاسة مسّت رجله اليمنى أو اليسرى ، ناهيك عن تردّده في صلاته وطهارة لباسه الذي قد يبدله بضعة مرات في اليوم ، ظناً منه : أن النجاسة وصلت إليه .

إن الركون إلى الخيال قد يؤدي بالمرء إلى سوء الظن بالآخرين ، وسوء الظن يدخل في مداخل لا يرتجى منها إلا ما لا تحمد عقباه .

فمن يصاب بهذه الصفة الرذيلة يستولي عليه الانزواء والحذر من معاشرّة الآخرين بشكل واضح ، وبهذا يتحطم ما في نفسه من استعداد للتقدم والاطراد ، وسوف تقدر له عيشة غير مرضية .

وقيل : إن سوء الظن أحد عوامل الانتحار ، وإن العزم على الانتحار ينشأ غالباً من سوء الظن بالحياة .

قال أمير المؤمنين (ع) : « إياك أن تسيء الظن ، فإن سوء الظن يفسد العبادة ، ويعظم الوزر »^(١) .

وقال تعالى في محكم كتابه : ﴿ ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ أُسَاءُوا السُّوءَ أَنْ

(١) غرر الحكم/ص ١٥٤ .

كذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ ﴿١٠﴾ .

وقال جلَّتْ أَسْمَاؤُهُ : ﴿ لَا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ .. ﴾ (١٠) .

يقول أحد المراجع العظام في معرض حديثه عن وقوع الإنسان في شرك الخيال والظنون والشكوك والوساوس : كان أحدهم يتوضأ ، وفجأة قال : أصابتنى النجاسة ، فقيل له : لماذا ؟ رشح الماء عليّ من الطابق الثاني وكان هو في الطابق الثالث !! .

فهل يمكن أن يكون ذلك ؟ لو كان في الطابق الثاني ورشح عليه الماء من الثالث لاختلف الأمر ، ولكنه كان في الطابق الثالث ، فكيف يرشح عليه الماء من الطابق الثاني ؟ ! .

إنه الخيال ، لقد تخيل ذلك المسكين ترشح الماء لكثرة الوسواس التي راودت ذهنه .

وإذا تمكنت الوسواس من امرئ أضحكت منه من حوله ! .

قال الفقهاء العظام : من جلس في - دار الخلاء - وشكَّ في أن بعض الماء النجس قد أصابه ، يبني على طهارته ، فإن تيقن بنجاسته ، فهو نجس وإذا لم يتيقن ، فهو طاهر له .

وبغير هذا لا يمكن احتساب الوسواس ضمن دائرة اليقين : « كل شيء طاهر لك حتى تعلم نجاسته » (قاعلة فقهية) .

قضى الشارع المقدس : بأن الدم نجس ، فإذا شككت في كون المادة التي لمستها دماً أو غير ذلك ، كانت طاهرة ، وأن البول نجس ، فإذا شككت أن الذي أصابك من الماء بول أو غير ذلك بنيت على طهارته .

إن الوسواس ليست من الإسلام في شيء ، إنها من التخيل ، إنها بدعة

(١) سورة الروم، الآية ١٠ .

(٢) سورة التوبة، الآية ١١٠ .

في الدين ، والبدعة تعدُّ من كبائر الذنوب .

فلو أصاب إحدى النساء وسواس في طهارتها ونجاستها دلل ذلك على تخيُّلاتها وشكوكها ، فتراها على سبيل المثال ، تضع يدها تحت مجاري المياه لتطهرها ولو تأتى لها فعل ذلك مرات احتسب معصية أكثر من تلك التي تترتب على إظهارها ليدها أمام الأجنبي عن عمد ، وهذه هي عين الدُّلَّة في الدنيا والآخرة .

إن تلك الأمور والمسائل تبعث على تلف الوقت والعمل ، وتمحق نور الآخرة الذي يحتمل أن يصيب منه العبد شيئاً ؛ ناهيك عن عدم رضا البارئ تعالى بهكذا أمور ، بالإضافة إلى امتعاض الرسول الأكرم (ص) والأئمة من أهل بيته (ع) .

« اللهمَّ إني أسألك برحمتك التي لا تنال منك إلا برضاك والمخرج من جميع معاصيك ، والدخول في كل ما يرضيك والنجاة من كل ورطة والمخرج من كل كبيرة وأسألك السعة في الرزق والزهد في الكفاف والمخرج من كل شبهة والصواب في كل حجة والصدق في جميع المواطن برحمتك يا أرحم الراحمين وصلَّى الله على محمد وأهل بيته الطاهرين » .

جهاد النفس

حسين مظاهري

الجزء الرابع

المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

لقد تزامنت طباعة الجزء الرابع من جهاد النفس مع حدثين تاريخيين مهمين :

الأول : العروج الملكوتي لمؤسس الجمهورية الإسلامية إلى الملا الأعلى .

والثاني : عودة أسرى الحرب الأعداء إلى أحضان الوطن الإسلامي .

لقد كان توارى الشمس التي بزغت من الغروب لتتير أركان الشرق بأشعة الإيمان والمضاء ثلثة عظيمة آلمت النفوس وأحزنت القلوب .

كان وجهه المحبوب مثلاً من أمثال شمس الولاية ، وسعيه الحثيث لمعة من لمعات منبع الرسالة الفيّاض .

فصلابته أخرجت صلابة الجبال الشمّ ، فدانت لصولته وهيبته رقاب العالمين بعد اعترافهم بالمعجز أمامه .

كان المثل الأعلى في الفقاهاة والولاية ، حافظاً لدينه ، صائناً لنفسه مخالفاً لهواه .

إنه محيي دين الله ، وناشر لواء عدل رسول الله (ص) في جميع أركان العالم .

لقد منح الإسلام العزيز حياةً ورونقاً ما كانت له من قبل بعد أن بعث في الأمة الإسلامية روحاً جيّاشةً ثورية ، ليعيد بذلك ملحمة عاشوراء ، ورواية الحسين (ع) في كربلاء ، وينشر أشرعة القيام الحسيني على مجمل هذا الملك العظيم ، بعد أن عرّف بالإسلام المحمدي الأصيل الذي طغت الغربية على أكثر مفاصله ، بإقامته للصلاة الإلهية ، وإحيائه للحج الإبراهيمي ، وتحبيب الجهاد إلى النفوس البشرية ، فروى بذلك مجدداً عن علي (ع) طرق عدالته التي لا يتأتى لفرد أن ينكرها .

كان معلماً ومثالاً للأخلاق الفاضلة ، ومربياً قديراً للنفوس المشتاقة ، عارفاً بالله سبحانه ونائباً بالحق لوليه - أرواح العالمين له الفداء - وظهيراً قوياً للمستضعفين ، ومطرقةً شديدة على رؤوس المستكبرين ، وملجأً للمساكين ونقمةً على المتجبرين ، وعزةً للمؤمنين ، وذلةً للمنافقين .

عاد الإسلام عزيزاً بعزته ، وتسافل الكفر إلى الحضيض بيمن نفسه القدسية ، فكان وجوده المبارك شوكةً مريرةً في أفواه المتحجرين من عمي القلوب .

كان الإيثار مبدأه ، والتضحية عقيدته ، وشرب المر بدل الحلوصته لكي يعلم الإيثار والفناء في الله لكل دعاة الإسلام وطلابه .

أجل ، كان شمس أبراج الفقاهاة الساطعة ، فأصابها الكسوف الكلي ، فما عاد نورها يسطع فعمنا ستار الفراق المظلم الذي مدّ ظله فوق رؤوسنا ، وأضحت الأمة الإسلامية بذلك في يتم وعزاء . . .

سألنا الباري تعالى أن يرفع روحه في عليّين ، ويقبل منه الدعاء بحقنا آمين ، وينبغي أن نقول هنا :

إن ما نقشه على ألواح قلوبنا وأرواحنا لن يمحى أبداً ، وستبقى صورته الثورية في بيدر الذاكرة أبداً .

الحمد لله تعالى على نعمائه في بقاء راية الإسلام خفاقة عالية ، بعد أن سلمها مؤسس الجمهورية الإسلامية إلى تلميذه المخلص والمقتدر قائد الثورة

الإسلامية آية الله الخامشي (مد ظله) . والأمل كل الأمل أن يحقق القائد الفدُ الأهداف المقدسة التي نادى بها الإمام بلطف من الباري وعناية .

الحدث الثاني : تحقق وعد الله بنصر عباده ورجوع الأسرى مرفوعي الرأس إلى أحضان هذه الأمة المضحية ، وهو ما يلزمنا الشكر والامتنان لباريء الخلائق أجمعين ، هؤلاء الأعرّة الذين ضربوا الرقم القياسي في صبرهم وصلابتهم وتحملهم .

وبتلك الصلاة تحقق الوعد الإلهي : ﴿ إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ ﴾ في مقابل الشدائد وأنواع العذاب النفسي والجسدي ، فقد تركوا حسرة ما بعدها حسرة في نفوس الخصوم ، ليثبتوا بذلك المنطق أنهم تلاميذ روح الله ، ومن المتخلفين بأخلاق رسول الله (ص) ، وأن ما لديهم هو روح من بستان أبي عبد الله (ع) ، لكونهم لم يمثلوا لأوامر الظلمة والجبارين ، وسوف يمرّغون بالوحل أنوف المعتدين بالانتكال على الله العزيز العليم .

إن الذي بين يديك عزيزي القاريء الكريم هو الجزء الرابع من كتاب جهاد النفس ، هذا الأثر الأخلاقي المفيد للأستاذ حسين مظاهري مهدي إلى روح مؤسس الجمهورية الإسلامية الإمام الخميني قدس الله نفسه الزكية ، وإلى جميع الأحرار الذين منحوا الوطن الإسلامي عزّة وجلالاً ، بالإضافة إلى جميع المعلمين من الشهداء والمفقودي الأثر وبالخصوص الأخ عباس قهستاني .

نسأل الباري تعالى أن يمنّ على الأمة الإسلامية بالنصر والغلبة ، وأن يمنحنا الحرية والانطلاق من أسر قيود الأهواء النفسية ، إنه سميع الدعاء .

الجمعية الإسلامية لمعلمي قم

الغفلة

إن الإنسان - بل جميع الموجودات - تتجه نحو الخالق المصور في سير دؤوب : ﴿ إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الرُّجْعَىٰ ﴾ (١) ، ﴿ يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ ﴾ (٢) ، ﴿ وَإِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الْمُتَّبِعَىٰ ﴾ (٣) ، ﴿ أَلَا إِلَىٰ اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ ﴾ (٤) .

إن الآيات التي تتطرق إلى هذا الموضوع كثيرة، ويستفاد من مجموعها أن عالم الوجود في حركة ، ومنتهى هذه الحركة هو الله تعالت أسماؤه ، وقد قُسمنا المسيرة الإنسانية إلى الله ثلاثة أقسام :

قسم سلك الطريق الذي هو طريق جميع الأنبياء والرسل ، ليصل إلى جنة الخلد مع الأنبياء والأوصياء والصلحاء والشهداء وحسن أولئك رفيقاً .

﴿ وَمَنْ يَطْعُرِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشَّهَادَةِ وَالصَّالِحِينَ ، وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا ﴾ (٥) .

ويختلف الناس في سيرهم - وأعني هذا القسم من الناس - إلى الله تعالى فالذي يحشر مع الأنبياء غير ذلك الذي يحشر مع الأوصياء وغير الذي يحشر مع

(١) سورة العلق، الآية ٨ .

(٢) سورة الانشقاق، الآية ٦ .

(٣) سورة النجم، الآية ٣٢ .

(٤) سورة الشورى، الآية ٥٣ .

(٥) سورة النساء، الآية ٦٩ .

الصالحين ، لوجود مقامات مختلفة ودرجات عليا ودنيا في هذا الأمر .

وعرضنا فيما سبق إلى مسألة الصراط المستقيم الذي لا بد لكل الناس من السير عليه في يوم القيامة ، فترى البعض يمرُّ عليه مرَّ البرق ليصل إلى جنة المأوى ، وترى بعضاً آخر يمرُّ عليه ويعبر إلى الجهة الثانية ولكن بعد عناء ونصب شديدين حيث تمس النار يده أو رجله أو أي عضو من أعضائه ، ويسقط آخرون في بداية الصراط أو في وسطه إلى ما لا تحمد عقباه - والعياذ بالله - .

وإذا أردنا أن نعرف حقيقة هذا الأمر ، علينا أن نرى أوضاعنا في الحياة الدنيا ؛ فإذا كانت علائقنا مع الله محكمة ، ولا يرى في سيرنا إليه معاصي إلا اللمم ، مررنا على الصراط وتجاوزناه إلى حيث النجاة .

أما إذا كانت روابطنا مع الله في الحياة الدنيا مقطعةً وترتكز في أصلها إلى هوى النفس ورغباتها ، فلا ينبغي أن نتظر الأخذ بيدنا إلى حيث جنت الخلد والرضوان .

قال رسول الله (ص) : « إن على جهنم جسراً أدق من الشعر وأحد من السيف »^(١) .

وقال أيضاً (ص) : « أثبتكم على الصراط أشدكم حباً لأهل بيتي »^(٢) .
فالحياة الدنيا ظاهر الأمر ، والآخرة حقيقة الأمر .

فما نعمله هنا يتجسّد هناك حقيقة ملموسة ؛ فمن اتصف بالصفات الرذيلة في الحياة الدنيا تجسّدت له هذه الصفات على هيئة حيوانات مفترسة وضارية تنهش لحمه .

ومن اتصف بالصفات الحسنة هنا ، تجسّدت له تلك الصفات على هيئة روح وريحان وجنة نعيم وأنيس في يوم القيامة لتبقى معه إلى الأبد .

فالنفس السوية ترجع إلى ربها راضية ومرضية ومطمئنة ، لأن أعمالها

(١) كنز العمال/خ/٣٦٠٣٩ .

(٢) بحار الأنوار/ج ٨ ، ص ٦٩ - فضائل الأشهر الثلاثة .

لا تؤدي إلى الرضا : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّفْسُ الْمَطْمَئِنَّةُ ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَةً ﴾ (١) .

لقد عرض القرآن لهذه المجموعة من الذين يصلون إلى رضوان الله فقسمهم قسمين : قسم سَمَّاهم أصحاب اليمين : ﴿ وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ ﴾ (٢) ؛ وقسم آخر سماه بالسابقين : ﴿ وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ ﴾ (٣) ، وهم الذين تسابقوا إلى الخيرات ليكون أسرع وصولاً إلى رضوان الله من أصحاب اليمين .

أما القسم الثاني والثالث ، فهم أصحاب الشمال ، و : ﴿ أَصْحَابُ الشَّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشَّمَالِ ﴾ (٤) ؛ وهذا القسم يشمل جميع أولئك الذين لم يسلكوا الجادة الصواب ، ولم يبحثوا عنها أصلاً ، فتقاذفتهم أمواج الضلالة والانحراف ، وهم على شعبتين :

شعبة عرفوا الطريق المستقيم ، ولكن العناد واللجاجه منعتهم من انتهاجه ، فسلكوا بذلك الطرق الملتوية .

وشعبة لم يهتدوا أصلاً إلى الطريق المستقيم ، ولكنهم غير معاندين أو لجوجين ، ولعدم اهتمامهم إلى جادة الصواب ساروا مسارات مختلفة غير سوية ، فوصلوا إلى نار جهنم وبئس المصير .

إن لجهنم درجات وطبقات مثلما للجنة مقامات ودرجات ، وإن من يرد جهنم - والعياذ بالله - تحدد درجته وطبقته التي ينزل فيها ، فالدرجة الأولى ليست كالثانية والثانية ليست كالسابعة ، فالدرجة السابعة أشد الدرجات حرماً وعذاباً ، ولا يوجد أشد منها إلا بشر في قعرها تحتوي على توابيت ، كلما خفت حرارة جهنم فتحت تلك التوابيت لتؤجج نار جهنم ؛ فالذي يكون نصيبه التابوت فالويل له ، ولا يعرف أعماله وأفعاله إلا الله تعالى ، فالمنافقون مثلاً يكون

(١) سورة الفجر، الآية ٢٧ و ٢٨ .

(٢) سورة الواقعة، الآية ٢٧ .

(٣) سورة الواقعة، الآية ١٠ و ١١ .

(٤) سورة الواقعة، الآية ٤١ .

منزلهم الدرك الأسفل ﴿ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ ﴾ (١) ؛
لعنادهم ، ولمعرفتهم بالحق الذي لا يلتزمون طريقاً لهم ، إنهم يظهرون غير
ما يخفون ، ولا يعملون بما يقولون ، بل يعملون خلافاً لما يسمع منهم ؛
فالبعض منهم يهوي في جهنم آلاف السنين بعد ذلك يصل إلى قعرها أو إلى
طبقاتها السفلى .

وهذا ما يجسّد الحالة التي كان عليها في الحياة الدنيا حيث كان يتسافل
من وضاعة إلى أوضاع وأسفل منها .

وقد يتمكن البعض من الصعود ثانية إلى حافة جهنم فتصيه إحدى
المقامع على رأسه ليهوي مرة أخرى في قعر جهنم وتقول الروايات : إن ذلك
السقوط قد يطول آلاف السنين ليعرّ على عدة طبقات في جهنم .

قال الإمام جعفر بن محمد الصادق (ع) في معنى الصراط : « هو الطريق
إلى معرفة الله عزّ وجلّ ، وهما صراطان : صراط في الدنيا ، وصراط في
الآخرة .

وأما الصراط في الدنيا ، فهو الإمام المفترض الطاعة ، من عرفه في
الدنيا ، واقتدى بهده ، مر على الصراط الذي هو جسر جهنم في الآخرة (٢) .

فالذي لا يعرف إمامه انحرف عن الجادة السوية ، ومن انحرف عن الجادة
حشر يهودياً أو نصرانياً ، أو فاسقاً ، أو ظالماً .

فأصحاب الشمال الذي قسمناهم إلى قسمين وقلنا : القسم الأول هم من
عرفوا الطريق ، ولم يسلكوه عناداً ولجاجةً هم المغضوب عليهم ، والقسم
الثاني : وهم الذين لم يهتدوا إلى الطريق ولكنهم اتخذوا طرقاً أخرى لسيرهم
وهم الضالّون .

وخلاصة القول : إنهم مشمولون بالآية المباركة التي تقول : ﴿ وضربت

(١) سورة النساء، الآية ١٤٥ .

(٢) معاني الأخبار/ص ٢٨ .

عليهم الذلّة والمسكنةُ وبأؤا بغضبٍ من اللّهِ ﴿١﴾ .

وهناك قسم ثالث يمكن أن نذكره هنا ، وهم الذين تراهم دائمي الاضطراب في الحياة الدنيا ، يعملون بالشك والشبهة ، وهؤلاء لن يفارقوا الحياة الدنيا حتى تنقطع قلوبهم باضطرابهم ذلك وبشكهم وشبهتهم التي سيطرت على جميع ذرات اجسادهم ﴿ لا يزالُ بنيانهمُ الذي بنوا ربيّةً في قلوبهمُ إلا أن تنقطعَ قلوبهمُ ﴾ (٢) .

وهذا الشك وتلك الشبهة تعدّ من أسباب الشرك ﴿ ومن يشرك بالله فكأنما خرّ من السماء فتخطفه الطيرُ أو تهوي به الريحُ في مكانٍ سحيقٍ ﴾ (٣) .

فالسقوط من السماء ، وتخطّف الطير ، والسقوط في مكان سحيق كلها إشارات إلى الاضمحلال النفسي الذي قد يصيب البشر فيهوي في حب الدنيا وزخارفها ، ويطمع في البقاء فيها ، فتظهر آثار أخرى هي التكبر والغرور والمنّة والحسد وما إلى ذلك من الصفات الرذيلة .

وأما تنقطع القلب بالنسبة لهؤلاء ، فهو من جرّاء الاضطراب الذي يأتي به الحرص على الأموال والثروات ؛ فهو الذي يبعده عن الهدوء والراحة والاطمئنان .

والجدير بالذكر أن أولئك الذين اضطربوا وابتعدوا عن راحة البال نصيبهم الكوارث والمصائب ما داموا في الحياة الدنيا ؛ وقد يقول البعض بمشاهداته لارتياح البعض منهم ، فنقول له : قد يحتويهم الاضطراب النفسي والقلق ، فيعدّ ذلك إحدى الفوارق أو المصائب ﴿ ولا يزالُ الذين كفروا نصيبهمُ بما صنعوا قارعةً ﴾ (٤) .

وإذا لم يصيبهم من ذلك شيء فسوف يصيب أبناءهم من بعدهم ، أو

(١) سورة البقرة ، الآية ٥٩ .

(٢) سورة التوبة ، الآية ١١٠ .

(٣) سورة الحج ، الآية ٣١ .

(٤) سورة الرعد ، الآية ٣١ .

أهلهم ، أو زوجاتهم ، أو قد تقوم الخلافات الأسرية المستعصية نتيجة لما صنعوا .

وهذا الوضع الدنيوي بما فيه من اضطراب وغمٍّ وهمٍّ نتيجة للمعاصي ، يكون عليه المرء بهيئته وصورته الأخروية ، واضطراب الآخرة وقلقها وهمُّ الآخرة أشد وأوقع في النفس من ذلك الذي يكون في الحياة الدنيا .

﴿ وَمَنْ كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴾ (١) ،
﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى ﴾ (٢) .

فالإعراض عن ذكر الله يؤدي بالإنسان إلى المعيشة الضنك ، ولا نعني بالضنك هنا الافتقار إلى الزوجة الجميلة أو الافتقار إلى الثروات الطائلة أو المنصب الاجتماعي لا ﴿ مَعِيشَةٌ ضَنْكًا ﴾ قد تأتي بها الأموال ، وقد يأتي بها المنصب الاجتماعي الرفيع ، فالتكالب على المناصب ﴿ مَعِيشَةٌ ضَنْكًا ﴾ ، والتفاخر بالأموال ﴿ مَعِيشَةٌ ضَنْكًا ﴾ والخسران في الانتخابات الرئاسية ، وتحمل الهمُّ الذي يلي تلك الخسارة ﴿ مَعِيشَةٌ ضَنْكًا ﴾ .

ولا أريد أن أعرض لهذا الموضوع أكثر من اللازم ، لأن هذه القضايا لا تخفى على اللبيب .

فالعمى والضلال والانحراف كلها تأتي من الغفلة والتسامح في أمور الدين ، قال الإمام جعفر بن محمد الصادق (ع) : « إياكم والغفلة ! فإنه من غفل فإنما يغفل عن نفسه ، وإياكم والتهاون بأمر الله عزَّ وجلَّ فإنه من تهاون بأمر الله أهانه الله يوم القيامة » (٣) .

وقال الباري تعالى في محكم كتابه : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا . وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنَّنُوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ ، أُولَئِكَ مَاوَاهُمْ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ (٤) .

(١) سورة الإسراء ، الآية ٧٢ .

(٢) سورة طه ، الآية ١٢٤ .

(٣) ثواب الأعمال / ص ٢٤٢ .

(٤) سورة يونس ، الآية ٧ ، ٨ .

فالعافل عن ذكر الله لا بد له أن يكون مشغولاً بعمل آخر عن هذا الذكر ،
وكما تعرفون أن كل عمل لا يصب في ذكر الله باطل ، لأن الله سبحانه وتعالى لم
يخلق الإنسان ولا الجن إلا لعبادته ، وهي الامتثال لأوامره ونواهيه حقاً وصدقاً ؛
فمن رغب عن تلك العبادة ضلّ وهوى في وادي جهنم السحيق .

فالغرور سببه الغفلة ، وعندما يغفل الإنسان عن قدر نفسه يغترُّ بها ويصعّر
خدّه ، ويختال في مشيته ؛ والحرص أساسه الغفلة ؛ فالإنسان اليقظ لا يمكن
أن يحرص على شيء وهو يذكر نفسه دائماً بزوال الدنيا ونعيمها بدليل السالفين
الذين لم يتمكنوا من أخذ شيء معهم من هذه الدنيا ؛ فقد تركوا الأموال
والثروات والزوجات والأولاد وكل ما كان يسمى بالنسبة لهم نعيماً ، وذهبوا إلى
غير رجعة ، ذهبوا ليلاقوا أعمالهم على حقيقتها .

لذا ينبغي لنا أن نذكر هذه النفس الأمارة بالسوء ، بالمعاد والرجوع إلى
الخالق المصور ليلاً ونهاراً ، لترتدع عن الإيغال في الغفلة ، ومن لم يغفل ذلك
لن يتأثى له أن يفوز أو ينتصر على هذه النفس في مجمل سيره إليه - تعالت
أسماءه - .

والغفلة تجرُّ الإنسان في بعض الأحيان إلى الثرثرة ، فترى الغافلين
يطيلون في الكلام الفارغ الذي لا يؤدي بهم إلا إلى الغيبة والنميمة والتهمة وما
إلى ذلك ؛ فلو كانوا غير غافلين لسكتوا على مدى الدهر ، ولما تحدثوا إلا
بالقدر الذي يسهم في ترتيب حياتهم وعلائقهم مع الآخرين .

وكم هي جميلة تلك العبارات التي يستخدمها العرفاء في تنظيم حياتهم
ويحسبونها إحدى القواعد العرفانية وهي :

« إياك ثم إياك من التوغل في المشتبهات ، وإياك ثم إياك ثم إياك من كثرة
الكلام ، وعليك ثم عليك بذكر الله بذكر الله بذكر الله » .

الوساوس والأوهام

قال رسول الله (ص) : « أخوف ما أخاف عليكم اثنان : اتباع الهوى ، وطول الأمل .

فأما اتباع الهوى ، فيصدُّ عن الحق .

وأما طول الأمل فينسي الآخرة »^(١) .

إن استيلاء الآمال والرغبات على النفس البشرية يؤدي به إلى نسيان الآخرة ، مثله مثل ذلك الحيوان الذي يستمر في الحفر داخل جره ، وفجأة ترى سقوط وجره على رأسه ليموت تحت أنقاضه ؛ والإنسان يفعل ذلك في بعض أحيانه حينما يغور في التخيل والوهم ، وما يوغل في هذه الخيالات وتلك الأوهام عميقاً حتى يختم الله على قلبه ويبعثه إلى التي وقودها الناس والحجارة .

تنقسم الخيالات ثلاثة أقسام : قسم يرتبط بالدنيا وحبها ، وهو ما يبعث على الجنون في بعض حالاته ، قال أحد علماء النفس : جيء بإحدى الفتيات إلى دار المجانين ، وهي طالبة في الثانوية ، فما استقرت هناك حتى بدأت تجول أقسام الدار تلك وتتحدث إلى بقية المجانين ، فتقول : « بالأمس ولدت في قصري غلاماً غايةً في الجمال » ، أو تقول : « ذهبت البارحة إلى شمال

(١) كنز العمال/خ/٤٣٧٦٤ .

القطر بطائرتي الخاصة ، ، أو : « طوبنا العاصمة أنا وزوجي بسيارته الجميلة . »

بحث العالم النفساني في هذا الأمر كثيراً ، ولكنه لم يصل إلى شيء إلا بعد أن التقى زميلاتها الطالبات في المدرسة التي كانت فيها تلك المجنونة .

وبعد السؤال عن أحاديث وحالات تلك الفتاة من زميلاتها الطالبات قيل له : إن هذه الفتاة كانت متعلقة بشكل شديد بهذه الدنيا ، وكانت تقول دائماً : كم يطيب لي أن يتقدم إليّ رجل جميل وذو ثروة فيتزوجني لأنجب له طفلين ، أحدهما ذكر والآخر أنثى ! كم يسعدني الحظ لو كان ذلك الرجل متمكناً مادياً يمتلك قصراً منيفاً وسيارةً كسيارات الرؤساء والوزراء ! وما إلى ذلك من الأوهام والخيالات .

وتزوجت تلك الفتاة زوجاً دميماً لا يمتلك قصراً ولا سيارةً ، فقد كان يستأجر بيتاً في حارة للمستضعفين .

وذهبت تخيالاتها أدراج الرياح ، وتركت أثراً في ذهنها جرّها إلى الجنون ، ومن بعد ذلك إلى دار المجانين .

لقد أوصى الرسول (ص) والأئمة الأطهار (ع) بعدم الانطلاق في صحراء الخيال ، لأنه شعبة من شعب الوسواس ، وأن مصير الإنسان لا يتعدى أن يكون بيد الحكيم تعالى وليس بيد الأفكار والخيالات والأوهام ، وقد أوصوا (ع) بضرورة قراءة هذه الآية عندما يرى الإنسان نفسه طعمعة للأوهام :

﴿ قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمَلِكِ ، تُؤْتِي الْمَلِكَ مَنْ تَشَاءُ ، وَتَنْزِعُ الْمَلِكَ مِمَّنْ تَشَاءُ ، وَتَعَزُّ مَنْ تَشَاءُ ، وَتَذُلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ ، إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (١) .

إن الآية المباركة التي تقول : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ (٢) تعني أن مصائرنا بيدك وحدك لا شريك لك ، فمنك نستمدُّ العون ولا نعبدُ إلا إياك ، وإنا

(١) سورة آل عمران ، الآية ٢٦ .

(٢) سورة الفاتحة ، الآية ٥ .

لا نستعين بالأمال والأمانى لكونها لا توصلنا إلا إلى الضلالة والانحراف!؟ .

قال رسول الله (ص): « من كان يأمل أن يعيش غداً ، فإنه يأمل أن يعيش أبداً »^(١) .

جاء في الحديث القدسي أن الله قال: « لا قطعنَّ أمل كل من يؤمل غيري باليأس »^(٢) .

وقال الرسول الأكرم (ص): « خذ بالثقة من العمل ، وإياك والاغترار بالأمل ، ولا تدخل عليك اليوم همَّ غد . . . ولو أخليت قلبك من الأمل لجددت في العمل » .

والأمل الممثل في اليوم ، غداً أضرك في وجهين : سوَّقت به العمل ، وزدت في الهم والحزن »^(٣) .

وفيما ناجى الله تعالى موسى عليه السَّلام : « يا موسى ! لا تطل في الدنيا أملك فيقسو قلبك ، والقاسي القلب مني بعيد »^(٤) .

إن التمني وطول الأمل وتسليم النفس للخيال يؤدي بالمرء إلى التعلق بالدنيا الدنيَّة ، وإن كثيراً من التخيَّلات تجرُّ الإنسان إلى ارتكاب المآثم ، وعلي الرغم من أن التفكير في عمل المحرمات لا يؤدي إلى تثبيت شيء في سجل الأعمال ، فإنه يترك أثراً أسود في القلب ، وهذا التفكير في عمل المحرم يدخل ضمن الضرب في الخيال ويميت القلب ، ويجعل الإنسان دميةً خاليةً من النشاط والعمل ، ناهيك عن إدخاله في دائرة القاسية قلوبهم : ﴿ فويل للقاسية قلوبهم من ذكرِ الله ﴾^(٥) .

والتفكير في عمل المنكر لا يختلف كثيراً عن العمل نفسه ، والاختلاف

(١) بحار الأنوار/ج ٧٣ . ص ١٦٧ .

(٢) بحار الأنوار/ج ٩٤ ، ص ٩٥ .

(٣) بحار الأنوار/ج ٧٣ ، ص ١١٢ .

(٤) بحار الأنوار/ج ٧٣ ، ص ٣٩٨ .

(٥) سورة الزمر، الآية ٢٢ .

يكنم فقط في أن الذي يفكر في عمل المنكر لا يسجل له في سجل أعماله معصية إلا إذا قام بذلك العمل ، ولا يترتب على ذلك التفكير عقوبة ، بينما العمل بالمنكر يترتب عليه تسجيل لمعصية في سجل القائم بذلك العمل بالإضافة إلى العقوبة التي ستلحق به ، ويلتقي التفكير في عمل المنكر مع العمل نفسه في إضعاف البعد المعنوي للإنسان ، وإيجاد بذور القساوة في القلب البشري ، وأن التفكير في المعصية وممارسة المعصية يشتركان أيضاً في أن لهما نفس الأثر في تأصيل الأفكار المنحرفة في مخيلة الإنسان ، وينقسم التفكير في المعصية قسمين :

١ - قسم يرتبط بحق الله ، وهو ما عرضنا له ، وقلنا بأن التفكير في المعصية يشترك مع نفس المعصية في حرف مخيلة الإنسان إلى حيث ما لا تحمد عقباه .

٢ - قسم يرتبط بحق الناس ، وهو ما يترتب عليه معصية كبرى ؛ إنه سوء الظن بالآخرين ، والجدير بالذكر أن الأفراد الذين يشكون من حالات نفسية أو عصبية غالباً ما يسيئون الظن بالآخرين .

إن الرسول الأكرم (ص) وأهل بيته الأطهار (ع) ذموا سوء الظن والعامل به ، إلا في مواطن تستوجب ذلك .

قال رسول الله (ص) : « إياكم والظن ، فإن الظن أكذب الحديث ، ولا تحسسوا ، ولا تجسسوا »^(١) .

وقال أيضاً (ص) : « من أساء بأخيه الظن ، فقد أساء بربه »^(٢) .

وقال أمير المؤمنين علي (ع) : « سوء الظن يفسد الأمور ، ويبعث على الشرور »^(٣) .

لقد أكد الإسلام العظيم ضرورة حمل أعمال المسلمين على أحسنها وصحتها .

(١) سنن أبي داود/خ ٤٩١٧ .

(٢) كنز العمال/خ ٧٥٨٧ .

(٣) غرر الحكم .

وهذا ما نراه في القاعدة الفقهية الموسومة بـ « أصالة الصحة » التي بحث فيها الفقهاء كثيراً التزاماً بالأحاديث المتواترة عن النبي محمد (ص) وأهل بيته الكرام - سلام الله عليهم - .

قال رسول الله (ص) : « اطلب لأخيك عذراً ، فإن لم تجد له عذراً ، فالتمس له عذراً »^(١) .

وقال أمير المؤمنين (ع) : « ضع أمر أخيك على أحسنه حتى يأتيك منه ما يغلبك ، ولا تظنن بكلمة خرجت من أخيك سوءً ، وأنت تجد لها في الخير محملاً »^(٢) .

إن مسألة الضرب بالخيال مسألة عجيبة ، فقد يتخيل الجبان حين دخوله مقبرةً بأن أحد الموتى يطارده ، بل يمسك به ، أو قد يتخيل الجبان ذلك عند ذهابه إلى أحد الحمامات العمومية ، بأن عدّة من الجن لهم حوافر وأظلاف جاءوا للاستحمام على الرغم من أن الجن لا أظلاف لهم ولا حوافر .

إنه يتخيل أشياء ما أنزل الله بها من سلطان ، ويصنع أشخاصاً في مصنع مخيّلته الضارب في أطناب الخيال .

فعندما يطنق المرء لخياله العنان يتبناه الشيطان ، ويرد مخيلته ليوسوس إليه بأن زوجته قد تفعل فعلاً سيئاً - والعياذ بالله - وأن جاره المؤمن قد يسرقه ، وما إلى ذلك من الخيالات والأوهام التي يشرع الشيطان بها من (١) بالمليون لتصير بعد شهر واحد (٥٠٪) وهكذا ، إلى أن يصل الأمر أن يشك بأخيه أو أبيه أو ابنه (٩٠٪) .

وهنا يصبح الأمر اتهاماً جاء به الخيال والوسواس .

ويقال : إن التهمة أكثر من القتل في بعض مواطنها ، قال الإمام الصادق (ع) : « إذا اتهم المؤمن أخاه إنمات الإيمان من قلبه كما ينمات الملح

(١) بحار الأنوار/ج ٧٥ ، ص ١٩٧ .

(٢) بحار الأنوار/ج ٧٥ ، ص ١٩٦ .

في الماء» (١) .

وقال أيضاً - سلام الله عليه -: « من أتهم أخاه في دينه فلا حرمة بينهما » (٢) .

قال الشيخ الجليل غلام رضا اليزدي - رحمه الله -: إن الشيطان الذي يأتي إليك لا يقلّ علماً عنك إذا كان لا يزيد عليك ، فالعالم يأتيه شيطان عالم مثله ، والدكتور يأتيه شيطان عالم بعلمه الطيب والطالب لا يتصيده إلا شيطان بنفس مستواه ليتمكن منه ويحرفه عن الجادة الصواب .

وفي الخيال يسرح الشيطان ويمرح ، وفي الخيال يبذر الشيطان الرجيم بذوره القدرة ليلوث الطاهر بنجاسته ، وليحرف السوي عن استقامته .

إن الكثير من النساء والرجال يتصلون بي هاتفياً ليعرضوا عليّ مشاكلهم على أمل المساهمة في حلّها والوصول بهم إلى حياة سليمة سوية .

وقد لاحظت أن أغلب تلك المشاكل والاختلافات تحمل جذور سوء الظن .

وكما يعرف القاريء الكريم أن سوء الظن لا يجرُّ على الإنسان غير الابتلاءات والمصائب من مثل الطلاق ، وظهور العقد النفسية على أطفال أولئك المبتلين بالاختلافات .

ولذا ينبغي أن نولي أهميةً بالغةً بهذه القضية ، ولا نجعل أنفسنا ألعوبة بيد شياطين الإنس والجن من الذين يعيشون على الضياع في دنيا الخيال .

إن سوء الظن يدخل الإنسان مداخل عجيبةً وغريبةً ، فقد يساهم في طرد الفرد من المجتمع ولفظه مما يعث على ظهور اللوثات الدماغية ، وقد يجرُّ إلى اغتياب الآخرين ، والغيبة أشد من الزنا ، ومن فعلها فقد تجاوز الفضيلة وأصبح مجرماً لدى الإنسانية والإسلام ، فقد أجمع العلماء على عدّ الغيبة من كبائر

(١) الكافي/ج ٢ ، ص ٣٦١ .

(٢) الكافي/ج ٢ ، ص ٣٦١ .

الذنوب ، وأن مرتكبها يخالف الأحكام الإلهية ويتجاوز على حقوق المخلوقين غير مبال بحقوق الخالق .

إن المنزل الذي خلا من المحبة والود بين الزوجين أفضل أرضية لسوء الظن - والعياذ بالله - فترى الرجل مثلاً إذا أراد أن يتهم زوجته في شيء ما ، جاءه الشيطان وحركه على قضية أخرى لا ترتبط أساساً بما يريد التصريح به ، فيشعر الرجل بانتقاص زوجته بأن طعامها خال من الملح ، أو أنه لم ينضج بعد ، وأن المائدة قذرة ولم يمسها الماء منذ أيام إلى أن يصل به الشيطان إلى المرحلة الوضعية وهي : سوء الظن ، فيشعر الرجل بتجريح زوجته بالكلام اللاذع الذي يشبه الهمز واللمز إلى أن يصل مرحلة التصريح فيطرق الشيطان على رأسيهما ليفترقا إلى غير رجعة ويتركا أولاداً كالتامى أو أقل شأناً منهم تتقاذفهم الأيدي هنا وهناك ، وفي الآخرة ينتظرهم عذاباً جداً أليم .

إن النيران والعذاب الأليم الذي ينتظر المسيء لتجريحه باللسان لأقرب الناس إليه ، فيصبح بعد ذلك طعمه لجهنم التي تتقد بالناس والحجارة .

﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ ﴾ (١) .

والحصب هو كل شيء يرمى في جهنم ويعني بذلك وقودها .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِكُمْ نَاراً وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ ﴾ (٢) .

فالتخيل والوسوسة بلاء ومصيبة كبرى على الضارب أطنابه في الخيال عدو الإنسان الشديد ، فلا تجعلوا للشيطان طريقاً إليكم من خلال التخيلات والتصورات .

قد يأتي الشيطان إلينا عن طريق مصطبغ بصبغة دينية ، لأنه قطع على نفسه يميناً بإغواء من عليها بشتى الوسائل والطرق ﴿ قَالَ فِيمَا أُغْوَيْتَنِي لأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ، ثُمَّ لَأَنْتَهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ

(١) سورة الأنبياء ، الآية ٩٨ .

(٢) سورة التحريم ، الآية ٦ .

وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ ﴿١١﴾ .

﴿ قَالَ فِيمَا أُغْوِيْتِي ﴾ وهذه دلالة على أن الشيطان أشعري أو جبيري ، فقد نسب الإغواء إليه - تعالت أسماؤه - ﴿ لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ ﴾ ليني آدم ﴿ صراطك المستقيم ﴾ طريقك الحق القويم ﴿ ثُمَّ لَأَنْتَهُمْ ﴾ من بين أيديهم ومن خلفهم ، وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ ﴿ أي من جهاتهم الأربع فأصلهم عن سلوكه .

ولم يقل من فوقهم لنزول الرحمة منه تعالى ولا من تحتهم لإيحاش الإتيان منه .

وقيل : ﴿ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ ﴾ أي : من قبل الآخرة ، أي : تصوير الآخرة لهم شيئاً غير مهمٍّ وبعيد ، وعدمية وجود الآخرة وما إلى ذلك من الخيالات والأوهام .

﴿ وَمَنْ خَلْفَهُمْ ﴾ من قبل الدنيا ، والأخران من جهة حسناتهم وسيئاتهم .

ومجيء من الأولين لتوجهه منا إليهم ، وعن في الآخرين لانحراف الآتي منها إليهم ﴿ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ ﴾ إن الغالبية العظمى منهم غير مؤمنين .

فترى الشيطان مثلاً يأتي للإنسان عن طريق الوضوء ، فترى الرجل أو المرأة يضعون أيديهم تحت مجاري المياه مدةً طويلةً ، ثم يقولون : إن أيدينا ما زالت نجسةً ، في الوقت الذي لا وجود أصلاً للنجاسة ، وإن الذي يحدث هو أن خياله يجسّم له الأشياء ، وعندما يشرع بالصلاة طالباً ذكر تكبيرة الإحرام تسمعه يقول : « ال ، ال ، ال ، وبعد بضعة دقائق يقول : « الله أكبر » .

إنه يتخيل أن « ال » لم يقلها بشكلها الصحيح ، ويتخيل أن هناك أحداً يقول له : لست هكذا ، بل اصبر قليلاً ، لتقولها على طبيعتها .

إنها الخرافة ، ويد الشيطان ولسانه ، والمعصية الكبرى لكونها تدخل ضمن البدع .

(١) سورة الاعراف، الآية ١٦ ، ١٧ .

وقد لا يقنع الشيطان بهذا ، بل يصعد المسألة أكثر مما كان ، وعندها تسمع من العالم الفلاني أن له مكاشفةً وأنه رأى الإمام المهدي (عج) ، وأنه قال له : إنك نائبني الخاص كما حصل للميرزا علي محمد البهائي ، الضالُّ المضلُّ .

لقد أضلَّ البهائي الكثير من الحمقى والعوام ، وجرَّهم إلى ملتويات السبل ، بالرغم من أن الكثير منهم كان يعرف أن البهائي لا يحسدُ على عقله الخرافي ، وسيرته الشوهاء التي كان يسميها بالرياضة الروحية .

قال البهائي : « أنا نائب المهدي المنتظر (عج) ، لقد رأيتُه وقال لي : إنك نائبني الخاص - وبعد أن نزع الشيطان له أكثر لما رآه أحمقاً بليداً - قال : « إن الله أوحى إليّ فأنا نبيُّ الله - وقد يكون قوله صحيحاً والبسب في ذلك : ﴿ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ لِيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ ﴾ (١) .

وبعد مدة قال : « إني أنا الله » ، وعندها أعدمه الناس لقولته القدرة تلك ، ولو لم يعدموه لتمادى في غيِّه ، وقال بما هو أكثر من ذلك ، ولا نعرف ماذا كان يريد أن يقول !! .

وهكذا كان أحد العرفاء يقول : إنه يرى بعض المسلمين أشبه بالقروذ ، ويقول أيضاً : إنه رأى إمام الزمان المهدي المنتظر (عج) وقد قال له : إن ما في أيدي الناس هو ملك لك ؛ وعندها سرق أموالاً لأحدهم ، وحينما سئل عن سبب سرقة ، قال : إنه رأى في عالم الكشف أن هذا المال يرجع في أصله له !! .

إن الشيطان الرجيم يطرق كل الوسائل والسبل من أجل تضييع الإنسان وحرفه عن سبل السلام والهداية والصواب ، وإن التخيل أحد أبوابه ووسائله التي يقود الإنسان من خلالها إلى حيث الرضاة والحطة - والعياذ بالله - .

ومن أراد النجاة من هذه الخيالات والأوهام وسوء الظن الذي لا يعتمد أساساً على دليل أو سند ، فليلم نفسه حين تراوده الأوهام والخيالات ،

(١) سورة الأنعام، الآية ١٢١ .

ويعتفها ، لثلا يساوره الشكُّ والظن الشيطاني المقيت ، فإذا ما كان جالساً
وداخلته الخيالات فليضطجع ، وإذا كان نائماً وساورته الظنون فليجلس .

وما يحاول إبعاد تلك الأفكار عن ذهنه لمرة أو مرتين أو ثلاثة حتى يصبح
الأمر اعتيادياً جداً ، ويتعد بتلك عن هذه الصفة الرذيلة والله هو المستعان في
كل الأمور .

« إلهي قصرت الألسن عن بلوغ ثنائك كما يليق بجلالك ، وعجزت
العقول عن إدراك كنه جمالك ، وانحسرت الأبصار دون النظر إلى سبحات
وجهك ، ولم تجعل للخلق طريقاً إلى معرفتك إلا بالعجز عن معرفتك ، إلهي
فاجعلنا من الذين ترسخت أشجار الشوق إليك في حدائق صدورهم ، وأخذت
لوعة محبتك بمجامع قلوبهم بحق النبي محمد وآله الطيبين الطاهرين » .

[١] أيام الله

بسم الله الرحمن الرحيم : ﴿ ولقد أرسلنا موسى بآياتنا أن أخرج قومك من الظلمات إلى النور وذكّرهم بأيام الله . . ﴾ (١) .

أي يا أيها الرسول إذا أردت أن تخرج قومك من الضلالة والانحراف إلى طريق الهدى والنور عليك بتذكيرهم بالنعم الجليلة وبأيام الله العظام ، التي يمكن أن يستفيد الإنسان من الحوادث التي جرت فيها فيتحذرها عبرة له .

﴿ فسيروا في الأرض ، فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين ﴾ (٢) .

أيها البشر غوروا في التاريخ لتتعرفوا عاقبة الذين كذبوا الرسل ، ولتعرفوا على كيفية إذلالهم من قبل الله تعالى ، واتخذوا من سيرة الماضين عبرة لكم تنتفعوا بها في مجمل حياتهم الدنيوية .

﴿ يخربون بيوتهم بأيديهم وأيدي المؤمنين فاعتبروا يسا أولي الأبصار ﴾ (٣) .

فالتاريخ عبرة للمعتبرين .

ومن عاشوا في الحقبة الزمنية الماضية عبرة ، فعلينا أن نعتبر بتلك الأيام

(١) سورة إبراهيم، الآية ٥ .

(٢) سورة النحل، الآية ٣٦ .

(٣) سورة الحشر، الآية ٢ .

والأعوام والحوادث ، وتذكر أيام الله التي خصها الله بحوادث بقيت آثارها على مدى الدهور .

إن المسيرة التاريخية للإنسان عجيبة جداً ، فالبحث في التاريخ والتدقيق فيه يجزئنا إلى الكثير من المسائل الاجتماعية والأخلاقية والسياسية ، ولا أعني هنا مطالعة التاريخ بحد ذاتها ، فذلك يختلف كثيراً عن السير في التاريخ .

فقد يطالع إنساناً كتاب تاريخ من الغلاف إلى الغلاف ، ولكنه في النهاية لا يخرج بتحليل عام للمضامين الاجتماعية أو السياسية وما إلى ذلك ، وهذا ما لا يعطيه القرآن الكريم أهمية تذكر .

إن مطالعة القرآن تفهمنا أن هناك حوادث تاريخية مهمة ضبطها القرآن بشكل دقيق ليأخذها الناس عبرة لهم يستفيدون منها في تنظيم حياتهم ولو أخذنا سورة يوسف (ع) وطالعنا في محاورها السياسية والاجتماعية والأخلاقية لتوصلنا إلى أن ما في تلك الحوادث والمحاور التي ضبطها القرآن المجيد لنا لا يتعدى أن يكون درساً واقعياً ، في بعض من أيام الله - تعالت أسماؤه - لنعتبر ولنتمز بأوامر الباري - جلّت قدرته - ونتجنب ما يفضبه .

ومطالعة الحوادث التي جرت في تلك الأيام المنعوتة بأيام الله يكون بالشكل التالي : لماذا ألقى يوسف في غيابة الجب؟ .

ومن هو الذي ألقاه؟ .

وما السبب في اختيار يوسف دون غيره؟ .

ولماذا بيع يوسف بثمن بخس؟ .

وكيف ذهب إلى السجن .

وما السبب في تزوجه ملكاً بعد أن كان يباع ويشترى ويظلم ويسجن؟ .

وكيف كان حديث يوسف إلى أبيه؟ .

وما كان حديثه إلى إخوانه الذين ظلموه وألقوه في الجب ، وباعوه! .

وفي الختام نخرج بنتائج عديدة ، منها عفة يوسف في الوقت الذي كان كل شيء مهياً له ، إلا الانقياد للشيطان ! .

وهذه تجربة اجتماعية أخلاقية فذة للإنسان المسلم .

يقول القرآن الكريم في نهاية الأمر : ﴿ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ (١) .

هذه الجملة قالها يوسف لإخوانه بعد تحقق منامه ، حيث تعني : أن الذي يخاف الله ويتقيه ، ويصبر على بلائه يؤتبه أجر المحسنين ، وأنكم وصلتم - أي إخوانه - إلى الذل والهوان بسبب افتقارهم للتقوى أولاً وللصبر ثانياً ، وأن هاتين الصفتين هما اللتان تصلان بالمرء إلى المقام العليّ .

وكذا الأمر في جميع القصص القرآني ، فشاهد قصة إبراهيم وتحطيمه للأصنام ويمكن أن نأخذ منها عبرة وعظة .

وكذلك قصة نوح التي تعدُّ إحدى العبر .

وقصة قوم ثمود وعاد ، وقصة قوم لوط وكيف أفناهم الباري تعالى ، وقصة يونس وكيفية إشراف قومه على الهلكة لولا رحمة من الله .

كل هذا وذاك من القصص والروايات القرآنية الحكيمة من أجل أن يتعظ ابن آدم ، ويعتبر ، ويلتزم أخلاقياً .

وقد ذكرت ذلك فيما سبق وقلت إن نصف الكتاب الشريف يتعلق بالمسائل الأخلاقية المحضة ، هذا في ظاهر الأمر .

أما إذا أمعنا النظر فيه في سوره وآياته ، لانتضح لنا أن كل الآيات والسور القرآنية المباركة هي من أجل بناء الإنسان بشكل يليق به ويسجد الملائكة له .

وعليه ، فالذكير بأيام الله الاستثنائية المليئة بالعبر والمواعظ أمر ضروري ولازم ، ليراجع الإنسان مسيرة حياته ليطابقها مع المسيرة التاريخية الصحيحة والسليمة التي تعرض لها القرآن الكريم في مجمل سوره الشريفه .

إن الأول من فبراير عام ١٩٧٩ يعدُّ أحد أيام الله ، لكونه حادثة غريبة وعجيبة ، علينا أن نجعلها ضمن المسائل والأيام المعبرة ، إنه اليوم الذي رجع

(١) سورة يوسف، الآية ٩٠.

فيه مؤسس الجمهورية الإسلامية إلى إيران ولا يملك سلاحاً إلا لا إله إلا الله ،
ليطرد الشاه المقنن والمرجح بشتى أنواع السلاح ، بل يقال إن إيران كانت
ترسانةً للسلاح الغربي والإسرائيلي ، ولكن الإمام المؤسس استطاع بصدقه
وصبره وتقواه أن يكون أقوى الناس . قال رسول الله (ص) : « إن سرك أن تكون
أقوى الناس ، فتوكل على الله »^(١) .

لقد توكل هذا الرجل على بارئه في يوم عدَّ من أيام الله العظام ، فطرد
الطواغيت إلى حيث لا رجعة ، وأقام حكومة إلهية يلتزم ما جاء به القرآن
المجيد ، وما جاء به الرسول الأكرم (ص) والأئمة من بعده - صلوات الله
عليهم - لقد جلب هذا الإمام محبة الناس دون أن يطلب هو ذلك ، فقاموا
لمقارعة الظلم والفساد الشاهنشاهي البغيض باذلين الغالي والنفيس واضعين
الأرواح إلى الألف ممثلين لأمر قائدهم الذي لم يحد عن نهج الرسول
الأكرم (ص) وأهل بيته الأطهار (ع) .

لقد توكل على الله واعتصم به ، ومن توكل على الله لا يُغلب ، ومن
اعتصم بالله لا يُهزم .

سأل أحدهم الإمام جعفر بن محمد الصادق (ع) عن حدِّ التوكل ؟ .

فقال (ع) له : « حدُّ اليقين » .

فقال : فما حدُّ اليقين ؟ .

قال (ع) : « أن لا تخاف مع الله شيئاً! »^(٢) .

إن الحوادث التي جرت في ذلك اليوم الذي قدم فيه مؤسس الجمهورية
الإسلامية من باريس ، نادرة جداً ، وفيها عبرة وعظة لنا .

لقد وقفت الأمة المستضعفة مقابل مدافع ودبابات الحكومة الجائرة ، ولم
يكن لديهم غير شعارات إسلامية أطلقوها في وجوه المؤتمرين بأوامر الطاغوت ،
فسقط الطاغوت وانتصر الشعب الملتزم لأوامر القائد المتوكل على الله ، الصابر

(١) مكارم الأخلاق/ص ٥٥٢ .

(٢) الكافي/ج ٢ ، ص ٥٧ .

في الله ، المعتمصم به ، والرائق بما في يده ، فنصره الله في يوم من أيامه التي سجلها التاريخ بأحرف من نور .

إن الباري تعالى منح أوليائه عزاً ما بعده عز . لكونهم خرجوا من ذل معصيته إلى عز طاعته .

ومن أحكم علاقاته مع خالقه منحه الباري قوة وبأساً ، وجعل الجميع يدينون له بالولاء .

لقد ملأ الخوف والرعب قلوب المستكبرين حينما رجع الإمام إلى إيران ، وقبل ذلك كان الوضع على هذه الشاكلة ، ولا بأس هنا بذكر حادثة جرت عام ١٩٦٣ حين نفت حكومة إيران الإمام إلى تركيا ، بعد أن اقتادته من بيته في مدينة قم إلى طهران .

وفي الطريق إلى طهران ، وفي سيارة جلس فيها ثلاثة من الضباط الكبار كان يجلس بينهم الإمام - رضوان الله تعالى عليه - بان الرعب والهلع على أولئك الضباط فلم يسمحوا له بالنزول من السيارة للصلاة ، فقال لهم بضرورة التيمم ، فوافقوا على ذلك شريطة أن لا يترجل من السيارة ، وفعل ذلك وصلى صلاته جالساً ﴿ فمن اضطرَّ غيرَ باغٍ ولا عادٍ فلا إثمَ عليه ﴾^(١) .

إن تلك الثورة المباركة لم يحدث نظيرها في العالم في عالم الحضارة والمدنية العصرية .

إننا لم نشاهد ولم نسمع بثورة يجرُّ حب القائد فيها مليون شاب إلى الشارع ليقف إزاء الدبابات والمدافع والجيش والشرطة ، من أجل رجل قال لهم : قوموا لله .

رجل أطاع الله فأعزه ، وخرج على ذل معصية الله إلى عز طاعته ، فمنحه الله عزاً وهيبةً وسلطاناً نصيراً .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا ﴾^(٢) ،

(١) سورة البقرة، الآية ١٧٣ .

(٢) سورة مريم، الآية ٩٦ .

وعلى العكس من ذلك نرى : ﴿ عاقبة الذين أساؤا السوأى أن كذبوا بآياتِ الله وكانوا بها يستهزئُونَ ﴾ (١) .

إنها عظات وعبر لنا ولأبنائنا من بعدنا .

إنها أيام الله التي يجب أن نتذكرها دائماً ، لتستقيم أمورنا الدنيوية والأخروية ، وعلينا أن ندرك مسألة مهمة جداً وهي أن الله تعالى يُمهّل ولا يُمهّل ، إنه يعطي الناس فرصاً كثيرة ليؤوا إلى الخير والصلاح .

ولكن إذا لم يفعلوا ذلك أمهلهم مدةً ثم أخذهم أخذ عزيز مقتدر .

إن أخذه لشديد ، فاتعظ أيها الإنسان يا من يطول بك الأمل في هذه الدنيا الدنيّة .

كان نمرود فاسقاً متجبراً مغروراً وصل به الأمر إلى بناء قصر شاهق طلع على سطحه ليقول للباري تعالى جئت لحريك ، جئت لقتلك ، فإن كنت أهلاً لذلك فارمني بسهم منك - أعاذنا الله وإياك من هكذا مقولات - .

تركه الباري لعقله القاصر مدةً ، ثم أراد أن يفهم الآخرين أنه أضعف من بعوضة ، فبعث إليه بعوضة اخترقت دماغه فحار بذلك بالأمر ، عندما أمر اثنين من حاشيته بأن يضربوا رأسه بالمطارق ، وإذ فعلوا ذلك حتى وصل الدرك الأسفل من جهنم التي وقودها من هم أمثاله .

قال أحدهم : إلهي إذا كان حاصل أرضي لهذا العام كثيراً ، سأخرج من العشر وأوزعه على الفقراء والمساكين ، فلما جاء موسم الحصاد وكان الحاصل جيداً قال : إلهي إن العشر كثير وأن عليّ قروضاً ينبغي أن أسلمها لأصحابها ، فأمهلني إلى العام القادم ؛ فإن كان الحاصل جيداً سأ تبرع بالنصف ، ليقى لي نصف ؛ وجاء الموسم الجديد ، وكان الحاصل أفضل من السنة الماضية بكثير ، ولكن صاحبنا كان يقول : إلهي أريد هذا العام تزويج ابني فأمهلني إلى العام القادم ، ليكون الحاصل كله لك بشرط أن يكون حاصل العام كله لي .

(١) سورة الروم، الآية ١٠ .

ولمّا جاء الموسم الثالث وعزلت القشور عن الحبوب حتى رأى الكذاب ذاك أن المسألة أكبر من أن يعطي محصوله في سبيل الله فنزلت به الآية المباركة : ﴿ ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ أسَاؤُا السُّوْأَى أَن كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ ﴾ (١) .

لقد أحرق الباري تعالى محصوله وزرعه ، ثم أغرق أمواله من دواب وبيوت وما إلى ذلك فكان يندب ويصرخ ويقول : إلهي إن القمح لك وحدك ، والدار والمزرعة لي ، فاصفح عني وتجاوز ، ولكن قضى الله أمراً كان مفعولاً : ﴿ وليخش الذين لو تركوا من خلفهم ذرية ضعافاً خافوا عليهم فليتقوا الله ، وليقولوا قولاً سديداً ﴾ (٢) .

إن تلك الحكاية يمكن أن تكون لنا عبرةً وعظةً لنستقيم على الجادة الصواب من خلال الارتباط بالله ، والالتزام بأوامره ونواهيه لكي نحظى بالأمن والسلام والطمأنينة الإلهية : ﴿ فأئتي الفريقين أحقّ بالأمن إن كنتم تعلمون ﴾ (٣) .

من هي الفرقة التي تستحق الأمن ؟
إنها ﴿ الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون ﴾ (٤) .

إنهم لا يشركون ، ولا يلبسون ما يؤمنون به بالظلم !
﴿ وإذ قال لقمان لابنه وهو يعظه يا بني لا تشرك بالله إن الشرك لظلم عظيم ﴾ (٥) .

عبادة الشيطان وأتباعه والامتثال لأوامره ظلم الله المتعالي وظلم للنفس ؛ فقد يتوغل الإنسان بالظلم والجور إلى درجة يصل معها إلى الحيونة ، بل يصير أضل من الحيوانات نفسها ، فيظلم الآخرين باغتيال أو بنميمة أو بشائنة أو

(١) سورة الروم ، الآية ١٠ .

(٢) سورة النساء ، الآية ٩ .

(٣) سورة الأنعام ، الآية ٨١ .

(٤) سورة الأنعام ، الآية ٨٢ .

(٥) سورة لقمان ، الآية ١٣ .

بتهمة ، وبعد ذلك يأتي ليقول إنه مسلم ! .

كيف ذلك ولم يسلم الناس لا من لسانك ولا من يدك !!؟ .

إنك لا تستحق الأمن لأن الناس لم يأمونك ، وإنما المستحق لذلك هم
الذين لم يلبسوا إيمانهم بظلم ! .

[٢] أيام الله

عرضنا في ما مضى إلى أيام الله تعالى وأنها يجب أن نستثمرها لتربية أنفسنا وأبنائنا ، ولبناء الإنسان المسلم السوي ، وأن التذكير بأيام الله ورد في القرآن المجيد لكي يكون لنا عبرة وعظة ؛ وأن مسيرة التاريخ التي احتوت على القصص أنبأنا بمصائر ومآل الأقسام الذين لم يلتزموا بأوامر ونواهي الخالق المصور - جلّت أسماؤه - .

إن الأيام التي نعتها الباري بأنها أيامه كانت حافلة بالحوادث المثيرة والمدهشة التي تدلل على عظمته وجبروته .

ولو طالع الإنسان تلك الحوادث بدقة وأمعن النظر فيها لاستفاد كثيراً من تجارب الآخرين ولتمكن من ممارسة (التوحيد الأفعالي) الذي يؤدي بالبشرية إلى سعادة الدارين ، بعيداً عن الاضطراب والقلق والحزن مانحاً إياهم الوقار والسكينة والطمأنينة .

قسّم علماء الكلام والفلاسفة التوحيد أربعة أقسام :

١ - التوحيد الذاتي :

وهو التوحيد الذي شاهدناه وتعلمناه من آباءنا وأجدادنا حيث كانوا يقولون لنا دائماً : إن الله واحد ، ولا يمكن أن يكون غير ذلك ، وأن التوحيد هو الأصل الأول في أصول الدين ، وبعبارة أخرى التوحيد يعني : أن في عالم الوجود واحداً واجب الوجود حاكماً عادلاً ، وليس اثنين .

وهذا ما يمكن التذليل عليه بوضوح في كثير من المواقف والحوادث والقضايا .

يقول صدر المتألهين في أسفاره :

واجب الوجود : موجود لا نهاية له ولا حد ، ولو كان كذلك ، لما كان واجب الوجود .

إنه موجود في كل مكان وزمان ، كان منذ الأزل وسيبقى إلى الأبد . وعندما نتصور هكذا موجود بالإدراك تكون الثنية مستحيلة ، ولهذا يكون « واجب الوجود » أحاديته ، فإذا قلنا بثنائته صار محدوداً ، وما حد سقط عنه قول « واجب الوجود » .

فالتوحيد الذاتي هو : وحدانية الله ، وليست ثنائته ، إذ لا ثنائية في الأمر ، والدليل على ذلك واضح بنظر الفلاسفة والعرفاء ؛ وبالقدر الذي يدركه البشر يكون واجباً ؛ وإدراكه على أنه واحد غير محدود يسمى بالتوحيد الذاتي .

٢ - التوحيد الصفاتي :

وهو : أن صفات الله - تعالت أسماؤه - عين ذاته .

وإذا أردنا تقريب المعنى إلى الأذهان نقول : إن التوحيد الصفاتي هو نظير الملوحة بالنسبة للملح ، أو نظير الرطوبة بالنسبة للماء .

فالملح يعني الملوحة ولا يمكن فصل الملوحة عن الملح ، كأن يكون الملح شيئاً ذاتياً والموحة عارض أو حالة طارئة ! .

والحالة الطارئة هي كالإنسان وعلمه ، والإنسان وقدرته ، والإنسان وإرادته وشعوره ، أي كل هذه زائدة على ذات الإنسان ، فالإنسان لم يكن عالماً في يوم من الأيام ، لكنه أضحي كذلك بعدما اكتسب العلم ، وعندما كان طفلاً لم يكن يمتلك قدرة على المشي أو الصعود أو ما شابه ذلك ، لكنه اكتسب هذه القدرة بعد مرور أعوام وأيام .

وعندما يشيخ تنسلخ منه تلك القدرة ؛ ولكن لا يمكن انسلاخ وفصل الملوحة عن الملح أو الرطوبة عن الماء فوصل الرطوبة يعني انعدام الماء .

وكذا الأمر بالنسبة لصفات البارئ تعالى ، فعالم تعني العلم وتعني أنه تعالى العلم والإرادة ، والقدرة والشعور ، كلهن غير زائدات على ذات الله المقدسة ، بل عين ذاته .

فوجوده يعني وجود العلم ، ويعني الإرادة والقدرة . ووجود الملح يعني الملوحة . فالملوحة هي الملح وهذا الشيء تطرق إليه أبو الأئمة أمير المؤمنين علي (ع) في أول نهج البلاغة ، فقال : « . . . وكمال توحيده الإخلاص له ، وكمال الإخلاص له نفي الصفات عنه ، لشهادة كل صفة أنها غير الموصوف ، وشهادة كل موصوف أنه غير الصفة : فمن وصف الله سبحانه فقد قرنه ، ومن قرنه فقد ثناه ، ومن ثناه فقد جزأه ، ومن جزأه فقد جهله ، ومن جهله فقد أشار إليه ، ومن أشار إليه فقد حدّه ، ومن حدّه فقد عدّه . . . »^(١) .

قال صدر المتألهين - عليه الرحمة - في أسفاره : إن التوحيد الصفاتي بالنسبة للإنسان ينحصر بمقدار التصور والإدراك لواجب الوجود بالقدر الذي لا يجعله محتاجاً للخروج على قاعدة صفات الله عين ذاته .

إن إدراك مسألة التوحيد الذاتي والتوحيد الصفاتي يجعل المرء موحداً عقائدياً ويلزمه أن يكون موحداً أيضاً بسلوكه وعمله .

٣ - التوحيد العبادي :

يعني أن الإنسان لا ينبغي له أن يعمل من أجل أحد ، بل يجب عليه أن يكون عمله لله وحده لا شريك له ، وبعبارة أخرى لا ينبغي له أن يجعل أحداً يتحكم في عواطفه وقلبه ، ومن فعل ذلك فهو عابد لذلك الشخص ، وذلك الشخص إلهه .

قال البارئ في محكم كتابه : ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهُهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ﴾^(٢) .

إن الذين يتحكم الهوى في قلوبهم وعقولهم أشد شركاً من أولئك الذين

(١) نهج البلاغة/صحي الصالح ، ص ٣٩ - ٤٠ .

(٢) سورة الجاثية ، الآية ٢٣ .

كانوا يعبدون الأوثان والأصنام الحجرية والخشبية ، فهؤلاء يقولون : إنها تقربهم زلفى من الله ، أما الذي اتخذ إلهه هواه فلا يعبد الله ولا يتقرب بهواه ذلك إلى الله زلفى .

فالترجيد العبادي : هو الخضوع لله فقط : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ ﴾^(١) ، وهو تقديم ما هو حقه التأخير ويفيد الحصر .

فـ « نعبدك » ضمير متقدم ، وتقدم الضمير دلالة على الحصر ؛ وتعني أننا نعبدك فقط ، ولا نعبد غيرك ، سواء كان هوى أم شيطاناً أم أوثاناً أو غير ذلك .

فإذا أصبح الإنسان عبداً للشهوة ، أو عبداً للأموال ، تعلق قلبه بالشهوات وتعلق قلبه بالأموال ، وهذا التعلق يمنعه من أداء واجبه المفروض عليه ، فالذي تعلق قلبه بالأموال لا يتأتى له أن يعطي حقوق الفقراء والمساكين حاله حال ذلك الذي كان في زمن الجاهلية يعبد الأوثان والأصنام والحجر ؛ وحاله حال هؤلاء الذين يعبدون في زماننا الحاضر (متاع الرجل أو متاع المرأة) في الهند واليابان .

فإذا كان الفرد لا يتمكن من الحؤول دون غريزته الجنسية ، يُعدُّ عبداً للأصنام فذاك الذي في اليابان يعبد (متاع الرجل أو متاع المرأة) لا يختلف عن هذا العابد للشهوات أو ذلك الذي يعبد الأوثان أو الذي يعبد الأموال ، فكلهم عبيد لغير الله تعالى .

إن سورة يسّ المباركة تتصدى لمثل هذه الأمور ، وهي من السور التي ينبغي أن تقرأ في كل صباح لتأثيرها الملحوظ في الحياة الدنيوية والأخروية ، ونقرأ فيها : ﴿ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴾^(٢) .

أي : أنسيتم أيها الناس عهدي إليكم أن لا تعبدوا الشيطان الذي أغوى أبابكم آدم وأخرجه من الجنة وزوجه ، وأقسم مراراً على تضليلكم وإضلالكم ؟

(١) سورة الفاتحة، الآية ٥ .

(٢) سورة يسّ، الآية ٦٠ .

ألا تعلمون أنه عدوٌ لكم وأن هذا الأمر غير خاف على أحد .

فالذي يعبد الأموال أو النساء ، أو السلطة ، أو الشهرة ، عابد للشيطان الرجيم . وفرقه مع ذلك الذي لا يؤمن بالتوحيد الذاتي ؛ أنه يُعدّ مشركاً بالله بحبه للمال وعبادته له ، والذي لا يؤمن بالتوحيد الذاتي يقول بإشراك إله آخر مع الله .

فالاثنان يلتقيان في نقطة واحدة هي الشرك سواء كان إلهاً آخر أم مالأً أم شهوةً ونحوها .

٤ - التوحيد الأفعالي :

وهو : أن الإنسان لا ينبغي أن يرى غير الله في هذا العالم مؤثراً ، وقد بين القرآن المجيد التوحيد الأفعالي بالآية المباركة التي تقول : ﴿ قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكُ الْمَلِكِ تُؤْتِي الْمَلِكَ مِنْ تَشَاءُ ، وَتَنْزِعُ الْمَلِكَ مِنْ تَشَاءُ وَتَعَزُّ مِنْ تَشَاءُ وَتَذُلُّ مِنْ تَشَاءُ ، يَدُوكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (١) .

إن هذه الآية الشريفة تعني بالضبط أن لا إله إلا الله ؛ أي لا مؤثر في الوجود إلا الله ، وما دونه وسائل فقط .

فالسعادة مرهونة بالله ، فإذا تمكنا أن نصل إليها بواسطة العلم أو القدرة أو الشهرة ، يعني أننا وصلنا إليها بتأثير من الله تعالى فهو الذي أعطى العلم ، والقدرة ، والوجاهة ، ولا يتأتى لأحد أن يأتي بهذه النعم لولاه جلّت صفاته ، وأن البشر مجرد وسيلة لوجود السعادة .

فإذا كان توحيدك العبادي متخلخلاً بنسبة (٩٠٪) يكون التخلخل في التوحيد الأفعالي (٩٥٪) بل أكثر في بعض الحالات الطارئة .

ولذا يكون تعريف زليخا - في سورة يوسف للقدرة شركاً بالله العظيم : ﴿ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ ﴾ (١) .

فقد يقول البعض إنه مؤمن ، وإنه يعلم أن صفات الله عين ذاته ، وأن قلبه

(١) سورة آل عمران، الآية ٢٦ .

(٢) سورة يوسف، الآية ١٠٦ .

لا يحكمه إلا الباري تعالى ؛ ولكنه عندما يصل إلى التوحيد الأفعالي يتلکا ، ويؤكد القول : إرادتي وعلمي وجاهي وجلالي ؛ وهذه كلها لا تتناسب مع التوحيد الأفعالي ، لأن الإرادة لله وحده ، والعلم من الله وحده ، والمال مال الله وحده .

والإنسان يصعب عليه أن يطابق بين رسوخ هذا التوحيد والعمل به ، فمن فقد هذا التوحيد تراه دائم الاضطراب ، يسيطر عليه الخوف والقلق ونحوهما .

إن من سيطر على قلبه هذا النوع من التوحيد لا يفرح بما يأتيه ، ولا يأسى على نعمة سلبت منه ، لأنه يؤمن إيماناً كاملاً بأن ما يقدره الباري تعالى هو الأفضل ، وما يقدره البشر لا يمكن أن يرقى إلى ما يقدره المولى تعالى .

يقال : إن إحدى النساء العارفات كانت تحتضر ، فاجتمع من مثلها حولها ، فقالت إحداهن : نحن العرفاء لا نعرف عارفاً إلا من خلال شكره على النعم .

وقالت أخرى : نحن لا نعرف العارف إلا من خلال شكره في البلاء .

فقالت المرأة التي على فراش الموت : العارف لا نعرفه إلا من خلال نظرته الحسنة إلى عالم الوجود ؛ إنه لا يرى إلا الحسن في عالم الدر .

فالذي يأتي من الحق تعالى حسن وجميل ، وما يأتي منه إلا لمنفعة أو فائدة ، وما يأتي منه هو المصير المحتوم الذي يجب أن يأتي ، فالحزن والهَمُّ لا يمكن أن يغير المصير ، وكذا الفرح والسرور . وإن الاثنين فيهما ضرر على الحالة النفسية للبشر : ﴿ لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم ﴾ (١) .

أعزائي ؛ عليكم بمطالعة تاريخ الأسرة البهلوية في إيران ، ومطالعة تاريخ الساواك (الأمن والمخابرات الإيرانية) وزمان الطاغوت وحكومته .

وينبغي لكم مطالعة أوضاع الحرس الشوري ، ومتطوعي جهاد البناء

(١) سورة الحديد، الآية ٢٣ .

والمسؤولين ؛ وكيفية انفلات تلك القدرة العظمى من يد تلك الأسرة الفاسدة ووصولها إلى أيدي المستضعفين من شعب إيران البطل .

من طهران وأصفهان أرادوا أن يذهبوا به إلى إحدى الجزر لموت فيها ذليلاً ، وكان حينها في منزل أحد المتمولين الأصفهانيين ، كان يقطع إيوان ذلك البيت جيئةً وذهاباً ويقول : أي ملك الملوك ، يا أيها المقتدر أين الملوكية التي كانوا ينعنونك بها ؟ وأين القدرة التي كانوا ينادونك بها ؟ .

لقد كان شاه إيران يخافه الداني والقاصي داخل وخارج إيران على نطاق المنطقة الخليجية ، وكان اسمه كافياً لإخافة من يفكر في سوء يمكن أن يمس ذلك الشاه المقبور .

ذهب ذلك الشاه إلى غير رجعة ، جمع بساطه في ساعة واحدة وذهب إلى حيث حسابه ، ولو تأتى لابنه أن يعتبر ، لكان اعتبر بتلك الكتابة التي خطها أبوه على ذلك الحيوان الذهبي الموجود في قصر (سعد آباد) وجاء فيها : أين القدرة ؟ أين القوة ؟ أين السلطة ؟ ﴿ كل يومٍ هو في شأنٍ ﴾^(١) .

سأل أحد الملوك وزيره عن معنى : ﴿ كل يومٍ هو في شأنٍ ﴾ فلم يتمكن من إعطاء جواب ناجح ، وذهب إلى أحد العلماء ، فقال له : لنذهب إلى الملك معاً فأعطيك الجواب هناك .

وعند وصولهما إلى الملك قال : إذا نصبتموني وزيراً سأقول لكم الجواب ! .

فوافق الملك على ما قاله العالم ؛ وبعد التنصيب قال : إن معنى : ﴿ كل يومٍ هو شأنٍ ﴾ هو أن وزيراً من وزراء الملك عالم ديني ، وأن العالم الديني أضحي وزيراً للملك .

لقد كانت قوة و قدرة الشاه كبيرة ، ولكنه بددها بالسوء ، حيث كانت عناصره وجلالته يشددون من ضرباتهم في أساس كل شيء فيحيلون تلك

(١) سورة الرحمن، الآية ٢٩ .

الأسس إلى هشيم تذرّوه الرياح ، وقد ساندت الدول العظمى ومنها أمريكة ذلك الشاه بشتى الوسائل والأجهزة ، ليتمّ لهم ما يريدون ، ولكن الله كان لهم بالمرصاد .

إنه لا يريد إلا أن يجري أحكامه في الأرض ، ولا تسبق إرادة إرادة الله سواء كانت داخلية أم خارجية ، فهو القوة وهو العظمة ، وهو الجبروت ، ولا يتأتى لغيره أن يكون ذلك ، بل لا يليق لأحد أن يكون شيئاً من ذلك .

﴿ قل اللهم مالك الملك ، تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء ، وتعزّز من تشاء ، وتذل من تشاء ، بيدك الخير ، إنك على كل شيء قدير ﴾ (١) .

(١) سورة آل عمران ، الآية ٢٦ .

مصائبُ الزهراءِ فاطمة (ع)

إن فاطمة الزهراء - سلام الله عليها - امرأة لم يأت مثلها ولن يأتي أبداً ، كان رسول الله (ص) يطبق هذه الآية على الزهراء ويقروها لها : ﴿ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ ﴾ (١) .

لا يتأتى لأحد في العالمين أن يصل إلى حسب أو نسب فاطمة الزهراء - سلام الله عليها - فأبوها حبيب الله ، رسول رب العالمين ، وخاتم النبيين ، وزوجها أمير المؤمنين ، وسيد الوصيين ، وخليفة رسول رب العالمين ، وولداها الحسن والحسين ريحانتا رسول الله (ص) وسيّدا شباب أهل الجنة ؛ لقد كانت أخلاقها أخلاق الرسول الأمين المصطفى محمد (ص) ، وأمها أفضل النساء بعدها فهي السند الأول والمعين الأفضل للرسول الأمين محمد (ص) ، وقد أفنت كل ما لديها على جادة الإسلام العزيز وكانت في زمانها أثري من في الحجاز كلها ، وعندما قبضت لم يكن لديها كفنٌ وهذا خير دليل على تضحياتها وإثارها .

وعند الاحتضار أوصت ابنتها الزهراء البتول بإخبار النبي (ص) بأن والدتها لا تملك كفناً ولا بأس أن يكفنها بتلك العباءة البالية التي كان يستخدمها في أثناء نزول الوحي عليه لأول مرة .

وقبل انعقاد نطفة الزهراء البتول - سلام الله عليها - جاء الخطاب إلى

(١) سورة آل عمران، الآية ٤٢ .

النبيّ (ص) باعتزال القوم أربعين ليلة كي لا يصيب الكدر نفس وروح الرسول الكريم (ص) من خلال تماثله للناس .

فكان الرسول الأمين (ص) حينها يذهب إلى غار حراء في جبل ثور ، لينشغل في عبادة الله - جلّت صفاته - ولم يكن وقتها يتصل مع أحد أو يتحدث إلى أحد .

وفي أثناء هذا كانت خديجة - سلام الله عليها - خلف جدران بيتها لا تخرج إلى أحد ولا تستقبل أحداً ولا تكلم أحداً ؛ وفي الليلة الحادية والأربعين نزل الأمين جبرائيل ليقول ل (ص) : اذهب إلى منزلك ، فذهب وطرق باب داره ، ليدخل فيه ولتنزل عليه مائدة من السماء لم يشاركه فيها غير زوجه خديجة أم المؤمنين .

إن قانون التغذية يؤكد مسألة الطعام الحلال ، وأنواع الطعام التي يكون بعضها مرفقاً للروح أو مقسباً لها .

وهكذا حملت أم المؤمنين بفاطمة الزهراء التي قال فيها الرسول الأكرم (ص) : « ابنتي فاطمة سيدة نساء العالمين »^(١) .

إن التاريخ لم يتعرض لحياة الزهراء (ع) في السنوات التسع الأولى ، ولكنه أخبر عن زواجها الذي كان في ربيعها التاسع من ابن عم الرسول الأكرم (ص) . والتاريخ يخبرنا عن الحياة المتلاطمة في تلك السنين المملوءة بالوقائع والأحداث ويعقب تلك السنوات المعجاف نزول سورة الانشراح على صدر الحبيب محمد (ص) : ﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ، وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ، الَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴾^(٢) .

إن الحقبة الزمنية التي تربّت فيها الزهراء (ع) في بيت أبيها كانت مملوءة بالمصائب والبلايا والحروب القاصمة للظهور ، ففي تلك الفترة خاض الرسول (ص) (٧٤) حرباً ، غير الحصار الاقتصادي الذي سبّب نقصاً ملموساً

(١) بحار الأنوار/ج ٤٣ ، ص ٢٢ .

(٢) سورة الانشراح .

من كان له سيف لم يكن له غلافه ، ومن كان له غلاف لم يكن له سيف ، ولم يكن للغالبية العظمى من مقاتلي الإسلام فرس ، بل إن المقاتلين لشيء ينتعلونه فأغلبهم كانوا حفاة تدمي الأشواك والصخور أرجلهم عند الكرّ والفرّ في تلك الحروب المفروضة على رسول الله الكريم محمد (ص) .

وكانت حرب « مؤتة » والمسلمون لا يمتلكون طعاماً كافياً ، فطعام كل مقاتلين تمرّة واحدة يقسمانها عند منتصف النهار .

وفي « ذات الرقاع » سار الجميع وليس لأحد منهم دابة تحمله ، ولم يتوقف الأمر عند ذلك بل تعدّاه إلى كون المقاتلين حفاة مما اضطرهم إلى لفّ أقدامهم بخرق بالية خوفاً من أن تصيبها الأشواك والأحجار الناتئة ، وعليه اشتهرت هذه الواقعة بـ « ذات الرقاع » .

كان سفير الإسلام في هذه السنوات العشر هو « دحية الكلبي » يذهب من المدينة إلى بلد الروم ويرجع لا يحمل معه أي طعام ، وكان طعامه لبن ناقته التي كان علفها تلك الأشواك الصحراوية الجافة ؛ وكانت استراحته عندما ينام تحت ظلالها ، وفراشه جلالها ، وبالرغم من ذلك أنجز مهمته على أكمل وجه .
هكذا كان وضع المدينة عندما وُلدت الزهراء البتول ، واستمر ذلك الحال ثلاث عشرة سنة من المحاصرة الاقتصادية والفقر المقدع والحروب الضروس والبلايا والمصائب .

لقد عاشت الزهراء البتول في وسط الصدمات والمصائب التي ألحقها الكفّار والمنافقون بالمسلمين ، حيث شاهدت التعذيب الذي كان يمارس بحق المؤمنين الأوائل من مثل سمية - أول شهيدة في الإسلام - وياسر بن عامر ، وعمار بن ياسر

لقد رأت الزهراء بأُمّ عينها الدماء تسيل من أقدام الرسول الأكرم (ص) ، بعد أن بعث الكافرون صبيانهم لضرب النبي الأكرم (ص) بالحجر والأشواك والأغصان وما إلى ذلك .

كان الرسول الأكرم (ص) دائم الذهاب إلى غار حراء للتهجد والتعبّد والابتعاد عن هؤلاء الذين لا يعرفون الرحمة ولا الإنسانية ، وكان أمير المؤمنين (ع) يذهب إليه في بعض أحيانه حاملاً إليه الطعام فيراه يستغفر لقومه ويقول : « اللهم اهد قومي فإنهم لا يعلمون » .

وبعد وفاة السيدة خديجة أمّ المؤمنين ، وأبي طالب (ع) ، فقد النبي الأكرم (ص) أقوى ظهرين له على الإطلاق ، ولم يبق له إلا ابنته فاطمة (ع) وأمير المؤمنين (ع) .

وكانت الزهراء دائمة القول : لو كان أبو طالب حيّاً ، لما استطاع المشركون أن يتجرأوا على رسول الله (ص) في بعث أطفالهم وصبيانهم ليرموه بالأحجار . . .

كانت الزهراء البتول أمّ أبيها ، فكانت البنت الموسمية المسنّلة لأبيها ، ومستودع سره العظيم ، ونور عينه ، وثمرة فؤاده .

لم يكن للزهراء البتول كُفءٌ غير أمير المؤمنين علي (ع) ، فخطبها إلى أبيها ، ولم يكن لديه مهرها ، فأمره الرسول ببيع درعه ليتمكن من تجهيزها ، وقد كلف جهازها (٦٣) درهماً ، اشتمل على قميص وإناء لشرب الماء وحصيره وإناء من الخزف لحزن الماء ، وإبريق من الطين وما شابه ذلك .

وعندما نظر الرسول (ص) إلى جهاز الزهراء البتول اغرورقت عيناه بالدموع ودعا الباري تعالى أن يبارك لهما زواجهما ؛ وفي الطريق إلى منزل علي (ع) أهدت الزهراء قميصها الذي كان من ضمن المهر إلى إحدى فتيات لترد منزل الزوجية بقميص قديم ، ويقال إن الآية المباركة : ﴿ لَنْ نَأْتِيَ النِّسَاءَ حَتَّى تَتَفَقَّهُوا مِمَّا تَحِبُّونَ ﴾^(١) نزلت بحقّ الزهراء البتول لفعالها ذاك ، وهي أفضل هدية لها جاء بها الرسول (ص) إليها في اليوم الثاني من زفافها .

فالزهراء البتول (ع) كُفّ عليّ (ع) ، وعليّ (ع) كُفّ الزهراء - سلام الله

(١) سورة آل عمران، الآية ٩٢.

عليهما - كانا يقتسمان العمل ، فالزهراء (ع) تلتزم أعمال البيت من طهي وكس واهتمام بالأولاد ، والإمام علي (ع) يسعى جاهداً لجلب الماء والغذاء وما إلى ذلك من أعمال ترتبط بخارج المنزل .

وعليه كانت الزهراء (ع) مسرورةً جداً لتلك القسمة التي أمرهم بها حبيب الله ورسوله محمد (ص) .

ولدت أم الحسين فاطمة بنت النبي الأقدس (ص) في السنة الثانية من البعثة ، وقيل : الخامسة ، واستشهدت في العام العاشر من الهجرة ، وللرسول (ص) في حقها كلمات وعبارات صحيحة جاءت في كتب العامة والخاصة .

وقد لقيت في حياتها من الآلام والمصاعب والتعذيب ما لم يكن في الحسبان مع سماع الصحابة بأجمعهم قول النبي (ص) : « فاطمة بضعة مني ، من سرها فقد سرني ، ومن ساءها فقد ساءني ، فاطمة أعز البرية علي »^(١) .

قال رسول الله (ص) : « الحسن والحسين خير أهل الأرض بعدي وبعد أيهما ، وأمهما أفضل نساء أهل الأرض »^(٢) .

وقال أيضاً (ص) : « إن فاطمة بضعة مني ، وهي نور عيني ، وثمرة فؤادي ، يسوؤني ما ساءها ، ويسرني ما سرها ، وإنها أول من يلحقني من أهل بيتي ... »^(٣) .

عن علي بن الحسين بن علي عن أبيه الحسين (ع) قال : « لما مرضت فاطمة بنت النبي (ص) أوصت إلى علي (ع) أن يكتفم أمرها ويخفي خبرها ، ولا يؤذن أحداً بمرضها ففعل ذلك ، وكان يمرضها بنفسه ، وتعينه على ذلك أسماء بنت عميس - رحمها الله - على استسرار ذلك كما وصت به ، فلما حضرته الوفاة وصت أمير المؤمنين (ع) أن يتولى أمرها ويدفنها ليلاً ، ويُعفي

(١) بحار الأنوار/ج ٤٣ ، ص ٢٣ .

(٢) بحار الأنوار/ج ٤٣ ، ص ٢٠ .

(٣) بحار الأنوار/ج ٤٣ ، ص ٢٤ .

قبرها ، فتولى ذلك أمير المؤمنين (ع) ، ودفنها ، وعفى موضع قبرها ، فلما نفض يده من تراب القبر هاج به الحزن فأرسل دموعه على خديه ، وحول وجهه إلى قبر رسول الله (ص) فقال : « السلام عليك يا رسول الله مني ، والسلام عليك من ابنتك وحببتك وقرّة عينك ، وزائرتك ، والبائتة في الثرى بيقعتك ، والمختار لها الله سرعة اللحاق بك ، قلّ يا رسول الله عن صفيتك صبري ، وضعف عن سيّدة النساء تجلّدي ، إلا أن لي في التأسي بستك والحزن الذي حلّ بي بفراقك موضع التعزي ، فلقد وسدتك في ملحودة فبرك بعد أن فاضت نفسك على صدري ، وغمضتكم بيدي ، وتولّيت أمرك بنفسي ، نعم ، وفي كتاب الله أنعم القبول ، إنّا لله وإنا إليه راجعون ؛ وقد استرجعت الوديعه ، وأخذت الرهينة ، واختلست الزهراء ، فما أقبّح الخضراء والغبراء يا رسول الله ، أما حزني فرمد ، وأما ليلي فمهدّ ، لا يبرح الحزن أو يختار الله لي دارك التي أنت فيها مقيم ، كمدّ مقيح ، وهمّ مهيج ، سرعان ما فرق الله بيننا ، وإلى الله أشكو ، وستنبك ابنتك بتظاهر أمّتك عليّ ، وعلى هضمها حقها ، فاستخبرها الحال ، فكم من غليل معتلج في صدرها لم تجد إلى بثه سبيلاً ، وستقول ويحكم الله ، وهو خير الحاكمين .

سلام عليك يا رسول الله ، سلام مودّع لا سئم ولا قال ، فإن أنصرف ، فلا عن ملالة ، وإن أقم فلا عن سوء ظن بما وعد الصابرين ، الصبر أيمن وأجمل ، ولولا غلبة المستولين علينا ، لجعلت المقام عند قبرك إلزاماً ، وللبثت عنده معكوفاً ، ولأعولت إعوالم الثكلى على جليل الزرية ، وبعين الله تُدفن ابنتك سراً ، وبهتضم حقها قهراً ، ويُمنع إرثها جهراً ، ولم يطل العهد ، ولم يخلُ منك الذكر .

فإلى الله يا رسول الله المشتكى ، وفيك أجمل العزاء ، وصلوات الله عليك وعليها ورحمة الله وبركاته (١) .

قال الإمام جعفر بن محمد الصادق (ع) : « إذا كان يوم القيامة جمع الله الأولين والآخرين في صعيد واحد ، فينادي منادٌ غصوا أبصاركم ، ونكسوا

(١) أمالي الشيخ المفيد/ص ١٧٢-١٧٣ .

رؤوسكم حتى تجوزَ فاطمة بنت محمد (ص) على الصراط .

قال : فيغضُّ الخلائق أبصارهم ، فتأتي فاطمة (ع) على نجيب من نُجَبِ الجنة يشيعها سبعون ألف ملك ، فتقف موقفاً شريفاً من مواقف القيامة ، ثم تنزل عن نجيبها ، فتأخذ قميص الحسين بن علي (ع) بيدها مضمخاً بدمه وتقول : يا رب هذا قميص ولدي ، وقد علمت ما صنَّع به فيأتيها النداء من قبل الله عزَّ وجلَّ : يا فاطمة لك عندي الرضا .

فتقول : يا رب انتصر لي من قاتله فيأمر الله تعالى عنقاً من النار ، فتخرج من جهنم فتلتقط قنلة الحسين (ع) كما يلتقط الطير الحَبَّ ، ثم يعود العنق بهم إلى جهنم فيعذبون فيها بأنواع العذاب ، ثم تركب فاطمة (ع) نجيبها ، حتى تدخل الجنة ومعها الملائكة المشيعون لها وذرَّيتها بين يديها ، وأولياؤهم من الناس عن يمينها وشمالها (١) .

(١) أمالي الشيخ المفيد/ص ٨٤ .

النفس الأمارة

إن جميع الموجودات تمتلك سيراً وحركةً موسومةً بالمسيرة الإلهية ، وإن عالم الوجود يشبه القافلة في حركتها ، ولكنه يختلف في سيره كونه يسير صوب الباري تعالى ، وأن الأفراد في حركتهم ومسيرتهم إلى الله ينقسمون إلى ثلاثة أقسام :

قسم وجد الطريق القويم وسار عليه ، كما سار الأنبياء والأوصياء ، وأن لهذا النوع أو القسم من الأفراد أعداء الداء يريدون إيقاعهم في شرك السُّبُل المنحرفة ، وأن هؤلاء الأعداء على قسمين : الأول : العدو الباطني ، والثاني : العدو الخارجي ؛ وقد تحدثنا فيما سبق عن الغفلة والوسواس وهما يشكِّلان العدوَّ الأول والثاني من الأعداء الباطنيين .

أما بالنسبة للعدو الباطني الثالث وهو النَّفسُ الأمارة بالسوء ، فيعدُّ العدوَّ الأخطر من تلكم التي تحدثنا عنها فيما سبق .

والنفسُ الأمارة : تعني بها الميول والغرائز والرغبات والهوى ، وحب التنقل هنا وهناك على وفق ما تمليه علينا الرغبات الترفية .

وقد عرض القرآن الكريم لهذه المسألة فضرب لنا مثلاً في قصة يوسف الصديق الذي كان يقول : ﴿ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ ﴾ (١) .

(١) سورة يوسف، الآية ٣٣ .

أي : ألهي ، إن لم تدركني رحمتك ، فسوف تميل بي النفس الأمانة إلى حيث الهلاك ، وعندها سأكون من الجاهلين .

وفي آية أخرى يقول الباري تعالى في محكم كتابه : ﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَىٰ بُرْهَانَ رَبِّهِ ﴾ (١) .

أي : مالت زليخا صوب يوسف ، ودفعت النفس الأمانة يوسف (ع) إلى مقربة من الميلان ، ولكن رافة الله وعنايته وعصمة يوسف حالت دون ذلك الميل ؛ ﴿ بُرْهَانَ رَبِّهِ ﴾ تعني هنا العصمة التي تحول دون ارتكاب المعصية .

وفي تفسير آخر لهذه الآية جاء ما مضمونه :

إنها همت بفعل الفساد ، وهمَّ يوسف (ع) لمتعتها من ذلك بعد أن عصمه الله تعالى من الزلل والخطأ .

عزيزي القاريء الفاضل : لا يخفى عليك أن القرآن الكريم ليس بكتاب قصة ، متى أراد الإنسان التلذذ بالقصص قراه ، ولا هو بكتاب تاريخ يريد رواية فترة زمنية عن حياة أحد الأنبياء (ع) مع بضعة نساء أخذت الشهوة منهن كل مأخذ ، ولكنه كتاب أخلاقي محض ، لا يضم بين صفحاته إلا المثل والخلق الرفيع السامي ليتعرف الناس نفوسهم الأمانة بالسوء كما يتعدوا عن الرذيلة .

واعلم أن النفس الأمانة تنحرف بالإنسان إلى حيث الرذيلة ، إذا ما غفل عن نفسه قليلاً مهما كان عفيفاً . إنها تشجع صاحبها وترغبه في عمل المعاصي ، وعندما يرد الإنسان موارد السوء ، تشجعه ثانية أن يستمر في عمل المعصية ، وبعد ذلك تحبب إليه عمل المعصية ، ليراه مسألة طبيعية ولا غرابة فيها ، وحينئذ يصبح عمل المعاصي ملكة لا يمكن التخلي عنها إلا بصعوبة بالغة ﴿ إِنَّ النَّفْسَ الْأُمَّةَ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَجَمَ رَبِّي ﴾ (٢) .

(١) سورة يوسف، الآية ٢٤ .

(٢) سورة يوسف، الآية ٥٣ .

والنفس الأمارة هي التي تأمر بالرغبات والأمانى والهوى ، وأمارة صيغة مبالغة تشير إلى أن النفس تلحُّ بالأمر الكثير ، وهي كناية عن عدم شبعها ، والفرد الذي اتخذَ إلهه شهوته الجنسية لا يتأتَّى له أن يشبع من الجنس ولو أعطى كل نساء الدنيا ، والفرد الذي اتخذَ إلهه الشهوة لا يروي غليله ، حتى لو سُخِّرَتْ له الكرة الأرضية بأكملها ، والذي اتخذَ إلهه حبَّ الرئاسة لا يشبع ولو تسلَّطَ على من في الأرض جميعاً ؛ وأن هذه الشهوات لا تتزامن مع الأكل الكثير ، ولا أكل الإنسان إلى حد الانفجار .

فالشهوات والرغبات لا تقف عند حد معين ، لذا يقول علماء النفس : إن الرجل الشهوانيَّ أو المرأة الشهوانية يفضَّلان إرضاء شهواتهما ؛ التلذُّذ بالحرام دون الحلال ؛ وأن النفس الأمارة التي لا تردع تميل إلى استطعام الحرام دون الحلال هذا إذا تسلَّطت الغرائز والأمنيات على النفس البشرية ؛ ولا ينتهي تسلُّط الشهوات على الإنسان إلا بعد أن يدخل نار جهنم الحامية ، فالشهوات لا تترك الإنسان إلا بعد إدخاله في أسفل السافلين .

يقال : إن ذا القرنين وبالرغم من فتوحاته المتمادية وامتلاكه للكثير من البلدان قال : بعد موتي عليكم بإخراج يدي من التابوت ، ومتى رأيتم جمعها وانسدادهما ادفنوني في المكان الذي تتجمع فيه .

أخرجوا يده من التابوت وساروا به ولكنهم لم يروا يده إلا مفتوحةً فقال لهم أحد العلماء : إذا أردتم جمعها فضعوا فيها حفنة من تراب ، فحصل ما لم يكن بالحبيان ، واجتمعت أصابعه ودفن في ذلك المكان ؛ وبعد ذلك قال العالم : إن الإنسان لا يشبع من شيء أبداً إلا أن يكون قانعاً ، أو يموت دون تلك الرغبة .

إن الإسلام العظيم لا يقول بقتل تلك النفس الأمارة ، فقتلها محرم في قانون الإسلام ، ولكن الإسلام يأمر بتهدئتها وصدعها وردعها لتتعوَّد ما تريد تمويدها وفق نظام الإسلام العظيم .

جاء في تفسير الصافي أن ثلاثة أشخاص ابتعدوا عن الدنيا وما فيها ، فتركوا نساءهم وهجروا معاشرَةَ الناس ، وصمَّموا على عدم تذوق لذيق الطعام .

وعندما ذهبت إحدى زوجات هؤلاء الثلاثة إلى عائشة ، قالت لها متعجبةً
- بعد أن شاهدت عليها عدم الترتُّين مثلما تفعل المتزوجات :- أليس لك
زوج ؟ .

قالت : بلى .

فقالت عائشة : ولم لا يدلُّ وضعك على ذلك ؟ .

فأجابت : أدار زوجي ظهره للعالم وتركتنا ليسكن البراري ، فروت عائشة
ذلك للنبي (ص) وكان الوقت ضحى ، فاغتاض الرسول (ص) وخرج صوب
المسجد في وضع لفت أنظار الجميع إذ كان بين الجاري والماشي ، وطرف
عباءته يشير خلفه التراب ، ليدخل إلى المسجد ويأمر بجمع الناس ، ثم يقف
غاضباً على الدرجة الأولى من منبره ، ويقول : « الزواج سُتِّي فمن رغب عن
سُتِّي فليس مني » . قال الله تعالى في محكم كتابه العزيز : ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ
زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ ﴾ (١) ، وقال أيضاً : ﴿ يَا بَنِي
آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ
الْمُسْرِفِينَ ﴾ (٢) .

وقال أيضاً جلت أسماؤه : ﴿ وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ
نَصِيْبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ .. ﴾ (٣) .

ومثل هذه الحكاية جرت مع أمير المؤمنين علي (ع) حينما دخل
المسجد ، ليرى مجموعة من الرجال يتعبدون في المسجد ، فسأل عنهم ، فقيل
له : إنهم رجال الحق ، وإنهم لا يغادرون المسجد ليل نهار ، فإذا أصابوا طعاماً
أكلوه ، وإن لم يصيبوا شيئاً صبروا قانعين ، فرفع حينئذ أمير المؤمنين (ع) سوطه
على رؤوسهم بعد أن وصفهم بالكلاب ؛ لأن الكلاب تصبر إذا لم تجد

(١) سورة الأعراف، الآية ٣٢ .

(٢) سورة الأعراف، الآية ٣١ .

(٣) سورة القصص، الآية ٧٧ .

ما تطعمه وأخرجهم من المسجد بعد أن تركوا زوجاتهم وأطفالهم دون طعام ولا شراب .

إن الإسلام لا يريد أن يكون المسلم ذليلاً ، بل يريده عزيزاً من خلال التزامه بالكف على نفسه وعياله بعيداً عن سؤال الناس لما يطعمه .

إن أولئك الأفراد أرادوا قتل الغرائز الجنسية والميول النفسية على طريقتهم الخاصة ، بالرغم من أن الحكيم العزيز دلنا على الطرق التي يكون فيها البشر ملتزماً بالأخلاق الفاضلة بعيداً عن الإفراط والتفريط .

إن النفس تحتاج إلى من يرتبها وينظمها وفق النظام الإسلامي العظيم لتكون فاعلة في سيرها إلى الله العلي القدير حالها حال ذلك الحصان الذي يوضع اللجام في فمه ، فإن رُفِع اللجام عنه انشغل عن السير بالأكل وبذلك سوف يتلقى الضربات من صاحبه الذي يريده أن يسير على الطريق الذي رسمه له .

كنت صغيراً حينما كان في مدينة أصفهان أحد المستجدين في وضع لا يُحسد عليه أبداً ، وكان له حمار عليه خرق بالية وقدرة ، يرافقه طفل ولو رآه شمر بن ذي الجوشن لرقَّ لحاله ناهيك عن كون ذلك السائل أعرج .

اتفق أن يمرض ذلك السائل فذهبوا به إلى المشفى ، حيث كان يردد :
انتوني بجلال الحمار ، انتوني به يرحمكم الله ، فرقوا له لما راوه يحتضر وأحضروا جلال الحمار ، وما إن رآه تحسَّرَ بأه عميقة ومات ، وبعد موته فتح بعضهم جُلَّ حماره ليرى مبلغاً كبيراً من النقود كان قد أخفاها في الجُلَّ !! .

فإذا أصبح الإنسان يعبد المال أضحي مثل ذلك السائل لا يملأ رغبته غير حفنة من التراب - والعياذ بالله - ويترك كل السبل من أجل إرضاء غريزته التي لم يسيطر عليها ولم يلجمها .

كان عليُّ بن إسماعيل طاهر النسب ، وكان عمه الإمام موسى بن جعفر الكاظم (ع) ، وجده الإمام الصادق (ع) ، وكان أبوه إسماعيل عالماً زاهداً يعتبره الإسماعيلية أحد الأئمة ، وفي زمنه استشهد الإمام جعفر بن محمد الصادق (ع) .

عليّ بن إسماعيل كان عبداً للمال ، وكان المال بالنسبة له كل شيء ، وفي زمنه أراد البرامكة بالإمام الكاظم (ع) سوءاً ، فاستغلوا حبه للمال وأمروه بعد أن قدموا له الأموال أن يشهد زوراً على الإمام الكاظم في مجلس هارون الرشيد ؛ وكان الإمام الكاظم قد نهى عن السفر إلى بغداد فأجابه ؛ بأنه مدين لبعض الأفراد ويروم الحصول على مال من هارون ، فعرض عليه الإمام (ع) ما لا يسد حاجته ، لكنه أبى إلا الذهاب إلى بغداد ليلتقي بهارون ؛ وعندما قال له الإمام (ع) : لا تكن شريكاً في دمي؟! .

فقال : ما الذي تعني في قولك هذا ؟ فكّر الإمام (ع) حديثه لعلمه أن علي بن إسماعيل عبداً ذليلاً أمام الذهب والفضة .

ذهب علي بن إسماعيل إلى بغداد فسعى بالإمام موسى بن جعفر الكاظم (ع) في مجلس هارون ، وقال مخاطباً إياه : لو كنت أنت الخليفة فمن يكون موسى بن جعفر ؟ ولو كان هو الخليفة فمن تكون أنت ؟ لقد جمع موسى بن جعفر الأموال والسلاح وتهيأ لحربك فبادره قبل أن يبادرك!! .

وعند ذاك فتحت أسارير هارون الرشيد ليقدم لصاحبنا جائزة قدرها (٢٠٠) ألف درهم ، وليجد عذراً في قتله للإمام الكاظم - سلام الله عليه - ولكنه لم يسعد بجائزته حيث لقي حتفه قبل استلام جائزته المزعومة تلك .

كان نسب علي بن إسماعيل ، من أرقى الأنساب ، ولكنه انحرف عن الجادة الصواب لكونه كان عبداً لغريزته على العكس من ذلك العالم الذي كانت غريزته عبداً له ؛ إنه المقدس الأردبيلي أحد مراجع المسلمين العظام .

سأل أحدهم هذا العالم الجليل : لو تأتني لك الاختلاء بفتاة جميلة ، فهل تحدّثك نفسك بعمل ما لا يليق بالشرع المقدس ؟ .

فأجاب : سألت البارئ تعالى أن لا يحشرني في وضع هكذا .

لم يقل الأردبيلي : لن أفعل شيئاً ، ولكنه قال : سألت البارئ أن لا يحشرني في وضع مثل هذا! وذلك لأن النفس آتارة بالسوء ، إذا عصفت بها الشهوات تنكّرت للشرائع إلا مارحم ربي ، سألت الله تعالى أن يجعلنا ممن

يستطيعون السيطرة على غرائزهم .

ومن أجل ذلك منع الإسلام منام الأخ والأخت من الأطفال الذين لا تتجاوز أعمارهم عن الثماني في فراش واحد ، ويستحبُّ أن يُحَالَ بينهم شيء حتى ولو كان من قبيل الستارة أو ما شابه ذلك .

وقد نرى البعض ممن يدعون التمدن والحضارة يلوم زوجته على تمسكها بالحجاب ، وينعتها بالرجعية والتخلف ليتمكن بهذه الوسيلة من حرفها عن جادة الصواب .

فعلى وقتنا الحاضر نشاهد الكثير من هذه المسائل ، ولو رجعنا إلى السبب في ذلك ، لرأينا بوضوح عمل النفس الأمارة بالسوء التي تعصف بالمرء إلى حيث التقليد الأعمى والجهل المركب أعادنا الله وإياكم من هوى النفس ورغباتها .

أعزائي القراء الأفاضل : كلُّنا سمع وقرأ عن علي الأصغر ابن الإمام الحسين بن علي - عليهما السلام - وما جرى له في أرض كربلاء ؛ بعد أن طغت غرائز القوم وتفاقت تنكروا بكل القيم الفاضلة والمثل الإسلامية الراقية ، لقد تجردوا عن العواطف الإنسانية ، وأصبحوا حيوانات مفترسة لطغيان غريزة حب السلطة ، وحب الدنيا .

جاء الإمام الحسين (ع) يحمل طفله الرضيع بعد أن اعتَمَّ بعمامة رسول الله (ص) إلى القوم يطلب ماءً له ، ولكن أحد أولئك الذين أرادوا كسب رضا العبيد رماه بسهم في عنقه فسال دمه الطاهر في حضن أبيه ، ومن هو أبوه ؟ إنه ابن بنت رسول الله (ص) ، إنه ابن الزهراء البتول التي قال فيها الرسول (ص) : « من أغضبها أغضبني ، ومن أغضبني فقد أغضب الله » (١) .

(١) بحار الأنوار/ج ٤٣ ، ص ١٩ - الاحتجاج للطبرسي .

الحسد ، الكبر ، الرياء

﴿ ولولا فضلُ اللَّهِ عليكم ورحمتهُ ما زكى منكم من أحدٍ أبداً ، ولكنَّ اللَّهُ يُزكى من يشاء ، واللَّهُ سميعٌ عليمٌ ﴾ (١) .

إن جميع الأنبياء والرسل - سلام الله عليهم - جاءوا من أجل الأخلاق الفاضلة ، ومن أجل خلق مجتمع سليم بعيداً عن الصفات الرذيلة والمتدنية كالحسد والكبر والتظاهر والرياء والعجب وسوء الظن وما شابه ذلك من الصفات المنحطة .

ولا يتأتى لأي فرد أن يدعي أنه لا يمتلك إحدى هذه الصفات الرذيلة ، أو يقول : بأنه تمكن من قلع جذور هذه الصفات من نفسه الأمانة ، لأن قلع جذور هذه الصفات يتطلب جهاداً مريباً ، إضافةً إلى فضل من الله ورحمة .

قد يتصور البعض أنهم لا يوجد في كوامنهم صفة رذيلة ؛ ويمكن أن يتعرفوا ذلك حينما تعصف العواصف ، وحينما تمحصهم البلايا ، لأن أغلب الصفات الرذيلة تشبه في وضعها النار التي تحت الرماد ، وما ينزاح الرماد حتى تُرى النار الحامية ، فعلى سبيل المثال لا يمكن للإنسان أن يقدر وجود أو عدم صفة الحسد فيه إلا إذا محص بالتجربة .

فترى البعض يدعي عدمية الحسد في كوامن نفسه ، ولكنه يتحرق من الغيظ حينما يرى صاحبه قد حصل على جائزة تقديرية له في عمل معين ،

(١) سورة النور، الآية ٢١ .

ويتمنى موت زميله الإداري إذا أصبح مديراً للقسم الذي هو فيه ، بالرغم من أنه كان بالأمس يحبُّ ويودُّه ويرجوه كل الخير ظاهراً .

هذا هو الحسد ؛ إنه تمنِّي زوال نعمة الغير ، أو تمنِّي إصابة الخير الذي أصاب منه أحدهم بحيث يُمنع فرد من خير يستحقه ؛ ولا بأس بإيراد حكاية في هذا المجال ؛ وقبل الشروع في الحكاية نذكر مثلاً ينطبق على حكايتنا بدقة ؛ وهو قول أحدهم : الحمار الأسود يقتل نفسه من أجل إلحاق الضرر بصاحبه والحكاية هي :

ذكر المرحوم المحقق النراقي في معراج السعادة أن شخصاً اشترى غلاماً وذهب به إلى منزله ، وكان الشاري على العكس مما هو معروف وشائع يخذه غلامه بشكل يثير الدهشة والعجب ، فسأله الغلام عن فعله ذلك فقال : كل هذا من أجل أن تقدم لي خدمة واحدة وهي : أن تذبحنى على سطح جاري بعدما تُحكّم شدُّ يدي ورجلي ، وما إن تفعل ذلك حتى تطلق العنان لرجليك بالهرب ! فسأله عن السبب في ذلك ؟ فأجابته : إن الوضع الحسن الذي يتمتع به جاري لا أطيقه وأشعر بأن وضعه المادي أفضل من وضعي ، وأريد أن يؤخذ به إلى السجن ، ليفقد ما يتمتع به من راحة بال وهدوء ؟!

فصعد الرجل وغلامه ليلاً إلى سطح جاره الغافل ، وشدَّ الغلام وثاق مولاه وذبحه بناءً على طلبه ، ونزل دمه من المزراب إلى وسط الشارع فشكَّ أحد المارة بالأمر ، فاستنهض الحراس وشحذ هممهم ليطلعوا إلى سطح الدار ، ويمسكوا بالغلام المسكين .

قصَّ عليهم القصة ، فذهبوا به إلى السجن ومات مولاه دون أن يمس جاره ضرر .

إنه كذاك الحمار الأسود الذي يقتل نفسه من أجل أن يضرَّ بصاحبه .

فالبعض يذهب إلى جهنم الحامية ويضحى جهنمياً من أجل أن يذهب بماء وجه الآخرين ، أو من أجل أن يلحق بهم الضرر .

فالحسد يجرُّ إلى التهمة والغيبة والتهمية وإلى كل شيء يمكن أن يساهم

في أذى الآخرين ، وإسقاطهم من أعين الناس .

فالحسد أساس الكثير من الصفات الرذيلة ، ولو خلا قلب المسلم من الحسد لاستخفت أغلب الصفات المتدنية والمنحطة التي تحطُّ صاحبها في جهنم الحامية .

قال رسول الله (ص) : « ألا ! لا تعادوا نِعَمَ الله .

قيل : يا رسول الله : ومن الذي يُعادي نِعَمَ الله ؟

قال : الذين يحسدون » (١) .

وقال الإمام الصادق (ع) : « الحسد أصله من عمى القلب والجحود لفضل الله تعالى وهما جناحان للكفر ؛ وبالحسد وقع ابن آدم في حسرة الأبد ، وهلك مهلكاً لا ينجو منه أبداً » (٢) .

أما بالنسبة للكبر ، فقد قال فيه الإمام الصادق (ع) : « لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال حبة من خردل من الكبر » (٣) .

فالكبر يعني الركون إلى رؤية النفس فوق الغير ، وبعبارة أوضح : هو عزة وتعظيم يوجب رؤية النفس فوق الغير ، واعتقاد المزية والرجحان عليه ؛ قال رسول الله (ص) : « يحشر المتكبرون يوم القيامة في مثل صور الذرِّ ، تطوِّهم الناس لهوانهم على الله تعالى .. يسقون من طينة الخبال ، وعصارة أهل النار .. » (٤) .

إن إحدى المسائل التي تؤدي بالإنسان إلى التكبر هو الجهل ، والجهل المركب لأن العالم أسمى من أن يتكبر ، وأكبر من أن يخيم عليه ظلام التكبر المقيت لذا نصح الكثير من العلماء والفقهاء بضرورة طلب العلم والحكمة حتى

(١) بحار الأنوار/ج ٧٣ ، ص ٢٤٩ .

(٢) بحار الأنوار/ج ٧٨ ، ص ٢١٧ .

(٣) جامع السعادات/ج ١ ، ص ٣٤٦ .

(٤) كثر العمال/ج ٢ ، ص ١٠٧ .

تعمر القلوب ، وتبتعد عن التكبر والخيلاء وما إلى ذلك من الصفات التي تدخل الإنسان في مداخل يندم عليها كثيراً حين لا ينفع الندم .

قال عيسى بن مريم : « كما أن الزرع ينبت في السهل ، ولا ينبت على الصفاء ، كذلك الحكمة تعمر في قلب المتواضع ولا تعمر في قلب المتكبر ، ألا ترون أنه من يتشمخ برأسه إلى السقف شجّه ، ومن يطأ طيء أظله وركته » (١) .

فالذي يتبختر في مشيته ، ويتكبر على الآخرين بحصوله على شهادة الماجستير ليس عالماً ، ولا فاضلاً ، بل متكبراً وضالاً ، لأن ما عنده من علم لا يعدو أن يكون قطرة ماء في بحر ؛ فالعلم يمنحه الباري تعالى من خلال سعي الإنسان الحثيث للوصول إليه ، وحرِيٌّ بالله تعالى أن يتكبر بعلمه ، ولا يليق لأحد سواه لأن يتكبر - جلّت صفاته - .

قال الإمام الباقر (ع) : « الكبر رداء الله ، والمتكبر ينازع الله رداءه » ، وقال : « العزّ رداء الله والكبر إزاره ، فمن تناول شيئاً منه أكبه الله في جهنم » (٢) .

أما الرياء ، فهو إحدى شعب النفاق ، والمرائي يظهر عكس ما يبطن ، فتراه يظهر الودّ والحبّ للآخرين ويبطن لهم العداوة والبغضاء ، ويسلم عليهم بالرغم من أنه يريد تمزيق أحدهم تمزيقاً .

إنه النفاق بعينه وقد لاحظنا هذه الحالة عند البعض حينما شاهدناه يصلي في المسجد من أجل أن يفهم جاره بأنه إنسان متدينّ وملتزم ، ولو ترك لحاله لما صلى ولا صام أبداً .

هذه الحالة من التظاهر والرياء والنفاق تجرّ الإنسان إلى سوء الظن بالآخرين ، ففي المدرسة يسيء الظن بزملائه الملازمين له ، وفي السوق يظن سوءاً بالتاجر الذي يبيعه بضعة أمتار من القماش ، وسيء الظن كذلك بحكومته

(١) إحياء العلوم / ج ٢ ، ص ٢٩٠ .

(٢) جامع السعادات / ج ١ ، ص ٣٤٨ .

ودولته حينما يقلّ جريان الماء في أنابيب مياه بيته .

وقد يصل سوء الظن به إلى أن يظنُّ سوءاً بزوجته وابنه وابنته على الرغم من أنه ينبغي له من وضع أمورهم على أحسنها .

قال أمير المؤمنين علي (ع) : « سوء الظن يفسد الأمور ، ويبعث على الشرور »^(١) .

أما العجب ، فهو من المهلكات العظيمة ، وأرذل الملكات الذميمة ، وهو استعظام النفس لما يرى فيها من صفة كمال ، سواء كانت له تلك الصفة في الواقع أم لم تكن .

إن المعجبين بأنفسهم ينظرون إلى جميع أعمالهم وأفعالهم وأقوالهم بعين الرضا وبكل جمال وجلال ، بل حتى إنهم يرون نقائصهم بصورة فضائل بارزة ؛ قال الإمام موسى بن جعفر الكاظم (ع) : « العجب درجات منها : أن يزين للعبد سوء عمله فيراه حسناً فيحبه ويحسب أنه يحسن صنعا »^(٢) .

قال أمير المؤمنين علي (ع) : « العجب يفسد العقل »^(٣) .

إن انحطاط الأفراد ورفقهم يرتبط بمكانتهم الروحية ارتباطاً مباشراً ، والردائل الأخلاقية منتشرة في شتى مراحل الحياة بأشكال مختلفة . ينشأ كثير منها من مشاكل الحياة عن ميولنا المخاطئة غير المعتدلة .

فغريزة « حب الذات » على سبيل المثال لو خرجت عن الاعتدال وسلكت جانب الإفراط أصابت بخروجها هذا عن اعتدالها جهاز العقل الإنساني في الصميم ، فمنعته عن إدراك واقعيات الحياة .

وعلى هذا يجب علينا أن نصرف أكثر مساعينا في سبيل تعديل هذه الخصيصة الذاتية ، ولو أهملناها بلا حدٍّ محدود ولا قيد ممدود لعجزنا عن أي

(١) غرر الحكم .

(٢) وسائل الشيعة/ج ١ ، ص ٧٤ .

(٣) وسائل الشيعة/ج ٢ ، ص ٢٢١ .

تقدم في طريق التخلُّق بالأخلاق الحميدة .

ودون تنظيم للنفس الإنسانية لا يمكننا أن نعيش عيشةً راضيةً مرضية .

إن من إحدى الصفات الذميمة التي تجرح عواطف الآخرين بشدة ، وتقطعُ أوصال المحبة والوثام (الجدل واللجاج) ، فاللجوج المجادل إن لم يكن يعلم أسباب سلوكه الجدلي ، فليعلم أن الإفراط في حب الذات من العوامل الأساسية لشوء هذه الخصلة المذمومة عنده ، وأنها إنما ترتوي من منبع هذه الغريزة .

إن الشخص اللجوج المجادل من أجل أن يروي عطش غروره يعترض على كل متكلم أو كل من له رأي خاص بموضوع ، واعتراضه ذاك لا يكون للإرشاد أو رفع شبهة ، بل لكي يثبت بهذه الطريقة التافهة فضائله الموهومة ولكي يحطم شخصية المتكلم بانتقاداته غير الصحيحة واتهامه باللغو وسوء الفهم .

وقد يستتر اللجوج في بعض أو أغلب أحيانه بستار من كلمات الاستفهام أو الاستفسار أو الاستعلام أو الاستيضاح .

والجدير بالذكر أن الشخص المهان ستصدر عنه ردود فعل تصل في بعض أحيانها إلى الانتقام .

وهكذا نرى أن تفضي هذه الصفة بين أفراد الأمة الواحدة قد يؤدي بهم إلى فقد وحدتهم في الفكر والسلوك ويجرهم إلى نزاعات ما كان لتكون .

يقول أحد العلماء : العقل مصباح منير يهدي البشر في ظلم الجهل ويرفع عنه أعباء مشاكله ، وها نحن نفخر على سائر المخلوقات بأننا ندرك به مقدمات الأمور وأسبابها ونتائجها .

ولكن الويل لنا لو أردنا أن نكشف عن حقيقة بقوة الجدل ، فإن المناقشة الجدلية لا تؤثر شيئاً سوى اضطراب الفكر والخيال ، ثم لا أثر لها سوى أن تبدي جهل الطرفين وخطأهم في البحث العلمي لا غير ، وأنها لا تستطيع أن تغير فكر الآخرين وتجعلهم تبعاً لأفكارنا .

قال رسول الله (ص) : « من المروءة أن ينصت الأخ لأخيه إذا حدثه »^(١) .

وقال الإمام الهمام جعفر بن محمد الصادق (ع) : « لا يستكمل عبد حقيقة الإيمان حتى يدع المرء ، وإن كان حقاً »^(٢) .

اللهم إنا نسألك وندعوك باسمك العظيم الأعظم الأَعْزَّ الأَجَلُّ الأَكْرَم بحق فاطمة يا الله يا الله يا رحمن يا رحيم يا مقلب القلوب أن تثبت قلوبنا على دينك بحق محمد وآله الطاهرين .

(١) نهج البلاغة/ص ٦٣٣ .

(٢) سفينة البحار/ج ٢ ، ص ٥٢٢ .

العدو الظاهري « الشيطان »

تحدثنا في ما سبق عن سير الإنسان في هذا العالم ، وتطرقنا إلى موضوع العدو الباطني والعدو الظاهري الذي تكمن الأخطار في كل واحد منهما ، وإذا لم يلتفت الإنسان إلى وضعه مع هذين العدوين انجرف صوب الضلالة .

إن الأجزاء السابقة تشهد على تعرضنا للعدو الباطني ، أما الأوراق القادمة فستعرض فيها للعدو الظاهري المتمثل بالشيطان الرجيم الذي أخرج آدم وحواء من الجنة ، إنه عدو الإنسان المبين ؛ قال تعالى في محكم كتابه العزيز : ﴿ إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴾ (١) .

وقال أيضاً : ﴿ يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْآتِهِمَا إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مَن حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ ﴾ (٢) .

قال رسول الله (ص) : « بينما موسى بن عمران (ع) جالس إذ أقبل إبليس . . قال له موسى (ع) : فأخبرني بالذنب الذي إذا أذنبه ابن آدم استحوذت عليه ؟ فقال : إذا أعجبت نفسه ، واستكثر عمله ، وصغر في عينه ذنبه . . » (٣) .

(١) سورة يوسف، الآية ٥ .

(٢) سورة الأعراف، الآية ٢٧ .

(٣) مستدرك سفينة البحار/ ج ١ ، ص ١٦ - تفسير نور الثقلين/ ج ٥ ، ص ٢٦٧ .

لقد أقسم الشيطان بعزة الله ليغوين خلق الله من البشر أجمعين ، بعد أن استثنى من ذلك عباد الله المخلصين ، فالذين يعبدون الله حتى عبادته يلتزم الباري تعالى بعناية منه خاصة ، ورحمة أبدية فلا يستطيع الشيطان الوصول إليهم بشراكه ووسائله المختلفة التي ينحني أمامها الإنسان غير المخلص : والاستثناء هنا منقطع ، وليس متصلاً أي لا يشمل المخلصين بشكل قطعي ، بل لا يتأتى له أن يصل إليهم بسبب ذلك الإخلاص الذي فيهم ، والذي هو صنعة أيديهم .

لقد كرّر القرآن الكريم مسألة « العدو » بالنسبة للشيطان الرجيم في آيات مختلفة ليبيّن الإنسان إلى هذه المسألة المهمة والخطيرة ؛ ونستفيد من الآيات الشريفة التي تعرض لهذا العدو اللثيم . إن للشيطان طرقاً خاصة ووسائل مختلفة من أجل حرف البشر عن الهدف السامي الذي خلقهم الله من أجله وهو : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ (١) .

إن طرق ووسائل الشيطان الرجيم مختلفة من فرد لآخر ، تتناسب مع وضع الفرد الذي يريد الشيطان اغواؤه ، فالبعض يأتيه عن طريق المال وآخر عن طريق النساء وثالث عن طريق الغيبة والنميمة .

فمن كان حاله لا يسمح له أن ينحرف عن طريق الأموال جاءه الشيطان عن طريق العجب - على سبيل المثال - ومن لا يمكن إغواؤه وحرفه عن الجادة السليمة بالعجب جاءه الشيطان بوسيلة أخرى كأن تكون الغيبة أو الحرص أو الجبن .

لا ينبغي لنا أن نغفل عن تلبس الشيطان اللعين ، فهو في كل حالة يلبس شيئاً ، وأن ما يلبسه يأخذ بلب الإنسان وما لبسه الملون والمزخرف إلا دليلاً على وجوهه المختلفة ، فهو يتلون كتلون الحرباء ليهرضاعاف النفوس بتلك الألوان البراقة التي لا يراها المخلص إلا ظلاماً وكندراً ومرارة .

جاء عن الإمام الصادق جعفر بن محمد (ع) أنه قال : قال إبليس :

(١) سورة الفاريات، الآية ٥٦ .

خمسة ليس لي فيهم حيلة وسائر الناس في قبضتي ؛ من اعتصم بالله عن نية صادقة واتكل عليه في جميع أموره ، ومن كثر تسيحه في ليله ونهاره ، ومن رضي لأخيه المؤمن ما يرضاه لنفسه ، ومن لم يجزع على المصيبة حتى تصيبه ، ومن رضي بما قسم الله له ولم يهتم لوزنه ^(١) .

فالمعتصم بالله عن نية صادقة لا يتمكن الشيطان منه ، ولا حيلة له عليه على الرغم فإن زنته حيلة ، ووعوده حيلة ، ووساوسه حيلة ، وأنه ينفذ في الصدور خفياً فلا يسمع له ديب ، حتى إن النملة السوداء على الصخرة الصماء في الليلة الظلماء أكثر منه ديباً ، وأسمع للإنسان من ديبه الخفي الذي يوغر الصدور بالعداوة والبغضاء والشحناء ، هذا بالإضافة إلى نفثة في الأذان يناجي بذلك ضعاف النفوس من الذين لم يتمكنوا من نفوسهم الأمانة بالسوء ؛ فإذا أحاطت هواجسه بقلب العبد ، وتعاضدت أهواؤه ، حال بينه وبين الطاعة والزلفى .

لقد نصب إبليس كل ما لديه من حبائل في دار الغرور قصداً منه إلى إغواء عدوه الأول الإنسان الذي كان سبباً في طرده من السموات العلى ، وإن تلك الحبائل أخفاها بشكل مريب كي يزين لهذا الإنسان حب الدينار والدرهم ، وحب النساء ليمسي كافراً ضالاً حينها يهديه إلى عذاب السعير .

فالمتولي للشيطان ملاق حتفه في جهنم ، والمتولي له هو ذلك الذي اتبع خطواته بالمعاصي والآثام ؛ وخطوات الشيطان تكون تزيئاً لطرق الباطل بزينة الحق ، فيسمي ما ليس من الدين باسم الدين فيأخذها الإنسان من غير علم .

إن علة سلطان الشيطان على الإنسان هي ما ذكرها الباري - جلّت أسماؤه - في الآية المباركة التي تقول : ﴿ وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا لَنَعْلَمَ مَنْ يَوْمَئِذٍ بِالْآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ ﴾ ^(٢) .

فالمؤمن بالآخرة ، ملتزم أوامر الله ونواهيه ، ولا يمكن أن يحيد عنها

(١) بحار الأنوار/ج ٦٧٩ ، ص ٣٧٨ .

(٢) سورة سبأ، الآية ٢١ .

أبداً ، والملتزم أوامر الله لا يسمح لإبليس وقبيله من النفوذ في قلبه ، لأنه لا يوجد مكان فيه إلا لخالفه وبارئه - تعالى اسمه - ولكن عندما يخلو هذا القلب من الإيمان به - تعالى - يجد الشيطان له طريقاً إليه ليعمل فيه مكائده ، ويسني طرقه فيحل دين العبد عقدة عقدة ، فيسيء الإيمان من القلب ليشغفه بمحبة الحرام والشهوات .

قال رسول الله (ص): « إن لإبليس كحلاً ، ولعوقاً ، وسعوطاً ؛ فكحله النعاس ، ولعوقه الكذب ، وسعوطه الكبر »^(١) .

إن سلطان الشيطان يأتي من نسيان العبد لذكر الله تعالى : ﴿ ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطاناً فهو له قرين ﴾^(٢) .

فالغرد الذي غفل عن ذكر الله تعالى يسهل إغواؤه من قبل الشيطان الذي ستكون أحياناً وأصحاباً له إلى أن يدخلوه مدخله في جهنم وبئس المصير .

ولا يخفى عليك عزيزي القاريء الكريم أن للشيطان أربعة طرق ذكرها القرآن المجيد : ﴿ قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ * ثُمَّ لَأَنْتَهُنَّ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ ، وَمِنْ خَلْفِهِمْ ، وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ ، وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ ، وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ ﴾^(٣) .

لقد نسب الشيطان الرجيم في هذه الآية المباركة الإكراه والجبر لله تعالى - والعياذ بالله - حاله في ذلك حال الأشعرية والجبرية ، ثم قال لأقعدن لبني آدم وآتيتهم من جهاتهم الأربع فأضلنهم عن سلوك طريقك القويم وصراطك المستقيم الذي هو طريق الحق الذي بيته أنت لهم .

والجهات الأربع التي ذكرها هي ﴿ من بين أيديهم ﴾ ، ﴿ ومن خلفهم ﴾ ، ﴿ وعن أيمنهم ﴾ ، ﴿ وعن شمائلهم ﴾ .

ولم يقل من فوقهم لنزول الرحمة من السماء ، ولا من تحتهم لإيحاش الإتيان منه .

(١) بحار الأنوار/ج ٧٦ ، ص ١٨٠ .

(٢) سورة الزخرف ، الآية ٣٦ .

(٣) سورة الأعراف ، الآية ١٦ و ١٧ .

فالإتيان من بين الأيدي يعني به من قبل الآخرة ، أي يشككهم في مسألة المعاد ، ومن خلفهم يقصد به من جهة الدنيا ، حيث يتأتى له أن يزئنها لهم على هواه بأشكال متعددة ، والأخران من جهة حسناتهم وسيئاتهم ، ومجيء من في الأولين لتوجهه منها إليهم ، وعن في الآخرين لانحراف الآتي منها إليهم .

قال الإمام علي (ع) : « من شغل نفسه بغير نفسه تحير في الظلمات ، وارتبك في الهلكات ، ومدت به شياطينه في طغيانه ، وزينت له سيء أعماله »^(١) .

إن الشياطين لا تنزل إلا على من اتخذ إلهه هواه ، إنها تنزل على كل آفاك أنيم ، كل من أعجب بنفسه وتكبر ونسي ذكر الله ، حينها تتاح الفرصة لها لتمحق إحسان المحسنين بالإضافة إلى مجالسة أهل الهوى ، واستكثار الأعمال ، واستصغار الذنوب والمعاصي .

إن لإبليس وسائل متعددة ومختلفة ، وقد دلنا الرسول الأكرم (ص) وأهل بيته الطاهرون (ع) على شركه ، وحذرونا منها لكي لا نقع فيها فنكون طعمة لجهنم التي سجرها الجبار المتكبر .

قال الإمام الصادق (ع) : « من لم يبال ما قال وما قيل فيه فهو شرك شيطان ، ومن اغتاب أخاه المؤمن من غير ترة بينهما فهو شرك شيطان ، ومن شغف بمحبة الحرام وشهوة الزنا فهو شرك شيطان »^(٢) .

إن المذاهب المنحرفة التي نراها ونسمع بها كل يوم هي إحدى طرق الشيطان ووسيلة من وسائله لإبعاد بني البشر عن الطريق المستقيم ، فمذهب ماركس وفرويد ودوركيم ومن لفت لفتهم لا يمكن اعتبارهم إلا وسائل يستخدمها الشيطان لجر عباد الله إلى ما لا تحمد عقباه ، وقد بينت الكثير من الآيات الشريفة هذا المعنى ، فالاستفزاز الشيطاني بالصوت والجلب بالخييل والرجل ، والمشاركة في الأموال والأولاد يمكن أن تكون باستخدام الشيطان لهذه المذاهب

(١) نهج البلاغة/الخطبة ١٥٧ .

(٢) بحار الأنوار/ج ٧٣ ، ص ٣٥٦ .

واستغلالها ، ليقع البشر في هذه الفخاخ المقيتة .

فمذهب فرويد على سبيل المثال شيخ النظرية القائلة : « إن جميع الغرائز الإنسانية تسقي من منبع الغريزة الجنسية ، وما من عمل إلا وللغريزة الجنسية دخل فيه » ، حتى مسألة رضاع الطفل من ثدي أمه .

إن الكلمات التي يطلقها هكذا أفراد لها تأثير سلبي في الفكر الإنساني بشكل أو بآخر ، فالكلمة تعني « الجرح » في اللغة ، وما تفعله السكين في البدن تفعله الكلمة في الدماغ ، لهذا قالوا : إن الكلمة تعمل جرحاً يندمل والكلمات تعمل جروحاً لا تندمل إلى يوم القيامة .

وعليه ينبغي لنا أن نلتزم جانب الكلمات الإلهية حتى لا نمكن الشيطان وخيله ورجله أن يستحوذوا علينا .

فالكلمات التي جاءت بها المذاهب الأرضية جنود لإبليس مثلها كمثل السهام السامة التي تصيب الإنسان فتحيله إلى ميتة أو ما أشبه ذلك .

عزيزي القارئ : يتمكن الإنسان من طرد الشيطان من حياته إلى غير رجعة هذا إذا التزم ما جاء في كتاب الله وسنة أوليائه - سلام الله عليهم أجمعين - .

قال رسول الله (ص) لأصحابه : « ألا أخبركم بشيء إن فعلتموه تباعد الشيطان عنكم كما تباعد المشرق من المغرب ؟ قالوا : بلى .

قال : الصوم يسود وجهه ، والصدقة تكسر ظهره ، والحب في الله والموازرة على العمل الصالح يقطع دابره ، والاستغفار يقطع وتينه . . . »^(١) .

وعليه تكون الصدقة ، والكلمة الطيبة والإحسان إلى الآخرين وما إلى ذلك من الأعمال التي تقرب الإنسان من العلي القدير ، تقصم ظهر الشياطين الصغيرة والكبيرة وتقطع دابرها وتسود وجهها بذلك يتأتى للبشر أن يسلموا من خطر هذا اللثيم .

(١) بحار الأنوار/ج ٦٩ ، ص ٣٨٠ .

لقد أتحدثنا الروايات المتواترة عن أهل بيت النبوة والرسالة - سلام الله عليهم - بنصائح للشيطان ، هذه النصائح ذكرها إبليس لبعض أنبياء الله - عليهم السلام - بعدما يش منهم ولا بأس بذكر بعض منها في هذه المقالة ؛ قال صادق أهل البيت (ع) :

« لما هبط نوح (ع) من السفينة أتاه إبليس ، فقال له : ما في الأرض رجل أعظم منةً عليّ منك ، دعوت الله على هؤلاء الفساق فأرحمني منهم ، ألا أعلمك خصلتين : إياك والحسد فهو الذي عمل بي ما عمل ، وإياك والحرص ، فهو الذي عمل بآدم ما عمل » (١) .

وقال الإمام الباقر (ع) : « لما دعا نوح (ع) ربه عز وجل على قومه أتاه إبليس فقال : يا نوح .. اذكرني في ثلاثة مواطن فأني أقرب ما أكون إلى العبد إذا كان في أحدها : اذكرني إذا غضبت ، واذكرني إذا حكمت بين اثنين ، واذكرني إذا كنت مع امرأة خالياً ليس معكما أحد » (٢) .

وجاء في وصايا إبليس لموسى (ع) : « إذا هممت بصدقة فامضها فإذا هم العبد بصدقة كنت صاحبه دون أصحابي حتى أحول بينه وبينها » (٣) .

وبناءً على ما ذكرنا يمكن القول بأن الغضب والحسد والحرص والصدء عن الصدقة وما إليها من الصفات الرذيلة هي وسائل الشيطان وشراكه التي يمكن من خلالها أن يقود البشر إلى الدرجات السفلى من جهنم الحامية .

جاء عن الإمام الصادق جعفر بن محمد (ع) : « إن الشيطان يدبر الإنسان في كل شيء فإذا أعياه جثم له عند المال فأخذ بقربته ، وإن إبليس يقول لجنوده : ألقوا بينهم الحسد والبغي فإنهما يعدلان عند الله الشرك » (٤) .

فانظر أيها القارئ الكريم ؛ فما ذلك القرآن عليه من صفات فاضلة ،

(١) الخصال/ص ٥١ .

(٢) بحار الأنوار/ج ٦٣ ، ص ٢٢٢ .

(٣) بحار الأنوار/ج ١٣ ، ص ٣٥٠ .

(٤) بحار الأنوار/ج ٦٣ ، ص ٢٦٠ .

وأخلاق سامية فاتبعها ولا تتوانى عن ذلك أبداً ، وأستضيء بنور هدايته والتزم
ما جاء به الرسول الأكرم (ص) ، وما وصلنا عن الأئمة الأطهار من أهل بيت
النبي (ص) لأنهم يدلون على الحق والهداية ، وما خالف القرآن والرسول
والأئمة من الأقوال والأفعال فانبذه كونه شركاً نصبه الشيطان ليهدي به أولياءه إلى
الخراب المبين .

فضائل الإمام علي (ع)

إن الحديث عن أمير المؤمنين ليس بالحديث الهين ، وإذا أردنا القول ؛ إن الصراط المستقيم أدق من الشعرة وأحد من السيف علينا أن نقول إن نموذج ذلك هو التحدث عن أمير المؤمنين علي (ع) .

لقد كتب الرجال في أمير المؤمنين (ع) كتباً كثيرة ، وقيل فيه شعراً من أفضل الأشعار، فشهد بحقه العدو والصدیق، المسلم وغير المسلم ، فذاك « جورج جرداق » كتب في أمير المؤمنين كتاباً تحت اسم « صوت العدالة الإنسانية » تعرض فيه بدقة ولطافة إلى علم وسيرة الإمام بشكل ظهر فيه الكتاب وكأنه دائرة معارف طيبة الذكر ، ومثل ذلك كتب عباس محمود العقاد في كتابه الموسوم « عبقرية الإمام » وأحمد تيمور في كتابه « علي بن أبي طالب » ، وطه حسين في كتابه « عليّ وبنوه » ، وتوفيق الفكيكي في بحثه الممتع « الراعي والرعية » وما إلى ذلك من كتب خاصة وبحوث ملحقة كلها صدرت عن غير الشيعة .

لقد أدرك الإمام علي (ع) العلم إدراك العالم المجرب فجعله من أوليات رسالته ، وحثّ الأمة على طلبه ، حتى جعله نبراساً لها ، تهتدي وتستضيء بنوره « تعلّموا العلم صغاراً تسودوا كباراً »^(١) .

تحكّم الإمام (ع) في المعرفة فارتاد بها الحياة من أوسع أبوابها ، وأوضح

(١) ألف كلمة للإمام علي (ع) / رقم ١٠٢ .

السبيل السويّ حتى يبيّن للناس جلياً واضحاً ، وسنّ للإنسانية سنناً تحصّنت بالحق والخير .

لقد نهج الإمام (ع) في معرفته سبيلاً خاصاً ، رفع من خلاله مستوى العلم والعلماء لأنه يعلم جيداً أن الإنسانية تنبعث بهما ، وبهما تسمو إلى استخدام الحياة على أفضل وجه .

وبهذا قد ذهب بالعلم مذهباً رفيعاً سامياً جعله ديناً يُدان به ومبدأً تؤخذ الرحمة من معالمه .

لقد كانت نظرة الإمام (ع) إلى الحق نظرة عرفانية إنسانية تسمو بالإنسان إلى حيث السعادة وتجعله يشعر بالاستثناس لأن الحق أحق أن يتبع ، وأن في الحق تنظيم المجتمعات ، وأنه تركز إليه النفوس الباحثة عنه .

فبالحق ينسجم الحكم والشعب في وحدة المصلحة وبسيادة الأمة ؛ وبالحق يعرف الإنسان إنسانيته ، وبالحق تنبسط العدالة الاجتماعية من المجتمع وإليه .

عدّد أمير المؤمنين (ع) سلوك المؤمن في الحكم والسياسة تحديداً دقيقاً ، حيث لا يرى داعياً للمداهنة ، وللمناورات السياسية التي تعتمد على الإقناع بالمرأوفة والكذب ، وكان مؤمناً بأن الغاية لا تبرر الوسيلة .

قد يتبادر إلى بعض الناس أن المسلم مجرد آلة يقوم بما فرضه الشرع الإسلامي بدون نظر أو تفكير ، ولكن الإمام علياً (ع) أوضح لنا سبيل المسلم المؤمن إيضاحاً جلياً .

نقل صاحب المناقب عن الزمخشري في المستقصى وعن شريح القاضي : أن أمير المؤمنين (ع) رأى شاباً يبكي فسأله عن السبب في ذلك ؟ .

فقال : سافر أبي مع هؤلاء ، ولم يرجع حين رجعوا ، وكان ذا مال عظيم فرفعتهم إلى شريح فحكّم عليّ ! فتمثل الإمام (ع) بهذا البيت :

أوردها سعد وسعد مشتمل يا سعد ما تُروى على هذا الإبل

ثم قال : إن أهون السقا التشريع .

فاستقصى الإمام الحقيقة وخالف شريحاً في حكمه لأنه طلب البينة ولا يمكن إثباتها من فتى لم يدرك وجهته ، والحال على القاضي بأسلوبه الخاص أن يلتمس البينة ، ويستقصى في الحقيقة ثم يجمع الأدلة للإدانة ، وقد التمس الإمام في هذه الحالة طريقة مثلى .

دعا أحدهم وسأله عن كل ما يتعلق بسفرهم ، وما شأن القتل معهم ، ثم كبر ، وكبر من كان معه ، وكان ذلك على مسمع من المتهمين الباقين دون أن يحضروا حديث صاحبهم فظنوا به أنه أقر بجريمتهم .

ثم أمر الإمام (ع) به إلى السجن ، واستدعى آخراً منهم ، وعند دخوله فاجأه قائلاً : « زعمتم أنني لا أعلم ما صنعتم ؟ » .

فأقر هذا ، ثم دعا الجميع فأقرُّوا وألزمهم الإمام بالمال والدم .

ومما يروى أن الإمام علياً (ع) كان أول من فصل بين الشهود في الإسلام ، وأول من سجّل محضراً وثبت شهادةً بالتسجيل .

ومن طريف حكمه وحكمته القضائية ما رواه الصدوق بإسناده عن سعيد ابن طريف عن الأصمغ قال :

أتى رجل إلى أمير المؤمنين فقال : إني زيت فطهرني .

فأقبل عليّ (ع) على القوم ، فقال : « أيعجز أحدكم إذا قارف هذه السيئة أن يستر على نفسه كما ستر الله ؟ » .

فقال الرجل : يا أمير المؤمنين إني زيت فطهرني .

فقال الإمام (ع) : « وما دعاك إلى ما قلت ؟ » .

قال : طلب الطهارة .

قال (ع) : « وأي طهارة أفضل من التوبة ؟ » .

واحتج عليه الأشعث بتعطيل حد فأجابه الإمام (ع) :

« إذا قامت البيعة ، فليس للإمام أن يعفو ، وإذا أقر المرء على نفسه فذلك للإمام إن شاء عفا ، وإن شاء قطع » أي حد .

كان الإمام في موضوعه هذا بعيد القصد ، حسن التناول ، لم يسأله لماذا زنى ، لأنه يدرك حقيقة الإنسان إذا اشتدت به الحاجة ، وألّمت به الزروة وواكبته الأحوال ؛ بالإضافة إلى أن الإمام (ع) لم يقرّع الرجل أو يتندّد به في مجتمعه وبين قومه حيث رآه بإقراره وتوبته لا ينبغي أن يهان .

لقد أورد الثقات من المؤرخين ما كان عمر بن الخطاب يردده في علي (أقضاننا علي) الصواعق المحرقة لابن حجر الشافعي/ص ٧٨ ، الرياض النضرة/ج ٢ ، ص ١٩٨ .

(لا بقيت لمعضلة ليس لها أبو الحسن) الاستيعاب لابن عبد البر، الآية ج ٢ ، ص ٤٨٤ ، ذخائر العقبى للطبري الشافعي/ص ٨٢ .

وجاء في الاستيعاب بسنده عن عائشة أنها قالت في علي (ع) : (أما إنه أعلم الناس في السنة) .

ولما سأل عطاء عائشة عن علي (ع) قالت : (ذلك خير البشر لا يشك فيه إلا كافر) ؛ كما جاء في كفاية الطالب للكنجي الشافعي/ص ١١٩ ، وفي ينابيع المودة للقندوزي الحنفي/ص ٢٤٦ .

ولما قال محض بن أبي محض لمعاوية : جئتك من أعيان الناس .

قال له : (ويحك كيف يكون أعيان الناس ، فوالله ما سنّ الفصاحة لقريش غيره) سيرة أمير المؤمنين للأمين/ص ٥٦ .

ولما سمع معاوية بقتل علي بن أبي طالب قال : (ذهب الفقه والعلم) .

ولما سئل حير الأمة عبد الله بن العباس - وهو من أكبر المصادر والمراجع الإسلامية - عن مقدار علمه من علم ابن عمه علي ، أجاب : (كنسبة قطرة من المطر إلى البحر المحيط) .

وأما شهادة الرسول الذي واكب الإمام وربّاه وأنشأه ، فهي أفضل الشهادات .

فقد جاء عن الكنجي الشافعي في الكفاية/ص ٩٨ ، وعن ابن حجر في الصواعق المحرقة/ص ٧٣ ؛ وعن الخوارزمي الحنفي في المناقب/ف ٧ ، ط ٢ ، ص ٤٠ ؛ وعن الخطيب البغدادي في أماكن متعددة ، وعن مصادر أخرى كثيرة قال الرسول (ص) : (أنا مدينة العلم وعليّ بابها) .

وجاء عن الشيخ سليمان القندوزي الحنفي في ينابيع المودة/ص ٢٥٤ :
(عليّ باب علمي ، ومبين لأمتي ما أرسلت به من بعدي) .

وقد نصّ القرآن المجيد : ﴿ وَأَتُوا الْبَيْتَ مِنْ أَبْوَابِهَا ﴾^(١) ، وعليّ باب علم الرسول ، ومن الرسول انطلق الإسلام ، وهذا دليل قاطع ونص واضح على أن المفسر الأفضل بل الأوحّد لما جاء عن الرسول (ص) هو عليّ بن أبي طالب (ع) : ﴿ وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴾^(٢) .

وقد ورد في ينابيع المودة/ص ٥٣ ، نقلاً عن مودة القربى للهمداني الشافعي ، وفي الكوكب الدرّي/ص ١٣٣ ، كما جاء عن عمر بن الخطاب وولده عبد الله في حديث طويل عن الرسول (ص) في مرض وفاته ، وفي آخره : (واني أوصيت علياً ، وهو أفضل من أتركه بعدي) .

وليس الفضل الذي أولاه به الرسول (ص) هو قربي أو نسباً لأن ذلك مما يخالف الإسلام بل للعلم والعقيدة والجهاد التي كان يحملها أمير المؤمنين (ع) .

وجاء في المناقب للخوارزمي الحنفي في الفصل الرابع عشر بسند متصل . قال رسول الله (ص) : « عليّ مني وأنا منه ولا يقضي إلا أنا أو عليّ » .

وسمع عليّ بن أبي طالب (ع) ينادي بسيفه : (من يشتري مني سيفي هذا ، فلو كان عندي ثمن إزار ما بعته) .

(١) سورة البقرة، الآية ١٨٩ .

(٢) سورة النجم، الأيتان ٣ و ٤ .

وكان يعمل طول الليل ليسقي بستان يهودي في أجرة قدرها ثلاثة دراهم
ليشتري بها ثوباً يستر جسمه .

فلم يضع طول حياته لبنه على لبنه ، ولم يملك إلا ما يسد رمقه ، ويستر
جسمه ، ولم يدخر من يوم لآخر .

فهل لأمة فيها هذا الإنسان تدرس مبادئه وآراءه ثم ترتضي لخلفاء وأمرء
بني العباس وبني أمية أو لأي ملك أو سلطان استغلاله واستعباده واستيظانه ؟ .

وهل يقتع المؤمنون المخلصون بغير الإمام أميراً عليهم وهو القائل في
كتاب له إلى عثمان بن حنيف :

(لو شئت لاهتديت الطريق إلى مصفى هذا العسل ، ولباب هذا القمع ،
ونسائج هذا القز ، ولكن هيهات أن يغلبني هواي ، أو يقودني جشعي إلى نحير
الأطعمة ، ولعل في الحجاز ، أو في اليمامة من لا طمع له بالقرص ولا عهد له
بالشيع ، أو أبيت مبطاناً وحولي بطون غرثي ، وأكباد حرثي ، أو أكون كما قال
القائل :

وحسبك داء أن تبيت بيطنة وحولك أكباد تحن إلى القد
أأقنع من نفسي بأن يقال أمير المؤمنين ولا أشاركهم في مكاره
الدهر^(١) .

إنه لا يريد أن يشاركهم مباحج الدهر بل مكارهه ، ويريد من أولي الأمر أن
يقتدوا به ؛ إنه لحمل ثقيل لا يتحملة سواك وسوى الصفوة من أتباعك .

« توكلت على الحي الذي لا يموت ، وتحصنت بذئ العزة والجبروت ،
واستعنت بذئ الكبرياء والملكوت ؛ مولاي استسلمت إليك فلا تسلمني ،
وتوكلت عليك فلا تخذلني ، ولجأت إلى ظلك الظليل فلا تطرحني ؛ أنت
المطلب وإليك المهرب ، تعلم ما أخفي وما أعلن فأمسك عني اللهم أيدي
الظالمين من الجن والإنس أجمعين واشفني وعافني يا أرحم الراحمين » .

(١) نهج البلاغة/صبيحي الصالح ، ص ٤١٦ .

بقية الله (عج)

لقد بحث الكثير من العلماء والأدباء في مسألة بقية الله الإمام الثاني عشر المهدي المنتظر - عجل الله فرجه الشريف - .

إن الأسئلة التي تتبادر إلى أذهان العامة بصدده هي :

كيف كان الإمام في بطن أمه ، ولم يفهم القوم بأنها حامل به ؟

وكيف صار إماماً وليس له من العمر غير خمس أو ست سنوات ؟

وكيف يمكن أن يعيش إنسان ألف عام أو أكثر ؟ أين هو مكان الإمام

المهدي (عج) ؟ .

إن الإشكالات التي يمكن أن يطرحها البعض على هذه المسائل تكتسب شبهتها من منبع واحد ، وهذا المنبع اشتباه بحد ذاته ؛ لأن المساواة بين الوضع الطبيعي والخارق للعادة اشتباه كبير .

فعندما يقول الإنسان : إن البشر لا يعمرّون في العادة أكثر من مائة عام كيف يتأتى لأحدهم أن يحيا ألفاً ؟ .

وكيف يمكن له أن يسيطر على كل أمور الدنيا ، مع أنه لا يمتلك من الجيوش والعساكر وما إلى ذلك من الأسلحة الفتاكة والطائرات المروحية والنفائث ، وأن من يقوم معه في بداية أمره ٣١٣ إنساناً .

ونقول هنا : إن قضية الإمام المهدي (عج) هي قضية غير طبيعية من أولها

إلى آخرها ، ولا يمكن أن نعتها بأنها طبيعية ، بل إنها خرق للعادة .

إن قضية المهدي (عج) لا يمكن أن نسوي بينها وبين المسائل الطبيعية بل يمكن أن نشبهها ببعض المسائل الخارقة للعادة التي أخبرنا بها القرآن الكريم من مثل حمل مريم وهي بنت . وعندما تتأثر نفسياً بأتيها الخطاب بالإشارة إليه : ﴿ فَأشارت إليه ، قائلوا كيف نكلّم من كان في المهدي صبيّاً ﴾ قال إني عبدُ اللّهِ ءاتاني الكتاب وجعلني نبياً ﴿ (١) .

هذه الحكاية نقلها لنا القرآن الكريم الذي لا يأتيه الباطل أبداً .

كان اليوم الرابع عشر من شعبان حينما أرادت حكيمة خاتون عمّة الإمام الحسن العسكري وابنة الإمام الجواد في دار الإمام الحسن العسكري ، وكانت حينها صائمة . فأرادت الذهاب إلى منزلها فقال لها الإمام بضرورة بقائها لأمر مهم ! وعندما سألت عن ذلك الأمر المهم أجابها : بأن الله سيمنحه ولداً في تلك الليلة .

فتعجبت عمّة الإمام (ع) وسألت : ممّ ؟ .

فأجابها : من نرجس ، بعد ذلك سكتت حكيمة خاتون ، ووطّنت نفسها للإفطار والبقاء في منزل الإمام ليلاً ، وقرابة أذان الصبح طرق الإمام العسكري الباب عليها ليقول لها : إن وعد الله قريب .

تقول حكيمة خاتون : وما إن أتيت حجرة زوجة الإمام العسكري (ع) حتى قامت زوجته إليّ ؛ وبعد أن أمسكت بها استندت إليّ لتجلس على الأرض ، عندها رأيت الصبي ينزل منها ساجداً وكأنه فلقه من قمر (٢) ، عندها قال الإمام (ع) : ﴿ وتريد أن نمنّ على الذين استضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمةً ونجعلهم الوارثين ﴾ (٣) .

إن قضية المهدي المنتظر لا تقتصر على ما جاء في القرآن الكريم ، بل

(١) سورة مريم ، الأيتان ٢٩ و ٣٠ .

(٢) تاريخ الإمام المهدي ، بحار الأنوار/ج ٥١ ، ٥٢ ، ٥٣ .

(٣) سورة القصص ، الآية ٥ .

تتعدى هذا الحد إلى الكتب السماوية الأخرى ، فقد عرفنا القرآن المجيد بذلك من خلال الآية المباركة : ﴿ ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادي الصالحون ﴾ (١) .

فوراثة الأرض التي عرض لها القرآن الكريم عرض لها الإنجيل والتوراة والزيور ، فهذه الكتب السماوية وتفضل علامات ظهوره وزمان ظهوره وما إلى ذلك من الإشارات التي يمكن أن يفهم منها أن الإمام المهدي (عج) ظاهر في آخر الزمان لا محالة .

بعد التحري والتحقيق تمكنت من العثور على (٦٢٣٠) رواية تهتم بموضوع المهدي (عج) ، وعلى علمي أن الروايات أكثر من هذا العدد بكثير ، لأن هذا العدد هو ما أخرجته أنا لوحدي ، وإنني لا أدعي علماً أو مقاماً عند الله ، فأنا أجد طلاب الحوزة العلمية لا غير .

ومن اهتم بمتابعة هذه الروايات من العلماء تمكن من تجاوز هذا الرقم الذي ذكرت بكثير .

إن أغلب الروايات التي تعرض لقضية الإمام المهدي (عج) مروية عن طريق أهل السنة ، ولذا لا يمكن لأحد من المسلمين إنكار هذه القضية الحياتية التي تتعلق بمصير الأمة الإسلامية والمجتمع الفاضل الذي سيلبي هذه الحقبة من الزمن .

قال رسول الله (ص) : ابشروا بالمهدي رجل من قريش من عترتي يخرج في اختلاف من الناس وزلزال ، فيملأ الأرض قسطاً وعدلاً كما ملئت ظلماً وجوراً» (٢) .

وقال (ص) : « سيكون بعدي خلفاء ، وبعد الخلفاء أمراء ، ومن بعد الأمراء ملوك ، ومن بعد الملوك جبابرة ، ثم يخرج رجل من أهل بيتي يملأ الأرض عدلاً كما ملئت جوراً . . . » (٣) .

(١) سورة الأنبياء، الآية ١٠٥ .

(٢) كنز العمال/خ/٣٨٦٥٤ .

(٣) كنز العمال/خ/٣٨٦٦٧ .

وقال أيضاً (ص) : « . . . والذي بعثني بالحق بشيراً ونذيراً ، وأن الثابتين على القول به في زمان غيبته لأعزُّ من الكبريت الأحمر » (١) .

إن طول عمر الإمام المهدي (عج) ، أمر اقتضاه الباري - تعالت أسماؤه - فهو الخالق المصور ، وهو الذي يتمكن لوحده من مد الأعمار أو تقصيرها ، ولا يمكن لأحد أن يعترض على ذلك .

وقد تستوجب حكمته أن يقصر في عمر فلان ، أو يطيل في عمر آخر من مثله من البشر .

ومن أجل تقريب هذه القضية إلى أذهاننا عرض القرآن الكريم عدة روايات وحكايات تدلُّ على قدرة الباري تعالى في إطالة عمر الإنسان فينقل لنا مثلاً عن أنبياء الله عزير وعزيز ، وهما من أنبياء بني إسرائيل ؛ وهذا ما تفره أيضاً الروايات المتواترة والأخبار عن هذين النبيين (ع) .

ظاهر الأمر أن هذين النبيين كانا توأمين ، عُمر أحدهما مئة عام وعُمر الآخر مئتي عام .

فكيف يمكن لشخصين جاءا إلى الدنيا في يوم واحد ، وذهبا منها في يوم واحد ، ولكن أحدهما عاش مائة عام والآخر مائتي عام ؟ .

إن هذه الحكاية لها جذور قرآنية عميقة ؛ يقول القرآن الكريم : ﴿ أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا ﴾ (٢) .

مرَّ رسول الله عزير على نبينا - عليه السلام - راكباً حماره على قرية وهي شيء أبدأ ، فسأل صاحبنا نفسه ؟

﴿ أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ﴾ (٣) كيف يمكن أن يحيي هذه الله بعد ما جرى فيها من الخراب والدمار وموت أهلها ؛ ﴿ فَأَمَّا تِلْكَ الْمَآةُ غَافِلَةٌ عَنْ نَوْمِ بَعْثُ

(١) تفسير نور الثقلين / ج ١ ، ص ٣٩٥ .

(٢) سورة البقرة ، الآية ٢٥٩ .

(٣) سورة البقرة ، الآية ٢٥٩ .

قَالَ : كَمْ لَبِثْتُ ؟ قَالَ : لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ؛ قَالَ : بَلْ لَبِثْتُ مائةَ عامٍ فانظُرْ إلى طعامِكَ وشرابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وانظُرْ إلى جِمارِكَ ولنَجْعَلْكَ عابِةً للنَّاسِ وانظُرْ إلى العِظامِ كَيْفَ نَشَرُهَا ثُمَّ نَكْسُوها لِحْماً ، فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ : أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ على كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ .

إن القرآن الكريم بيّن لنا السير الطبيعي والخارق لِعمر الإنسان ، فلو قلنا على سبيل المثال : إن عمر الإنسان الطبيعي مائة عام يكون عمر الخبز الذي بقي على حاله ولم يتسّنّه في الوضع الطبيعي اثنتي عشرة ساعة ، دون وضعه في تلاجة ، لانعدامها في ذلك الزمان .

إن الخبز ظل على مدى مائة عام ، ولم يتلف على الرغم من أن عمره الطبيعي لا يتعدى اثنتي عشرة ساعة .

فإذا ناسبنا بين عمر الخبز وعمر الإنسان الذي يكون في الوضع الطبيعي مائة عام لأصحى عمر الإنسان يحدد بالملايين إذا أخذنا النسبة إلى الخبز الذي لم يتلف في زمن قدره مائة عام . ﴿ إِنَّ اللَّهَ على كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ .

أما بالنسبة للأفراد الذين لا يتعدى عددهم (٣١٣) وهم أصحابه الذين يأتمرون بأمره ، فلا يمكن احتسابهم أفراداً اعتياديين ، بل هم قادة وأئمة هدى ومراجع عظام يمثل الناس لأوامرهم ونواهيهم .

إن أصحاب الإمام المهدي (عج) هم من المجتهدين الذين يتأتى لهم تسيير الأمور وفق ما جاء في القرآن الكريم والسنة الشريفة ، ولو كانوا غير ذلك لما عقلنا أو صدقنا أن (٣١٣) يمكن أن يكونوا أصحاباً للمهدي (عج) ينصرونه ويوظفون له دولته العظمى التي ستشمل العالم بأكمله .

وهذه المسألة ليست عظيمة على الله ، بل اعتيادية جداً وطبيعية ، والدليل على ذلك أن الباري - تعالت قدرته - منح نبيه سليمان قدرة عظيمة ما بعدها قدرة ، إذ كان يدير الأمور وهو جالس على عرشه ، فالله يهدى يأتيه بأنباء اليمن وهو جالس في فلسطين في ظرف سويعات ، وآصف بن برخيا يطلب منه الإذن

(١) سورة البقرة، الآية ٢٥٩ .

في جلب عرش بلقيس في طرفة عين ﴿ قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ﴾ (١) ؛ وما إلى ذلك من الأمور الخارقة للعادة بإذن الله تعالى ؛ فلا غرابة في الأمر ولا عجباً حين يريد الباري أن يمنَّ على عبده - (٣١٣) رجل مثل آصف بن برخيا ؛ وهذا ما قرأناه في دعاء الندبة المنقول عن السيد طاووس في مصباح الزائر جاء فيه : « خففته بجبرائيل والمسومين من ملائكتك » .

إن هذه المسائل تكون طبيعية إذا أمعن المؤمن النظر في قدرة الله - تعالت أسماؤه وصفاته - ويستسهل الأمر حين يتعمق في آيات القرآن الكريم ليرى عظمة الباري من خلالها ، وما يمكن أن يكون للقائم المهدي (عج) ليس بأكثر مما كان لعباده الصالحين على مرَّ الدهور والأزمان .

قال رسول الله (ص) : « يخرج في آخر أمتي المهدي ، يسقيه الله الغيث ، وتخرج الأرض نباتها ، ويعطي المال صحاحا ، وتكثر المشاة وتعظم الأمة » (٢) .

« اللهم صلِّ على محمد وآل محمد ، وأتم به الحق وأدحض به الباطل وأدل به أولياءك ، واذلل به أعداءك ، وصل اللهم بيننا وبينه صلة تؤدي إلى مرافقة سلفه ، واجعلنا ممن يأخذ بحجزتهم ، ويمكث في ظلهم ، وأعنا على تأدية حقوقه إليه ، والاجتهاد في طاعته ، واجتناب معصيته ، وامن علينا برضاه ، وهب لنا رأفته ورحمته ودعاه ، وصلِّ اللهم على محمد وآله الطاهرين .

(١) سورة النمل، الآية ٤٠ .

(٢) كنز العمال/خ/ ٣٨٧٠٠ .

الفهرس

الجزء الأول

	البحث الأول :
٥	التربية والتعليم
	البحث الثاني :
١٩	الذنب وتهذيب الغرائز
	البحث الثالث :
٣٣	جهاد النفس
	البحث الرابع :
٤٧	الإنسان الملوكوتي
	البحث الخامس :
٥٩	النفس الأمانة
	البحث السادس :
٧٥	الصبر
	البحث السابع :
٨٥	ملكة الصبر
	البحث الثامن :
٩٧	إنعكاس الصبر

	البحث التاسع :
١١١	التوبة (١)
	البحث العاشر :
١٢٣	التوبة (٢)
	البحث الحادي عشر :
١٣٧	التوبة (٣)
	البحث الثاني عشر :
١٤٧	رحابة الصدر (١)
	البحث الثالث عشر :
١٦١	رحابة الصدر (٢)
	البحث الرابع عشر :
١٧١	كفارة الذنب
	البحث الخامس عشر :
١٨١	عبودية الله

الجزء الثاني

١٩٥	مقدمة
١٩٧	السعي والاستقامة
٢٠٨	الإخلاص
٢١٦	صلاة الليل
٢٢٣	الإلتجاء إلى القرآن
٢٣٠	فوائد الدعاء
٢٤١	التوسل بأهل بيت الرسول (ص)
٢٥٠	ذكر الله
٢٦٥	التوكل على الله
٢٥٦	مراحل التوحيد والتوكل

الجزء الثالث

٢٨١	مقدمة
٢٨٣	(١) محبة أهل بيت الرسول (ص)
٢٩٥	(٢) محبة أهل بيت الرسول (ص)
٣٠٣	(٣) محبة أهل بيت محمد (ص)
٣١٤	(٤) محبة أهل البيت (ع)
٣٢٦	سير إلى الله (١)
٣٤٠	سير إلى الله (٢)
٣٤٧	ولادة الرسول الأكرم (ص)
٣٥٧	سير إلى الله (٣)
٣٦٨	سير إلى الله (٤)
٣٧٧	سير إلى الله (٥)
٣٨٢	سير إلى الله (٦)

الجزء الرابع

٣٨٩	المقدمة
٣٩٢	الغفلة
٣٩٩	الوساوس والأوهام
٤٠٩	أيام الله (١)
٤١٧	أيام الله (٢)
٤٢٥	مصائب الزهراء فاطمة (ع)
٤٣٢	النفس الأمارة
٤٣٩	الحسد ، الكبر ، الرياء
٤٤٦	العدو الظاهري
٤٥٤	فضائل الإمام علي (ع)
٤٦٠	بقية الله (عج)